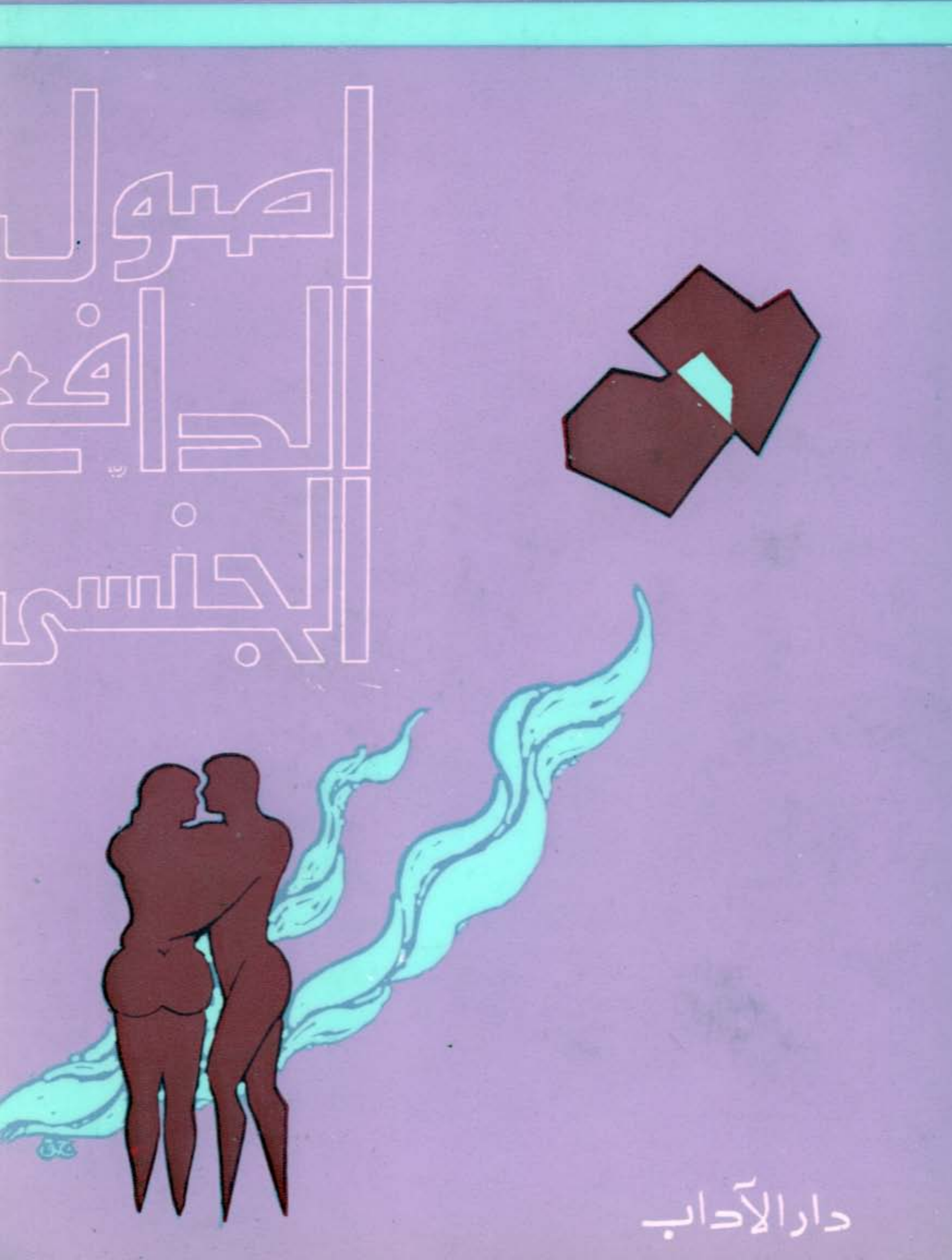
كولن ولسن



أصول الدافع الجنسي



كولن ويلسون

أصول الدافع الجنسي

ترجمة

يوسف شرورو وسمير كتاب

منشورات دار الآداب - بيروت

حقوق الترجمة الى العربية
محفوظة لدار الآداب

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

تعريف لأهداف الكتاب

بقلم المؤلف

كتابي هذا هو بمثابة « التوأم » لمؤلف آخر كنت أعدّه في الوقت نفسه بعنوان « عرض عام لوجودية جديدة[1] » . إنه أضيق مجالاً من توأمه الآخر ، مع أنني أعتبره في الواقع ، جزءاً من البحث العام . إن موضوع الجنس وعلم النفس الوجودي يتطلب مجالاً واسعاً . وإذا كنت أريد أن أعالجه معالجة وافية ، وجب عليّ تمديد الكتاب الأم إلى ألف صفحة. لكنني أخترت المجازفة، وهي استعادة بعض الآراء من كتابي « عرض عام لوجودية جديدة » وترديدها في هذا الكتاب .

ينبغي أن أبدأ ، إذن ، بتحديد عام للأهداف التي أريد شرحها . لقد بدا لي بكل وضوح ، أن كل مؤلفاتي تدور حول نقطة واحدة ، وهي خلق وجودية جديدة .

وقد يخيل للقاريء العادي أن هذا موضوع تكنيكي محدود المدى،فالوجودية قد تكون بالنسبة له فلسفة عصرية مبهمة كوّنها بعض المفكرين الفرنسيين والألمان ، وقد تكون أقل انطباقاً على المجتمع العام من آراء ديوي وبرتراند رسل .

---

1 - نشر هذا الكتاب بالإنكليزية والعربية بعنوان « ما بعد اللامنتمي » . (م.م)

ولكن هذا تعريف مغلوط .

فالوجودية هي « تطرّق » إلى أي نوع من المعرفة ، وبالرغم من أنها نشأت على شكل ثورة في الفلسفة، الا ّأنها امتدت كذلك إلى علم النفس ، وربما يستمر إنتشارها لتشمل كل العلوم . أما هذا الكتاب فيقتصر في الغالب على معالجة تأثير الوجودية على علم النفس وخاصة على نظرية الجنس . وفي فصل من كتاب « عرض عام لوجودية جديدة » بعنوان « ماذا يحدث للعلم الحديث » ، قلت أن العلم الحديث راح يبتعد عن الاسلوب التحليلي المحض الذي امتاز به منذ نيوتن وديكارت . إن العالِم يدرك أنه لا يستطيع أن يجد « الحياة » في أي جسم بواسطة التشريح ، ولذلك فإنه كان ميّالاً إلى أن يقول « في القرن التاسع عشر » :

– في هذه الحالة ، فإن هذه الحياة لا تعنيني كعالِمْ .

فإذا لم يكن باستطاعة عزل « المبدأ الرابط والملزم » وجب تجاهل الأمر إذن . كانت هذه حجة معقولة ، أما الأمر الأسوأ فكان الإتجاه نحو انكار أي ضرورة للمبدأ المذكور . إن فرويد على الأقل لم يشتطّ إلى هذا الحد ، بل إنه أثبت وجود مبدأ رابط وملزم اسمه الليبيدو أو الطاقة الجنسية الغريزية ، إلا ّأنه صبّ كل إهتمامه على تحليل آثاره . وظلت الليبيدو تقبع في الظل . فإذا ما إعترض أحد الناس على أن فرويد يحلل الحياة من خارج الوجود ، ما كان على المدافع عنه إلا ّأن يشير إلى تلك « الفرضية الغامضة » ليدلل على أن فرويد يعترف بالقوى والمحركات الأساسية . إن هذا الكتاب « مُعنى » في الغالب بالثورة ما بعد الفرويدية التي قامت ضد الاتجاه التحليلي المطلق ، وهو كذلك يطرح عدة تساؤلات عما إذا كانت أساليب « جيستالث » في علم النفس ، وأساليب هوسرل في علم الظواهر تنطبق على سيكولوجية الجنس .

وعلى صعيد آخر ، فإن هذا الكتاب هو مواجهة شخصية للجنس . لقد عالجت موضوع الجنس في مناسبات ماضية ثلاث : في روايتي « طقوس في

الظلام » وفي فصل من كتاب « القوة على الحلم »[1] وفي مقال « دراسة في جريمة القتل » الذي قدمت به مؤلفي المسمّى « موسوعة جريمة القتل » « Encyclopaedia of Murder » .

وكتابي هذا محاولة لتوحيد جميع هذه الأفكار وتحديدها ولقد كان من الضروري أن تتكرر في هذا الكتاب بعض الأفكار الواردة في كتبي السابقة ، ولهذا فأنا أتقدم بإعتذاري لكل من يلاحظ هذا التكرار .

كلمة حول : « الوجودية الجديدة »

قد يتساءل البعض : لماذا الوجودية الجديدة ؟ وما هو عيب الوجودية القديمة ؟

الجواب هو أن الوجودية القديمة قد ماتت منذ زمن قريب (وعلى وجه التقريب في عام ١٩٥٠) وينبغي اعتبارها مندثرة مثل رومانسية القرن التاسع عشر ، وسأحاول قبل نهاية هذا الكتاب أن أبيّن لما أعتبر الجنس مدخلاً إلى وجودية جديدة .

ولإنقاذ القارىء من أي التباس قد ينشأ عن اسلوب هذا الكتاب ، أود أن أشير إلى أن هناك طريقتين متبعتين في وضع أي كتاب تحليلي .

الأولى هي أن يُعرّف الكاتب كل مصطلحاته بدقة علمية في الفصل الأول من كتابه ، ثم يتمسك بهذه التعريفات ويتابعها إلى آخر الكتاب .

والثانية هي أن يعتمد الكاتب على فراسة قارئه وإدراكه .

وكل الناشئين في حقل الفلسفة مضطرين إلى الإعتماد والإرتكاز على الطريقة الثانية (لأن الكثير من أعمالهم تعتمد على الفطنة البديهية) وهذا يفسر لماذا يجد القاريء كتابات أفلاطون وهيوم وبيركلي ونيتشه أكثر استساغة وعذوبة من كتابات أرسطوطاليس وكانت وهيجل وهيدجر . فالمجموعة الأولى لا تثقل كتاباتها بتعريفات كثيرة ولهذا فهي أكثر التصاقاً بالقاريء .

إن ارسطوطاليس بلا شك أكثر دقة من أفلاطون ، ولكن من الصعب أن

---

١ - وقد ترجم الى العربية تحت عنوان « المعقول واللامعقول في الادب الحديث » .

نتوقع أن يقرأه الإنسان للمتعة وللعذوبة . وكل كاتب محترف ، أو بالأحرى أي كاتب يُعنى بالإتصال المباشر مع قارئـه ، ميّال بالفعل الى تفضيل اسلوب الإدراك البديهي واجتناب تحميل نصوصه بالتعريفات الكثيرة .

وهذا الكتاب لا يخلو من التعريفات ، ولكن التعريفات أخضعت الى حـد أدنى . ولقد التجأت بشكل واسع إلى استعمال الفواصل المقلوبة « الأقواس » ، للتدليل على الكلمات أو الجمل التي يرد استعمالها بمعنى محدود أو خاص (مثـل « الطبيعة » و « الشذوذ » و « قوة الحياة ») بينما تجنبت التعقيـد والالتفاف حول المعنى .

وقد يكون من المناسب هنا أن أذكر بعض الافتراضات التي يحملها هـذا الكتاب، والإفتراض الأول مرتبط باستعمالي لكلمة « الطبيعة » . فهذا الكتاب يمكن إلى حد ما تلخيصه بأنه « وثيقة إتهام ضد الطبيعة » ونحن نميل إلى أن نعرّف كلمة « شذوذ » تعريفاً أخلاقياً (على نقيض التعريف العملي الذي يعني « غير مناسب للمجتمع ») وأن نمنحها معنى « مطلقاً » يدل على أنها « ضد الله» أو « ضد الطبيعة » . وهذا هـو المعنى البديهي الذي نلصقه بالكلمة . ولقـد قبلت أنا بهذا المعنى على اعتبار أن « الشذوذ » هو عمل ضد الطبيعة يقوم بـه الانسان بمحض إرادته .

ونحن ننظر « للطبيعة » هنا على أن لها في أذهاننا غرضاً محدداً يتعلق بتنظيم الجهاز الانساني . فالشذوذ إذن متناقض لفرض الطبيعة ، وقد يسهل فهم المعنى إن عقدنا المقارنة التالية :

إذا إبتاع رجل ما « جراراً » للحراثة وراح يسير بـه المسافات الطويلة بسرعة خمسين ميلاً في الساعة فليس من حقه أن يشكو إن تعطل الجرار عـن العمل . وإذا احتج لدى الشركة صاحبة الجرار ، فإن الشركة ستقول له : إن اللوم يقع عليك ، فالجرار لم يصنع لمثل هذا . (المركيز دي ساد يعتبر«الشذوذ» عطباً في الجهاز الانساني بسبب سوء الاستعمال وينظر إليه على أنه بمثابة تفكك عام للجهاز ناشيء عن « التشبّع ») .

فإذا أجاب الرجل : « بــل على العكس ، فإن بالجرار الكثير من الخلل » كان عليه أن يثبت مسؤولية الشركة .

وعلى ضوء هذا المثال ، فإن الغاية من هذا الكتاب هـو تبيان أن مسؤولية الشذوذ الجنسي تقع على « الشركة » . ذلــك أنه يمكن اعتبار الشذوذ خللاً ميكانيكياً ناشئاً عن خطأ في تصميم الجهاز الجنسي .

وهذا الاستنتاج البسيط هو إلى حد ما حصيلة تقبلنا للتعريف « الفطري » للشذوذ القائل بأن الشذوذ عمل إرادي حرّ ضد الطبيعة . لكن الانسان ليس مخلوقاً ذا إرادة حرة كلية كما أن الطبيعة ليست آلة الهية ذات إنتاج هائل تصنع نماذج رخيصة .

إن هذا المفهوم هو نتاج نسق قديم وغامض من التفكير ، يؤمن بأن في السماء إلهاً واعياً قادراً على كل شيء وبأن الإنسان هو ملاك ساقط . إننا ندرك اليوم أن الانسان يملك بعض الارادة الحرة ، ولكن ليس بالقدر الذي كان يظنــه ، وأنه يمكن اعتباره شريكاً في عملية التطور وليس مجرد سلعة مصنوعة .

وهكذا فإن هذه الكلمات البسيطة « الانسان » و « الطبيعة » و «الشذوذ» تستبطن دلالات اعمق . وعلى هذا المنوال فاننا « نتهم المجتمع » أحيانـاً بسبب ظلم أحاق بأحد الأفراد ، مع أننا ندرك أن المجتمع هـو مجموعة من الأفراد ولا يمكن إتهامه اذن . كما أنه لا يمكن اتهام « الطبيعة » لأن الطبيعة ليست منفصلة تماماً عن الانسان ، بـل يمكن اعتبار الانسان أداة التطور لدى الطبيعة . إن الأمر ليس ببساطة مجرد لوم « الشركة » لخلل فني في الآلة ، لأن الآلة في هـذه الحالة هي الى حد ما شريكة في صنع نفسها .

ولو بدأت هذا الكتاب بتحليل للعلاقة بين الجسم والعقل ، وبين الانسان والطبيعة على طريقة سي . دي . برود ، ومن ثم حاولت تحليل الشذوذ الجنسي بفيض من المصطلحات الميتافيزيقية ، فإنني أشك في أن يكون هذا الكتاب قد أنجز . ومن الأهمية بمكان أن يولي القاريء عنايته الكاملة للكلمات الموضوعــة داخل الأقواس الصغيرة مثل « الطبيعة » و « الشذوذ » وأن يدرك أنها قـــد تحمل معاني مزدوجة لم يسمح البحث بتبيانها .



الفصل الأول

بحث عام حول الانحراف الجنسي

عرض للقضية الأساسية في هـــذا الكتاب : أي دور يلعبه الجنس في وجود الانسان الشامل ؟
آراء تولستوي وجيد . فرويد وجورودييف . الدوس هكسلي والجنس . نويس والـ « كاريزا » Karezza .
د. ﻫ. لورنس واللواط .



من المناسب أن أبتديء هـذا الفصل بطرح السؤال الذي هو محور هـذا الكتاب : أي دور يلعبه الجنس في وجود الإنسان الشامل ؟

وهذا السؤال يجرّ مباشرة إلى سؤالين آخرين. الأول ، وهو الأكثر الحاحاً، يتعلق بطبيعة الدافع الجنسي . أما الثاني فهو: ما هو المقصود بـ «وجود الانسان الشامل ؟ » إن الوصول الى جوابٍ مرضٍ للسؤال الأول سيمكّننا من القاء الضوء على السؤال الثاني .

إن أكثر الأمور جلاء بالنسبة للدافع الجنسي هو أن الانسان و « الطبيعة » لها ، في هذا المجال ، غايتان متباينتان . إن التناسل هو غاية الطبيعة كما يبدو . أما غاية الإنسان فهي أن يحصل على أكبر قدر من الاستمتاع بالنشوة الجنسية.

ومن الصحيح القول إن أغراض الإنسان والطبيعة قلما تتوافق وتلتقي التقاء تاماً . فالطبيعة تقتضي من الانسان أن يهتم بالطعام بالقدر الذي يضمن له البقاء والصحة الجيدة . ولكن معظم الناس المتمدنين لا يكتفون بذلك فيتعدّى تولعهم بالطعام القدر الذي تتطلبه الطبيعة ، والنهم يقود بعضهم إلى حتفه . لكن معظم الناس في الغالب يبقون ضمن حدود «ما تتطلبه الطبيعة» . وينطبق هذا المثال على حالات الشرب والنوم والتمرين . وفيما يتعلق بالدافع الجنسي ، يبدو أن الهوة بين غاية الإنسان وغاية الطبيعة واسعة بشكل غير عادي. ولهذا السبب فإن الإنحرافات الخاصة بالدافع الجنسي هي أكثر من تلك التي تصيب أي دافع إنساني آخر من دوافع حفظ النوع .

هنا تنشأ المشكلة الأولى . فالشذوذ يفسّر عادة بأنه «عمل غير طبيعي »ومن السهل بمكان فهم كلمة « غير طبيعي »عندما يحس الإنسان بميل غريزي قوي لمحو

ما هو طبيعي . وعلى سبيل المثـال ، فإن أحداً لا يشك في أن أكل الغائط هو عمل غير طبيعي لأن ما لفظه الجسم لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون غــذاء للجسم .

لكن السؤال هو : « كيف نستطيع أن نحكم بما هو طبيعي في حالة مثــل حالة الجنس حيث تتسع الهوة بين غاية الطبيعة وغاية الإنسان ؟ » .

تفسير تولستوي للعادية :

إن المنطق العادي يساعد إلى حد مــا ، وقد حدّد تولستوي في روايتـــه « سوناتا كرويتزر » The Kreutzer Sonata جوهر النظرة إلى الجنس المستقاة من المنطق العادي . وروايته هذه تحمل في الأساس طابع الكتابات الوسليانيـة (نسبة الى القس الإنـكليزي جون وسلي مؤسس مذهب النظاميـة الديني) ضد الحرية الجنسية .

فبودسنيشيف ، قاتل الزوجة ، يشعر بأن المجتمع المعاصر قد تملكه نوع من الجنون الجنسي . وذلك أن الزيادة في أوقات الفراغ قد منحت الإنسان مزيـداً من الطاقة الفائضة التي يصرفها في سعي محمـوم لاهث وراء المتعة . إن الزوج أو الزوجـة حسب النظام الطبيعي للأشياء لا يملكان القـــدرة على ممارسة الجنس بكثرة ، فهي منهوكة بإنجاب الأطفال وهو يُنهك بالعمل اليومي ويحدّد عمله من انصرافه إلى الجنس . أما الطبقة الأرستقراطية العاطلة (وبالذات الإرستقراطية « المثقفة ») فهي تصرف أيامها وساعاتها في التفكير في الجنس ، وهو التفكير الذي يختفي في مراحله الأكثر براءة تحت ستار رقيـــق من الحب . وقد بدأت غيرة بود سنيشيف من زوجته حين قـــامت بعزف « السوناتا التاسعة » للبيانو والكمان لبيتهوفن بمرافقة شاب ارستقراطي .

وقد بيّن تولستوي أن مثل هذه المشاركة الثقافية الفنية ما هي الا عـــذر جديد لإقامة علاقات قد تؤدي إلى الخيـــانة الزوجية . وقد توصل في روايته هذه إلى أن العلاقة الجنسية الطبيعية الوحيدة هي التي تهدف بالذات إلى إنجاب

الأطفال . وكل ممارسة جنسية أخرى تجري بقصد المتعة الخالصة ، حتى بين الرجل وزوجته ، فهي عمل « غير طبيعي » .

وميزة هذا الرأي على الأقل هي ثباته وتماسكه ، فهو يتجاوز تعاليم القديس بولس بمرحلة واحدة ويماثل تعاليم الكنيسة الكاثوليكية حول منع الحمل . إنه في جوهره رأي ديني ، فهو يعلن أن ميول الإنسان ليس لها أي دور في تحديد ما هو طبيعي وانه يجب الانصياع لرأي « أعلى » حتى وإن كان هذا الرأي متناقضاً لما يعتبره الإنسان « طبيعياً تماماً » .

إن عدداً قليلاً من الناس هم على استعداد لأن يتفقوا مع تولستوي على تفسيره للعاديّة أو الطبيعيّة . وقد عرّف معظم الذين كتبوا عن الجنس ، من « إليّس » إلى « كرافت ابينج » ، الجنس الطبيعي بأنه « نشاط جنسي يؤدي في النهاية إلى عملية التناسل » . وهذا الرأي يعكس بعض التناقضات . إنه يقول إن الجنس يكون طبيعياً إذا كانت النتيجة الأخيرة هي حدوث قذف في المهبل ، بغضّ النظر عمّا إذا كانت قد سبقت عملية القذف ممارسات غير طبيعية ، وبالتالي ، إذا تعمّد الرجل القذف خارج المهبل أو استعمل مانعاً للحمل اعتبر أكثر « شذوذاً » من الرجل الذي يضرب زوجته بجنون لغرض التهيج الجنسي أو الرجل الذي يغتصب فتاة بعد أن يفقدها رشدها .

لكن الاعتراض الرئيسي على هذا الرأي هو أنه يسيء إلى المنطق السليم حين يجعل الغاية ، وليس الوسيلة ، هي التي تقرر الشذوذ من عدم الشذوذ . فإذا كان القذف هو أصلاً الغاية من معظم الممارسات الجنسية ، أفليس من المؤكد إذن أن الوسيلة التي تتبع للوصول إلى هذه الغاية هي التي ينبغي أن تكون المقياس الذي يقرر الشذوذ من عدمه ؟

إن المفهوم « السيكولوجي » للشذوذ هو حكم عملي مناسب ، لكنه لا يبدو مصيباً إلا لأن معظم الرجال الذين يتمون عملية القذف في داخل المرأة يصلون الى التهييج الجنسي بالطرق العادية .

جيد وكوريدون[1]:

كتب « جيد » ، الذي لم يخف ميوله اللواطية يوماً ، أربعة حوارات بين قاصّ يتمتع بميول جنسية عادية وبين صديقه « المنحرف جنسيّاً » كوريدون ، حاول فيها أن يأتي بتبرير فلسفي للشذوذ الجنسي ، وقد أعتبر الكتاب مجرد دفاع عن اللواط ، ولقد قال جيد عدة مرات بأنه يعتبر هذا الكتاب أهم أعماله ، وهو ليس من السذاجة بحيث يلقي بهذا الحكم لمجرد أن الكتاب يدور حول أحد أهوائه المحببة إليه . ذلك أن التساؤلات التي يطرحها هذا الكتاب تتعدى بكثير قضية ما إذا كان الشذوذ الجنسي « طبيعياً » أو « مستوجباً للزجر » .

إن جيد يشير إلى أن الرغبة الجنسية عند الحيوانات تنشأ عادة من الرائحة التي تصدرها انثى الحيوان في حالة التهيج الطبيعي ، ولذلك يمكن اعتبارها حالة « جسدية » طبيعية . ثم يضيف : ومع ذلك فانه من الخطأ القول إن ذكر الحيوان لا يحسّ بالرغبة الجنسية إلاّ حين يشم رائحة الانثى هذه ، لأن الرغبة الجنسية عارمة وقوية لدى الذكور إلى حد أن الذكر يلجأ أحياناً الى ركوب ذكر آخر أو الاحتكاك بجسم ما ، لاستحضار النشوة الجنسية .

وعلى كل حال فان رائحة الانثى هذه توحد وتوجه غرائز الحيوان الجنسية . والانسان يفيض كذلك بالرغبة الجنسية . وفي حالته لا توجد هناك رائحة الأنثى التي توّحد غرائزه وتقودها نحو الجنس الآخر في لحظة معينة . **فالحافز الذي يوحد غرائزه ويحرضها هو حافز عقلي محض** . وهذا هو السبب في كثرة أنواع الحوافز أو بتعبير آخر « الشواذ » . فالرجل « الطبيعي » يتهيج لدى رؤية إمرأة عارية ، لكن الرجل الذي يفضل امرأة سمينة جداً أو نحيلة جداً أو متوسطة السن ذات مظهر أمومي ليس بالضرورة « غير طبيعي » إن لم تهيجه المرأة العارية التي لم تتوافق مع ميوله الجنسية . وكذلك فإن الرجل الذي يهيجه أكثر من أي شيء آخر منظر امرأة في ثيابها الداخلية ، أو امرأة

---

١ ـ هذا الاسم يرمز في الأصل الى راع شاب ورد اسمه في الأساطير الإغريقية .

ذات شعر طويل منسدل خلف ظهرها قد لايكون شاذاً أبداً .

يقول جيد : وعلى هذا فإن الرجل الذي يفضل صبياً أو رجـلاً آخر ، لا يكون قد ارتكب عملاً شاذاً على الاطلاق . ومن المعروف جيداً أن اللواط لا ينتج نسلاً ، ولكن جيد يورد في كتابه أمثلة عن بعض اللواطيين الذين مارسوا حياة عائلية معتادة مع زوجاتهم وأنجبوا أطفالاً ، ويبدو أن جيد يلمّح هنا إلى أنه يجوز للرجل أو المرأة أن يمارس أو تمارس علاقات جنسية ، كل مع جنسه ، شريطة أن يؤديا واجبهما في إقامة الحياة العائلية وانجاب الأطفال .

وكل هذا يطرح تساؤلات ذات دلالات كبيرة وعميقة . ففي مقالي « دراسة في جريمة القتل » كنت قد قلت إن الرغبة الجنسية عند الأطفال « غير مميزة » بمعنى أنها ليست أكثر من مجرد الحاجة إلى اثارة العضو التناسلي فهي إذن حاجة بسيطة كالحاجة إلى الطعام . ففي مثل هذه السن المبكرة تكون الشهية الجنسية خاضعة للتأثير « التنويمي » لشيء ما ، بحيث يرتبط هـذا الشيء بالاستمتاع الجنسي . وقد يكون هـذا الشيء دمية أو طاقية نوم أو لباساً . وقد يكون أيضاً أعضاء الطفل التناسلية نفسها أو الأعضاءالتناسلية لطفل آخر. ومن حسن الحظ أن « الشيء » الذي يمارس مثل هذا التأثير على معظم الرجال هو الجنس الآخر . وينبغي هنا أن أشير إلى حقيقة أساسية وهي أن الرغبة الجنسية في أبسط صورها هي أحد مطالب العضو التناسلي وهي ملازمـة له تماماً، كما أن الجاذبية المغناطيسية ملازمة لحجر المغناطيس، والفرق بينهما هو أن العضو التناسلي أكثر شبهاً بالمغناطيس الكهربائي الذي إما ان يكون ممغنطاً أو « هامداً » بلا حياة . إن ما يحتاج اليه العضو التناسلي هـو نوع من الكهرباء الأستاتيه .

وقد نكون على علم بسيط بـ « المولد » الذي يولد الكهرباء الجنسية ، لكننا لا نستطيع أن ننفي وجود هذه الكهرباء . وينبغي علينا عند بحث الدور الذي تلعبه المخيلة في الجنس الا" ننسى هذه الحقيقة الواقعية التي هي أحد العوامـل الجسدية فينا . وقد يفاجأ رجل منغمس في أفكار بعيـدة عن الجنس برعشة

داخلية حين يحتكّ بجسم ما، ذلك أن كهرباء جنسية سرت في جسمه حينذاك.
عند هذا الحد يمكن لنا أن نطلق تعميماً واحداً فقط حول الغريزة الجنسية، وهو أنها تعمل على مستوى أعمق من أي دافع إنساني آخر، بما في ذلك دافع السلامة الشخصية.

وعلى العموم، فإن بإمكان الرجل أن يفهم ميوله وأذواقه فإذا كان الرجل يسعى وراء المال أو الشهرة، أو السلطة، أو حتى إذا كانت به رغبة عارمة لإقتناء لوحات الرسم أو الكتب القديمة، فإن بإمكانه أن يستقصي منشأ هذه الرغبة وأن يتفهم العوامل والظروف التي كونتها ونمتها فيه. إن استيعاب الدافع الجنسي وإدراكه إدراكاً واعياً، أكثر صعوبة من استيعاب وإدراك أية دوافع أخرى. فقد يظن الإنسان أنه يدرك هذا الدافع تمام الإدراك، فإذا به يباغت بعكس ذلك تماماً. ففي رواية برناردشو «الإنسان والسوبرمان» مثلاً، نرى أن رجلاً مثل «تانر» Tanner تسيّره رغبة عارمة في أن يصلح العالم، ينجرف بالرغم من سداد رأيه الى مضاجعة امرأة لا يكنّ لها احتراماً كبيراً. بل نسمعه يقول وهو يحتضن «آن»: «إن قوة الحياة تسحرني، وحين أضمك إليّ فإنني أضم الدنيا كلها بين يدي» ثم يقول: «قوة الحياة، انني في قبضة قوة الحياة».
ويشير رومان رولان إلى هذه النقطة بالذات في روايته «جان كريستوف» حين يقول: «إنه ليس هناك أية رابطة مشتركة بين والدي كريستوف؛ وان والده في الواقع ليست لديه أية فكرة عن السبب الذي حدا به إلى أن يضحي بمهنة ذات مستقبل باهر، لكي يتزوج من خادمة صغيرة». ويردف رولان: «لكن ذلك ما كان ليؤثر على القوة المجهولة التي ألقت به في أحضان الخادمة الصغيرة الشقراء. لقد لعب دوره في (انجاب رجل عبقري).

لكنني لا أملأ أية رغبة عند هذا الحد في أن أحاول تقديم أية تعميات عن «التطور»، فكل ما أريد أن أشدّد عليه هو القوة الفعلية للدافع وقدرته على اكتساح كوابح الوعي.

يروي هيرشفلد «Hirschfeld» حكاية طريفة عن طبيب في الخامسة

والثلاثين من عمره يعاني نوبات من اليقظة النوميـــة ، منذ طفولته ، ومن الصرع أيضاً . وقد وجهت اليه يوماً تهمة الاعتداء الجنسي على طالبة صغيرة في الثالثـة عشرة من عمرها . كان الطبيب يعالج الفتاة التي كانت مصابة بمرض « الأكزيمـا الجلدي » المنتشر فوق جسدها .

يقول هيرشفلد : « جلس الطبيب على الأريكة وجذب رأس الصبية اليـــه بحيث أن جسدها قارب جسده ، فأثار غرائزه الجنسية وأحدث عنـــده حالة انتصاب . وعند ذلك شدّ الصبية اليه . أما ما حدث بعد ذلك فإن المتهم لا يذكر شيئاً بوضوح ، فعندما عاد اليه وعيـــه ألفى نفسه جالساً على الأريكة ، بينما وقفت الصبية تبـكي بين فخذيه ... ولم يَصْفُ ذهنه إلاّ حين عـــاد الى شقته ... »

والذي حدث أن الطبيب استطاع أثناء « غيبوبته » أن يتوصل إلى النشوة الجنسية عـن طريق الإحتكاك بجسد الصبية . ويذكر هيرشفلد أن الطبيب كان يعاني في ذلك الوقت من حالة انقباض ، وكذلك من حالة إرهاق بسبب كثرة العمل .

وقد يبدو من الوهلة الأولى أن قصة الغيبوبة، وأن التركيز على حالةالإنقباض النفسي هما محاولة عرجاء لتبرير عمل واع تماماً . وقد يكون ذلك صحيحاً . لكن هناك عدة حقائق يجب التنبه لها ، وأول هـــذه الحقائق هي أن وعي الإنسان محدود بشكل غريب جداً . فمع أن كل الكائنات البشرية تمتلك ذاكرة قوية ، فـإن مقدار وعيها الفعلي للحياة اليومية ضئيل وباهت نسبياً. فالإنسان لا يستطيع الولوج الى ما يختزنه وعيه الباطن من المعرفة والحوادث الا في حالات نادرة ، وسبب ذلك لا تعلمه إلاّ قوانين التطور. (لقد شبهت الوعي الإنساني في مكان آخر بحصان عصبت عيناه بغمامات في طريق مزدحم بحركة السير لأن كثيراً من « الإدراك الواعي » لما يجري حوله سوف يلجمه عن حرية الحركة) . والكائنات البشرية تحدّ من مقدار وعيها عن تعمد لأن انصراف الذهن الى شاغل واحد لا يتمشى مـــع إتساع الوعي . بل إن أغلب الناس في حاجة إلى أن

ينصرفوا بأذهانهم إلى شاغل واحد من أجل البقاء والاستمرار . ويبدو في الغالب أن « الطبيعة » لا تبدي أي اعتراض حين يستغني الإنسان عن احساس الدهشة والعجب . فهي لا تصر على أن تكون حواس الانسان متشعبة وحادة كحواس الطفل . فإذا حاول الإنسان في حالة ارهاق أو انقباض أن يستغني عن شهوته الجنسية ، فهي قد ترتد ضده بطريقة سوف تصدمه .

إن الدافع الجنسي هو ابن الطبيعة المفضل ، ومهما تكن طاقة الإنسان مثقلة بالمشاغل والمشاكل فإن الدافع الجنسي لا بدّ من أن ينال نصيبه[1]. ومن الطريف أن نلاحظ أن كثيراً من الجرائم الجنسية التي رافقتها حالات من الغيبوبة أو النزعات الجامحة العنيفة قد صدرت عن رجال كانوا يعانون من حالة اعياء أو انقباض[2] .

وينبغي علينا الا نتسرع فنرفض الإدعاء القائل بأن نزوة عنيفة مباغتة تنبعث من الوعي الباطن قادرة على أن تطوّع الإرادة الواعية وتسخرها ، أقول ينبغي علينا الا نرفض هذا القول على اعتبار أنه محاولة للتملّص من عواقب الفعلة . ولقد وصلنا هنا إلى الحد الذي يمكننا فيه أن نطلق التعميمات التالية حول الجنس عند الإنسان :

---

١ – هناك قصة تؤكد هذا سمعتها من جندي اشترك في « تحرير » معتقل الماني عام ١٩٤٥. فقد روى الجندي أنه لدى « تحرير » المعتقل ، انطلق المعتقلون والمعتقلات وراحوا يرتمون في أحضان بعضهم البعض بشبق حيواني همجي على الرغم من حالة شبه الجوع التي كانوا يعيشون فيها. ويبدو أن الجوع ألهب شهوتهم الجنسية بدلاً من أن يخمدها .

وللانصاف أقول إنني سمعت نفياً قاطعاً لهذه القصة ، لكن النفي جاء من إنسان لم يشهد أو يشترك في أية عملية « تحرير » مماثلة . وبهذه المناسبة فإن كرافت انج يقول : « إن الشهوة الجنسية عند المسلولين تكون قوية بصورة غير عادية » .

٢ – راجع على سبيل المثال قضية روبرت ايروين الواردة في كتاب « قاعة المحكمة » « Courtroom »تأليف كوينتن رينولدز، وكتاب «عرض للعنف» « Show of Violence » تأليف فردريك ورثام ، وكذلك في كتابي « عصر التخاذل » . لقد حاول إيروين بالفعل أن يبتر عضوه التناسلي لكي يحتفظ بكامل قواه وطاقته لممارسة تمرين للمخيلة أسماه « التصور الذهني » وقد قام إيروين بعد ذلك بثلاث جرائم قتل بسبب الغيرة .

١) إن الجنس عند الإنسان كما هو عند الحيوان له مظهر فزيولوجي واضح، الا وهو توق الأعضاء التناسلية إلى الوصول الى النشوة الجنسية، ومن ثم القذف، الذي يشبه « رعشة » ناتجة عن تيـار « كهربائي » جنسي يريد أن ينقذف إلى الخارج .

٢) إن رائحة الأنثى ليست هي العامل الذي يوحّـد الحوافز الجنسية عند الرجل، مع أنها قادرة طبعاً على التأثير عليه . والعامل الذي يوحّد ويوجّه الحوافز الجنسية الإنسانية هو عامل عقلي أو تصوّري محض مع أنه يرتبـط إرتباطاً قوياً، عادة، بانفعالات شهوانية جسدية .

٣) إن الغريزة الجنسية من دون كل الغرائز والرغبات الإنسانية كلها، هي التي تتخطى أكثر من غيرها إدراك الإنسان الواعي لنفسه ولأهدافه ومطالبه . وهي أشبه ما يكون بـ « كيان منفصل » يحمله الإنسان معه ولا يعيه أو يفهمه في الغالب .

فرويد وكورديف :

لم يقم أي عالم نفساني أو فيلسوف حتى الآن بوضع نظرية جامعة حـول الدوافع الجنسية . وأمـا فرويد فقد اقتصر اسهامه في الغالب على التأكيد بأن الطاقة الجنسية الغريزية (وهي مـا يسميه بالليبيدو)، هي من أقوى وأعمق النوازع الكامنة في وعي الإنسان الباطن . وقد أثار هذا الرأي ضجة عامة حينما أعلنه فرويد في بداية القرن الحالي، فقـد كان القرن السابق هو عصر المثالية الإجتماعية، وكان رجـل القرن التاسع عشر يحبّ أن يعتقد أن أعمق نوازعه ذات طبيعة أسمى ممـا يدعيه فرويد وانها تنتمي على سبيل المثـال إلى أمور، كالثقافة والتقـدم الاجتماعي . ومنذ ذلك الحين وإنسان القرن العشرين أكثر إدراكاً للدافع الجنسي، حتى أنه بات « اليوم » يلمسه في معظم النشاطات التي تحفل بها حياته اليومية .

يدعي الفرويديون أن بعض الفضل في نمو الإدراك الجنسي يعود الى التحليل

النفساني . لكن هذا الإدعاء قابل للأخـذ والردّ . الا أن الأمر المؤكد هو أنه لو لم يظهر فرويد ويؤكد غلبة الدافع الجنسي ، لـكانت هذه النظرية قد ظهرت تدريجياً من تلقاء نفسها بفعل « الجو الفكري » الذي يسود القرن العشرين .

فيلسوف واحد فقط من بين الفلاسفة المعاصرين هو الذي حاول أن يأتي بنظرية جامعة عن الجنس . هذا الفيلسوف هو جورج جوردييف . ومع ذلـــك فإن كتابات أتباعه تحتوي على النزر اليسير حول هذا الموضوع. وقد أعلن جوردييف أنه توجد في الإنسان سبعة « مراكز » تتحكم بأعماله وتصرفاته . هناك مركز غريزي ومركز عقلي ، ومركز عـــاطفي ومركز حركي (وهو الذي يتعلق بحركات الجسم) ومركز جنسي . وهناك كذلك « مركزان أعليان » . وكل مركز من هذه المراكز يعمل بطاقة مختلفة ، ومن سوء الحظ أن البشر يعمدون إلى الخلط بين كافة هذه الطاقات . فهم يستعملون طاقة العاطفة لتسيير العقل ، وطاقة الغريزة لتسيير العواطف، وطاقة العمل أو العاطفة لتسيير المركز الجنسي وهكذا .

والظاهر أن كل المراكز تعمد إلى اختـــلاس الطاقة من المركز الجنسي ، وتستخدمها لأغراضها الخاصة . (إن جوردييف كان سيقول بأن روبرت إيروين استخدم طاقته الجنسية لتسيير عقله وعواطفه) . ثم هي تعطي المركز الجنسي مقابل ذلك طاقة عديمة النفع من عندها بحيث يضطر هذا في كثير من الأحيـــان إلى أن يعمل بطاقة العاطفة أو حتى بطاقة العقل . وقد قال جوردييف لأوسبنسكي يوماً : « إنه لشيء عظيم جـــداً ان يعمل المركز الجنسي بطاقته الخاصة » .

وقد تبدو هذه الملاحظات حول « المراكز » غير علمية على الإطلاق بالنسبة لبعض القراء ، والواقع أن جوردييف لم يحاول أن يضع نظاماً فلسفياً فحسب ، بل حـــاول كذلك أن يخلق ديانة جديدة ، لها شعائر ورقصات خاصة (وهي تكوّن جزءاً هاماً من « نظامه » هذا) ولها كذلك نصوص شبه ميثولوجية لا يقبلها معظم الناس بسهولة . وليس هناك أي « دليـــل علمي » فيما يتعلق بوجود

مثل هذه « المراكز » . ومع ذلك فسواء أصح ما يقوله جورديف عنها عموماً أم لا ، فإن أحداً لا يستطيع أن ينفي أن هناك بعض الحقيقة في قوله « إنه لشيء عظيم جداً أن يعمل المركز الجنسي بطاقته الخاصة » وهذا القول على الأقل ، يتطلب تأملاً دقيقاً[1]

وليس باستطاعة من قرأ رواية « عشيق الليدي شاترلي » أن يشك في أن أحد الدوافع التي حدت بلورنس أن يكتب روايته هذه ، هو إحساسه بالنقص الاجتماعي ، وأنه كان يتمثل نفسه في مكان الحارس الذي يضاجع سيدة ارستقراطية تحمل لقب « ليدي » .

وهذه المشاعر الاجتماعية ليست عاطفية فحسب ولكنها فوق ذلك عاطفية بطريقة سلبية (يعلن جورديف أن العواطف السلبية مثل الخوف والكراهية والاشمئزاز عديمة النفع تماماً بالنسبة « للجهاز الانساني » وانها مجرد نفايات) .

وبالنتيجة فإن العاطفة الجنسية في رواية لورنس ليست خالصة وصرفة . وبالطريقة ذاتها فإن كل من يقرأ مذكرات كازانوفا لا بدّ أن يحسّ كذلك بأن دوافعه ليست جنسية صرفة. فعلى الرغم من كونه كاتباً رائعاً فإن كازانوفا يظهر بمظهر الرجل الضعيف المغرور الذي يُعنى في الغالب بما يخلفه من أثر في نفوس الآخرين . وبالتالي فإنه من الصعب أن نصدق أن طاقة المركز الجنسي هي وحدها التي دفعته إلى الغواية . ويبدو أن ما دفعه إلى ذلك كان نوعاً من حب النفوذ والسيطرة لإقناع نفسه بأهميته الشخصية[2] .

هكسلي والجنس :

هل توجد هناك أمثلة في الأدب على المركز الجنسي الذي يعمل بطاقته الخاصة ؟ ليس هناك مثال واحد على ما أعرف . وقد يكون سبب ذلك أن

---

١ ـ يتضمن كتابي « اللامنتمي » موجزاً قصيراً عن آراء جورديف .أما كتاب «دراسة في تعاليم جورديف » فهو أفضل مرجع عن هذا الموضوع .

٢ ـ راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب .

الذين كتبوا عن الجنس خلطوا بينه وبين طاقة العقل أو طاقة العاطفة . والطاقات الجنسية الحقيقية تكوّن دائرة كهربائية مقفلة . والرجل الذي خبر هذه « الدائرة » لا يحس بأي دافع للكتابة عنه ، مع أن هناك عدداً قليلاً من الأمثلة التي يبدو وكأنها اقتربت من وصف المركز الجنسي حين يعمل بطاقته الخاصة ، وبعض هذه الأمثلة موجودة في كتابات الدوس هكسلي . فروايته « أنتيك هاي » « Antic Hay » مثلاً تدور في الغالب حول مواقف جنسية غير صادقة وغير أصيلة ، ومواقف وضيعة من اللاتمييز ، ولا هي بمجدية ولا بمرضية .

ولكن هناك بالمقارنة موقفاً جنسياً واحداً كامل الارضاء :

كان جبريل على علاقة بريئة بفتاة يحبها اسمها إميلي . وذات ليلة وبعد حفل موسيقي أحسّا بعده بنشوة عاطفية تطهرانها ، اقتاد جبريل حبيبته إلى الفراش :

« وبرقة متناهية ، راح يضم اليه كتفها ثم ذراعها النحيلة الطويلة ، بينما راحت أطراف أصابعه تمرّ برفق وببطء رائع على جلدها الناعم الأملس ، وتنسل ببطء من جيدها إلى كتفها ثم تتلكأ عند مرفقها وتعود تنسلّ إلى يدها . . . ومن خلال ملابسها الحريرية الداخلية تلمّس تكويرة جانبها ، وظهرها الأملس المستقيم ونتوءات عمودها الفقري . . ثم راحت أصابعه تتحسّس جسدها الدافىء من تحت ردائها ، وتضمه برفق وببطء منتشٍ . إنه يعرفها . وأحسّ أن أصابعه يمكنها أن تنحتها تمثالاً دافئاً متموجاً في الظلام . ولم يشتهها ، لأن الشهوة كانت ستبطل نشوة السحر . وراح يغوص أعمق فأعمق في غيبوبة السعادة التي كان يحس بها في الظلمة . كانت نائمة بين ذراعيه ، وسرعان ما وجد نفسه يغط في نوم عميق » .

ومن الطريف أن هذا الوصف الغنائي شبه الغيبي للعاطفة الجنسية يخالف المواقف الجنسية المعتادة في كتابات هكسلي . وهناك مثال على هذه المواقف جاء في رواية هكسلي المسماة « Point Counter Point » ففي رسالة إلى والتر

تصف « لوسي نانتاماونت » كيف التقطت شاباً ايطالياً وأخذته بسيارتها إلى أحد الفنادق :

« ودنا مني وهـــو يصرّ على أسنانـــه كأنه يهم بأن يقتلني . أغمضت عيني كشهيد مسيحي يواجه الأسود الجائعة . غريب أن يترك الانسان نفسه عـرضة للألم والاذلال ، لأن يصبح ممسحة للأرجل . لقد أعجبني ذلك ... كان منظره وحشياً جميلاً كهندي أحمر . وكان هو وحشياً رائعاً كمنظره . مـــا زالت آثار عضاضه بارزة على عنقي . ولا بد أن أسترها بوشاح لعدة أيام . ترى أين شاهدت تمثالاً لمارسياس وهم يسلخون جلده ؟ كان وجهه شبيهاً بذلك ، حتى أنني غرزت أظافري في ذراعه ، حتى نفر الدم منها ... »

وهناك في رواية العبقري والآلهة « (The Genius and The Goddess) منظر آخر أعترض فيه على ما يبدو أن يجسّد موقفاً جنسياً كاملاً ، لكنه هـذه المرة يعبر عن موقف كلامي لا حركي في غالبيته :

« ليلة الثالث والعشرين من نيسان تلك ، كنـا في العالم الآخر هي وأنا ، في سماء مظلمة خرساء من العري واللمس والإنصهار . أيـة رؤى تلك التي تجلت في سمائنا هذه ، أية أعياد !! كانت ضماتها كملائكة فجائية » .

وفي هذه الحالة ، فقـــد تم الجماع ، لكن الوصف هنا أقل اقناعاً من وصف المنظر السابق في روايته « (Antic Hay) حين ينام الحبيبان . وفي الفهرس الملحق بكتاب « أدونيس والأبجديـة[1] » (Adonis and the Alphabet) يثير هكسلي سؤالاً طريفاً يلقي بعض الضوء على المشهد الوارد في (Antic Hay) يتحدث فيه عن « جون همفري نويس » مؤسس طائفة الأونيدا (Oneida) في الولايات المتحدة وعن نظريات نويس حول « العفة عند الذكور » .

كانت طائفة أونيدا هذه تجربة أسماها نويس « مشايعة التوراة » وهي تقوم على أساس « **المشاركة للجميع** » ، وأغرب خصائصهـا **هي المشايعة في الجنس** .

---

١ ـ يسمونها في اميركا « غداً وغداً وغداً » (Tomorrow and Tomorrow and Tomorrow) .

لأن نويس يعتقد أن امتلاك المرأة لرجل واحد هو إثم ، فالمرأة في المجتمع الأونيدي يجب أن تكون للجميع ، ولئلا يكون ذلك سبباً في حالات محرجة مثل أن تصبح النساء عرضة للعمل المستمر ، فقد قضى نويس باتباع نظام « الكاريتزا » (Karezza) (وهو عبارة عن « الفكرة القائلة بأنه يمكن فصل الوظائف الغرامية للأعضاء التناسلية عن الوظائف التناسلية ») ، وذلك بأن يحجم الرجل عن الوصول إلى النشوة الجنسية وبالتالي القذف .

ويدعي نويس أن هذه الطريقة أكثر إرضاء من الجماع العادي الذي يبلغ ذروته في القذف . والهدف من دعوة نويس هذه ، هو إقامة «المسيحية الكمالية» والترويج لفكرة الكاريتزا والزواج الجماعي .

وقد دافع مختلف معتنقي فكرة الكاريتزا دفاعاً جاداً كبيراً عنها ، بل إن كتاباً معينين ذهبوا إلى أبعد مما ذهب اليه نويس واقترحوا على المتزوجين بأن يتركوا لرغباتهم الجنسية أن تصل إلى نقطة التوتر الشديد على الا تبلغ مرحلة الجماع . وهم يؤكدون أنه حين يقوم الرجل بعد فترة طويلة من التحضير بإيلاج عضوه التناسلي في المرأة – شريطة الا يقوم بأية حركة قد تدفعه إلى حالة القذف – فإن الرجل والمرأة معاً سيمارسان حالة من الإنفعال الجنسي العارم تفوق أي احساس ينجم عن الجماع العادي . وهناك من يصف هذه الحالة بأنها تماثل أحياناً الشعور بالتحليق في الهواء .

ومن الواضح أن هكسلي في روايته (Antic Hay) كان يصف شيئاً شبيهاً بذلك ، ويؤكد بهذا تقبله لفكرة الكاريتزا في ملحق « أدونيس والأبجدية » .

قد يبدو ، من الممكن إذن ، أن نويس قد توصّل إلى طريقة تمكن المركز الجنسي من العمل بطاقته الخاصة . فالتشديد على الإرتخاء التام وعلى السيطرة سيطرة كاملة على الرغبة في الوصول إلى القذف من شأنه أن يضمن عدم تدخّل المركز العاطفي أو العقلي في عمل المركز الجنسي. فمن المؤكد تقريباً ، أن العملية الجنسية لا بد وأن تتداخل فيها عواطف وأفكار خارجة على الجنس ، إلا في الحالات التي تتم فيها العملية بعد طول انتظار . وفي عملية الكاريتزا فإن المدى

الزمني الذي تنطوي عليه من شأنه أن يمكّن الطاقة الجنسية من أن « تتصفى » وتعزل عنها كل أنواع الطاقة الأخرى .

إذن فإن جورديف يناقض جيد ويقترح بأنه يوجد هناك بالفعل شيء اسمه « الجنس الطبيعي » وذلك حين يعمل المركز الجنسي بطاقته الخاصة . وهو يلمح إلى أنه حين يحدث ذلك فإن كل رغبة في اللا تمييز سوف تختفي لأن الرجل والمرأة يصبحان بالنسبة لبعضهما البعض عندئذ تجسيماً حياً لمبدأ **التحام الذكر والأنثى** ولا يمكن لأي شريك جنسي آخر أن يقدّم أكثر من ذلك .

« اللاأصالة » في الدافع الجنسي :

من الضروري، حتى عند هذا الحد المبكر، أن نحاول التوصل إلى تعميم أوسع حول علاقة الدافع الجنسي « بالطبيعة البشرية » لأن اصطلاحات البحث قد أثبتت محدودية كبيرة حتى الآن . وبوجه عام فإنه يمكن القول إن النشاط الأساسي لكل الكائنات الحية هو تصريف أشكال مختلفة من التوتر ، وأن عملية التصريف هذه تؤدي إلى « توسيع » الوعي مؤقتاً .

إن رجلاً جائعاً مثلاً يحس بتوتر جسدي يتولد عن عملية الأكل ، يصحبه احساس يقيني « بالحياة ». لكنه لن يمارس هذا الإحساس اليقيني بنفس الدرجة إذا أكل على دفعات كل ساعتين لأنه بذلك لا يدع للتوتر أية فرصة للتفاعل .

وقد يتم انعتاق التوترات بطرق متنوعة وعلى مستويات مختلفة : جسدياً عن طريق الأكل أو الشرب أو تدخين سيجارة ، عاطفياً عن طريق الاستماع إلى الموسيقى أو مشاهدة فيلم أو قراءة رواية غرامية ، فكرياً عن طريق حل مسألة رياضية أو لعبة الكلمات المتقاطعة . وكل الألعاب تهدف إلى اعتاق التوتر عن طريق شحذه وتنميته ثم السماح له بالإستكانة والإرتخاء (ولكنه يجب الإنتباه إلى أن اللعبة التي لا تؤدي إلا إلى اعتاق التوتر الذي ولّدته ونمّته ، هي لعبة سيئة ، لأن وظيفة اللعبة هي أن تعتق كذلك العواطف التي كانت حبيسة قبل أن تبدأ اللعبة .) وبعض هذه التصريفات تؤدي فقط إلى تهدئة

الأعصاب في حين يؤدي بعضها الآخر بصورة أكيدة إلى **تعميق حالة الوعي .**

ولقد أشرت في مكان آخر إلى أنه من السهل نسبياً الوصول إلى حالة «تعميق الوعي» من خلال الجسد ... عن طريق الجنس أو أشكال أخرى من الإنفراج الجسدي . كما أنـــه ليس من الصعب الوصول إليها عن طريق العواطف . **لكن الأكثر صعوبة هو الوصول إلى حالة تعميق الوعي فكرياً .**

إن النشوة الجنسية تجرف معظم الرجـــال « بعيداً عن أنفسهم » وإن نسبة كبيرة منهم قد خبروا الإنعتاق عن طريق العواطف العنيفة. وقليلون جداً هم الذين خبروا زخماً وعمقاً كاللذين تميز بهما أينشتاين أو نيوتن .

ومع ذلك فإن هذه الحاجة إلى الإنعتاق ، إلى تعميق الوعي ، هي من أولى الفعاليات البشرية الأساسية . يستدل من هذا أنه مهما تكن الغـــايات النهائية لقوة التطور التي تسيّر الإنسان ، فـإن الوعي المعمق يلعب بلا شك دوراً هاماً في هذه الغايات . وقد يكتب إليوت بكآبة أن الحياة الإنسانية كما تبدو ليس لها معنى آخر غير « الولادة والإتصال والموت » لكنه يغفل عاملاً أساسياً لا يقـــل منزلة عنها ، وهو الحاجـــة إلى وعي أكثر شدّة يتحكم في كل النشاط الإنساني ، والغريب أننا لا ندخل هذه الحاجة التي نحس بهـــا في حسابنا أبداً . بل نعتبرها نزوة غـــير هامة في حقل النشاط الإنساني ، إن الإنسان لا يتساءل عندما يستيقظ صباحاً :

« هل سأحصل على لحظة من تعمّق الوعي اليوم ؟ » إنه يفكر فقط فيما يجب عمله وليس في حالة الوعي التي سترافق هذا العمل . فإذا كان هذا الشخص رجلاً عاملاً مقيداً بوظيفة روتينية تمنحه قدراً ضئيلاً من الرضى ، فإنه يشعر أحيـــاناً بأن الحياة عقيمة ومجدبة تماماً .

« إنني أعمل لآكل ، وآكل لكي أقدر على العمل . » إنه لا يحلم بأن يضع في حسابه تلك اللحظات العرضية من « الإنشراح » التي قد يولـّدها فيه قـــدح من الجعة أو يوم من أيام الربيع أو التي قد يحسّ بها بدون أي سبب بالذات . إن الناس يسلـّمون جدلاً بوعيهم وحالاته المختلفة .

وأنا أحاول أن أبيّن أن الأشياء التي يعتبرها الناس عادة « غاياتهم » هي في الواقع « سطحية » ولا يحتاج الأمر لفيلسوف ما لكي يكتشف أن معظم هذه الغايات بلا جدوى. لكن كل الألعاب، وبالطريقة نفسها، هي كذلك بلا جدوى لأنها تتطلب جهداً عظيماً في حين أن نتائجها لا تؤدي إلى أي تغيير جذري. وما يعطي هذه الألعاب غاية ومعنى هي حالات الوعي التي تتواجد أثناءها.

وعلى هذا فإن الدافع الجنسي يملك عاملاً هاماً كما هو الحال بالنسبة لكل الدوافع الإنسانية الأخرى. إنه ليس شيئاً فريداً تقريباً ينتمي إلى نظام آخر للأشياء، فمع أن تفهم الإنسان لدوافعه الجنسية وسيطرته عليها هما أقل مثلاً من رغبته في جمع المال لتأمين حياته ونفسه، فهذا لا يعني أنه دمية أو عبد في يد قوة غامضة خفية. إن الرغبة الجنسية تختلف عن باقي الرغبات الإنسانية في ناحية هامة واحدة فقط، إنها أقصر وأسهل السبل إلى « تصريف التوتر » وتعميق الوعي. فهي ترضي وتلائم غاية الإنسان وطبيعته.

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة إلى غيرها فإنه من المفيد أن نعقد مقارنة بين الفقرات المقتبسة التالية:

« واجتاحت حواسي لذة رائعة لكنها منفردة، منعزلة، بدون أي إيحاء عن مصدرها. وفي الحال بدأت أشعر باللاإكتراث نحو صروف الحياة وتقلباتها، وراحت مآسيها تبدو لي مسالمة غير مؤذية وقصرها ضرباً من الوهم. هذه اللذة الجديدة، إنها تؤثر فيّ كالحب، تملأني بجوهر نفيس. لا بل إن هذا الجوهر ليس فيّ، إنه أنا. ولم أعد منذ تلك اللحظة أحسّ بالعاديّة، بأنني مجرد إنسان فانٍ، شيء عارض ».

. . . . . .

« ... وانطلقت في داخلي ضحكة منعشة، وفجأة عادت الى ذاكرتي نوتات البيانو المنسيّة وراحت تعلو في داخلي كفقاعة من الصابون تعكس على صفحتها القزحية صورة مصغرة للدنيا بأسرها ثم تنفجر برقة ... كان الدرب الذهبي

متوهجاً . انه يذكرّني باللانهاية ، بموتسارت ، بالنجوم . وصرت لساعة قادراً على أن أتنفس مرة أخرى ، أن أحيا وأواجه الوجود . ولم تعد هناك حاجة لأن أتعذب وأحسّ بالخوف والعار » .

. . . .

« ... فجأة طرأ على حواسي تغيير غامض . ورحت أعبر حالة من الوجود حيث لا شيء يهمّ سوى انتشار الفرح المختمر في جسدي . ما كان قد بدأ كامتداد حلو لأعمق أعماق جذوري قد تحول الى رعشة مضطرمة راحت تتنامى حتى وصلت الآن الى حالة من الشعور بالأمان المطلق والثقة والاعتماد على النفس ليست موجودة في الوجود الواعي . وإذ تملكتني هذه العذوبة الدافئة العميقة وبدأت تنسلّ نحو انتفاضتها الأخيرة ، أحسست بأنني أستطيع أن أتباطأ لكي أطيل الوهج الذي فيّ » .

الفقرة الأولى من الفقرات الثلاث السابقة مقتبسة من بروست . إن مارسيل يتحدث فيها عن اللحظة الغريبة ، لحظة « استذكار الأشياء الماضية » التي أثارها في نفسه مذاق كعكة مغموسة بالشاي .

أما الفقرة الثانية فهي من أحد مؤلفات «هيس» (Hesse) المسماة « شتيبنوولف (Stsppenwolf) وهي تصف لحظة من الإنعتاق ولـّدها قدح من النبيذ .

والفقرة الثالثة مأخوذة من رواية « لوليتا » لنابوكوف وهي وصف للحظة يمارس فيها « همبرت » الاستمناء بحذر شديد وذلك عن طريق حك قضيبه المنتصب بجسد لوليتا « الغافلة عما يجري » .

إن أوجه الشبه في اللغة تلفت النظر ، ولتأكيد هذا التشابه نسوق هذه الفقرة من « شتيبنوولف » وهي تصف امتداداً للوعي الناجم عن نشوة شهوانية :

« .. وبلمسة سحرية من إيروس[١] انفتح معين الذاكرة وراح يتدفق

١ ـ إله الحب في الأساطير الإغريقية .

بغزارة ، ولبعض لحظات زقف قلبي ساكناً بـين الفرح والأسى ليكتشف كم هو غني رواقُ حيـاتي ، وكم تزخر روح شميدنوولف البائس بالنجوم والكواكب الأبدية السامقة » .

من الصحيح أن تأكيد الدافع الجنسي لا يؤدي بالضرورة إلى مخاطبة العقل، أو حتى العواطف بهذا الشكل ، وانه قد لا يكون أكثر من مجرد شعور بالدفء الجسدي الداخلي وبالإرتياح . لكنه ينبغي أن نأخذ بالإعتبار أن هذه التجارب كالتي وصفت أعلاه يمكن أن تعدّ من بين أسمى أنواع التجارب الجنسية .

د . ه. لورنس واللواط

تشير الفقرة المقتبسة من لوليتا ، بل وتثير لوليتا « بأكملها » السؤال الرئيسي مرة أخرى عن « الشذوذ » . فإذا أمكن الوصول إلى أرفع أنواع الخبرة الجنسية بمثل هذه الأساليب، ألا يصبح من الممكن أن نصف هذه الأساليب «باللاأصالة»؟ وهذا السؤال يفتح مشكلة « الإنحراف الجنسي » على مصراعيها . وهنا نجـد أيضاً أنه من المفيد لنا أن ندرس بعض الحالات .

يعتبر د . ه . لورنس عادة الكاهن الأعظم لنـوع من الجنس « الطبيعي » . ومع ذلك فقـد أشار البروفسور « ولسون نايت » في مقال ممتاز أن لورنس قد شدّد كثيراً في كتاباته على عملية اللواط . ونجد أن معظم الأحداث الجنسية في بداية رواية « عشيق الليدي شاترلي » هي أحداث « طبيعية » . إلا أنه عنـد نهاية الفصل السادس عشر نرى مليورز يضاجع كونستانس شاترلي « على الطريقة الإيطالية » . ولورنس يتعمد بحـذر ألاّ يكون صريحاً جداً ، ولكن ، هناك عدة اشارات أولية في الكتاب تؤدي في النهاية الى هذه العملية الأخـيرة . فكونستانس شاترلي « خائفة قليلاً ، لكن لتدعه يتصرف على هواه » والشهوة تضطرم في « العورات ، في أعمق وأقدم العورات ، في أكثر الأماكن الخصوصية المستورة » ، وشعلة الرغبة « تنقض على أحشائها ونهديها » ، وبهـذا لا يترك فلورنس مجالاً للشك في أنه يعتبر هذه العملية نوعاً ما أعمق كالاً وبلوغاً من الجنس

« الطبيعي » (مع أنه لا يوجـــد هناك طبعاً أي دليل على أنه يعتبرها بديلاً للجنس الطبيعي) .

وبالطريقة ذاتها ، فــإن رواية « نساء في الحب » (Women in Love) تحتوي على مشهد غريب يجري بين أرسولا وبيركين في الفصل المسمى (Excurse) ، وفيه تبقى التفاصيل المحددة غامضة ؛ وكل الذي نعرفه هو أن أرسولا تركع أمام بيركين وتجعله يبلغ ذروة النشوة الجنسية ، وذلك بأن تتحسّس بأصابعها الطويلة الرائعة « ما خلف أسفل الخـــاصرة » إلى « قرار سلطان الظلمة » . ولورنس يوضح أنه لا يتحدث بذلك عن العضو التناسلي ، إذ أنه يكرر كلمة «خلف» عدة مرات . ويعلـّق قـــائلاً إن أرسولا كانت تظن أنه « ليس هناك مصدر للذّة أعمق من ذلك المرتبط بذَكر الرجل » إلى أن مرت بهذه التجربة ، التي يكشف فيها لورنس النقاب عن أن بيركين كان قد ضاجع أرسولا بالفعل « على الطريقة الإيطالية » ، الا أن أرسولا قـد اكتشفت الآن كيف تمنح بيركين أبلغ وأعمق متعة . وهو يقول في مكان لاحق أن أرسولا « كانت بواقعية أطراف أصابعها الرائعة تلمس مكمن الواقعية فيه » . ويبرز هذا المعنى في قصيدة للورنس بعنوان « البيان » (Manifesto) حيث يقول :

« أريدها أن تلمسني في الأخـير ، آه ، في جـذر وقعر ظلمتي » وفي عملية اللواط التي تتم بين بيركين وأرسولا يشير لورنس كذلك إلى « جـــذر ظلمتها » .

ويؤكد البروفسور ولسون نايت بكثير من الوضوح أن لورنس كان يعلق أهمية عظيمة على هذه العملية الأخيرة ، وهو يقدّم في مقالته المعينة عدداً ضخماً من الأدلة الكتابية على ذلك[1] .

ومن الصحيح القول إنه لا حاجة هناك لأن نجـــد تفسيرات سيكولوجية معقـدة لظاهرة قـــد تكون ذات أساس جسدي محض . فالمنــاطق الأستية

---

١ ـــ « لورنس ، جويس وبوويس » دراسات نقدية . اكتوبر ١٩٦١ . « Lawrence, Joyce and Powys » .

« الشرجية » على كل حال تشارك الأعضاء التناسلية بعض الحساسية الجنسية . وقد فات البروفسور تايت أن يشير إلى تلك الفقرة في مونولوج مسز بلوم التي تذكر فيها أن عشيقها « جعلني أقضي اللقاء الثاني وهو يدغدغني بإصبعه من الخلف » والتي تصف فيها بعد ذلك فرط استمتاعها الجنسي .

ويروي هيرشفيلد قصة مومستين شقيقتين تخصصتا في عملية اثارة زبائنهما عن طريق القضيب والشرج في الوقت نفسه . ويضيف هيرشفيلد : « يقول فرويد إن إخلاء الأمعاء والبول تصاحبه أحاسيس مماثلة من اللذة . » لكنه يشير إلى أن بعض الناس لا يمارسون التقبيل وأنهم لذلك لا يعتبرون الشفاه من بين « المناطق الحسية الشهوانية » .

كما يروي هيرشفيلد قصة مومس كانت تقوم أحياناً بلعق العضو التناسلي بينما كانت في الوقت ذاته تولج منديلاً حريرياً في شرج الزبون ثم تسحب المنديل عند بلوغ ذروة النشوة .

وكانت هذه المومس تدّعي أن هذه العملية تؤدي إلى تجربة جنسية عميقة أروع من « الجماع الطبيعي » .

وعلى هذا فإنه من غير الضروري تقريباً أن نتكهن كيف انحرفت عملية الجنس الطبيعي عند لورنس الى مبدأ التهيج الأستي . إن البروفسور تايت يقتبس فوق ذلك فقرات من رواية بوويس « غرام في جلاستونبيري » (Glastonbury Romance) ليسند حجته بوجود علاقة بين المناطق الأستية والنشوة الغامضة . وكل من قرأ « نساء في الحب » و « عشيق الليدي شاترلي » بعطف وبعمق فلن يفوته أن يلاحظ « أن المشاهد المرتبطة بالعلاقات الأستية » ليست في الواقع إلاّ تطوراً طبيعياً لما سبقها . ولا شك أن الأمر كان سيكون منطقياً كذلك لو أن العملية كانت عملية اثارة متبادلة عن طريق الفم . وعلى هذا ينبغي القول إنه إما أن تكون الممارسات الجنسية « طبيعية » أو أن غيبية لورنس الجنسية خاطئة في الأساس بطريقة ما . ولا يهمني الآن أن أناقش أيّاً من الرأيين ، بل إن ما أريد أن أشير اليه هو أن الحد الفاصل بين ما يبدو طبيعياً

وما يبدو « غير طبيعي » واه جداً .

ومن ناحية أخرى فإن بول دي ريفر يسوق في الفصل السادس من مؤلفه « المجرم الجنسي » (The Sexual Criminal) حالة مفيدة . فهو يروي قصة حارس مدرسة أبله قتل ثلاث بنات (ما بين سن السابعة والتاسعة) وارتكب مع ثلاثتهن اللواط والجماع « الطبيعي » . وكان هذا الحارس متزوجاً إلاّ أنه تملكه الشعور بأن مهبل طفلة ضيقاً هو الوحيد الذي يستطيع أن يوصله إلى أعمق حالات الاستمتاع الجنسي . فبعد أن أغرى الطفلات بالذهاب معه إلى مكان منعزل بحجة أنه سيريهن بعض الأرانب ، اعتدى عليهن واحدة واحدة ثم خنقهن . وقد اعتدى على اثنتين منهن اعتداءً مزدوجاً . وحين تمّ استجوابه فيما بعد اعترف بأنه خبر أكبر قدر من اللذة مع أكبرهن سناً . وهنا يتضح مدى اضطراب وتشوش رغباته : فقد كان يتصور بأنه لا يستطيع أن يبلغ أكبر قدر من المتعة الاّ مع بنت صغيرة ، لكنه في الواقع فضل البنت الكبرى الأقرب الى الأنوثة .

وللوهلة الأولى فقد تستخدم هذه الحادثة كحجة لنقض الفكرة القائلة : « إن بلوغ أقصى مدى من الالتقاء الجنسي يجب أن يكون هدفاً في حد ذاته » لكن تشوش الرجل الحارس ينسف هذه الحجة ويبرهن على أنه لم يكن يدرك ما يريد تماماً . والواقع أن هذه الحادثة تؤيد موقف لورنس من أن بعض التطورات التي تتفرع من عملية الجماع العادي ليست « غير طبيعية ». إن « لا طبيعية » الحارس ناشئة عن إرتباكه وتشوشه وعن سوء إدراكه لرغباته ، ومثل هذا التشوش غير موجود عند لورنس ، بل ان مناوئيه يقرّون أن هناك منطقاً داخلياً قوياً في سياق تطور غيبوبته الجنسية .

وهذه المشابهة بين لورنس وحادثة الحارس التي سردها بول دي ريفر ، توضح لنا أن نظرية تولستوي في الجنس هي الوحيدة التي تطرح رؤيا متماسكة ثابتة عن الشذوذ . وقد يكون لورنس وحارس المدرسة على طرفي نقيض ، لكن الفارق بينهما هو فارق « كمي » ، ذلك أن كليهما كان يؤمن بأن الجنس « يجب » أن

يؤدي في النهاية الى التقاء جنسي عميق ومُمرض يتجاوز العملية العادية « للجماع الجنسي » .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه النظرة موجودة ضمناً في تسامحنا المتزايد نحو الكتب التي تدور حول الجنس . فحين تم نشر كتب مثل «يوليس» (Ulysses) و « بئر الوحدة » (The Well of Loneliness) « ولوليتا » و « عشيق الليدي شاترلي » بحرية ، فمعنى ذلك أننا على استعداد لأن نتقبل النظرة القائلة ان العمليات الجنسية الواردة في هذه الكتب ليست « غير طبيعية » كلية .

إن تولستوي كان سيشجبها كلها كما شجب رواية « الصديق الجميل » (Bel Ami) لموباسان على اعتبار أنها كتب داعرة ، لأنه يؤمن بأن أي نوع من التشديد على المتعة في الجنس هو عمل « شاذ » . وبهذا المقياس فإن « عشيق الليدي شاترلي » شاذ تماماً، كـ « بئر الوحدة » أو رواية انجوس ولسون « العلقم وما بعده » Hemlock and After) ومع ذلك فإن هناك القليل منا ممن هم على استعداد لأن يتقبلوا نظرية تولستوي كحلّ . فتولستوي يعتقد أنه إذا بلغ النوع البشري يوماً مرحلة الكمال شبه الالهي ، فإن الجنس سيختفي الا « كواجب » (لإستمرار النسل) يُقضى بين الحين والحين . ومن الصعب الاعتقاد ان تولستوي قد توصل الى رؤيا متزنة للدور الذي يلعبه الجنس في تكوين الانسان الشامل .

هذا وأود في الفصول اللاحقة أن أحقق في مسألة الدور الذي يلعبه الجنس، وذلك من خلال دراسة دور الجنس في حياة عدد من الرجال والنساء والنظريات الجنسية التي تستبطنها مواقفهم واتجاهاتهم .



الفصل الثاني

اللاتمييز والدافع الكازانوفي

سيكولوجية الجنس عند جورديف . مان وفاوست .
كازانوفا ، فرانك هاريس ، و « حياتي وغرامياتي » .
هنري ميلر . قضية . « م » . قضية أرتسيباشيف الغريبة.
الجنس والمرأة .



الى أي حدّ يعتبر اللاتمييز أمراً غير طبيعي ؟ هذا السؤال يصح أن يكون نقطة انطلاق مواتية لبحث قضية الشذوذ . ولقـــد اعتبره تولستوي على وجه التأكيد اختلالاً جنسياً يستحق الردع كالوحشية والسادية وإن يكن أكثر منهما شيوعاً. وقد قلت في مكان سابق إن نظرة « جوردييف » إلى «المركز الجنسي» تقوم ضمناً فيما يبدو على نظرية « الجنس الطبيعي » الذي يُمارَس بين رجل واحد وامرأة واحدة ، وهي نظرية مماثـــلة لنظرية لورنس ، الا أنه من الطريف أن نعلم أن « جوردييف » كان يُعتبر « دون‌جواناً » إلى حد ما .

يروي « روم لاندو » في كتابه « الله هو مغامرتي » حكايات عن « خلود » جوردييف بالنسبة لتلميذاته ، ومن ضمنها حكايـــة امرأة كانت تجلس في مطعم عام حينما أحست فجأة بتهيج جنسي مرتفع ، كأن أحـــداً « اخترق مركزها الجنسي » . ولما تلفتت وجدت جوردييف يجلس قريباً منها ، وقد كانت عيناه مسلطتين عليها[١] .

وسواء أصح أم لم يصح أن جوردييف كان يمتلك مثل هذه القـدرة العجيبة على التأثير على امرأة عن بعد، فإن للحكايات التي تشبه الأساطير عن دون‌جوانيته أساساً من الصحة بلا شك ، كما وأن عدداً من أبنائه غير الشرعيين يعيشون الآن في أميركا[٢] .

---

١ ـ مثل هذه الحكايات ، تنسب الى جوردييف طاقات وقدرات روحية غريبة ، كما أن وسبنسكي يعلن أنه قد أختبر شخصياً مقدرة جوردييف « التلباثية » In Search of the Miraculous).

٢ ـ وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله عدل لورنس في « فونتينبلو» عن أن يصبح تلميذاً لجوردييف .

إن التناقض الملاحظ هنا على قدر كبير من الأهمية ؛ ولقد أدلى جورديف ببيانات متعددة عن المركز الجنسي ، وقال إنه أعلى المراكز الخمسة وهو يعمل بطاقة صافية ، وهناك مركزان فقط يعلوان عليه: المركز « العاطفي الأعلى » والمركز « الفكري الأعلى » ، ويعمل المركز العاطفي الأعلى بنفس الطاقة التي تسيّر المركز الجنسي ، وهذا يعني ضمناً أنه في نفس مستوى المركز الجنسي .

وقد صبّ جورديف اهتمامه الأكبر على دراسة « الجهاز الإنساني » وعمله ، واستنتج أن « المعمل الإنساني » قد صمم للإنتاج الضخم لكنه لا يصل الى أكثر من جزء بسيط من « قدرته الإنتاجية الكاملة » لأن الناس ، بسبب قصر نظرهم ، لا يهتمون الا بحاجاتهم ورغباتهم الخاصة ، ولا يقومون أبداً بإستكشاف كامل امكانياتهم . ولكي نوضح ذلك بتشبيه أبسط نقول : إن الجهاز الانساني يشبه طائرة بأربعة محركات ، لكنها لا تستعمل الا محركاً واحداً . وفي الواقع فإن النشوة الجنسية غالباً ما تخلق في الانسان شعوراً بقوة عظيمة ، كأنما راحت كل المحركات الأربعة تعمل معاً لفترة مؤقتة ، ولكن هذه القوة تختفي بعد لحظات قليلة . ويقول جورديف كذلك إن حالات « الوعي الأعظم » التي يحس بها الغيبيون والصوفيون هي نتيجة لعمل «المركزين الأعليين » ، الا أن معظم الناس يقضون حياتهم وهم يجهلون تماماً أنهم يملكون مراكز عليا .

وسواءً أكنا ميالين الى قبول سيكولوجية جورديف أم لا ، فإنه لا يمكن انكار أن الناس يحسّون أحياناً بلحظات من « الرؤيا الداخلية » ومن اليقين والوثوق « بالحياة » عامة ، وهو أمر يدل ضمناً على أن حالة الوعي العادية التي نعيشها كل يوم ، هي حالة فقيرة وضحلة وناقصة . وهذا الموضوع يصلح لأن يكون مدخلاً الى دراسة الجنس .

والتناقض في آراء جورديف بدأ يبرز لنا الآن : « فالعادية » تعني أن يعمل المركز الجنسي « بصدق » مستعملاً طاقته الخاصة . وهذا يذكرنا بحالة مثالية لورنسية يرضي فيها الرجل والمرأة بعضهما البعض بطريقة ما إرضاءً تاماً ،

ومن الناحية الأخرى فإن « اللاطبيعية » تبدأ حين يعتبر أحد الشريكين شريكه الآخر مجرد أداة سلبية للمتعة ، وهي حالة يمكن أن تؤدي الى ذلك النوع من جرائم القتل الجنسية التي وصفها بول دي ريفر . لكن هذه « الغرابة» أو « الاحساس اللاشخصي » هي أصل الدون جوانية . ومن الصعب أن نتخيل رجلا متزنا تمام الاتزان ، رجلا قويا غير عصبي يمتلك مركز ثقل فعليا ومعرفة عميقة بواقعه الخاص ، وشخصية « جوهرية » ، يقضي حياته في ممارسة الإغراء بتحمس . فإما ان تكون نظرية جورديف حول المركز الجنسي هي أكثر تناقضا مما يبدو ، أو أن جورديف نفسه كان شخصية أقل تكاملا مما كان يتظاهر به .

المسألة الأخيرة على كل حال تكاد تكون غير ذات علاقة في هذا السياق ، أما المسألة التي سبقتها فتستحق أن نبقيها في اعتبارنا .

إن الحافز إلى اللاتمييز الجنسي يعتبر عموما مرضا حين يصل الى نقطة « فقدان السيطرة عليه » .

يطلق على هذه الحالة ، بالنسبة للنساء ، اسم « الشبق النسائي » أو « النمفومانية » . أما اسمها بالنسبة للرجل فهو « Satyriasis » « شراهة الجماع » . ولقد أشار علماء الجنس الى أن النمفومانية ، هي في الغالب نتيجة للبرود الجنسي عند النساء ، لأن المرأة المعنية لا تستطيع أن تكتسب رضى عميقا من العملية الجنسية فهي تندفع إلى إعادة هذه العملية بغية الوصول إلى المتعة . وقد تضمنت السجلات والوقائع التي أمكنني الاطلاع عليها عند تحضير هذا الكتاب الحالة الطريفة التالية :

« أصيب (...) وهو شاب في أوائل العشرينات بإنهيار عصبي بعد أن عاش مدة ستة أشهر مع إمرأة ، وصفها على حد قوله ، بأنها مصابة بالشبق ، وقد كانت يهودية تكبره بعدة سنوات وتعمل بالصحافة . ولم تكن قادرة على الاخلاص له ، لأنها كانت تجد متعة كبيرة في وصف خياناتها له ، وقد كانت تشعر بأن المتعة التي كانت تستنبطها من وصف هذه الخيانات ستنتقل بالتبعية له

كما وأنها كانت كثيراً ما تتهيج جنسياً وهي تنساق في سرد حكاياتها . ويذكر (...) حادثة معينة ادعت المرأة بأنها حدثت لها في احدى الحفلات ، فقد دخلت إلى غرفة المعاطف لتأخذ معطفها ، وهناك انحنت إلى الأسفل لتعدّل رباط جوربها ، وبينما كانت في وضع الانحناء هذا ، دخل رجل الغرفة ووقف خلفها يراقبها ، ولم تستطع الاّ أن ترى بنطلونه وحذاءه ، وبعد لحظات قليلة تقدم الرجل ورفع ثوبها من الخلف ، وأولج قضيبه فيها ، وبعد أن تمت عملية القذف ، غادر الغرفة دون أن يقول كلمة لها ، أما هي فقد ظنت بأنه ثمل . طوال « التجربة » هذه لم تنظر الى وجهه ، ولذلك فإنها كانت واثقة من أنه لن يمكنها التعرف عليه إذا قابلته مرة أخرى . »

وهنا يظهر لنا بوضوح أن بعض المتعة التي تحققت لدى المرأة كانت ناتجة عن **مجهولية الشخص الآخر** . ولقد أبرز وضع الإنحناء ، الحيوانية الجاثمة فيها بينما كان الرجل مجهولاً بلا هوية وبلا وجه مثل كلب شريد .

ومن الملاحظ هنا ، أن هذه المرأة لم تذكر إن كانت قد أدركت ذروة النشوة الجنسية أم لا ، وأغلب الظن أنها لم تدركها وأنها من نوع « الشبقات الباردات » . ومن الخطأ أن نعتبر أن كل النساء الشبقات بطيئات في بلوغ ذروة النشوة الجنسية .

يروي الشاعر الأميركي « ركسروث » حالة تدحض هذه الفكرة :

فقد ألقي القبض على فتاة وُجّهت إليها تهمة البغاء ، إلا أن الشرطة لم تستطع أن تثبت التهمة لأن الفتاة لم تأخذ ثمناً لقاء خدماتها مع الرجال . ولذلك أحيلت إلى لجنة نفسانية كان المستر « ركسروث » عضواً فيها . وروت الفتاة للجنة أنها ، في يوم زواجها ، قضت هي وزوجها عدة ساعات في الفراش في غرفة بأحد الفنادق ، وعلى أثر ذلك مباشرة نزلت إلى الشارع وسارت إلى حديقة « سنترال بارك العامة » وأغوت رجلاً بان يصطحبها معه إلى غرفة بأحد الفنادق وأن يضاجعها . واستطاعت في ذلك اليوم أن تمارس العملية الجنسية مع رجال آخرين قبل أن تعود إلى زوجها . وفي الأيام اللاحقة حين كان زوجها

غائباً في عمله ، اتخذت من مضاجعة رجال غرباء تلتقطهم في الشوارع ، عــادة يومية .

وقد سألتها اللجنة إن كانت عملية الجماع الأصلية بينها وبين زوجها قد فشلت في ارضائها جنسياً إلى حد دفعها للبحث عن المتعـــة في مكان آخر ومع رجال آخرين ، فأجابت قائلة :

— « لا أبداً . فقـد استمتعت بها إلى درجة دفعتني لأن أعيــد ممارستها مباشرة » .

وقد أكدت الفتاة أنها كانت تبلغ النشوة الجنسية مع كل رجل ضاجعها، وأنها كانت تشعر بالإكتفاء أيضاً ، الا أن الرغبة كانت تجتاحها مرة أخرى بعد ساعة واحدة. وقد اعتبرتها اللجنة حالة غير عادية من الشهوة الجسدية المتعطشة أبداً.

وكلا هاتين الحالتين تؤكدان عنصر « الإحساس اللاشخصي » أو (الغرابة) الذي هو فيما يبدو على قدر كبير من الأهمية في الجنس .

ويبحث توماس مان هذا الموضوع في روايته « دكتور فاوست » :

يتحدث « أدريان ليفركون » ، بعـد زواج أخته ، عن قيــام الكنيسة بـ « توليف الجنس » فيقول بأن العلاقة بين المحبين تقوم على الغرابة ، ولذلك فإن القول « إن هذين الاثنين (أي الزوج والزوجة) سيكونان جسداً واحداً » هو قول غير دقيق ، لأن ذلك سيعني انتهاء هذه الغرابة . ويقول ليفركون إن شهوة جسد لجسد آخر ليست مجرد رغبة شهوانية ، بل هي كذلك حب ، لأن « الجسد ، عادة ، غير مؤذ مع نفسه فقط ، فــإذا كان هناك جسد آخر على شاكلته فإنه لن يجد شيئاً بفعله . وإن إنهيار هذه المقاومة في الإتحاد الجنسي هي ظاهرة « تسميتُها بالشهوانية مجرد كلمة فارغة » .

ولقد وضع « مان » يده هنا على نقطة هامة وعميقة . إلا أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن مقاومة أي جسد غريب هي جزء من تربية المجتمع المتمدن . فإن الرجل المتمدن لا يمكنه أن يأكل صحن طعــام رجل آخر ، أو يلبس سترته ، لكن الأطفال والحيوانات لا يبالغون عادة بمثل هذه الأشياء، وكلما ازداد الإنسان

تمدنـــاً ، إزداد تمسكه في علاقاته مع غيره من الناس بمبدأ « لا تلمسني » وهي الجملة التي كان لورنس مغرماً بترديدها . ولقـــد قال برنارد شو على لسان تانر ، أحـــد أبطاله : « كلما ازدادت الأشياء التي يخجل منها الإنسان ، كلما إزداد اعتباره » . وفي رواية جورج أورويل « ١٩٨٤ » نجد أن احدى « الفظاعات النفسانية » الاساسية التي تشتمل عليها الرواية هي فكرة فرض رقابة دائمة على الناس حتى وهم في المرحاض[١] .

وحين نشرت رواية « يوليس » لجيمس جويس أول مرة ، وجـد كثير من النـــاس أن أحد المشاهد التي كانت تبعث على الاشمئزاز فيها ، هو المشهد الذي تبصق فيه المسز بلوم قطعة جاتو كانت تمضغها ، في فم زوجها وذلك أثنـــاء المداعبة الجنسية .

كل ذلك يدل على فكرة هـــامة الا وهي ان الحضارة تكيّفنا بحيث يتولد عندنا كره للجسد الغريب « الآخر » وأن الجنس هو وسيلة هامة لإبطال مفعول هذا التكييف . ونحن نجد كثيراً من الأطفـــال والمراهقين ، الذين يجدون في فكرة الجنس نفوراً واشمئزازاً ؛ وهذا يتحول فيما بعد إلى عامل هام من عوامل الإفتتان بالجنس ، فمثلاً عملية استعمال اللسان عند التقبيل تبـــدو لهم منفّرة ومرغوبة في آن واحد،وبذلك تصبح رمزاً لهذا العالم«الغريب» والسامّ والمريع الذي هو الجنس ، وبهذا يرتبط الجنس عنـد الانسان منذ سن مبكرة بفكرة انتهاك نقاء الإنسان ، وبرغبته في أن لا « يُلمس » وباشمئزازه من القذارة ومن الجسد الغريب ، وكلما إزداد « طهر » الإنسان ، إزداد معه احتمال ربط الجنس « بالخطيئة » . ولا بد من إثارة هذه الفكرة في مكان لاحق وخاصة عنـد بحث موضوع السادية[٢] .

١ ـ في روسيا ، لاحظت أن كثيراً من المراحيض العامة هي عبـــارة عن مجرد ألواح من الخشب فيها تجويفات يقعي فوقها الرجال جنباً إلى جنب وسراويلهم منزلة ما حول أقدامهم
المؤلف

٢ ـ ربما تجدر الإشارة هنا إلى أن الحاجة الى تحقيق « الغرابة » ـ أي ايهام النفس بحصانة الشخص الآخر، وهو ما تقوم عليه كل الرغبات الجنسية تصل إلى حالة متطرفة طريفة تعرف =

ولذلك يبدو جائزاً أن كثيراً من حـالات الشبق النسائي تشتمل على ثورة ضد تكييف التمدن . ويبدو ذلك بوضوح خاص في حـالة الفتاة التي سمحت لنفسها بأن « تُستعمل » وهي منحنية لتعديل رباط جوربها . فاللاتمييز ، على الأقل عند النساء ، قد يكون ضرباً من الهروب ، من الثورة على تعقد المدنية .

إن اللاتمييز عند النساء والرجال له سمة مشتركة واحـدة وهي الاحساس اللاشخصي نحو الطرف الجنسي الآخر . وأول ما يلفت انتباه القاريء في كتب مثل « مذكرات » لكازانوفا ، و « حياتي وغرامياتي » لفرانك هاريس هـو أنانية المؤلف المطلقة . حتى حين يؤكد أحدهما أنه كان شديـد الوله أو التعلق بإمرأة معيّنة فإن المرأة المعنية لا تترك أي انطباع عند القارىء .

ولن أقول إن هذين الكتابين من مستوى أدبي واحـد . فإن « مذكرات كازانوفا » هي تحفة أدبية رائعة ، وقد ظن بعض النقاد أن مؤلفها هو « ستندال » (التحقيقات التي أجريت في الآونة الأخيرة أثبتت اصالتها بدون أدنى شك) . أما كتاب فرانك هاريس فليس من مستوى جيد ، كما أن عـدداً من أجزائـه الأخـيرة « في طبعة باريس المحظورة » مكتوبـة بلا شك من قبـل كتاب

باسم « التهييـج الذاتي ») ، (وهذه الحالة هي غير الحالة الأخرى المعروفة باسم الاستمناء أو الأوثانية) التي يثير فيها الانسان نفسه جنسياً عن طريق تخيل وضع ، أو لقـاء جنسي ، مثل نزوة من نزوات شخص من الجنس الآخر مثلاً ، فالذي يمارس « التهييج الذاتي » يتهيج جنسياً عن طريق رؤيـة جسده هو .

وقد سمعت عن حالة طريفة حدثت في نوتنغهام ، لشاب كان يعيش وحيـداً في بيت ريفي قذر ، وكان يخاف من قوة رغباته الجنسية ، وكان يملك ميولاً لواطية دفينة ومستترة إلى حد أن منظر بنطال من تلك التي تستعمل لركوب الخيل ، كان يهيجه إلى مرحلة القذف ، ولكنه كان يتهيج كثيراً لدى رؤية جسده هو شخصياً في المرآة ، ولذلك حطم المرايا في بيته ، وسمع لواطي آخر بأزمة هذا الشاب ، « فأخذ بيده » وأعانه على تحويل ميوله ورغباته إلى أجساد ذكور آخرين ، وقد يكون في ذلك شذوذ لا يقل عن شذوذ حالته السابقة ، والمهم أن الشاب توقف عن الشعور بالذنب والاثم .

المؤلف

مستترين[1] .

وحين يعود القاريء بذاكرته إلى مثل هذين الكتابين فإنه لا يتذكر الأشخاص بل أحداثاً معينة . ولا يمكننا القول بأن كازانوفا كان مصاباً بالشذوذ ، ولكن مذكراته تحتوي على كل نزوة جنسية يمكن للإنسان أن يحلم بها ، وأنا لا أؤكد بأن هذه المذكرات هي بالضرورة غير صادقة ، بل انني في الواقع أعتقد بأن كازنوافا كان رجلاً صادقاً بصورة مدهشة[2] . وهذا مما جعل مذكراته مادة ممتعة للدراسة السيكولوجية الجنسية .

وقعت أول حادثة غرامية لكازانوفا وهو في سن المراهقة. أما تجربته الجنسية الأولى فلم تحدث مع امرأة واحدة بل مع اثنتين. فهو يضطجع بين أختين ويفض بكارتهما خلال نصف ساعة، ونقرأ بعد عدة فصول من الكتاب بأن كازانوفا يعيد هذه التجربة مع أختين جديدتين طبعاً (الجزء الأول ، الفصل العاشر) وفي الجزء الثالث تطالعنا حادثة تعكس تصرفاته .

يجلس كازانوفا أثناء احدى حفلات لعب القمار ، قرب المدفأة وينغمس في حديث جذاب مع فتاة صغيرة كانت قد تركت ديراً للراهبات منذ مدة قصيرة، وينتقل الحديث إلى موضوع الجنس ، وترتعش الفتاة عندما يخرج كازانوفا عضوه التناسلي أمام عينيها لتراه ، ثم يختطف يدها ويستعملها في اداء العادة السرية . وتصبح الفتاة فيما بعد عشيقته بعد أن يعدها بالزواج . والطريف في الأمر أن كازانوفا لا يستطيع حتى أن يتذكر اسم الفتاة بل يرمز إليها باسم العائلة، وهذا أمر ملازم له .

ومثالنا السابق يوضح كغيره من الأمثلة تلك الظاهرة عند كازانوفا والتي يمكن أن نسميها ظاهرة « تحقيق الرغبات » أي الحكايات التي يهيأ للقاريء أنها

---

١ - الكاتب المستتر ، وهو ما يطلق عليه بالإنكليزية اسم Ghost (أي الشبح) ، هو في الواقع كاتب مرتزق يكتب لغيره من الناس ، ويأخذ ثمناً لكتابته ، ويبقى بعيداً عن الأضواء . (م . ه) .

٢ - كل النقاط التي سترد حول المذكرات من الآن فصاعداً ، تتعلق ، أو هي مأخوذة من طبعة « اليك E lek » وهي ترجمة آرثر ماشن .

ابتدعت خصيصاً لغرض تحقيق كسب من ناشري أدب الدعارة. (في الواقع أن « المذكرات » لم تكن قد أتمت عند موت كازانوفا ولم تنشر قط أثناء بقائه على قيد الحياة) .

ومن النادر أن يلاقي كازانوفا إعراضاً أو مهانـــة من النساء التي وقع عليهن اختياره ، وإن حدث وعارضت واحدة منهن غزله ، فنجده قد التجأ الى الحيلة (الجزء الثالث ، الفصل السادس) وهناك حكاية الفتاة التي هجرته واتخذت لها عشيقاً ، ثم حملت من عشيقها الجديد ، فعادت إلى كازانوفا طالبة منه المساعدة في إجهاض الجنين، فأقنعها بأن لديه طريقة فعالة للإجهاض، وفعاليتها لا تتحقق الا اذا استعمل السائل المنوي فيها . وعرض كازانوفا ، بصدق عميق ، خدماته في توفير السائل المنوي لتنفيذ « العملية » . وسمحت له الفتاة الساذجة بإمتلاكها عدة مرات اقتناعاً منها بصدقه ، ثم اضطرت أن تذهب إلى دير لوضع وليدها بعد أن فشلت طريقة كازانوفا في الاجهاض .

وفي حادثـــة أخرى ينجح كازانوفا في فض بكارة فتاة تزوجت حديثاً من رجل مصاب بالعجز الجنسي ، كما أنه يقضي حفـلة تهتكية خاصة مع ثـــلاث فتيات يمتنع عن وصفهن ويتكتم أمرهن بشكل غـــير عادي . وفجأة يتحول كازانوفا في « مذكراته » إلى صاحب مصنع ، ويضاجع معظم الفتيـــات العاملات في مصنعه ، وهو يعتبر هذا حدثاً لا أهمية له . ويصفه بشكل عابر .

أما كتاب « فرانك هاريس » فيطابق هذا النسق تقريباً ، بـل إن اسلوبه يبدو في بعض الأحيان تقليداً لإسلوب كازانوفا، ويشتهر هاريس بدوره في فض بكارة الفتيات وممارسة علاقات غرامية مع فتيات بريئات . ويبدو عليه أنـــه أقل تميزاً من كازانوفا ، فالأخير كان رجـلاً يتمتع بالحياة في كافـــة صورها ، وخاصة حياة الترف والمجتمعات الراقية ، وكان يعطينا الانطباع بأنه كان يفكر في أشياء كثيرة إلى جانب الجنس ، أما هاريس فلم يكن يتوقف عـن التفكير في الجنس ، ولم يكن ينظر إلى أية فتاة دون أن يتخيلها معه في الفراش .

لكن هاريس وكازانوفا يمتلكان صفة مشتركة وهي أن كلاهمـا مخـــادع ،

وسيرتها الذاتية ذات مظهر خارجي خادع ، كلاهما يروي قصصاً كثيرة ضد شخصيته ، ويروي أيضاً قصصاً تافهة لا مغزى لها ، مما يجعلها تبدو أكثر صدقاً. ولا يدعان شكاً في ذهن القارىء بأنهما محتالان راسخان في الاحتيال ، فكلاهما قضى عمره وهو يحاول الحصول على إعجاب الناس بـه ، وتوطيد شخصيته في المجتمع ، بما يدعيه لنفسه من صفات . فقد ألصق كازانوفا على اسمه لقباً كبيراً رنانا ، وهو إبن الممثل المغمور ، ولم يكلف نفسه أبداً عناء خـداع القارىء فيما يتعلق بلقبه هذا وبأصله ونسبه . وكلاهما عاش حياة اكتنفتها مصاعب كثيرة ، بل انهما في فترة من الفترات دُمغا بالنصب والاحتيال . ثم إن كليهما كان يحيط نفسه بهالة من النزاهة والاستقامة . (يصف برنارد شو ، هاريس بأنه قرصان كثير التهويش ذو موهبـة خطابية رابيليه[1] . لكن الذي يقرأ سيرة هاريس الذاتية لا يمكنه أن يلحظ ذلك) .

إن كل ما تقدم من شأنه أن يساعـد القارىء على تفهم سببيّة « جنون الاغواء » التي كانت تتقمص كلا الرجلين . كلاهما بدأ بداية صعبة ، وكلاهما كان شاباً شديد الذكاء ، لكنه غير مقبول إجتماعياً في عصر كان يعلق أهميـة كبيرة على مثل هذه الأمور ، فقد كان موقفهما تجاه المجتمع موقفاً دفاعيـاً . كانا « ناشئين » اختلطا بمن كان أرفع مقاماً منهما في المجتمع ، وكانا يفعلان ذلـك بشعور واع بالخداع ، ولم يشعر أبداً بالانسجام الطبيعي مع المجتمع ، كالانسجام الذي حققه رجال مثـل بيتهوفن أو برنارد شو اللذين قبلهما المجتمع لمـا لهما من صفات . والواقع أن هاريس وكازانوفا كانا يملكان من المواهب ما كان يؤهلهما للمطالبة بمثل هذا القبول ، لكنهما بدآ ا بداية خاطئة عن طريق خـادع، وظل شعور الخداع يلازمهما طيلة الوقت[2] .

---

١ – نسبة الى الكاتب الفرنسي الساخر الشهير فرانسوا رابيلي (١٤٩٥ – ١٥٥٣) .

٢ – كان برنارد شو من القلائل الذين عاملهم هاريس معاملة طبيعية، وسبب هـذا بأن شو كان يعامله دائماً بصراحة على اعتبار أنه مغامر ، وهذا ما جعل هاريس يحس بأنه لا يحتاج إلى أن يتظاهر معه أو يحاول خداعه .

وهكذا أصبح « الظفر الجنسي » بالنسبة لكل من هاريس وكازانوفا أساس الكرامة الشخصية والقيمة الذاتية . فقد يدفعهما المجتمع المثقف إلى تلك الحالة النفسية التي يضطران معها إلى الكذب والنفاق، ولكن نجاحها كعاشقين يعطيهما شعوراً بالتفوق. والجدير بالملاحظة أن كلاً منهما أنهى حياته بالبؤس والمرارة، فقد عاد كازانوفا الى البندقية التي كان قد هرب منها منذ سنين عديدة ، كجاسوس وواش ، وقضى نحبه في « دوكس » ببولنده حيث كان يعمل كأمين مكتبة الكونت والدشتاين . وقد قضى سنواته الأخيرة في كتابة مذكراته ، وفي تخيل مهانات وهمية والتحسّر على انقضاء « عصر الفروسية ». وقد اعتبره الجيل الأصغر كهلاً غريباً من عصر فات وانقضى . وهذا ما حدث لفرانك هاريس الذي مات فقيراً ومغموراً في جنوب فرنسا . وكلا الرجلين كتب مذكراته الشهيرة بعد أن أفل نجمه ولم يتبق له إلاّ ذكريات غزواته الجنسية ؛ وقد كانت الغزوات كما وردت في كتابيهما صحيحة إلى مدى بعيد ، ولكنها قد تكون كذلك « مزركشة » ، وعلى كل حال فقد كان الرجلان وهما يكتبانها يحسّان مرة أخرى بالقوة والرجولة . (وقد شدّد كلاهما على عدد المرات التي كانا « يُشبعان » فيها امرأة ما في ليلة واحدة) . فإذا اعتبر هاريس وكازانوفا مثالاً على النفسية الدون جوانية ، فإن هناك إذن على ما يظهر فارقاً شاسعاً بين مسببات اللاتمييز لدى النساء ولدى الرجال . بالنسبة للنساء فإن اللاتمييز قد يكون ناتجاً عن نوع من التمرد المقلوب والمعوج عن دافع محطم للذات ، أو عن حاجة لتحدي المجتمع بإشارة بذيئة ، أما بالنسبة للرجال، فإن اللاتمييز ينشأ فيما يبدو عن عامل أبسط الا وهو التطلع الإرادي المباشر إلى القوة التي لا تعتبر دليلاً على القوة ، فإن الدون جوانية قد تدل على فقدان الإيمان الأساسي بالنفس ، لأن الرجال الذين يعجزون عن اثبات شخصياتهم بين الرجال ، يفعلون ذلك بين النساء . والرجل غير العادي أو الخلاق والذي لم يجد الطريق الواضح لإبراز موهبته كفنان رائع، أو مفكر أو عسكري، يلتجيء الى الغزوات الجنسية لتأكيد اعتباره الذاتي ولإبراز شخصيته . والدون جوانية بين الرجال ذوي المواهب الأصيلة ، هي في

الغالب مرحلة مبكرة تضمحل تدريجياً ليحل محلها انتاج أكثر جدية[1] :

والشيء الرئيسي الذي نتوصل إليه من دراستنا لكازانوفا وهاريس هو أن النفسية الدون جوانية غالبـــاً ما تكون مصحوبة بإحتيال مألوف وميول إجرامية. وقد روى لنا برنارد شو حكاية طريفة عن زميله الاشتراكي « ادوارد أفيلنج » الذي اقتبس شو منه بعض ملامح شخصية لويس دوبدات في مسرحيته « ورطة الطبيب » .

كان أفيلنج كما يقول شو ، اشتراكياً مؤمناً من ذلك النـوع من الرجال الذين يموتون في سبيل عقيدتهم ، الا أنه كان متجرداً تماماً من الأخـــلاق ، فيما يتعلق بالنساء والمال ، وقـــد كان يعطي دروساً خصوصية في علم الطبيعة لعدد من الطالبات ، فكان يغري الجميلات منهن ويحتـــال على غير الجميلات ، وعاش مع اليانور ماركس لسنوات عديدة ، ثم طلقته زوجته ، فتزوج من امرأة أخرى ، وشجع اليانور على الإنتحار (وقد انتحرت بالفعل) .

وقد كان شو مبهوراً بما يحمل أفيلنج في شخصيته من مثالية شيلي ومن دناءة مطلقة مع النساء . (إن هذا المركّب قد لا يكون بالغرابة التي يبـــدو فيها ،

---

١ – بمثال على ذلك ، جيمس جويس . فهو يكتب في قصيدة « ذاتية » من بواكير انتاجه اسمها « المنصب المقدس » :

ولكل فتاة خجولة ومضطربة الأعصاب
أهب خدمـــة لطيفة ممـــاثلة ...
وفى الليل حين تستلقي بقربي على الفراش
وتحس بيـــدي بين فخذيها ...
تدرك حبيبتي الصغيرة المرتدية لباساً خفيفاً
معنى الشعله الرقيقة التي اسمها الرغبـــة .

وهذه القصيدة هي من أحلام التمني عند جويس ، فعلى الرغم من تصريحاته الكثيرة ، من أنه فذ في اغواء الفتيات ، فإن مغامراتـــه كانت في غالبها تتم مع المومسات ، بل إنه في روايتـــه « Stephen Hero » لا يخفي فشله في تقليد كازانوفـا ،.وقد اختفى هـــذا التظاهر بالمقدرة الغوالية الفذة حين كتب جويس وروايتـــه « A Portrait of the Artist as a Young Man » ولم يظهر مرة أخرى في انتاجه اللاحق .

فإن آراء شيلي حول النساء لم تكن تحبذ الزواج أو الإخلاص الزوجي ، وقد كان أفيلنج تلميـــذاً وفياً لشيلي بل إنه توفي وهو ينشد أبياتاً من قصيدة شيلي « بروميثيوس طليقاً ») . لكن الربط بين الإحتيال والدون جوانية قد يكون أمراً غير صائب تماماً . ولعله من الأصح أن نقول إن هناك نوعاً من الرجـــال الموهوبين الذين تكون ثقتهم بشخصياتهم أقــل من مستوى حيويتهم ، والأمر المثالي هو ذلك الذى يجمع بين الموهبة والثقة بالنفس . مثل بيتهوفن وشكسبير وبرنارد شو ، ولعل أبلغ مثال على أقصى حد تبلغه حالة الموهبة التي تفقد الثقة بالنفس هو مثــال د. ه . لورنس الذي أثر مركب النقص عنده حتى على مقدرته الجنسية . على أن هاريس وكازانوفا حالتان أقل حدة من حالة لورنس .

ومن وجهة النظر هذه فإن كتابات هنري ميلر لا تقل متعة عمّا تقدم .

هنري ميلر :

ميلر شخصية أكثر تعقيـــداً من شخصيتي كازانوفا وهاريس ، كما أنه كاتب أروع منهما ، والخصائص الأولية التي تطالع كل من يقرأ روايته « مدار الجدي The Tropic of Capricorn » ورواية « الصلب الوردي Rosy Crucifixion » ، هي عمق إدراكاته الوجدانية ومقدرته اللغوية الممتازة ، وصحيح أن ميلر ليس مفكراً ، لكنه مع ذلك يُكسب كتاباته الذاتية نوعاً من الإدراك الملهم العميق الذي يمكن مقارنته بكتابات د.ه. لورنس .

سأكون مسروراً لو أمكنني القول إن ميلر كاتب يمكن النظر إلى أعمـــاله بنفس الجدية التي ننظر بها إلى لورنس ، ولكن ذلـــك مستحيل مع الأسف ، نظراً لأن ميلر شخصياً لا ينظر إلى نفسه نظرة جدية[1] . وسيبقى ميـــلر لسنين طويلة يسبب حرجاً للنقاد ، وذلـــك لأن خمسة وسبعين بالمئة مما يكتبه يعتبر كتابه جدية تفكيرية ، في حين أن الخمسة وعشرين بالمئة الباقية ، هي بالفعـــل

---

١ – بالرغم من أن الكثير من النقاد الكبار مثل سير هربرت ريد ، لا يترددون في أن يضموه في منزلة واحدة مع لورنس .

دعارة مكشوفة .

وإلى أن تم نشر روايتي ميلر « مـــدار الجدي » و « مدار السرطان » The Tropic of Cancer » في الولايات المتحدة ، فإن ميلر كان يعيش مما يبـاع من هاتين الروايتين المطبوعتين في باريس للسواح الأميركيين والبريطانيين الذين كانوا يردون باريس لشراء « الكتب البذيئة » . وقد كانت هناك همسات تدور في الجو قائلة بأن ميلر حينما كتب روايته الأولى « مدار السرطان » كان يفكر بالسواح ، ثم قرر أن يضع بعضاً من كتاباته الجدية ، التي لم يجد لها سوقاً بعد، في كتاب كان لا بد له من أن ينتشر انتشاراً واسعاً .

إن من المستحيل القول مـــا إذا كان ميلر سيصبح كاتباً أفضل لو أنه لم يبدأ انتاجه بكتب الدعارة . فهو لم يكن داعراً بالحرفة ، ولم يكتب عن الجنس لأن الجنس يمتلك عليه تفكيره ، والكثير من كتاباته تعطينا الإنطباع بـــأنه كان يضحك على نفسه ... وعلى القارىء ... حينما يسرد بعضاً من مغامراته الجنسية المضحكة ، فروح الفكاهة عنده تذكرنا بالبطاقات الفكاهية ، شبه البذيئة التي تباع أحياناً في برايتون وبلاكبول[1] . وكان يجـــد متعة شرسة في التشديد على ابراز الأمور غير المحتشمة المتعلقة بالعملية البراز الجنسية ، وبعملية أيضاً. وأهم كتبه حتى الآن هي « مدار الجـدي ومدار السرطان والصلب الوردي » المكون من ثلاثة أجزاء (سكسوس ، نكسوس وبليكسوس). ويعتبر ميلر كتابه الأخير هذا ، رائعته الأدبية .

والكتب الثلاثة تتحدث كلها عن شخصية الكاتب، وهي تتحدث في الغالب عن مغامرات وعلاقات ميلر الجنسية ، وتعتبر هذه المغامرات والعلاقات أكثر شمولاً من مغامرات كازانوفا ، أو أنها على الأقل مكتوبة بتفصيل أكثر ، فرواية « مدار السرطان » هي أكثر هذه الكتب غنائية ووجدانية ، ولكنها أقلهـــا استحقاقاً للقراءة . ولغة الرواية تبدو وكأنها مستوحاة من رامبو ولوتريامون ، أما فكرتها فهي ضحلة ، تدور حول حيـــاة بعض الأميركيين المغتربين والمقيمين

---

١ – مدينتان سياحيتان في انكلترا . (هـ. م.)

في باريس .

أما رواية « مدار الجدي » فهي رواية أفضل بكثير وهي تتحدث عن فترة سابقة من حياة ميلر في أميركا . وسردها القصصي مشتمل بالحيوية ، ولغتها أقل زخرفة ، ونجد فيها نقطة معينة نلاحظها مباشرة ، وهي أن ميلر ، على خلاف معظم الذين يكتبون عن أشخاصهم ، لا يهتم مطلقـــاً بأن يكسب شخصه أي قسط من الوقار أو الإحترام . كما لو كان قد قرر أنه ما دام سيؤلف كتاباً بذيئاً ويسرد فيه كل أنواع الكذب فليذهب الى نهاية الشوط وليمتنع عن تقريظ نفسه بقدر الإمكان .

إن هاريس وكازانوفا يرويان ، من جملة ما يرويان ، قصصاً تسيء لشخصيهما؛ لكن ميلر لا يفعل غير ذلك ، ولو أنه كان أقــل براءة ومرحاً ، لشكّ المرء في أنه من نوعيـــة أبطال دستويفسكي الذين يتلهفون إلى اذلال أنفسهم والادلاء بإعترافات علنية أمام الناس . وفي الواقع ، فإن المرء سرعان مـا يشتبه في أن هذه « الاعترافات » ما هي إلاّ وسيلة من وسائل « إعطاء القارىء تسلية بقيمة نقوده » ... ووسيلة أخرى من وسائل الضحك عليه ، بـل إن القارىء يشعر بأن ميلر على استعداد لأن يضمن احدى رواياته مشهداً يجامع فيه فيلاً لو أن ذلك سيسلي القارىء .

وفي رواياته يتحدث ميلر عن خياناتـــه الزوجية المستمرة ويروي حوادث متعددة تظهره كإنسان يستدين أو « يتسول » أو حتى يسرق ، وكذلك يروي قصصاً غير مؤدبة مسرحها مرحاض وبراز . ومثال على هــذه « الإعترافات » حكاية وردت في «مدار الجدي » حينما كانت زوجته طريحة الفراش بسبب مرض ألمّ بها ، وجاءت جارتها لتعتني بها ؛ وفي مرة من المرات انحنت الجارة ، وكانت تلبس قميص النوم ، على فراش الزوجة . فأقبل ميلر ووقف خلفها ثم رفع قميص نومها وراح يقوم « بالعمليــة » بينما راح الإثنان يتابعان حديثهما مـــع الزوجة للترويح والتخفيف عنها .

ومع أن ميلر يظهر نفسه بلباس اللامؤمن مطلقاً من أجــل الجنس والنقود ،

فإنه بلا شك لا يخلو من عاطفة اجتماعية ، كما أنه يمقت القسوة ، وينفق وقتاً طويلاً لكي يشرح للقارىء عيوب الحضارة الغربية وأمراضها . ولهذا السبب فان رواية « الصلب الوردي » هي من الغرائب الأدبية . فقد تخلل الرواية عدة عمليات تفصيلية للعملية الجنسية ... التي كثيراً ما تشارك فيها أكثر من امرأة واحدة ... وكذلك عدة مشاهد من الإغتصاب والحفلات الجنسية الماجنة . ويبدو أن الكاتب يريد أن يوقع القارىء في الحيرة ، وذلك بأن يخلق شخصيتين متضادتين لهنري ميلر :

شخصية ميلر المولع شغفاً بالقراءة والكتب والأفكار ، الذي كثيراً ما يشابه جدله جدل دستويفسكي ، والذي يهتم بأمور الناس ومشاكلهم . وهناك شخصية ميلر الدجّال والمتسول الذي لا دافع عنده في الحياة إلاّ الرغبة في « كبسة » سريعة غير لائقة والذي يسمي عضوه التناسلي « منقاراً » .

وميلر نفسه ينفي أن يكون القصد من وراء كتاباته هو الدعارة ، ومع أنه أقر بأن بعض ما ذكره من بطولات جنسية ليست صادقة كلية ، الاّ أنه يدعي بأن رواية « الصلب الوردي » هي محاولة نزيهة لسرد « الحقيقة الكاملة » . وقد يؤخذ القارىء بهذا إلى أن يفتح الكتاب ويطالع بعضاً من الحوادث الجنسية غير المعقولة التي ترد فيه والتي تعجّ بالكلمات الداعرة .

« وغرقنا في (...) عمياء . كان التاكسي يهتز ويتمايل وكانت أسناننا تصطك وتعض على لسان الآخر ، بينما كان السائل يطفح منها كالحساء الساخن ، الخ ... » .

« بلغت ذروة النشوة مرتين أو ثلاثاً ثم ارتمت منهوكة الى الوراء ، وابتسمت لي بوهن كظبية في كمين » .

إذن فإن الدون جوانية في ميلر هي أكثر تعقيداً حتى من هاريس وكازانوفا ، فقد كان هدف الأخيرين هو تمجيد نفسيهما ، أما ميلر فيهدف كما يبدو الى العكس من ذلك .

لكن الحكم العام الذي ينطبق على هاريس وكازانوفا يسري كذلك على ميلر ،

فإن موهبته تفوق ثقته بنفسه ، ومن ثم جديته كفنان . إن فقدان الإيمان بالنفس هذا يكاد يكون مرادفاً للزيف ، تماماً كما أن العنفوان المستعلي الذي يميز موسيقى بيتهوفن مرادف للصدق العنيف . وقراءة كتابات ميلر بجرعات كبيرة لها تأثير غريب : فهو مفكر مثير يخلص لإدراكاته وأحاسيسه الوجدانية دائماً . وحين يتحدث عن كُتّاب يحبهم ، كرامبو مثلاً ، فانه يستطيع أن يكون ناقداً أدبياً من الطراز الأول . وهناك أوقات تنهمر فيها أفكاره على الورق في دفق لاهث من الكلمات . إنه دائماً « رجل حي » مثل لورنس ، وهناك فترات تنصهر فيها معاً حيوية وقوة فكره انصهاراً تاماً رائعاً يخلّف الإنسان مأخوذاً بسحر عظمته .

ومع ذلك فمن الغريب أن قراءة مقاطع طويلة من كتاباته تترك أثراً كئيباً في الانسان ، ذلك أن الجو الخلقي لهذه الكتابات ميت ومثبط ومتعفن بعض الشيء . وهناك انسحاق وانعدام الكرامة الشخصية ، متعب وكئيب وإحساس بالهزيمة أعنف من إحساس سارتر وجويس .

إن كتبه لها سقف خلقي واطىء بحيث أن القارىء يجلس فيها بصعوبة ، رأسه محني، وركبتاه مطويتان، وهي تحمل في ثناياها حيوية توماس وولفة[1] ، ولكنها تفتقد الشاعرية والمثالية والحس البطولي والمأساوي ؛ وبإختصار فهي تفتقد العظمة . وحتى رابيلي يبدو متديناً ومثالياً إذا قورن بميلر . وإن ميلر في في أسوأ حالاته ، أي حين لا يأتيه الإلهام من الجنس أو الناس ، يكتب بلهجة شبه عدمية ، فكتابه « الكابوس المكيف الهواء » The Air - Conditioned Nightmare » مثلاً — وكله تهجم على أميركا — مليء بالمرارة والسأم والطعن ، ولا يحتوي على شيء من مزايا أعماله الجيدة .

إن القصد من هذا البحث المطول عن هاريس وكازانوفا وميلر هو محاولة اظهار العلاقة بين الدون جوانيه وانهيار القيم وكتاباتهم فيما لو أخذت على دفعات كبيرة تخلف في القارىء الحساس ضيقاً يصعب تحديده . هناك حركة

---

١ — نسبة الى الروائي الاميركي توماس وولف . (هـ.م.)

ولون في صفحاتها ، ولكنها حركة ولون أرجوحة الأطفال الدوارة .

وفي النهاية فإن رؤية هذه الكتابات للحياة هي رؤية عدمية . إنها كلها « صخب وغضب يدلان على لا شيء » ، فأعمال الكتّاب والشعراء والفلاسفة المثاليين ترتفع إلى ذرى تحاول أن تعطي للحياة معنى . وهناك ذرى كثيرة في كتابات ميلر وكازانوفا ، لكنها كلها عبارة عن ارضاء لشهوات وميول إنسانية عادية ، وهي لا تترك أثراً وراءها . فما دام الاثنان يعتبران الحياة مجرد مسرح لرغباتها ونزعاتها البيولوجيه فإن حسها الخلقي لا يختلف بطبيعة الحال عن الحس الخلقي « لثعلب في مزرعة للدواجن » . بالنسبة لهما ، يجب توقع السأم من الحياة الا إذا أمكن ايجاد تسليات ما . وهما يلجآن الى الخدع الصغيرة بنفس الفطرة التي يلجأ فيها الأطفال إلى الكذب للخروج من مأزق ما . وهما يزخران بالحياة وهذا ما يمنعهما من أن يصبحا مجرمين خطرين ، ومع ذلك فإن عدميتهما الخلقية هي أصل كل اجرام . (هذه نقطة سوف تتكرر في فصول لاحقة) . وإذا كانت شهواتها وحشية كشهوات كورتن أو غي دي ري ، فلن يكون هناك سبب يمنعهما من اشباعها. ويبدو أن حياة كازانوفا لم تكن تحتوي على شيء لم يشر إليه في هذه الأبيات القاسية لإليوت :

هؤلاء الذين يشحذون ناب الكلب ، يعنون الموت
هؤلاء الذين يلمعون بمجد الطائر الطنان ، يعنون الموت
هؤلاء الذين يجلسون في زريبة القناعة ، يعنون الموت
هؤلاء الذين يعانون نشوة الحيوانات ، يعنون الموت [1] .

هذه هي حياة كازانوفا في أربعة أبيات :

الجنس ، الطعام الجيد ، الغرور الشخصي والاستياء . وملخصها هو الموت . (إن هذه الفكرة تجد لها تعبيراً قوياً في رواية من تأليف آرثر شنيتزلر اسمها « عودة كازانوفا إلى الوطن » « Casanova's Homecoming » وهي «اضافة»

---

١ — من قصيدة « مارينا « Marina » — ت . س . اليوت . « مجموعة قصائد Collected Poems « صفحة ١١٣ .

من الخيال لمذكرات كازانوفا ، وتصور الرواية كازانوفا وهـو مسنّ وخائب الأمل وقبيح وعلى وشك أن يصبح مخبراً للشرطة .

إن تقديم مثال واحد آخر سيساعد على توضيح هذا الموضوع ، وفيما يلي أقتبس من مسوّدة كتاب لم ينشر بعد، والكتاب ترجمة لسيرة حياة الكاتب[1]. حيث نجد تحليلاً رائعاً لشخصية ضابط سابق نرمز إليه بحرف (م) ، وهذا الضابط من نوع « الدون جوان » الذي تحدثت عنه حتى الآن .

واليكم المقطع :

« م » ضابط سابق في سلاح الحرس ، كان حين تعرفت عليه لأول مرة في منتصف العشرينات ، وكان قد تلقى تعليمه في احدى المدارس الخاصة ثم في ساندهرست[2] ، ولقد عمل في الجيش لمدة عامين ثم قرر أن يساعد والده في تجارته . كان وسيماً وذا بنية رياضية ، يحب الشراب ، ويجد المتعة في اللعب بالمسدسات ، وكثيراً ما كان يسرف في الحديث عن تجاربه عندما كان ضمن قوات الاحتلال في ألمانيا . وهو يود لو أن روسيا تشعل الحرب مع العالم لكي يذهب ويحارب ، وكان يؤمن بأن زمن السلم يثبط الهمم ويقتل الروح المعنوية ، بل إنه كان يشعر باحتقار ضابط الجيش التقليدي للمدنيين وغيرهم . ويعتبرهم أناساً رخوين وفي حاجة الى انضباط صارم ، وكان يمتلك نوعاً من الايمان الغبي بالقوة التي كانت تبرز باستمرار في أحاديثه ، وخاصة حين يسرف في الشراب ، وكان معجباً بهتلر « كرجل قوي » وعلى الرغم مما كان يقوله عن العنف الجسماني والانضباط ، فإنه لم يكن يفتقر الى الذكاء أبداً ، فمكتبته المنزلية كانت تحتوي على تشكيلة واسعة من الاهتمامات . وحين كنت أدخل معه في مناقشات أو أحاديث عامة ، كانت قوة حجته ومنطقه كثيراً ما تدهشني . ومع ذلك فإنه كان يتصنع شعوراً بالاحتقار نحو كل « المثقفين » وإن يكن هذا الشعور مناقضاً

---

١ - مخطوطة الكتاب هي الآن في حوزتي بإذن من المؤلف ولقد أغفلت ذكر أية أسماء لأسباب واضحة . (المؤلف)

٢ - الكلية الحربية البريطانية . (م.م.)

للود الذي كان يبديه نحوي .

« تلي هذه الفقرة عدة فقرات تتحدث عن فلسفة القوة عند «م» وسأحذفها لعدم علاقتها بموضوع حديثنا) .

«... لكن ذلك كان أكثر ما يتضح في موقفه من الجنس، فقد كانت تجاربه مع النساء واسعة جداً ؛ وكان يدّعي أن عـــدد النساء اللواتي جامعهنّ مساو لعدد الأشهر التي مرت منذ عيد ميلاده الرابع عشر (١٤٠ على وجه التقريب)، وبينهن خليلتان كان يعيش معهما في ألمانيا .

وكان « م » صاحب الكثير من النظريات والمعتقدات عــن الجنس . فمثلاً كان كثيراً ما يصرح بأنه وجـــد القيام بالعادة السرية أكثر ارضاءً من مجامعة امرأة « لأنه يمكن التحكم بها بدقـــة أكثر » . وكان شديد المباهاة بقدرتـــه الجنسية . وكان يعتقد أنه إذا استطاع الرجـــل أن يبلغ النشوة الجنسية مرة ثانية مباشرة بعد المرة الأولى فإنه سيتمكن من ممارسة العملية طوال الليـــل بدون أية صعوبة تذكر . وقد ادعى أنه قـــد أثبت ذلك ، بأن أمكنه بلوغ النشوة عشر مرات في ليلة واحدة .

ومع أنه كان يتحدث كثيراً عــن الجنس – لا لأن الجنس و «إرادة القوة» كانا موضوعيه المحببين – إلا أنــه من الغريب أن اهتمامه به كان تجريبياً . ولا أستطيع اتهامه أبداً بأنه كان يتحدث عن المثيرات الجنسية لمجرد ذلك ..»

« وهناك قصة توضح بصورة عملية مدى سيطرة فكرتي الجنس وإرادة القوة على ذهن « م » . وقد وجدت هذه القصة ذات مغزى كبير ، وأنا أسردها الآن بأكبر ما تسمح به الذاكرة من الدقة » .

« أقام « م » حفلاً بمناسة عيـــد ميلاد عشيقته في أحد الفنادق الكبيرة ، وكانت بين المدعوين طالبة تدرس الرسم ، ُعرف عنها بأنهـــا مصابة بالشبق النسائي ، وصديق قـــديم من أيام الجيش . وكان هذا الأخير عملاقاً ذا جسد وصفه « م » بأنه « جسد إله اغريقي » . وقبل نهاية الحفل جـــاء إلى « م » وأسرّ اليه أن الطالبة تريـــد أن يضاجعها ، ولكنه مع الأسف لا يملك غرفة

تصلح لهذه العملية . وكان « م » ينزل في غرفة مزدوجة ذات سريرين منفردين في الفندق ، ولذلك عرض على صديقه بلا تردد أن يستعمل أحـد السريرين » .
« انتهى الحفل وصعد « م » وعشيقته إلى غرفتها . كانت العشيقة ثملة جـداً ، وما أن انتهى « م » من العملية الجنسية معها حتى راحت في نوم عميق . وبعد عشر دقائق دخل صديق « م » الغرفة ومعه الطالبة . خلعا ملابسهما في العتمة ثم صعدا إلى السرير . وظل « م » مستيقظاً ، وسرعان مـا سمع الفتاة تصدر أصواتاً تدل على أن الرجل لم يشبعها جنسيا. فصبر « م » قليلاً ثم سألها :

— « ما هي المشكلة ؟؟ » .

فأجابت الفتاة بأنها لم تشبع بعد ، وإن الرجل قد غرق في نومه .

وهنا سألها « م » إن كان بإمكانه أن يقدم خدماته . فوافقت . وأشعل«م» النور ، وأوقظ كلاهما ضابط الجيش وأقنعاه بأن يترك الفراش ، ثم إمتطى« م » الفتاة وراح يجامعها . وتهيج الضابط وهو يراقبهما ، وعندما انتهى « م » صعد الضابط إلى الفراش وجامع الفتاة مرة أخرى .

وقف « م » يراقبهما وقـد علق فيما بعد على المشهد في أحـد أحاديثه معي قائلاً : لقد كان جميلاً إلى درجة أنني نسيت أن أتهيج ، كانا وحشين جميلين » .
وأضاف أنه قد لاحظ بإهتمام خاص انعكاس النور على عضو الرجل التناسلي، وقال : « لا يـدرك الإنسان وهو يقوم بالعملية شخصياً أن عضوه التناسلي ملتمع » .

« ... عند هذا الحد كانت قد نشأت منافسة بين الرجلين . فما يكاد الواحد منهما ينتهي حتى يبدأ الآخر مرة أخرى ، أما الفتـاة فكان شبقها لا يروى . وعلى كل حال فعنـد الفجر نام الضابط على السرير الآخر (حيث كانت عشيقة « م » ما تزال في نومها) وبدأ يشخر .

قال « م » : كنت مصمماً على ألاّ أهزم » .

واستمر في مجامعة الفتاة حتى شكت أخيراً من وجود التهـاب بسبب كثرة الإحتكاك ، ولكن « م » استجمع كل قوته حتى أمكنه أن يبلغ النشوة مرة

أخيرة . ثم سار نحو المغسلة ليغسل يديه وعورته .

قال : — « نظرت إلى الأجساد الممـــدة في الغرفة ، وفجأة أحسست بـ... المنتصر ».

لا يمكنني أن أصف اللذة التي قال فيها هذه الجملة الأخيرة .

ثم مضى يقول بـأنه دحرج الضابط عن سريره إلى الأرض ونام حتى ساعة متأخرة من اليوم التالي » .

وفي مكان لاحق يدلي المؤلف نفسه بتعليقاته وملاحظاته التالية : « لم يكن « م » خلاقاً ، ولم يكن يحاول أن يعبر عن نفسه بالكتابة أو بالرسم وأعتقد أنه لم يكن لديه أي شغف خاص بالموسيقى . وقد أعطاني الإنطباع بأنه غير راض بإستمرار ، وقد ترك العمل مع أبيه مراراً ليشغل مناصب أخرى ، وعقـــد خطوبته على عدة فتيات ، ولكنه لم يستطع أن يكبت جمـــاح اشتهائه لنساء أخريات ، مما كان يدفع كل واحدة من خطيباته إلى هجره . وكان مولعاً بقراءة الكتب التي تروي قصص الشجاعة والصلابة الجسدية مثل حملة « كون تيكي » وتسلق قمة أفرست ورحلة سكوت إلى القطب الجنوبي ...

وبتتابع سريع عمل كرجل بوليس، وكصائد حيتان وكأحد أفراد فرسان البوليس الكنديين . وأعتقد أنه كان يعاني من السأم » .

هذه التفاصيل ترسم لنا صورة ممتعة لشخصية « الدون جوان المثـــالي » . ولأن هذه التفاصيل مكتوبة من قبـــل شخص آخر فإنه يمكنها إذن أن تعطينا فكرة أكثر صراحة وأقل تحيزاً مما نستدله من كتابات هاريس وكازانوفا وميلر الذين قد تختلف نظرتهم إلى أنفسهم عن نظرة معاصريهم اليهم. وهنا يمكننا أن ندرك بوضوح أن ذلك الإهتمام العميق بالجنس هو بديل لمنافذ طاقات خلاقة أخرى .

هناك طاقة وقوة جسدية وموقف معـين نحو الحرب وأشكال العـــدوان الأخرى يمكن أن تسمى مجازاً « بالنيتشوية » . ولكنه من الواضح كذلك أن المنافذ العادية للرجل السليم البنية ، كالرياضة والهوايات البدنية والعنيفة ، غير قادرة على إرضائه . لأن ظروفه الاجتماعية لا تتيح له أعمالاً تتطلب جهداً جسدياً

كبيراً . لكنه قد يجد سعادة أكبر في العمل كمزارع أو كعامل منجم .

إن « إيمانه الغبي بالقوة » يتطلب متنفساً ، وهو يجد نفسه في حب التسلط على الناس الآخرين وفي « الإنجازات الجنسية الباهرة » ، وفي الواقع أن الإنغماس في الجنس وفي التسلط هو المتنفس الوحيد لإرادة القوة .

وسلوكية « م » لا يمكن تسميتها سلوكيــة « شاذة » لكنها ذات مغزى كبير لأنها تقف على عتبة الشذوذ . ها هنا إنسان غير مهيأ تماماً لحيــاة منتصف القرن العشرين في أوروبا ، لكنه لو عاش قبــل مئتي عام لربما كان قد اختط لنفسه حياة مرضية تماماً في الجيش . وهو مثل كازانوفا وهاريس وميلر يجــد صعوبة في إيجاد مكان لنفسه في المجتمع . لأن مهنة « المغامر » لا تتوفر للإنسان في عصرنا هذا ، ولهذا فهو مضطر لأن يقبــل بأمور تافهة كبديل لها ، مثل أن يصبح رجل بوليس أو صائد حيتان . وعلى خلاف كازانوفا ، ليست عنده ميول إجرامية ... لأن ذلك لا يتمشى مع رغبتــه في التزعم والتسلط ... لكنه لا يملك أيضاً ميولاً خلاقة . فهو يملك طاقة هائلة وافتقاره لمتنفسات خلاقة يحوّل معظم هذه الطاقة الى الجنس . وقصته مع صديقه الضابط ومع طالبــة الرسم النمفومانية توفر منفذاً للحافزين الأساسيين فيــه : الإهتمام الزائد بالجنس وحافز التسلط على الآخرين .

إن العمليات الجنسية التي يشترك فيهــا أكثر من اثنين يسميها علماء النفس أحياناً « بالجماعية » ويشار إليها مراراً كشذوذ بسيط . في الحــالة المعنية هذه يمكننا أن ندرك أن « الشذوذ » كان هنــا نتيجة بسيطة لفشل وخيبة الطاقة الخلاقة

وهناك أخيراً إضافة طريفة لحالة « م » ، ومع أنها تبدو غير ذات علاقــة وثيقة بمشاكل الجنس ، إلاّ أن مغزاها سيبتدى لنا فيما بعد أثنــاء بحث « القيم الوجودية » . ففيما يتعلق بإحساس القوة عند « م » يضيف المؤلف ما يلي :

« ولقد تناقشنا يوماً حول موقفه الجسدي الكلي من الحياة . وإعترضت على تكرار تجربته وقلت له إن مئة عملية جنسية لن تعلم الانسان أكثر ممــا علمته

العملية الأولى . فقال لي إن ذلك غير صحيح وإن كل عملية تختلف بصورة لا منظورة عن كل العمليات الأخرى .

قلت له : ولكن ما فائدة تعلمّ شيء إن كنا سننساه في اليوم التالي ؟

ولا أستطيع أن أنقل جوابه على ذلك بالتمام ، لكن هذا الجاب أدهشني .

قال : — إن كل شيء « يتعلمه » الانسان ينتقل تلغرافياً بطريقة ما إلى اللانهائي (وكان بإمكانه أن يقول الله) بحيث لا يضيع أي شيء أبداً . ولذلك فإنه ليس من مهمة البشر أن يختزنوا ويتبادلوا كل تجاربهم ، بل إن مهمتهم هي فقط البحث عن تجربة جديدة ، وما يتعلمونه منها يبقى محفوظاً في سجل أزلي ما .

يستدل من هذا أن « م » يختلف عن نمط الدون جوان العادي في ناحية هامة واحدة وهي أنه يشعر بحاجة ما لايجاد تماسك أو ترابط منطقي . وهذه نقطة جديرة بالملاحظة . فإن الدون جوانيين قليلاً ما يكونون من المفكرين ، وهذا الحكم يصح اطلاقه عموماً على كل أنواع الشاذين جنسياً . فكل تجربة « كافية حتى اللحظة الحاضرة » . أما بالنسبة للرجال والنساء الذين يهمهم جداً ايجاد « معنى » للحياة ، فان كثرة الاستمرار في التجربة الجنسية ، حسبما اتفق ، قد تخلق فيهم احساساً انتحارياً بالعقم والعبث .

قضية ارتسيباشيف الغريبة :

ليس هناك أدل على هذا الاحساس من الحياة الادبية لمثيل أرتسيباشيف الكاتب الروسي الذي توفي في عام ١٩٢٧ والذي تعتبر رواياته فلسفة دون جوانية متقدمة .

نال أرتسيباشيف شهرة كبيرة عام ١٩٠٦ حين نشرت روايته « سانين » التي يبشر بطلها الشبيه بأبطال أبسن ، بحرية التصرف والسلوك المطلقة . إنه يكره الكلمات الضخمة الرنانة ، حتى أكثر من أبطال همنغواي ، والذي يؤمن كذلك بأن على الانسان ان يتمتع بالحياة والا ّيجعل نفسه تعيساً وبائساً، وموقفه

يتلخص في كلمات الأغنية القديمة التي تقول :

آ كل حين أكون جائعاً
وأشرب حين أكون جافاً
وإن لم يقتلني الويسكي
فسأظل أعيش الى أن أموت .

إن سانين هذا يفض بلا وازع بكارة الفتـاة التي يحبها أقرب أصدقائه ، فينتحر الصديق ، وحين يطلب من سانين أن يلقي كلمة عند قبر الصديق لا يجد ما يقوله الا « نقص العالم أحمق واحداً » .

وهناك اشارة قوية في الرواية، تتعلق بإرتكاب الفحشاء مع الأهل المحرمين. ويبدو من الواضح أنه لو سمح الرقيب بذلك لكان ارتسيباشيف قد وجـد متعة كبيرة في تحويل هذه الإشارة إلى علاقة بين سانين وأخته . ومع أن رواية « سانين » تتضمن العديد من الإنتحارات ، الا أنها رواية مرحة وبهجة .

أما روايته التالية « المليونير » فهي تحفل بالسوداوية القاتمة ، وفي الرواية مشهد يقوم فيه المليونير الذي يعاني من السأم بإمتلاك احدى الفتيات وذلك بأن يعرض عليها مبلغاً كبيراً من المال لقـاء خدماتها ، ولكن جو العقم والعبث لا يقاوم . فالمليونير يشعر بالسأم وخيبة الأمل ، وينهي حياته بالإنتحار. وتسيطر على الروايـة الروح الدوستويفسكية ، ولكن دون الصوفية الدينية . فشقاء وغباء الطبيعة البشرية مصوران بقوة عظيمة في الرواية ، دون أن تقدم لنـا تعويضاً ، والجنس الذي يكتسب صفـة شاعرية في الرواية ، يصبح الآن أمراً حقيراً وبلا معنى .

أما آخر رواية هامة أصدرها أرتسيباشيف فهي رواية « على حافة الهاوية On The Brink » ، وفيها نشهد الإنهيار المعنوي في آخر مراحله ، وتبـدو رسالةالكاتب وكأنها « كل إنسان منا يريد الجنس فهو الحقيقه الوحيدةفي الوجود البشري ».

إن بطل الرواية ، الرسام ، الدون جوان يؤمن بأن لذة الجنس تكمن في أخضاع النساء ، وأن الزواج هو عادة عمل جبان . والرواية عبارة عن سلسلة من الغوايات والمشاحنات والمبارزات والنزهات والمناقشات الفكرية عن الإنتحار . وجوها العام كامد ورمادي ، يوافق في الرواية على النظرية القائلة ، أن على الإنسان أن يكون قاسياً لكي يصبح دون جواناً ، ثم يطبق ذلك عملياً ، ولا نرى في الرواية بادرة واحدة تشير إلى أن مؤلف الرواية يشجب ذلك . كما أن المهندس ناعوموف يبشر بأن الحياة ما هي إلا خدعة ذكية والطريقة الوحيدة الوقورة للتخلص منها هي الإنتحار .

والجنس قد يكون هو الحقيقة النهائية ، ولكنه في الأساس عقيم ككل شيء آخر . ويؤكد آرتسيباشيف نظريته في أن الجنس هو « الحقيقة الأساسية » بأن يرسم لنا صورة رجل وإمرأة تربطهما علاقة من الحب والكراهية معاً ويكادان بسبب ذلك أن يدفعا بعضهما البعض الى الإنتحار . لكن الرجل في نهاية الرواية يطرح المرأة على السرير ويمتلكها ثم يكتشف بعدها أنه فقد كل إهتمام بها . وتنتهي رواية « على حافة الهاوية » بسلسلة من الإنتحارات .

ومن الممتع أن نتابع الخط الإنهياري في أعمال آرتسيباشيف (التي تشابه كتابات موباسان في كثير من الوجوه) . هناك أولاً هذا التمجيد شبه الروحاني للعلاقات الجنسية العرضية ، المشابه لما جاء في المقطع المقتبس عن بليك في الفصل الرابع . ثم يتردى هذا التمجيد إلى دون جوانية شريرة تتحول بدورها إلى يأس انتحاري وتحطيم للذات . والأخطر من هذا أن كتابات آرتسيباشيف نفسها قد ترددت باستمرار ، ففي حين أن « سانين » هي رواية جيدة الا أن « على حافة الهاوية » رواية سيئة وسقيمة إلى أبعد الحدود ، والحركة فيها تشابه إرتجاج احدى أرجل ضفدع ميتة إذا سلط عليها تيار كهربائي .

وحين توفي آرتسيباشيف عام ١٩٢٧ ، وكان البولشفيك قد نفوه إلى خارج البلاد ، بدت وفاته كمصاب تأخر ميعاده .

الجنس عند النساء :

كنت قد قلت في مكان سابق إن هذا الكتاب قــد كتب من وجهة نظر « رجل » لسبب واضح ، الا وهو أن مؤلفه رجل وجد أنه يستحيل عليه أن يطبق في كتابته مبـدأ « الشعور بالعطف » لكي يخرج الكتاب بنظرة أكثر شمولاً . والواقع أن كاتبات كثيرات قد أصدرن كتباً ممتازة ومفيدة عن الجنس عند النساء ، مثل كتـاب سيمون دي بوفوار « الجنس الآخر Second Sex » وكتاب صوفي لازرفلد « تجربة المرأة مع الرجـل Woman's Experience of The Male » وهذا الكتاب ليس محاولة لخلق « موسوعة عن الجنس » بل هو محاولة لاستكشاف الموضوع بالبديهة والادراك في ضوء السيكولوجية الوجودية وعن طريق استعمال اسلوب فنمنولوجي .

وسيوضح الفصل القادم كيف أن ذلك يلزم الكاتب « بوجهة نظره » هـو فقط (أي بوجهة نظر الرجل) .

ومع أن ذلك يعني أنه سيكون من المستحيل معالجة القضايا الرئيسية في هذا الكتاب من وجهة نظر « نسائية » ، فسيكون من الممتع مع ذلك ان نتعمق هذا السؤال :

« إلى أي مدى يختلف موقف المرأة من الجنس عامة من موقف الرجل » ؟

يقول شتيكل على سبيل المثال إن الماسوكية هي عـادة مركب هـام في التكوين الجنسي عند المرأة ، ثم يخلص من هذا الى إيجاد علاقة بـين الماسوكيه واللواط ، وقد يميل أغلب الرجال إلى الاتفاق مع هـذا الرأي لأن الصورة التي يحملها الرجل عن المرأة التي ترضيه أبلغ الرضى ترتبط في ذهنه غالبـاً بفكرة الرضوخ والاستسلام .

ومن وجهة أخرى، فإن الصورة التي رسم بها جيمس المسز بلوم قد امتدحت كثيراً (من قبل النساء والرجال على السواء) لعمق غوصها في نفسية المرأة ، مع أنه ليس هناك فيما يبدو أي أثر للماسوكية عند المسز بلوم . فأفكارها على طرفي نقيض مع أفكار زوجهـا ، لأنها لا تكتسب تجريدية أو تأملاً بل تظل « على

الأرض » ، تظل مضادة للميتافيزيقية ، وقد يكون هـذا هو سبب إعجاب النساء بتحليل جويس لنفسية المرأة ، ذلك أن الأسس التي ترتكز عليها عقلية المرأة هي أسس « شخصية » أكثر من عقلية الرجل . فالمرأة أكثر رومانسية وفي الوقت ذاته أكثر واقعية من الرجل . وذلك لأن الرجل ميال الى التجريـد والإطلاق وكذلك إلى القسوة الجسدية . وبالنسبة للمسز بلوم فإن هذه الأسس تتمثل في زوجها المثقف الكثير التأمل وفي عشيقها بويلان الذي يطوف في غرفة نومها دون بنطال ويضاجعها بطريقة خاليـة من السلوك المهـذب الرفيع ، تضايقها جداً .

لكن إذا كان موقف المرأة من الجنس « شخصياً » أكثر من موقف الرجل ، فليس من الضروري أن يدل ذلك على أن هناك عاملاً ماسوكياً في ذلك الموقف.

لنطلع مثلاً على هذه الحالة التي سردها رايك :

« في شطحة من شطحات الخيال ، تتصور فتاة صغيرة نفسها ممـددة وهي عارية تماماً على طاولة في دكان لحام في انتظار تقطيعها . وبين الحين والحين كان أحد العاملين في الدكان يقترب منهـا ويلمس جسدها فتبعث فيها لمسته رعشة لذيذة . وأخـيراً يقبل اللحّام بسكينه ويضغط بيديه على جسدها قبل أن يباشر بتقطيعها . ولكنه قبل أن يحزّ جسدها بالسكين ، يولج أحـد أصابعه في مهبلها ، فتبلغ الفتاة الصغيرة النشوة الجنسية في تلك اللحظة[1] » .

وعلينا أن نلاحظ هنا أن عملية التقطيع نفسها لم تكن جزءاً من هـذه التهويمة الخيالية وأن القمة كانت في ايلاج الأصبع . فقـد كانت الفتاة تستعيد هذه المتعة الخيالية منـذ صغرها ، والوضع الذي اتخذته لنفسها في دكان اللحّام يرمز إلى الاستسلام والخضوع التـام للرجل ، ربما لأنها كانت ستشعر بالذنب لو أنها تخيلت نفسها قد اشتركت بمحض ارادتها واختيارها في العملية . والأصبع

---

١ - ذكرت هذه الحادثة في كتاب « الشذوذ الجنسي والجرائم الجنسية » « Sex Perv- rsions and Sex Crimes » - تأليف جيه . م . رينهارت . ص ١٤٣ .

(المؤلف)

هنا بديل للعضو التناسلي قريب الشبه به بحيث يجعل من حلم اليقظة هـذا أمراً طبيعياً تقريباً تحلم به فتاة تعـاني من الكبت أو الحرمان الجنسي وتتلهف إلى رجل يقهرها .

وحين تفحص هذه الحالة فحصاً دقيقـاً ، يختفي عنصر « الشذوذ » وتتراءى لنا الماسوكية مجرد تضخيم يتم من خلال حالة الكبت . فإذا ما نشأ أي «شذوذ» في هذا الإنغماس في مثل هذه الأحلام ، فإنه سيكون نتيجة لحالة الكبت . ومن المهم الا نسمح لحالات كهذه أن تقودنا إلى الاستنتاج بأن حالة التقبل عند المرأة هي في الواقع ماسوكية دفينة . فهذا الاستنتاج لا يقل في افتقاره إلى دليل عن الإفتراض القائل بأن دور الرجل الإيجابي هو ضرب من السادية . فكلا الحالتين لا تشتمل بالضرورة على عامل الألم .

والذي يبدو محتملاً ، أنه من الأسهل أن يؤدي موقف الرجل من الجنس إلى الشذوذ ، لأنه « شخصي » أقل من موقف المرأة . ومرة أخرى فإن جويس قد استطاع أن يوضح هذا الإختلاف بعنف درامي غير عادي في ذلك الفصل من رواية « يوليس » والمسمى « Nausicaa » وهو الفصل الذي كتب بلغة القصص الغرامية لأنه يعبر عن لسان حال جيرتي مكدوول .

تبصر جـيرتي المستر بلوم يراقبها وهي على الشاطىء وتتصوره « انساناً غريباً رومانتيكياً أسمر اللون » ثم إذ بأفكارها تسرح وراء موضوع الغرام والزواج . وتحوم أفكارها لفترة وجيزة حول الجانب الجسدي من الجنس حين تتذكر أحد المستأجرين الذي كان يمارس العادة السرية في الفراش ، ولكن عقلها يطرد هذه الصورة بسرعة . ثم تسمح لبلوم بأن يمدّ بصره إلى ما تحت فستانها قليلاً وذلك بأن تميل إلى الخلف ، مع أنها ما زالت تفكر بطريقة رومانتيكية .

ثم يحول جويس المنظر إلى بلوم الذي يكون في ذلك الوقت مندمجاً بحـذر في ممارسة العـادة السرية ، والذي تكون أفكاره أبعـد ما تكون عن الرومانتيكية .

والمقارنة هنـا عنيفة وقاطعة ، وهي توضح فارقاً أساسياً معيناً بين موقف

الرجل وموقف المرأة من الجنس بطريقة قد تعجز بحوث مطولة عن تبيانهـــا . فالجنس بالنسبة لبلوم أمر جسدي وعقلي ، أما بالنسبة لجيرتي فهو في الغالب أمر عاطفي .

والفصل الأخير من الرواية ، وهو المكون من حوار المسز بلوم مع نفسها ، فيه المزيد من التأكيد على هذا الفارق بين الرجل والمرأة : إن المسز بلوم تكبر جيرتي مكدوويل بعشرين عاماً ولا تملك شيئاً من أوهام جيرتي الرومانتيكية (مع أنها تشاركها في تذوق الأدب الرومانتيكي) . ولكنها على الرغم من أنها تعتبر الجنس متعة جسدية بل وتتخيل أنهـــا تمنح جسدها لبحارة مجهولين في الميناء ، فإنه ما زال باستطاعتها أن تنسج أحلام يقظة عن ستيفن ديدالوس ، كما أنها تنتقد عشيقها لأنه « لا يعرف الشِعْر من القرنبيط » ، ويتردد اسم اللورد بايرون عدة مرات في أحلامها ، ومن الواضح أنها ترى فيه العشيق المثـــالي . وأفكارها كلـّها مشبعة بموقف رومانتيكي وشخصي من الجنس.

خاتمة :

قد يقول البعض جدلاً إن الدون جوانية هي حالة يسهل فهمها جداً بحيث لا يمكن اعتبارها حالة « غير طبيعية » ولا حتى في أقل معانيها سوءاً ، وإنها مجرد طفحان في الدافع الجنسى ، مجرد فورة زائدة .

وهذا الموضوع لا يمكن الإجابة عليه إلا عن طريق التحليل « الفنمنولوجي » للدافع الجنسي وهو ما سأقوم به في الفصل التالي .

وفيما يلي ملخص سريع للإستنتاجات التي توصلنا إليها في هـــذا الفصل : الدون جوانية – أو الحافز إلى اللاتمييز لمجرد ذاته – هي في العادة مرتبطة على ما يبدو بشكل طفيف من الإختلال العصبي بسبب عدم الثقة بالنفس .

أقول : « بشكل طفيف » لأنه ما دام الشخص قادراً على أن يجتذب إليه الكثيرين من الجنس الآخر ، فإن إحتمال نشوء حالات أسوأ من الشذوذ عنده ، هو احتمال ضئيل .

إن دون جوان موتسارت ودابونت هو من ذلـك النـوع الذي لا يمكن أن يوجد ، أو على أقل تعديل فإن دابونت لم يكن من الكفاءة كعالم نفسي بحيث يكشف لنا عن العامل العصبي الإضطراري الذي يسيّر رجلاً يستطيع أن يغوي أكثر من ألف فتاة في اسبانيا وحدها .

إن دون جوان برنارد شو أكثر معقولية وقابلية للتصديق لأن شو تمكن بفراسته ورؤيته من أن يدرك أن رجلاً يملك من الحيوية والذكاء ما يجرد النساء من أية مقاومة لإغرائه ، لا بد من أن يعتبر الإغواء يوماً سخافة متعبة .

ودراسة الدون جوانية توضح شيئاً واحداً ، هو أن الدافع الجنسي لا يمكن أن يفهم ضمن حـــدوده وشروطه فقط : فالدافع إلى اللاتمييز لا يمكن تفسيره بالقول إن الرغبات الجنسية لرجل ما ، هي أقوى من الدرجة العـــادية أو حق القول إن شعوراً ما بالنقص يدفعه إلى أن « يتمادى في محاولة تعويض ذلك » .

وهذا يقودنا فقط إلى المزيد من الأسئلة :

كيف يجب أن تكون الرغبة « العـــادية » وكيف يجب أن يعوض عن الشعور بالنقص ؟

إن التكوين الجنسي للإنسان لا يشبه دولة مستقلة معتمدة على نفسها ، بل إنه مرتبط أوثق الإرتباط ببقية التكوين العام .



الفصل الثالث

أسلوب التحليل

الاسلوب الفنمنولوجي . سيكولوجيـــة هوسرل والسيكولوجية الجيشتالتية .



إن الدافع الجنسي كما يبدو من الخارج لا يقل استقامة عن الشهية للطعام ، ولهذا يمكننا بحثه ضمن سياق مادي محدود . وإذا دققنا النظر فيه اتضح لنا أن ذلك غير صحيح . قد يملك أحد الأشخاص شهية مفتوحة للأكل ، وقد يكون ممن لا يتمتعون بوجباتهم الغذائية إلا إذا كانت المائدة مزدانة بألوان عديدة من الطعام ، ومغطاة بغطاء أبيض ناصع ، أو ممن يحبـون شرب نصف زجاجة من النبيذ ليزيـد من شهيته . ولكن هناك حقيقة واحدة تبقى : وهي أن للعملية كلها مركز ثقل معيناً ، وهو عملية الأكل ذاتها . فمهما يكن ما يضيفه «الذواقة» في الأكل من « مشهيات » عقلية تصورية، فإنها كلها ستؤدي في النهاية إلى العملية المادية لإستهلاك الطعام وهضمه .

وقد يبدو الجنس للوهلة الأولى وثيق الشبه بذلـك ، بمعنى أن بلوغ النشوة الجنسية موازٍ لإلتهام الطعام ، ولكن هذا صحيح ؟ فحق أكثر الناس شراهة يحتاج إلى الطعام ، ولكن ما من إنسان قضى نحبه بسبب جوع جنسي. والمقطع التالي من رواية اسمها « شمس في الظهيرة : طفولة استرالية » - : Noonday Sun - An Australian Childhood لفرانك ميتشل ، سيوضح هذه النقطة .

« كنت قد قرأت في مكان ما أن التجارب الجنسية الأولى مخيبة للآمـال دائماً ... كنت من الخجل بحيث أنني لم أحاول تقبيلها ، فبدأت هي تُقبلني .. ثم تركتها تفعل ما تشاء معي طيلة الوقت ... إلى أن مرت عـدة أمسيات ، حيث كنا مستلقيين في الحديقة العامة نتعانق بشراهة ، وكان جسدانا ملتصقين بشكل لم تستطع معه إلا أن تشعر بتهيجي ، وكم كنت فرحاً حين أخذت تفعل ما تشاء معي فجأة ، وأرسلت يدها لتتسلّ باردة داخـل ملابسي ، فشعرت

كأن كل أحلام اليقظة التي كنت أمارسها في طور المراهقة ، قد بدأت تتحقق الآن ... وبعد قليل حاولت أن أنزع ثيابها ؛ وكنت مرتبكاً إلى درجة أنها إبتعدت عني قليلاً وأنزلت بنطالها القصير بسرعة مفاجئة . وحاولت أن أجعلها تستلقي على ظهرها فهزت رأسها وهي تبتسم لي ، ثم طلبت مني أن أستلقي على ظهري ومددت جسدها فوقي بحذر وبطء . وكأني بها قد تألمت من هذا الوضع ، فقد استمرت تقول لي « لا تتحرك ، لا تتحرك » . كان جزء هادىء غير منفعل من عقلي يراقب العملية بدهشة . هذا هو الحدث العظيم الذي أرّق لياليّ وتقمص خيالي ، ومن المؤكد أنني كنت سأحس بنشوة كبرى ، ولكنني عوضاً عن ذلك شعرت ببعض اللذة الدافئة لا أكثر . كانت اللذة « أقل بكثير » مما كنت استحضر في أحلام يقظتي ، بل كان يمكن أن تكون ناتجة عن مجرد ضغط من يدها ، أو يدي ... وكنت فيما بعد أقاوم الشعور بأن هذه التجربة كانت فاشلة تماماً » .

وهذا يذكرنا بما قاله « م » في الفصل السابق من أن ممارسة العادة السرية قد تكون أكثر ارضاءً من الجماع العادي . وما يلفت النظر في المقطع السابق هو « بل كان يمكن أن تكون ناتجة عن مجرد ضغط من يدها ، أو يدي » (وميتشل هنا صريح للغاية فيما يتعلق بممارسة العادة السرية في مراهقته ، وهو بهذا يقتفي أثر كاتبيه المفضلين جيمس جويس وتوماس وولف) .

إن الرجل الجائع قد يدغدغ شهيته بعدة طرق تتعلق كلّها بالمخيلة أكثر مما تتعلق بالسوائل المعوية ، ولكنه حين يصل الأمر إلى الأكل فلا بدّ أن يكون هناك طعام ملموس ، فمهما تكن مخيلته خصبة وبارعة ، فهو لن يحسّ بالرضى الاّ بعد أن يأكل بالفعل ، وهنا يصرح لنا ميتشل بوضوح بأن العملية «الواقعية» أقل ارضاءً من العملية التصورية . إن أعصاب المعدة تشعر بالرضى نتيجة للطعام ، وبلوغ النشوة الجنسية هو نتيجة لعملية إرادية تصورية أكثر مما هو نتيجة لواقع مادي .

الادراك الحسي :

يقودنا ما تقدم الى موضوع عام هـام ، وهـو موضوع التركيب العضوي للإدراك الحسي في العملية الجنسية . وإذا أردنا لهـذا البحث أن يتحرّر من المصطلحات الفنية التي يستعملها عالم النفس ، فعلينا أن نقرر منذ الآن مبادىء عامة عن الادراك الحسي .

أنت إن أكلت سندويشة فإنك تؤدي بهذا عملاً له عنصر عقـلي وعنصر مـادي ، أي أن له عنصراً ذهنياً وعنصراً مرئيـاً . وإن كنت جائعـاً فإنك تستطيع أن تتصور نفسك تأكل سندويشة ، ولكن ذلـك لن يرضي معدتك . هنـاك أساس مادي معين ، نوع من « الواقع » بالنسبة لعملية أكل السندويشة ، ومن ناحية أخرى فإن عملية اشباع جوعك بأكل سندويشة ليست مجرد عملية ميكانيكية كالضغط على زرّ ما . فمع أن وضع الطعام في معدتك قد ينتج الأثر المتوقع (أي اختفاء الجوع والشعور بالرضى) ، فإنه قد يسبب لك حالة من التقيؤ ، وإذا كنت مصاباً بالزكام فقد لا يكون بإمكانك أن تشعر بأي مذاق له ، بل قد يكون مذاقه كمذاق النخالة . (إذا حبست نفسك فسيكون من الصعب عليك أن تفرق بين تفاحة وبصلة) . وإن كنت تأكل وكان أحـد غيرك يتقيأ في الغرفة ، فقد تتقيأ أنت كذلك . حتى لو كنت بعيـداً بحيث لا يمكنك أن تشم رائحة القيء .

سيكون من المناسب هنـا أن ننظر الى أكل السندويش كأبسط صورة من صور الادراك الحسيّ . فأنت لا ترى وتشم وتلمس السندويش فقط ، لكنـك تستوعبه كذلـك ؛ وبالاختصار فإنك « تدركه » بنفس التمام الذي يمكن للإنسان أن يعرف به أي شيء منظور .

على أن هضمك للسندويش لا يعتمد على السندويشة فقط ، بل كذلك على الحالة التي تكون فيها حواسك عندئذٍ .

كان لوك وباركلي أول من تحرى موضوع دور الادراك الحسي ، فقـد سعيا وراء هذه القضية : الى أي حد يمكننا أن نعرف « الواقع » من خلال حواسنا ؟

ولقد هاجما المنطق التقليدي العادي حول الادراك الحسي وهو القائل : « هناك أشياء » ومع أن إدراك الناس الحسي لهذه الأشياء قد يتفاوت بشكل طفيف (إن كان بعضهم مصابين بعمى الألوان » أو الحَوَل أو غير ذلك) فإن الناس على كل حال ترى الأشياء « كما هي عليه في الواقع » . ولقد ذهب باركلي الى حد التساؤل عما إن كانت هذه الأشياء تكون موجودة أصلاً حين لا يكون هناك من ينظر اليها ؟ وهذه النظرية في حالتها القصوى تعرف بالـ «Solipsism» ومؤداها أنه ما من انسان غيرك أنت فقط موجود على الأرض .

وجاء « كانت » ليأخذ الخطوة التالية في بحث نظرية الادراك الحسي ، فقد شعر بأنه « توجد » هناك أشياء ، وأن حواسنا تنبئنا بوجودها . وكان «كانت» ميالاً الى الاتفاق مع باركلي بأن خواص هذه الأشياء — الشكل ، اللون ، المذاق ، الخ — هي أمور « تضيفها » حواسنا وأنه لا يمكننا أن نأمل أبداً أن نعرف شيئاً عن الكيفية « الحقيقية » للأشياء . وقد أضاف « كانت » قائلاً : « اننا نرى العالم « كما هو » لأن إدراكاتنا تفرض علينا نظاماً معيناً ، فنرى العالم الخارجي من خلال مقولات[1] الفضاء والزمن المصطنعة ، ولا نستطيع أن نراه غير ذلك . وهذه المقولات مثل نظارات زرقاء نضعها على أعيننا ولا يمكننا أن نخلعها أبداً» .

إن نظريات باركلي وكانت حول الادارك الحسي بليدة في مواضع تطرفها . والواقع أنها ليست أكثر من اعتراف بسيط بالمشكلة ... مشكلة الى أي حد تتدخل قوانا الذهنية في عملية أكل السندويش .

وقبل مجيء لوك ، كان الادراك الحسي يفسَّر بأنه عملية ميكانيكية مثل الضغط على زر . أما باركلي فقد ذهب الى النقيض من ذلك وافترض أن هذا الزر قد يكون وهمياً .

---

١ — المقولات : اصطلاح في المنطق بمعنى المفاهيم أو القناعات النهائية .

سيكولوجية هوسرل السيكولوجية الجيشتالتيه[1] :

في القرن العشرين وصلت نظرية الادراك الحسي أخيراً الى مرتبة نوع من العلم ، كما وسّمت وعمقت بعناية اشارات « كانت » الغامضة الى المقولات المنطقية . وهناك حتى الآن تياران جليّان لهذه النظرية لا يلتقيان الا في بعض النقاط . أحدهما هو علم الظواهر « الفنمنولوجية » الذي أسسه أدموند هوسرل ، والثاني هو ما يسمى « بعلم جيشتالت » أو سيكولوجية الشكل . ومن الضروري أن نقول شيئاً عن هذين التيارين قبل أن ندخل في صلب موضوع دور الادراك الحسي والمخيلة في الجنس .

كان هوسرل عالماً رياضياً تحول الى فيلسوف. وقد أحزنته حالة الفوضى التي كانت تعمّ الفلسفة بحيث كان يشعر أنها فن تأملي غامض فوق الحد ، وأنها تكاد أن لا تكون علماً . وقد سلّم هوسرل بالفكرة الأساسية التالية : إننا حين ننظر الى العالم ، فإننا نرى سلسلة من الأشكال والألوان يمكن تسميتها تقريباً بـ « رموز » الأشياء الحقيقية .

ومع ذلك فنحن لا نرتبك بسبب ذلك . فالعقل يفسر فورياً مجموعة معينة من الخطوط والألوان مثل كتاب ما أو جهاز راديو ما أو شجرة . وحين تقرأ كتاباً ، فإن نصف مهمة فهمه على الأقل يقوم بها عقلك أنت ، وبدون هذا التعاون من القارىء فإن الكاتب سيكون بلا قوة لاقناعك بفكرته . الا ان هوسرل يشير الى أننا « نقرأ » العالم المادي بنفس الطريقة كل الوقت ، ولكن اذا حدقت في شيء دون أن يكون في فكرك الا « فراغ » فإن هذا الشيء لن يعني لك شيئاً وسيكون بلا هوية . ثم طرح هوسرل السؤال الكانتي

---

١ - ترمز كلمة « جيشتالت » بالألمانية (Gestalt) إلى أي من المركبات أو مجموعات الأشكال الملتحمة التي تكون التجربة بكاملها ، والتي تمتلك مزايا خاصة لا يمكن استنباطها من العناصر المنفردة المكونة للجموع، كما لا يمكن في الوقت ذاته اعتبارها مجرد محصلة هذه العناصر. أما السيكولوجية الجيشتالتية فهي احدى المدارس في علم النفس التي بدأت في ألمانيا والتي تعتبر أن التجربة تتكون من « جيشتالتات » وأن استجابة تركيب عضوي ما لحالة معينة هي شيء كامل وغير قابل للتحليل أكثر من محصلة لاستجابات لعدة عناصر خاصة في تلك الحالة .

التقليدي : الى أي حدّ يؤثر العقل على ما نرى ؟ وذهب أبعد من ذلك ليطرح تساؤلاً آخر : هل يمكن ايجاد طريقة يمكننا بواسطتها أن نقرر الى أي حد يتأثر الادراك الحسي بشخص المدرك ؟

ولهذا فقد ابتدع هوسرل «اسلوب العزل» : فبدلاً من دراسة الشيء نفسه ، ادرس فقط ادراكك الحسي لهذا الشيء . « اعزل الشيء » ، وتصرف كأنه غير موجود ، ثم ركز إهتمامك فقط على شكل الادراك[1] .

وما هو الهدف الأخير لكل هذا « العزل » ؟

إن الفلسفة هي نقيض التسليم الجدلي بالأشياء . والواقع أنه يمكن تعريف العلم كذلك ، بأنه اللاتسليم الجدلي بالأشياء . فهدف الفلسفة هو توسيع المعرفة وفهم الكون ، ولكن الفيلسوف ما أن يحدد غرضه حتى يواجه صعوبة مباشرة ، فهو يجد نفسه تقريباً ، في موقف راعي البقر الأميركي « الكاوبوي » الذي أطلق الرصاص على اصبع قدمه الكبير ، حين رأى ظله مرسوماً على النافذة ، في الليل .

أي أنه ليس متأكداً من : « أي شيء هو الكون ؟ وأي شيء هو «ذاته» .

---

١ ـ إن علاقتنا بغيرنا من الناس هي مثال واضح على ما فينا من « قوة عقلية فارضة لنظام معين » . فنحن لا نستطيع أبداً ، أن نعرف شخصاً ما معرفة وثيقة بنفس الطريقة التي نعرف بها شيئاً مادياً ، بمجرد النظر اليه . فبالنسبة لشخص ما ، فاننا نلاحظ فيه أكثر ما يمكننا من خصائص ومميزات ، ثم نصدر عليه « حكماً » . وهذه الأحكام تعتمد اعتماداً واضحاً على شخصيتنا وحاجاتنا . وعلى ذلك فان « رأينا في شخص آخر هو مجموعة من الملاحظات السطحية مرتبطة فيما بينها بشكل مجحف . والاسلوب الفنمنولوجي في مثل هذه الحالة يتطلب منا أن نحاول نفي كل مشاعرنا عن شخص ما ، وأن نحاول النظر اليه بتجرد يحاكي تجرد عالم حشرات وهو يراقب تصرفات خنفسة ما .

ومقارنة انطباعنا المتجرد هذا مع الانطباع الناشىء عن نظرة شخصية غير متجردة ، سيلقي الضوء ليس على « عنصر الشخص الحقيقي » فحسب ، بل كذلك على الانحيازات والأحاسيس التي تكون تكنيك نظرتنا الى الغير .

وأنا أسرد هذا على اعتبار أنه مرادف بصفة تقريبية لأسلوب هوسرل ، مع أن هوسرل في الثلاثينات راح في الواقع يهتم كثيراً بمثل هذا النوع من التصرف . المؤلف

فالخط الفاصل بين الكون ، وبين « ذاته » غير واضح تماماً .

ونظرية هوسرل هي أن الفيلسوف يقحم ذاته دائمـــاً في الموضوع بطريق الخطأ . وقد اكتشف العالم النفساني برنتانو ما يسميه بـ « العمدّية » أي الطريقة التي يفرض فيها العقل مدلولات خاصة على « الأشياء التي يتم ادراكها » .

إننا نجنح الى اعتبار أنفسنا مجرد « أجهزة استقبال » لانطباعات وادراكات تأتينا من « الخارج » . وبمعنى آخر ، اننـــا نعتبر أنفسنا ، مجازاً ، « ضحايا » للأشياء التي تحدث لنا . فإذا وقع لوح خشبي على رأسك ، فإن ذلـك ليس الا" شيئاً « يحدث » لك ، وموقفك العقلي نحو اللوح لن يؤثر بأي حال من الأحوال ، على الألم الذي ستحس به. وهكذا فإننا نجنح إلى أن نعتبر الواقع قوة عاتية تفرض نفسها علينـــا باستمرار . ولكن نظرية هوسرل – برنتانو هي على النقيض من ذلك . إنها تقول بأن القوة العاتية التي تظل تفرض نفسها علينا هي عقولنا نحن. فالانطباعات والاحساسات تأتي الينا هيّابة خائفة ، ولكن عقلنا أو وعينـــا الباطني يقولبها مباشرة في أشكال محددة ويدرجها في نظام معين ثم يحيلهـــا الى عقلنا الواعي لكي يفحصها. ولذلك فان عقلنا الواعي يتصور ان هذه الانطباعات والاحساسات منتظمة في أشكال محددة دائماً ، لأنه لا يعرف شيئاً عـــن العملية التي نظمت هذه الانطباعات والاحساسات قبل ورودها اليه . وهوسرل يسعى الى أن يعرف بالضبط ، كيف تمت هذه العملية السابقة للوعي، وبكلمة أخرى، فهو يريد أن يقتنص العقل الباطني وهو منغمس في عملية « فرض صيغة » معينة على الادراكات .

وقد يبدو كل هذا خارجاً عن بحثنا حول الجنس ، لكننا سنتبين فيما بعـــد أن مثل هذا البحث سيكون في الواقع عديم المعنى بدون هذه الخلفية الفكرية. فالجنس أيضاً ، هو الى حد كبير ، قضية لا واعية يتقبلها وعينا بدون جدال . والمشكلة الآن هي أن نستعمل اسلوب هوسرل لنعرف شيئاً عـــن القوانين التي تتحكم في وعينا الباطني فيما يتعلق بالجنس .

إن السيكولوجية الجيشتاليته، تشارك فلسفة هوسرل الفنمنولوجية الماورائية

في كثير من أهدافهـــا ووسائلها، وهي مهتمة كذلك بقضية الادراك الحسي ، وحجتها الأساسية هو أننا نبدأ بادراك الأشياء ككل كامل ثم نلاحظ بعد ذلـك أن هذه الأشياء ، هي في الحقيقة مجموعة من الجزئيات . فأنت ترى مثلاً «توأمين متشابهين تماماً ، ومع ذلك فانك تستطيع أن تميز في الحـال احدهما من الآخر . وإذا سئلت بالحـــاح ، فانك لن تستطيع أن تبين بالضبط كيف تعرف الفارق بينهما . لن تستطيع أن تقول ، إن شعر أحدهما أغمق قليلاً من شعر أخيه ، أو أن أنفه أطول من أنف أخيه بملترين » .

قد تكتشف مثل هذه الفوارق فيما بعد ، لكن هذه الفوارق الطفيفة ليست هي السبب الأصلي في معرفة الفارق بين الاثنين . وبنفس هذه الطريقة ، فقد تحاول أن تتذكر لحناً أو جملة موسيقية ، وحين تتذكرها أخيراً ، فقد تصفّرها بالسلم أو القرار الموسيقي الخاطىء . ومع ذلك فإن اللحن هو اللحن ذاته بالرغم من أن نوتاته الموسيقية غير مستقيمة . والذي حـــدث هو أنك تذكرت اللحن « ككلّ كامل » وليس كمنظومة من النوتات المرتبة .

إن مثلاً بسيطاً قد يساعد على تفسير النظرية التي تقوم عليها السيكولوجية الجيشتالتية .

لقد ابتكر البوليس وسيلة للإهتداء إلى المجرمـــين عن طريق ما يسمى بـ « عـدّة الهوية » « Identity Kit » . فربما تكون قد رأيت جريمة ما ، ولم تستطع أن تصف وجـــه المجرم للبوليس لأنه قد يكون مثل بقية الوجوه . ولكنك إذا اطلعت على مجموعة من صور أو رسوم تمثل رجالاً مختلفين فقد يكون بإمكانك أن تقول : « إنه قريب الشبه بهـــذه الصورة ، الا أن وجهه أكثر استدارة . » وعندئذ يقوم الرسام التابع للبوليس برسم وجه مماثل لكنه أكثر استدارة ، بحيث أنـك تستطيع أن تقول : « هذا يشبهه أكثر ، لكن العينين مختلفتان وهكذا دواليك . » فكل تغيير جديد يمكّنك من أن تتذكر أوصافاً أخرى حتى يتم التوصل أخيراً إلى رسم يقنعك بأنه معقول الشبه بوجه المجرم .

إذن فإن تذكّرك لوجه المجرم لا يقوم على أساس نسق منتظم من الحقائق .

كشكل الأنف ، ولون العينين – الخ .. بل على أساس كل متشابك عـــام .
ولنأخذ مثالاً بسيطاً آخر زيادة في التوضيح .

إن السيكولوجية الجيشتالتية هي محاولة لإكتشاف شيء ما عن لغة العقل الباطني اللاواعي ، أو بالأحرى رموزهـــا . ففي الغرب ، عندنا فقط « ستة وعشرون » حرفاً هجائياً ، تركّب منها كل الكلمات التي نستعملها . أما اللغة الصينية أو اليـــابانية فهي تحتوي على آلاف الرموز ، وكل رمز منها يعني كلمة مختلفة ، بحيث أن تعلّم الكتابة باللغة الصينية هو عملية أكثر تعقيداً من تعلّم الكتابة باللغة الانكليزية . ومن الواضح أن الطريقة الصينية تصبح حين تتعلمها أكثر توفيراً للجهد ، فبدلاً من تصفيف عددٍ من الأحرف بطرق مختلفة لتركيب كلمات منها ، يوجد هناك رمز صغير واحد .

والسيكولوجيـــة الجيشتالتية تزعم أن لغة وعينا البـــاطني هي أقرب إلى الصينية منها إلى الإنكليزية ، فحين تريد أن تتذكر وجهاً ما ، فأنت لا « تركّبه » في عقلك عن طريق تجميع جزيئاته المختلفة معاً « الأنف ، الفم ، والذقن الخ » بل تبحث بسرعة بين مجموعة من الصور المختلفة حتى تهتدي إلى واحـــدة تقاربه بصورة أو بأخرى . وبعد أن تكون قد توصلت إلى « الشكل » العـــام تجري عندئذ بعد الرتوش والتعديلات الخفيفة على الأنف والذقن الخ .

إن السيكولوجية الجيشتالتية تسعى مثل الفنمنولوجية إلى التوصل إلى معرفة الكيفية التي تعمل بها الطاقة التي تفرض الشكل والهدف من ذلك .

ولكن الأهم من كل هذا ، هو قضية « العمدية » . إن عقولنا أقل سلبية مما نظن . فليس من المستبعد ونحن نحاول اكتشاف قوانين ما ، أن نكتشف أننـــا نحن صانعو هذه القوانين . إذا أغمضت عينيك وفركت الجفنين فركاً شديداً ، فستتراءى لك كتل وبقع من الألوان المبهمة . وإذا حدقت في هذه البقع بتصميم « إرادي » فإنه سيمكنك أن تجعل هـــذه الأشكال اللونية تتغـــير باستمرار ، بل قد يكون بإستطاعتك تحويلها إلى فيـــلة ليلكية أو زرافات خضراء مثلاً . وهـــذه هي الطاقة التي « تفرض الشكل » أثناء عملها . ومن غير المجدي أن

تتساءل لماذا قررت أن تحول هذه الأشكال إلى فيلة ليلكية وليس إلى طائرات قرمزية مثلا ؟ فمما لا شك فيه ، أن أهواء الإنسان واختياره غير الواعي تلعب دوراً في مثل هذه الحالة ، لكن الارادة هنا هي العامل الأكثر أهمية .

قضية الرؤيا :

إن ما تقدم قد يوفر الإجابة بالنسبة لقضية قريبة من قضية الجنس ، هي قضية الرؤيا . ولقد تساءل الشعراء دائماً عن قصر الوميض في لحظات اليقين :

إلى أين ولـّى ومض الرؤيا ؟
أين هما الآن ، النضارة والحلم ؟

وإجابة الشاعر تكون غير دقيقة ، في العادة . ولقد تحدث وورد سورث عن وعي مفاجىء «بأنماط من الوجود غير معروفة» وهو يقول فيما يبدو إن الشاعر يستطيع فقط أن يبقي عقله مفتوحاً وأن يبقى « على مقربة من الطبيعة » لأنه ما من جهد واعٍ مهما بلغ يستطيع أن يستحضر الحالة « الغيبية الروحانية » . ويبدو أن الشعراء والغيبيين الروحانيين يتفقون بصفة عامة على أن اللغة لا تستطيع أن تعبر عن الرؤيا الغيبية « للآخرية » .

لكن سيكولوجية هوسرل تمنحنا مدخلا جديداً إلى القضية ، فإذا كان العقل يفرض أشكاله الخاصّة على كل الإدراكات الحسية ، فإنه من البديهي أن تشتمل تجربتنا على قليل من « الآخرية » . فالعقل يصرف الآخرية تلقائياً . وعملية العقل الآلية الأساسية هي ادراك الصفات المتشابهة بين مجموعة من الإنطباعات ومجموعة أخرى ، وهذه هي الطريقة التي يواجه بها العقل كل القضايا والمشاكل .

قد تفحم مسألة ما أحد العلماء الرياضيين إلى أن يكتشف أنها مشابهة لمسألة قام بحلها في اليوم السابق . وقد تعجز قضية ما أحد رجال البوليس السري إلى أن تذكـّره بعض ملامحها بقضية مماثلة . والتجارب تتدفق علينا كل يوم ، وما لم نمتلك جهازاً للترشيح فإن هذه التجارب ستغرق العقل في بحر من التشوش والحيرة والإرهاق في غضون دقائق معدودات .

صحيح أن العادة هي حليفنا ، ولكنها ليست دفاعاً أخيراً : إن موظفاً محباً لعائلته وبيته قد يركب ذات القطار كل يوم ويوجه نفس التحية إلى سكرتيرته ، ومع ذلك فإن كل يوم يبدو مختلفاً له . ففي مقابل كل ظرف مماثل لما مرّ في اليوم السابق من ظروف ، يوجد هناك خمسون ظرفاً جديداً ومختلفاً . الطقس مختلف ، الناس الذين يمر بهم في الشارع مختلفون ، الأخبار التي يقرأها في جريدته مختلفة .

إن كلاً منا على علم بالعملية الأساسية « للمرشح » ، وهي أن قسوة هذا المرشح تزداد كلما إزداد تعب العقل . وأنت حين تتوجه إلى عملك في الصباح ، نشيطاً بعد ليلة مريحة ، فإن قوة ملاحظتك ستكون في أوج قوتها ونشاطها . أما في المساء ، حين تعود إلى البيت بعد يوم مرهق بالعمل ، فلن تكون عندك الطاقة أو الرغبة في ملاحظة شيء، بل إنك ستفضل أن تدفن رأسك في جريدة ما ، وأن تبتعد عن العالم الخارجي بقدر الإمكان . بل إن المرشح الموجود في عقلك سيساعدك على أن تنعزل بذهنك عما حولك ، فأنت لا تعير اهتماماً لثرثرة الفتاتين اللتين تجلسان معك في ذات المقصورة بالقطار ، أو لنقر المطر على زجاج شباك المقصورة .

العقل المتعب يحوّل إدراكاته الى مجرّدات، فربما تكون قد رأيت في الصباح أن احدى الفتاتين لها ساقان جميلتان ، وأن شعر الأخرى مصبوغ . أما الآن وفي هذه الحالة من الارهاق التي أنت فيها ، فهما بالنسبة لك مجرد « فتاتين » لا أكثر ، فالمرشح يحذف كل التفاصيل غير الضرورية . فإذا كنت متعباً جداً ، فقد لا تلاحظ حتى أنهما فتاتان ، بل كل الذي تعيه هو أن هناك شخصين في المقصورة معك . وقد لا تتذكر فيما بعد ما إن كانا رجلين أو امرأتين . فهنا قد تمادى العقل في التجريد . إنه يحتفظ بإحساس كاف بالزمان والمكان ، لكن « الشكل » الذي يفرضه على رؤيته للعالم في ذلك الحين هو شكل مجحف جداً، مجرد خطوط طول وعرض قليلة . وبصراحة ، فانه نظراً لأن الحياة معقدة بشكل مخيف ، فان المرشح ضروري ، وبدونه فقد نصاب كلنا بالجنون ، لولا

أنــه يفرض على الأيام التي نعيشها نوعـــاً من « التكرارية المماثلة » التي هي على النقيض من « وميض الرؤيا » .

إن الأطفال لا يفهمون سوء ذاكرة الكبار . فهم يقولون بنفاد صبر :

« لكن الا تذكر ... كان ذلـك في اليوم الذي أضعت فيـــه زر معطفك وأنت في الطريق الى السينما »

إنهم يجدون أن من الصعوبة لهم أن يصدقوا أنك تذكر بصورة غائمة حادث ذهابك الى السينما ، ولكنك نسيت تماماً حادث فقدانك زر معطفك . فبالنسبة للطفل ، فإن كل يوم جديد يحمل من الاثارة ما يختلف عــن اليوم الذي سبقه . والطفل بطاقته الذهنية الواسعة يهتم بأوجـــه الاختلاف بــين الأشياء أكثر من إهتمامه بأوجه الشبه والتماثل بينها ، وهو يستطيع أن يتذكر بالضبط ماذا قلت أو فعلت في يوم معين قبل ستة أشهر .

الا ّ أن رغبة العقل في البساطة والنظام قد تصبح ذاتية التدمير ، ولقد أكد نيتشه أنــه أكثر أهمية للمرء ان يتساءل : « الحريـــة لماذا ؟ » من أن يتساءل « الحرية من ماذا » ؟

وليست للطفل أهداف معينة : إنه لا يريد أن يكوّن ثروة أو أن يعيـــل عائلة كبيرة ، ولهذا ، فليس لديه ما يدفعه الى أن يحدّ من وعيه ؛ أمـا الكبار فهناك من الأسباب ما يدفعهم الى ذلك . فالانسان الراشد يحـدّ من وعيه لكي يتقيد بنظام من القيم . ولكنه كسول فيما يتعلق بقيمه ، وهــو قلما يفحصها أو ينقدها ، فهو لا يستيقظ ذات صباح ويفكر :

« لقد جمعت من النقود مـــا يكفي لكي أسمح لنفسي باطلاق العنان بعض الشيء لما فيّ من شاعرية . سأسمح لنفسي الآن أن « أقف وأعاني » « وأراقب ظل الغيوم في بحيرة ماء . » إنه لا يفكر في ذلك ، بل يستمر بفعل العادة في أن يقصر وعيه وملاحظته للعالم حوله على عدد من التجريدات التي تساعد على أن تبقيه عاقلاً . وحتى اذا أصابه مرض مفاجىء أقعده عن العمل تماماً ، فإنه قـد يستمر في العيش على نوع من الخبز والماء النفساني . إن « القيم » التي جعلته يختار

هذه « الحمية » قد اختفت ، لكنه يستمر في ممارستها بتأثير العادة . والنتيجة تبعاً لذلك هي اصابة مصادر أو ينابيع سعادته ومتعته بجفاف تدريجي . ذلك أن هذه « القيم » قد توقفت منذ زمن طويل عن أن تكون مصدراً حيوياً فعالاً لسعادته ، بالاضافة الى أنه جرّد حياته من بعض مصادر السعادة الأخرى . ولن يستغرب أحد حين يموت بالسرطان بعد خمس سنوات من تقاعده عن العمل .

فالوعي المصاب بسوء التغذية ينتهي أخيراً إلى أن يقوم بإستهلاك نفسه .

إن الوسائل التي يستخدمها هوسرل وتستخدمها السيكولوجية الجيشتالتية ، هي خطوة عملية بإتجاه « الرؤيا » أكثر من أي شيء اقترحه ووردزويرث أو بليك . إذا أمكنك أن تختبر نظام عمل القدرة الفارضة للشكل ، فإنه يمكنك كذلك أن تعدّل هذا النظام بحيث يسمح بدخول « الآخرية » التي نستطيع أن نعرّفها بأن نقول إنها مجرد الأشياء التي يستثنيها المرشح عادة .

موجز الكلام أن الفنمنولوجية قد تطرح وسيلة يمكن بواسطتها العمل بصفة مؤقتة على إزالة « الغمامات » التي تحيط بوعي كل واحد منا .

والسؤال الجذري الذي تطرحه هو: « ما هو سبب محدودية الوعي الإنساني الغريبة هذه ؟ » وهذا السؤال يخطر على بالنا كلنا في وقت من الأوقات . إن عاملاً ما في مصنع ما ، يحس في ليلة رأس السنة بشعور من « الثقة المطلقة » والسعادة كما يصفها بروست . والخمرة « وروح العيد » تنميانه ، ولكنهما لا تفسرانه . وفي لحظة كهذه ، قد يتساءل هذا العامل بصورة مبهمة لماذا لا يحس بهذا الشعور طوال الوقت . والجواب على ذلك هو أن هذا الشعور لا يزيد من قدرته وكفاءته العملية الحياتية ، ذلك أن شعوراً دائماً من النشوة الذهنية سيبلّد القدرة على التحدي والإستجابة للأحداث التي تُبقي الإرادة قوية مشدودة .

ومتى تمّ استيعاب كل هذه الحقائق الأساسية عن طبيعة الوعي والإدراك ، يتضح لنا بصورة أفضل عمق الدافع الجنسي ، ويمكن إيجاز هذه الاستنتاجات فيما يلي :

أ) إن الناس يمتلكون إرادة **لاواعية** تقوم بترشيح واختيار إدراكاتهم .

ب) ما لم يفهم الناس آليات « فرض الشكل » فلن يكونوا في وضع يمكنهم فيه أن يحكموا على مسائل تتعلق بمغزى وهدف الحياة والطبيعة الإنسانية الخ . وكراعي البقر الذي أطلق الرصاص على أصبع قدمه الكبير في الظلام ، فقد يحسبون خطأ بعض أجزاء من ذواتهم وكأنها أجزاء غريبة عنهم أو دخلية عليهم .

ج) إن « أبواب الإدراك » ذات نوابض قوية للغاية ، ويمكن أحياناً أن يفتح أحد هذه الأبواب فتحاً جزئياً ولفترة قصيرة لدخول النور والهواء ، أو بالأحرى « آخرية » العالم . ولكن هذه الأبواب تنغلق تلقائياً وبسرعة تاركةً الوعي حبيس قبوها الضيق . ويبدو أن هذا هو أسلوب « قوة الحياة » في عدم تمكيننا من الإسترخاء أكثر من اللازم ، وفي استخراج أقصى قدر من الجهد من كل إرادة إنسانية .

إن الناس يجهدون كل الوقت لإدخال عناصر جديدة من « الآخرية » في حيواتهم . فكل انجاز جديد يخلق أحساساً بالقوة ويفتح « باب » الإدرك لفترة وجيزة . ومع إن الإنجاز قد يكون مستمراً، فإن الإحساس بالإنتصار لا يدوم . فالباب ينغلق بسرعة ، ويجد الإنسان نفسه مدفوعاً إلى القيام بجهود إرادية جديدة .

فالناس إذن يسعون نحو غاية واحدة : تعميق الوعي . وقوى التطور تستغل هذا الهدف بنفس الطريقة التي نستغل بها قوة الجاذبية عندما نقيم محطة من محطات القوى الكهربائية على أحد الشلالات .

فقوى التطور هذه تعمل على أساس قاعدة لا يمكن أن نسميها إلاّ أنها عملية احتيال . فهي تُبقي الناس « فقراء » في الوعي ، مثلما يُبقي صاحب العمل عمّاله فقراء بأن يفرض عليهم غرامات وضرائب كبيرة بحيث يسترجع منها تسعين بالمئة من أجورهم . وهذا الأمر يصبغ الحياة الإنسانية لا محالة بمظهر العبث والعقم الذي لاحظه الكثير من الفلاسفة، فينهار الإحساس بالظفر مباشرة

تقريباً ، بحيث ان الانسان يضطر إلى أن يعيد الجدّ والسعي من جديد .

وقد انتبه الفلاسفة الى هذا الأمر ، فأشاروا الى أن الانسان يحتاج الى الحيلة والدهاء أكثر من الاصرار والعزيمة .

والفلاسفة هنا يقومون بدور المحرضين إذ أنهم يحاولون أن يحرضوا الناس على الثورة ضد هذا الاستغلال الذي تقوم به القوى البيولوجية ، فإذا كان **الاحساس بالظفر** ، نتيجة لتحقيق انجاز ما ، أهم من الانجاز نفسه ، فإن على الناس إذن ، أن يتعلموا كيف يسيطرون على عقولهم وعواطفهم ، لأنهم بذلك قد يستطيعون أن يحتفظوا بإحساس الظفر هذا لمدة أطول ، أو أن يخلقوا فيهم هذا الاحساس بدون عناء أو جهد طويلين وغير ضروريين . وهذا هو أساس نظرية سقراط « اعرف نفسك » .

ويبدو أن القوى البيولوجية تعتمد على وسائل قهرية وفجة لإبقاء الكائنات البشرية في دور العامل المستغَل.

الحياة معقدة وصعبة ، ومجرد البقاء على قيد الحياة يتطلب أكبر قسط من طاقتنا واهتمامنا . وقوى الحياة تستعمل الاسلوب الذي يعرف في أميركا بـ « مَرَع المتسكّع » ، بمعنى أن هذه القوى تستحث وتستعجل الضحية التي تختارها إلى الحد الذي تصاب فيه هذه الضحية بالبلبلة والارتباك بحيث لا يمكنها اكتشاف الحيلة الذكية التي تُنفّذ ضدها ؛ والى جانب هذه التجربة المربكة ومتطلبات الجسم الدائمة للغذاء والعناية ، هناك مشكلة « النابض » القوي المركب على « أبواب الادراك » فحتى إذا أفلح الانسان في التوقف عن التفكير وعن القيام باستعراض وضعه وحالته ، فسيجد من الصعب عليه أن يفكر تفكيراً هادفاً متسلسلاً ، إذ أن الأبواب تظل تنغلق خلفه وتغرقه في الظلمة من جديد .

ومتى تمّ إدراك ذلك إدراكاً تاماً فسيصبح من الأسهل فهم عمل الدوافع الجنسية ونظامها .

بل إن الدون جوانية مثلاً تصبح مفهومة في التو . وإن بلوغ قمة النشوة

الجنسية هو أسهل وسيلة لتحقيق حالة مباشرة من تعميق الوعي . وهنا سُيشار إلى أن العادة السرية هي أسهل وسيلة لبلوغ قمة النشوة الجنسية ، وليست هناك أية احصائيات أو كشوف تدل على أن الدون جوانيين يمارسون العادة السرية أكثر أو أقل من الآخرين ، لكن ليس هناك في الوقت نفسه أي دليل يشير إلى أن الدون جوانية تتعارض مع العادة السرية . فالضابط السابق الذي ورد ذكره في الفصل السابق ، والذي ينتمي بطبائعه الى فئة الدون جوانيين يقول إن العادة السرية هي في بعض النواحي أفضل من الجماع . وكازانوفا يقرّ بأنه استعمل يد الآنسة دي لامير ليمارس العادة السرية .

لكن العادة السرية لا يمكن أن ترضي الـ « أنا » في الانسان مثلما يرضيها اغواء شركاء جنسيين جدد . فإن اغواء امرأة ما ، هو في حدّ ذاته نوع من تحقيق انجاز ما ، كما أن عملية الاستحواذ عليها جنسياً هي لحظة من تمجيد النفس، وربما كانت كذلك لحظة من الشعور الروحي بأن « كل شيء على ما يرام » وأن الحياة ليست في النهاية هزيمة ، بل مغامرة رائعة .

وماذا كانت كل مخاوف الدنيا
تعني لـ « باريس » الجبار حين
وجد النوم على فراش ذهبي
بين ذراعي هيلين في ذلك الفجر الأول ؟

بعد ذلك مباشرة ينغلق الوعي مرة أخرى ، ويتحتم لذلك إعادة العملية بكاملها لبلوغ لحظة أخرى من البصيرة . ويعود « مركب النقص » يغلف العقل مرة أخرى ، ويرتدّ الإنسان الى الوضع الذي يحتاج فيه الى أن « يثبت جدارته وقيمته » أمام نفسه . وإنه لمن صالح قوة التطور ، أن الانسان يجب أن يبقى على جهل بقوته الخاصة .

إن مبدأ الحدّ من الوعي هو مفتاح مشكلة الدافع الجنسي عند الانسان .

الفصل الرابع

معنى «الانحراف»

- ١ -

الجرم الجنسي. جريمة الدالية السوداء. القتل التشبهي . عدم الإمتياز الجنسي. الإنجاز الجنسي ومشكلة «الرؤيا». بليك الجنس . الانطوائي . اليوت وتيرنر . تي . اي . هولم . دي ساد . كركيفارد ومذكرات غاوٍ .



ان الاعتبارات السالفة تفتح أمامنا درباً جديداً لتفحص مشكلة الإنحراف الجنسي برمتها ، وأعني هنـــا التفحص الفلسفي وليس الباثولوجي (أي المختص بعـلم الأمراض) . ومن السهل بمكان أن نعرف متى تكون آلة ما تعمل بانتظام ومتى يطرأ عطب عليها ، لأننا نعرف تركيب عمل هذه الآلة ونظامها ، ولكن يبدو أن الكائنات البشرية هي آلات تمّ تخريبها عن تعمّد وأن شعوراً بالخيبة والعبث « مخلوق » فينا، بحيث أننا لا نستطيـع أبداً أن نعمل بقدرتنا القصوى، بل ان مقارنة مروّعة تشير إلى أن الكائنات البشرية توضع في حـالة من الحجز والإنطهاق النفسية تماماً ، كما تسمّن الخراف قبل الذبح .

وليس هناك من سبب « ميكانيكي » لكون الكائنات البشرية على هذا الحال المزري الذي يدعو إلى الشفقة .

إن الانحطاط والإحساس بالنقص هما « مزاجان » يولدهما الشعور بالقصور والفشل بالهزيمة من قبل « الحاضر » . وليس هناك من سبب وجيه لشعور الفشل هذا عند الإنسان، لأن كل واحد منا يمتلك مخزناً هائلاً من الذاكرة يكفي لوعي وبصيرة « إله » على عمقها وضخامتها .

ولقد كتب ستيبنوولف يقول : « لقد عرفت ثانية ، ما كنت قد نسيته في تعاستي ... وهو أن لبّ حياتي هذه هو لبّ نبيل ».

غير أن ما يؤسف له إنه لا يمكن الوصول إلى هذا المخزن الذاكري . فقـد نشعر نحن أنـه ضرورة ، لكن قوى التطور تشعر أنه حاجة كمالية لا بأس إن حُرمت الكائنات البشرية من التمتع بها؛وأكثر من هذا فإن هذا المخزن الذاكري قد يقلـّل من الكفاءة « التطورية » لقوى التطور، وذلك لأن المزيد من الذاكرة ليست له قيمة بقائية وقد يشجع على الكسل . وعلى هذا فإننـــا يجب أن نقنع

بهذه الوجبة الشحيحة غير المغذية من الوعي ، على الرغم من أننا نعلم أنه ليس هناك من سبب وجيه لكي نحرم من وليمة دسمة منه .

لقد بلغت حياتنا في القرن العشرين حداً من التعقيد بحيث أنه أصبح لدينا وقت أقل من ذي قبل للإستراحة والإسترخاء والهروب من الضرورات التكرارية للوجود المادي . وفي ظروف كهذه فإنه ليس من المستغرب أن نجد انسياقاً متزايداً نحو المحركات البسيطة للوعي كالخمرة والتدخين والمخدرات والجنس .

وإلى جانب ذلك فثمة الآن فارق في النوعية الفعلية لإهتمامنا بالجنس ، وهذا يعود إلى أن الجنس أخذ يتحول إلى مادة « للتـــأمّل » بدلاً من مجرد إنغماس جسدي . والجنس في المجتمعات البدائية هو مجرد شيء يقوم به الرجل إذا واتاه الخاطر فاستحصل على فتاة في مكان مظلم ما . والجنس هنا عملية جسدية لذيذة لا تشغل الفكر كثيراً بقية اليـــوم . أما في أيامنا هذه ، فإن الأشياء التي تذكرنا بالجنس كثيرة ، فالنساء يرتدين ملابس مغرية ومكشوفة بطريقة تجعل الرجال يحسون بما يمكن أن يقدمنه لهم في الفراش ، وصور الإعلانات ملأى بصور نساء في ملابسهن الداخلية ، كما أن بعض المؤلفين ومنتجي الأفلام قد اكتشفوا الفوائد التي يمكن جنيها من جعل انتاجهم قريبـاً من الفحش ، وتساعد في ذلك الدعاية الصحفية التي ينالها مثل هذا الإنتاج من الكتب والأفلام ، حيث تضمن الرواج الهائل .

كل ذلك يثير مشكلة من نوع جديـــد ، فالمحارب الصليبي الذي لم يضاجع امرأة ما طيلة خمسة أعوام ، سيكون قد ذاق الكثير من المرارة والخيبة ، ولكن هذه المرارة والخيبة كانتا تذوبان في أول ماخور « مسيحي » كان هذا المحارب الصليبي يجده في طريق عودته . وسرعان مـــا يطرأ عامل عقلي على الرغبة الجسدية ، ليدفعهـــا إلى ما خلف حدودها العادية . وقد كتب بوسويل أن الدكتور جونسون كان يلتهم طعـامه كوحش جائع ، وأنه كان يفضل اللحوم قليلة الشواء ، وذلك لأنه جاع كثيراً في سنواته المبكرة . وهناك قصة رائعة لأكوتاجاوا ، وهو موباسان اليابان ، تدعى « عصيدة اليام » وهي تتحدث عن جندي صغير مسالم ، نصف جـــائع تتملكه تصورات شبه جنونية عن وجبته

المفضلة ال[illegible] « عصيدة اليام » ، بحيث أنه كان يقضي أيامه وهو يتخيــل اللذة التي سيحصل عليها لو أنه التهم كميات هائلة من أكلته هــــذه . (ومن الطبيعي هنــا ، أنه كان يشعر بالعياء والغثيان والخجل حين تتاح له الفرصة في النهاية ، عندما يأكل كمية ضخمة من العصيدة) .

وحين يقال إن هذا العامل العقلي يدفع الرغبة الجنسية إلى أبعد من حدودها العادية فإن ذلك لا يعني أنه يجعلها غير طبيعية نوعاً ما . إنه قد يدفعها لتذهب إلى أبعـــد من حدودها « الطبيعية » ، لكن الطبيعة ، كما استنتجنا من الفصل السابق ، تبقينا عمداً في حالة تحت الطبيعية وذلك لكي تبقي إرادتنا مشدودة . وهكذا فإن « تجاوز الحد الطبيعي » لا يعني بالضرورة عملاً غير طبيعي . ونجد توضيحاً طريفاً لهذه النقطة في رواية فيليب دي بروين حيث يتكلم عن حيــاته الذاتية باسم « تسبيح وثني » A Pagan's Hosanna . يروي دي بروين كيف أنه أبصر يوماً فتـــاة جميلة بملابس السباحة على شاطىء البحر وكيف أنه أحس برغبة جامحة عنيفة نحوها . لكنه يضيف : « المشكلة هي أنني كنت أدرك أن هذه الرغبة غير قابلة للإشباع ، فقد أتعرف على فتـاة وأقنعها بأن تضاجعني . ولكن ذلك لن يشبع ما أحس به الآن . فإن مضاجعتها في المستقبل ستكون نسخة كربونية من الرغبة التي تتملكني الآن بأن أطرح الفتاة على الرمال الدافئة وأنزع رداء السباحة الذي تلبسه ثم استحوذ عليها بالتحام فوري عنيف بين جسدينا » .

وهذا شيء مهم ، فإن دي بروين يدرك أن هذه الرغبة نحو فتاة مجهولة هي أعنف وأعمق بكثير من الرغبة التي قد يشعر بها في وقت لاحق نحو فتاة يعرفها شخصياً وترضى بأن تصبح عشيقته . ومن المزعج حقـــاً أن نفكر بأنه لو كان دي بروين رجــلاً مختلفاً أو أنه لو كان الشاطىء مهجوراً فإن الفتاة قد تتعرض للإغتصاب وربما للخنق لاشباع حاجة لا يمكن تحقيقها بشكل آخر .

وهذا لا يعني طبعاً أن هناك رغبات جنسية « طبيعية » لا يمكن اشباعهــا الا بواسطة الاغتصاب . ودوماً نميل إلى الحديث عـــن الرغبة الجنسية ووسيلة اشباعها وكأنهما مرتبطان منطقياً مثل الجوع وتناول وجبة طعام . إن مثــــل

هذا الترابط غير موجود . فليس هناك قانون معين تزيد أو تقل الرغبة الجنسية بموجبه . فالحاجة الى اشباع الرغبة تلعب دورها ، لكن هناك كذلك تعقيداً مادياً ونفسياً يعصى على التحليل . (في حالة حارس المدرسة الذي قتل الطفلات الثلاث ، مثلاً ، فإن خبرة القاتل الجنسية السابقة كانت واسعة جداً وفاسدة بعض الشيء . ومع ذلك ، فإن الحاجة الى اشباع الرغبة لا يمكن أن تكون هي وحدها سبب الجريمة ، فقد قال لبول دي ريفر انه لم يختبر من قبل أي اشباع كامل لرغباته الجنسية ، وأنه قد شعر بعد ذلك - أي بعد الاعتداء على الطفلات - « براحة كبيرة وبارتواء جنسي عارم ») .

وليس هناك سبب لكون عملية جنسية معينة تخلق « ارتواءً تاماً » أكثر من كون قصيدة ما ، أو قطعة موسيقية ما ، تؤدي إلى حالة من انعتاق العواطف . وميلنا إلى الربط بين الرغبة الجنسية ووسيلة اشباعها حسب معادلة عادية صارمة ، يعكس نفس الاسلوب المتفكك الفضفاض من التفكير الذي يجعلنا نعامل ادراكاتنا وكأنها « ممنوحة » لنا بطريقة ما . والأمر يحتاج فقط الى عملية من « التحليل الفنمنولوجي » لكي تجعلنا ندرك « العمدية » الخفية التي تختار هدفها الجنسي الخاص .

وعلى كل حال فان فكرة « الارتواء الجنسي النهائي » تؤدي الى طريقة طريفة لإعادة تأكيد السؤال الوارد في الفصل الأول. فبدلاً من أن نسأل: « أين هو الحدّ الفاصل بين الطبيعية والانحراف ؟ » نستطيع أن نعيد تركيب السؤال على الوجه التالي : «ما هو الحد المسموح به لكي يبلغ الانسان الارتواء الجنسي؟» ففي الصيغة الأخيرة للسؤال ، يمكن الوصول بالتحليل إلى مدى أبعد جداً . ذلك أن هذه الصيغة تحمل عدة أفكار أثيرت في الفصل السابق . فكلمة « المسموح بها » ستؤدي مباشرة الى هذا السؤال : « مسموح بها ممّن وبناء على أي مستوى من القيم ؟ » وفكرة وجود حدّ للارتواء الجنسي تثير مرة أخرى قضية تخوم الوعي الانساني ومن ثمّ قضية « الرؤيا » .

ولنؤكد هنا على نقطة واحدة ، لأن هذه النقطة هي مفتاح كل نقاش حول

الجنس ، كما وأنها تكوّن جوهر وجهة نظر هذا الكتاب :

في الحديث عن القيم فيما يتعلق بكافة أشكال النشاط الجنسي فان « الحدّ من الوعي » هو العامل الأثيم ضمن العوامل الأخرى .

فإذا كان يجري بحث هذه القضية باللغة الدينية للعصر الفيكتوري فإنه يصبح بالامكان استعمال كلمات مثل « الله » و « الخطيئة » مما سيساعد كثيراً على تبسيط الحديث ، فإذا ما أدخلت مثل هذه التعبيرات في البحث الحالي على شكل مفاهيم ضمنية (لتعبيرات مثل « مسموح به » و « الطبيعة » و « القوة البيولوجية » الخ .) فعلينا أن نفهم أن ذلك سيكون لمجرد الراحة وتوفير الجهد ، تماماً كما يستعمل الرياضيون أرقاماً خيالية (الجذور التربيعية لما تحت الصفر .) فان هذه التعبيرات تحمل من الظلال والمعاني ما لم يستطع البحث أن يجد مفهومات وتعريفات لها حتى الآن .

وعلى كل حال فإن الفكرة الأساسية من هذا الكتاب لا تغدو مشوهة حين تُطرح على هذا الشكل وهو أن الحدّ من الوعي هو العامل الأليم ضمن العوامل الأخرى ؛ فان هذه الفكرة ليست تبريراً « للانحراف» الجنسي أو الجريمة الجنسية ، لكنها على الأقل تمنحنا الوسيلة لتفهمها وادراكها . إن أي أم تجد نفسها مدفوعة الى السرقة لاطعام أطفالها ، تكون رغم كل شيء قد اقترفت جناية . لكن أي قضاء لا يأخذ بعين الاعتبار الدافع أو الدوافع إلى السرقة ، لا يمكن أن يكون قضاءً عادلاً .

إن الكائنات البشرية محرومة من وعي هو « ملكهم وحقهم الطبيعي » . ولقد كتب الدكتور سي . دي . برود يقول : « إن كل شخص يستطيع أن يتذكر في كل لحظة ما قد حدث معه ، وان يدرك كل شيء يحدث في هذه المعمورة . وعمل الدماغ والجهاز العصبي هو حمايتنا لئلا يطغى علينا أو يبلبلنا هذا الحشد من المعرفة غير المفيدة وغير المتعلقة بالموضوع ، وذلك عن طريق **اغلاق الباب** في وجه معظم ما كنا يجب أن ندركه ... »

(التشديد على « اغلاق الباب » هو مني) .

وقد كان برغسون أول من عبر عن هذا الرأي ، وفي الفصل السابق كنت قد تحدثت بصورة مقتضبة عن « القوى البيولوجية » التي تقوم عمداً بوضع غمّامات على الوعي الانساني لكي ترفعه الى قدرته القصوى . الا أنه يجب أن نذكر دائماً أن عملية وضع الغمامات هذه قد تكون كذلك متعمدة من قبل الوعي الباطن. وقد ندرك نحن بأنفسنا الحاجة الى الحدّ من وعينا (ومن ثم الحدّ من « سعادتنا ») ، لكي تعبر عن حيويتنا القصوى . وفي تلك الحالة فان الوسيلة المثالية للتعبير عن أنفسنا ، ككائنات بشرية ستشتمل على توازن ما بين عمديتنا اللاواعية هذه ، وبين رغائبنا الواعية .

وإذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار ، فإننا سنستطيع أن نعالج قضية « الحدود المسموح بها » في النشاط الجنسي الانساني على اعتبار أنها قضية تتعلق بمدى امتداد الوعي . والأهداف والدوافع التي تقف خلف النشاط الجنسي هي ذاتها التي تقف وراء قراءة الشعر أو الاستماع الى الموسيقى ، وهي التخلص من القيود أو الحدود التي تفرضها الحاجة إلى الخاصّية في الوعي . وقد كتب ازرا باوند مرة :

... انني أنا
ههنا شاعر ينهل من الحياة
كما يشرب الرجال الأقل الخمرة

وازرا باوند هنا قد عرّف الهدف المشترك لكافة الناس :

إنهم كلهم يحبون أن « ينهلوا من الحياة » كما يشرب الآخرون الخمرة . وفكرة باوند هذه خليقة بشاعر فقط . ومرة قال همنغواي إن مصارع الثيران هو وحده فقط الذي يعيش حياته كل مداها إلى فوق » .

وهو بذلك يشير إلى أن الجرأة الجسدية هي وسيلة أفضل لتعميق وتركيز الوعي . وهناك نادرة ، ذات مغزى مزعج عن طالب صغير سئل يوماً عن طموحه عندما يكبر ويصبح رجلاً ، فأجاب بإقتضاب : « مجنون جنسي » (بمعنى الإنسان المصاب بالهوس الجنسي ، أي الإنسان الذي لا يفكر إلا في

الجنس .) والطريف أن كثيراً من النـــاس يعتقدون أن « المجنون أو المهووس الجنسي » هو من القليلين في المجتمع الإنساني الذين يستطيعون أن « ينهـــلوا من الحياة » بطريقة حرم منها الآخرون . وهـــذا الرأي له ما يبرره إلى حدّ ما . ولقد اقتبست قبل قليل الملاحظات التي دوّنها فيليب دي بروين عن الفتاة التي كانت تسير على الشاطىء ، وعن الإحساس الذي اجتاحه بأن الاغتصاب (أو على الأقل الاستحواذ الفوري) قد يكون الوسيلة الوحيـدة لارواء الرغبة التي ثارت فيه .

أما هنري باربوس فقد أثار نقطة مماثلة في بداية رواية « الجحيم » L'enfer: يصف الراوي عشاء في بنسيون « محترم » يقوم أثنـاءه أحد الجالسين بالتحدث عن جريمة جنسية تمت مؤخراً . ويلاحظ الراوي أن كل واحد من الجالسين قد سرى إليه بعض انفعال ، حاول أن يخفيه ، بما في ذلك أم طفلة صغيرة ، لأنهم أحسوا بحسد خفي نحو مقترف الجريمة الجنسية .

ولقـــد قلت في مكان آخر بأن أية دراسة تجري على الجرائم الجنسية « التشبيهية » ستكشف عن وجود مثل هذه الرغبة المكبوتة . والبوليس يستاء من قيام الصحف بنشر تفاصيل جريمة جنسية ما ، لأن ذلك يؤدي أحياناً إلى حدوث عـدد كبير من الجرائم التي تتشبه بتلك الجريـــة بالذات وتقلدها تبعاً للتفاصيل المنشورة . (وقد كتب تشارلز جاكسون رواية مؤثرة حول هـــذا الموضوع بعنوان « الأطراف الخارجية » The Outer Edges) .

وجريمة زهرة الداليـا السوداء التي وقعت في لوس أنجلس عام ١٩٤٧ تثبت ذلك . فقد قتلت اليزابث شورت ، وهي ممثـــلة فاشلة ، تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ، بطريقة فظيعة وغير عادية . ووجدت جثتها في باحة خالية ، مقطوعة من الخصر إلى قسمين ، والعلامات تدل على أن الفتـــاة قد علقت من قدميها وعذبت قبل قتلها .

ثم تلقى البوليس رسالة من مجهـــول ادعى أنه هو القاتـــل ، وعرض أن يسلمّ نفسه ، لكنه لم يفعل ذلك أبداً . ومن المحتمل أن مقترف جريمة الداليا

السوداء قد أستوحى في جريمته أسلوب قاتـل آخر اسمه أوتو ستيف ولسون ، الذي قتل بغيين خنقاً وشوه جثتيهما في اليـوم نفسه من عام ١٩٤٤ وفي لوس انجلس بالذات . (إن دي ريفر يروي تفاصيل هذه الجريمة كذلك) وسواء أكان ولسون هو الذي أوحى بجريمة الداليـا السوداء أم لا ، فإن من الحقائق الثابتة أن جريمة الداليا السوداء كانت هي نوعاً ما ، مصدر الوحي لموجة من الجرائم الجنسية التي اجتاحت انجلس عام ١٩٤٧ . فقد وقعت ست جرائم مماثلة لها في نفس العام وفي المنطقة نفسها . بل إن مقترف احـدى هذه الجرائم خطّ حرفي B . D ، (وربمـا كانا أول حرفين من كلمتي الداليا السوداء) على صدر ضحيته بأحمر الشفاه . وقد اعترف (٢٧) رجلاً بأنهم مقترفو جريمـة الداليا السوداء ، ثم تبين ان اعترافاتهم كانت كاذبة . وبعد تسع سنوات تلقى البوليس الاعتراف الثامن والعشرين ، وكان من امرأة سحاقية . وقد يصح أن نعتبر هذه الاعترافات الثماني والعشرين كنوع من البـديل لجريمة تشبيهية ، فهي كلها صادرة عن نفس الغيرة من تجربة القاتل وعن رغبته في المشاركة في هذه التجربة .

هنا إذن حالة أدت فيها جريمة جنسية سادية واحدة إلى (٣٤) رد فعـل مماثل ... ست جرائم قتـل ، و (٢٨) اعتراف كاذب ... في منطقة بحجم لندن . ترى كم واحداً من سكان لوس انجلس الآخرين أحس بنفس الغيرة من تجربة القاتل ، لكنه أبقى رغبته في تقليدها ، في حدود الخيال ؟.

ومع ذلك ، فمن حسن الحظ أن غالبية الناس يعتبرون مثل هذه الجرائـم فظيعة ومروعة بحيث أنهم لا يشعرون نحوها الا بالنفور والاستهجان . فـإن معظم النـاس يكرهون بكل جوارحهم أن يلحقوا الأذى والألم بالآخرين ، ولكن المصابين بالهوس أو الجنون الجنسي ليسوا كلهم ، بل ليس أغلبهم ، قتلة .

يروي دي ريفر قضية رجل اقترف جريمة اغتصاب ، وكان مصاباً باختلال في قواه العقلية . كان الرجل ذا ذكاء محدود جداً ، وقبل أن يلقى القبض عليه بتهمة الإغتصاب ، كان قد سُجن عدة مرات لإقترافه جرائـم « الكشف عن عوراته » والتعرض للفتيات في الشوارع . وكان يلجـأ إلى الأسلوب نفسه

دائماً ، إذ كان يلوّح بسكين ضخم حاد أمام ضحيته ويأمرها بخلع ثيابها ، ويظهر بأن مظهره الشرس كان يوحي لمعظم ضحاياه بأنه لن يتردد في استعمال السكين . وقد سمحت له ضحاياه ، وكنّ ثلاث نساء وطفلة في التاسعة من عمرها ، بـــأن يمارس مختلف العمليات الجنسية معهن بما في ذلك اللعق من المهبل . وكان في كل الحالات يترك ضحيته بسلام بعد أن يكون قد بلغ النشوة الجنسية ، دون أن يتعرض لها بالمزيد من الأذى . وفي حالتـــين من هذه الحالات على الأقل أبدت ضحيتاه نوعــاً من الاستجابة الإيجابية في محاولة لمداراة موقفها التعس ، بل إن احداهما طلبت منه أن يكف عن تهييجها وأن يتابع مهمته . ولعل هذا أقرب إلى ما خطر على بال الطالب الصغير في النادرة السابقة حين قــال بأنه يرغب في أن يصبح أحد الجانين الجنسيين .

عدم التمييز الجنسي

إن ما تقدم ينقلنا إذن إلى واحــدة من أكبر المشاكل التي تواجـــه المدنية المعاصرة ، وهي مشكلة « عدم التمييز الجنسي » . قبل قرن من الآن كان عدم التمييز الاجتماعي هو المشكلة الرئيسية ، وكانت المجتمعـــات على الأخص في انكلترا وروسيا ، في طور التغيير ، فلم يكن هناك التقسيم البـــارز بين الإرستقراطي والفلاح بصورته القديمة ، كما ولم يكن هناك الإحساس باللاطبقية كما في أميركا المعاصرة ، وإلى حــــد أقل في انكلترا بعــد الحرب . وكانت النتيجة نشوء حالة دائمة من عدم الإستقرار الإجتماعي رافقها كثير من حوادث العنف .

وفي وقتنا الحاضر فإن عصبانية عـــدم التمييز الإجتماعي قد اختفت تقريباً . لذلك فإن أية محـاولة لفهم المشاعر الواردة في روايتي درايزر « مأساة أميركية » American Tragedy و « جون هاليفاكس جنتلمان » ، فهماً تامـاً تحتاج إلى عملية عطف ، كما أن عجرفة دزرائيلي وأوسكار وايلد لها نكهة غريبة زنخة . أمــا آخر كاتب انكليزي كبير كان قد تأثر بشعور عدم التمييز

الإجتماعي فهو د . هـ . لورنس . أما الاستثناءات التي تخرج بين الفينة والأخرى كرواية إفيلين فوو « عودة إلى برايد شيد » Brideshead Revisited أو حتى رواية جون برين « مكان في القمة » Room at the Top فلها في وقتنا هذا وقع كوقع التقليعات ، الأمر الذي يدل على المسافة الكبيرة التي قطعناها في الطريق إلى مجتمع لا طبقي .

الا أن الاضطراب الإجتماعي السائد في القرن التاسع عشر انتقل الآن إلى حقل الجنس . فقد راحت نسبة الجرائم الجنسية ترتفع باستمرار منذ ما قبل الحرب . أما النسبة الحالية في انكلترا فقد بلغت بالفعل ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . وهذه مسألة سأبحثها بتفصيل أكثر في الفصل التالي . أما الآن فيكفي أن نشير إلى أن أحد الأسباب الرئيسية لهذا الازدياد في نسبة الجرائم الجنسية ، هو ازدياد وسائل الإثارة الجنسية . ولقد اشتكى تولستوي من كثرة وجود الجنس في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر . وليس من الصعب أن نتصور ماذا سيكون رد الفعل لديه ، لو عاش في أية مدينة كبيرة ، في العصر الحالي حيث دور السينما تعرض أفلاماً مثيرة ، وحيث تمج الإعلانات بصور نساء نصف عاريات ، وحيث تباع في المكتبات روايات شبه داعرة .

ونتيجة كل هذا ، نرى الشعور الذي عبر عنه فيليب دي بروين هو الآن أكثر انتشاراً عمّا كان في أي وقت من الأوقات . ويعود هذا بصورة جزئية إلى جنوح الإنسان لحسد الآخرين بسبب ممارستهم الجنسية ، وإلى أن يعتقد بأن الغير يتمتعون جنسياً بأكثر مما يتمتع هو .

وما يشجع هذا ، مع الأسف ، هو ما تنشره الصحف من تفاصيل حول الجرائم الجنسية . وهذا الحسد قد يوجه إلى قطاعات من المجتمع يعتقد أن المفاهيم والتصرفات الجنسية عندها مطلقة الحرية[1] كقطاعات الفنانين والمجرمين

---

١ – كتبت مقالاً لجريدة انكليزية في عام ١٩٦٠ أصف فيه حياة جماعة من « البوهيميين » الذين كانوا يقطنون معاً في منزل ما، في حيّ تشلزي بلندن. وذكرت في مقالي هذا أن النساء بين هذه الجماعة كن تقريباً « مشتركات » بين الجميع . وإذا بالرسائل تنهال عليّ ، تسألني =

والمومسات الخ . وهناك أحيان تبدو فيها حمّى الجنس هذه شبيهة بحمى البحث عن الذهب في القديم ... مجرد رغبة داهمة للفوز بأي مغنم جنسي .

وقد يخالفني البعض الرأي في أن قصة «لوليتا » لنابوكوف تدور في الأساس حول هذا الاحساس بعدم التمييز الجنسي ، وليس حول مجرد علاقات جنسية بفتاة قاصرة . فلهفة « همبرت » إلى لوليتا ، هي لهفة إنسان هذا العصر إلى المحرّم. وهمبرت هذا فيما يبدو يحتوي في داخله على كل بذور الانحرافات الجنسية فيما عدا السادية . فهو يمارس العادة السرية على مقاعد الحدائق العامة فيما هو يختلس النظر الى ما تحت ملابس الفتيات الصغيرات وهن يرفعن أقدامهن لاحكام رباط أحذية التزلج ، أو هو يحتك بساقي لوليتا ليتوصل الى نقطة القذف . وغرضه الأصلي من لوليتا ليس القيام بغوايتها، بل أن يخدرها عن طريق الحبوب المنوّمة لكي يستعملها كوسيط جنسي سلبي دون أن يعتدي عليها أبداً . وهذه الحالة قريبة جداً من الوله الجنسي بالجثث .

لكن بغضّ النظر عما إذا كان ذلك عن تعمد أم لا ، فإن نابوكوف قد خلق من لوليتا بلا شك ، رمزاً قوياً للمعنى المعاصر لعدم التمييز . وليست هناك فيما أعتقد سوى وسيلتين اثنتين فقط لمعالجة هذا الموضوع معالجة روائية :

الكتابة عن مغتصب أو قاتل جنسي ، أو الكتابة عن شكل آخر من أشكال الانسياق الجنسي التي تعتبر محرمة تماماً .

في القرن الثامن عشر كانت الخيانة الزوجية من « الشرور » التي كان التعرض لها يكفي لخلق حالة فنية من الثورة الاجتماعية . أما في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد أصبحت الخيانة الزوجية من الأمور الشائعة في الرواية والقصص (وخاصة في فرنسا) .

إن المرادف القصصي في القرن العشرين لروايات مثل « مانون ليسكو »

= عن عنوان المنزل. ولم تكن الرسائل ، كما قد يتوقع البعض ، من فنانين أو طلبة الفنون ، أو بوهيميين آخرين ، بل كانت من « أشخاص لهم مكانتهم الاجتماعية المحترمة » ، ومن بينهم أستاذ ومحام . وقد ادعى هذان الرجلان بأن غرضهما هو القيام « بدراسة » لهذه الجماعة. (المؤلف).

« Manon Lescaut » أو « أمـيرة كليف » « The Princess of Cleves » ،
هي روايـة مثل « ياما » Yama (وهي عن ماخور) من تأليف كوبرين ، أو
رواية مثل رواية باربوس « الجحيم » (وهي عن أحـــد المصابين بشذوذ اللذة
الجنسية عن طريق استراق النظر) . أمـــا روايات « البحث »R echerche
لبروست ، و « أوليس » Ulyssee لجـويس ، و « بئر الوحـــدة » Well of
Loneliness لرادكليف هول ، و « المكان المقدس » Sanctuary لفوكنر ، فهي
قد وسعت الآفاق إلى درجة أن أي إنسان قرأ هذه الروايات كلها لن يكون
بامكان أية اباحة جنسية أن تصدمه .

وقد كانت رواية فوكنر بداية موجة من الكتب التي تدور حـــول رجال
العصابات والسادية والاغتصاب أشهرها رواية من تأليف هادلي تشيز بعنوان :
« No Orchids[1] for Miss Blandish» والموقف الأخلاقي الذي تقفه هـــذه
الرواية هو من التطرف بحيث أنه قد يصح مقارنتها بمؤلفات المركيز دي ساد .
وإن أي ناشر محترم يمكنه اليوم أن ينشر كتاباً لو صدر قبل ثلاثين عاماً ،
لتم تحريمه ، ولسيق ناشره إلى المحاكمة . بـل إن النقاد نادراً ما يكلفون أنفسهم
مشقة التعليق على مشاهد جنسية مثـــل عملية إغتصاب أو علاقة جنسية بين
رجلين قد ترد في رواية ما[٢].

---

١ – أركيديا ، نوع من الزهور .
٢ – تنقسم مثل هذه الروايات إلى قسمين : روايات يكون فيها « الجنس » وسيلة لغاية ما ،
مثل « لوليتا » أو روايات أنجوس ولسون (التي تدور صراحة حول اللواط) ، وروايات ذات
محتوى أقل عمقاً مثل « Peyton Place »أو « The Chapman Report » التي يكون
فيها الجنس كما يبدو غاية في حـد ذاته . وهناك بالاضافة الى ذلك روايات « بين بين » مثـــل
« لتكن الرغبـــة ملعونة » « Damed Shall be Desire » لكولتر ، وهي رواية خيالية
عن حياة موباسان ، وهدفها في الأساس ، هدف جاد وعميق ، ولكنها تحتوي على بضعة مشاهد،
مثل حوادث اغتصاب ووصف مفصل لفتـــاة وهي تتعرى ومعركة بالسياط بين امرأتين ، ولو
نشرت قبل ثلاثين عاماً لمنعت على اعتبار أنها من روايات الدعارة . أما اليوم ، فليس من يحتج .
(المؤلف) .

وكل هذا يعني أنه من المستحيل تقريباً كتابة رواية في النصف الثاني من القرن العشرين عن عدم التمييز الجنسي ، لأن كل الرموز قـد فقدت معنى الصدمة . ولعل اختيار نابوكوف للوليتا كرمز كان هو الاختيار الممكن الوحيد ، إلاّ إذا استثنينا ربما الاغتصاب الجماعي . وهذا يعود بالبحث إلى السؤال الذي وجهته في مستهل هذا الفصل :

ما هي الحدود المسموح بها للنشاط الجنسي الإنساني ؟

إن همبرت بطل رواية نابوكوف « لوليتا » يقول بوضوح :

إن مجتمعاً لا يسمح له بمضاجعة الفتيات الصغيرات هو مجتمع لا يعامله معاملة عادلة . (وحل مشكلة أي شخص حقيقي مثل همبرت هو ببساطة أن يذهب مثل هذا الشخص إلى الهنـد أو أفريقيا الشمالية حيث يمكنه أن يحصل على أي عدد من الفتيات الصغيرات دون أن يثير أية معارضة أو كلمة تعليق واحدة . وهذه الحقيقة هي في الواقع من بين الأسباب التي تجعلنا نعتبر حالة همبرت ، حالة رمزيـــة) . وبطلة رواية رادكليف هول ، هي كذلك التماس أو دعوة لسماح السحاق .

ومن الطريف أن نلاحظ التفسير الذي يعطيه همـــبرت لولعه بالفتيات الصغيرات ذوات الاثني عشر عامـــاً . فهمبرت كان قد وقع في الحب وهو في الثانيــة عشرة ومارس تجربة جنسية فطرية مع الصبية التي أحبها بحيث أحس بشعور قوي من الحريـــة ومن الشاعرية لم يعاوده بعد ذلك أبداً . ولقد سبق وأشرت إلى الشبه بين اللغة التي يصف همبرت فيها مشاعره حين يلامس لوليتا ، واللغة التي يصف بهـا كل من بروست وهيس تلك الإشعاعات الروحية الفجائية التي يحسّان بها .

يتحدث همبرت عن حبه الأول ، أنابيل ، فيقول : « لكن غابـــة الميموزا هذه – سديم النجوم ، الخدر ، اللهب ، قطرات الندى العسلي والالم – كلهـــا ظلت معي ... ومنذ ذلك الحين، وتلك الفتاة الصغيرة بجسدها الساحلي ولسانها المتحمس يلاحقني طيفها أبداً ... »

ويوجد هنا فارق واضح بين دفاع همبرت عن نفسه ، وبين دفاع بطلة « بئر الوحدة » عن نفسها . يقول رادكليف هول ، مؤلف بئر الوحدة ، إن بنتاً نمت وربيت كأنها صبي لا يمكنها أن تنال أية متعة جنسية **عادية** إلاّ إذا سمح لها بأن تعيش وتتصرف كأنها ذكر . أما همبرت فهو لا يجادل عن نوع المتعة الجنسية التي يسعى إليها معظم النـــاس ، بل إنه في الواقع يقول ما معناه بأنه شاعر ، وأنه يملك قدرة الشاعر **فوق العادية** على أن « ينهل من الحياة كما يشرب الرجال الأقل الخمرة » وهو أهل لأن يسمح له بإتبـاع الطريقة التي يريدها للوصول إلى تلك النشوة فوق العادية . والتماس رادكليف هول معقول واجتماعي ، أما التماس همبرت فهو ليس كذلك أصلاً ، لأن جوهر الشعر غير عقلي وغير اجتماعي .

ونتيجة لذلك تنشأ مشكلة جديدة في أي بحث عن ما هو « مسموح به » ، إن معظم أحكامنا الأخلاقية مبنية على المنـــاخ الاجتماعي الراهن أو **الوضع الاجتماعي القائم** (فيما يتعلق بمنع الكتب مثلاً)فماذا يحدث إذا ما بنيت الدعوة إلى التحرر الجنسي على أية مثل اجتماعية أخرى ؟ فالمجتمع الأونيدي يصلح لأن يكون مثالاً عملياً . كان نويس يريد أن يعلم الناس بأن يتمتعوا « بحرية أكثر » من تلك المتوفرة في مجتمع رأسمالي يقوم على المنافسة . وقد كانت رؤيته للحرية **الأوسع تقوم من بين ماتقوم عليه على اعتبار المتعة الجنسية وكأنها وسيلة مرغوبة للانتشاء الروحي عند الانسان كمتعة الشعر أو الموسيقى ، أو التهويم الديني.**

ومن الصعب التكهن بما كان نويس سيقول عن التماس همبرت ، إن كان من المحتمل بأنه كان سيعتبره معقولاً .

وبالطريقة ذاتها ، فـــإن الشيوعيين الأوائل في روسيا كانوا يبشرون بحرية الحب كجزء تبعي هام من الحرية الإجتماعية الجديدة . ومن المهم أن نلاحظ ، أن القادة العصريين في روسيا قد وجدوا ذلك غير عملي . أما نويس فقد نجح في المحافظة على الأسلوب الأخلاقي لجماعته الصغيرة ، ولكن الحرية الجنسية التـامة والجسدية الثورية شريكان يصعب التلاقي والتعـاون بينهما ، كما أن الأمر يتطلب قدراً كبيراً من اليقظة والإنتباه لمنع أي منهما من استثناء الآخر وحجبه كلية .

ولقد اضطر القـــادة الروس إلى اجراء تسوية فاصلة والى المحافظة على جدية الثورة وذلك باتخاذ موقف مشابه لتلك المواقف السارية في عصر الملكة فكتوريا من الجنس والعائلة[1] .

إن آراء وليم بليك عن الجنس هي أقرب إلى مجرى بحثنا هذا، وهذه الآراء قريبة من آراء نويس في مجالات عديدة . ولكن بليـــك كان إنساناً يملك رؤيا دينية خاصة ، أما نويس فكان مجرد مصلح ديني . وعلى عكس معاصريه ، كان بليك يؤمن أن الجنس شيء بريء ومرغوب وعنصر هـــام من تجربة الإنسان الجمـــالية والروحية . ولقد نفى بليك مثل ويتمان ولورنس التفرقة الحادة بين الجسد والروح (وبالتالي بين الرذيلة والفضيلة) . وقوله إن « الطاقة هي البهجة الأبدية » توقع لنظرية الفنمنولوجيا وكذلك للإدراك بـــأن « المرشح » يصبح أكثر قسوة وصرامة كلما يحسّ العقل أكثر فأكثر بالتعب .

إن المعاني التي تتضمنها نظرة بليك – نويس في الجنس ، يجب أن تستوعب بوضوح لأنها مفتـــاح قضية اللاطبيعية أو اللاعادية الجنسية . وفي مسرحية « البيت التعيس » Heartbreak House ، يدفع برنارد شو احـــدى بطلاته « إللي » إلى أن تجادل بأن « الروح » تجوع عند عدم وجود نقود .

« إن الاعتناء بالروح أمر باهظ جداً أكثر بكثير من الاعتناء بسيارة .. إن طعامها هو الموسيقى والصور والكتب والجبـــال والبحيرات والملابس الجميـــلة والأصحاب الجيدون . وفي هذا البلد لا يمكنك أن تحوز على هذه الأشياء بدون الكثير من النقود . وهذا هو السبب في جوع أرواحنا المخيف » إن بليك ونويس سيوافقان بقوة على ذلك وسيضيفان إلى قائمة « الحاجات الخاصة بالروح » عنـــد

---

١ – يهمني أن أبين هنا أنني أحس ببعض العطف على موقف الزعماء الروس ، فهذا النـــوع من التسوية بين الحرية والنظام الذي نفذ في روسيا قد يكون متعارضاً تماماً مع اسلوب تفكيرنا نحن في الغرب .

لكن الفن الروسي والموسيقى الروسية – وحق الحيـــاة الاجتماعية في روسيا – ليست مقيدة ومتزمتة كما نحب أحياناً أن نظن . بل إن الموسيقى الروسية على الأخص ذات حيويـــة ونبض تحسد عليها . (المؤلف) .

« اللي » ، الحـــاجة إلى التعبير الجنسي الكلي . بل إن بليك يتحدث بذات الغنائية الشاعرية عن الحرية السياسية والحرية الجنسية :

ويأتي الصباح ، فيذبل الليل ، ويترك الحراس مراكزهم...
دع العبد الكادح في الطاحونة ينطلق خارجاً إلى الحقل ...
دعه يرفع عينيه إلى السماوات ويضحك في الهواء الطلق ...

(أميركا ، اللوحة السادسة) .

... الحب ! الحب الفرح الفرح !! طليق كالريح الجبلية ...

وكذلك :

لحظة الرغبة ! لحظة الرغبة ! والعذراء
التي تحنّ إلى رجل ، ستوقظ رحمها لأفراح كبيره
في الظلال السرية بخدعها : والفتى الممنوع من
الفرح الشهواني سينسى كيف يصوغ ويخلق صورة غرامية
في ظلال ستائره وثنايا وسادته الصامته .

إن هذا الاعتراف الصريح بالعادة السرية ، وهذا التصريح عن مباهج الحب الحر كان سيصدم معاصري بليك لو أن أحدهم تجشم عناء قراءة كتبه النبوية . أما أن يتحدث عن الحب الحر فهذا واضح . ففي القصيدة ذاتها « رؤى بنـات البيون » (Visions of The Daughters of Albion) وقبل أبيات قليلة ، توبّخ أوثون زوجها ثيوثورمون بسبب غيرته ثم تقول :

لكن أوثون ستنصب شباكاً من الحرير وشراكاً من الماس
وتقنص لك فتيات من الفضة الطرية أو الذهب المتأجج
وسأستلقي بجانبك على ضفة نهر وأراقب لهوهن الماجن
أثناء الجماع اللذيذ ، لذة وراء لذة ، مع ثيوثورمون ...
أحمر كلون الصباح الوردي ، شبقاً كالألق الوليد ..

وفي « كتاب لوس » The Book of Los يعرض بليك اقتراحاً مماثلاً للتغلب على أمراض المجتمع : إن الرذائل ستتلاشى عن طريق السماح لها بـــأن تتشبع

لكن الطمع ُصب حق الحافة
والحسد أُطمم دهن الحملان
والغضب ُسقي دم أسد
والفجور استسلم إلى النوم
على عزف عود عذراء
أو بعد أن روي من حبها ...

وهناك حكاية تقول إن بليك أراد أن يطبق دولته المثالية في بيته ، وأن يبدأ ذلك بأن يضاجع خادمته ، ولكن زوجته وقفت له بالمرصاد وأفهمته أنه لا يستطيع أن يشتط بمثاليته الشاعرية إلى هـــذا الحد . وكتابات بليك تزخر بتمجيد الطاقات الجنسية :

تيه الطاووس هو مجد الله .
شهوة الماعز هي هبة الله .
غضب الليث هو حكمة الله .
عري المرأة هو صنع الله .
أو :
طريق الإفراط تؤدي إلى قصر الحكمة .
أو :
من يحس بالرغبة ولا يفعل شيئاً يسبب وباً .
أو :
لا تستطيع أن تعرف ما هو كاف إلا إذا عرفت ما هو أكثر من كاف .
أو :
أولى بك أن تغتال وليداً في مهده من أن تنمي فيك رغبة ولا تحققها .

وفي « أوروبا » Europe يصف بليك الوضع الحـــاضر للمجتمع « كحلم انثوي » (ولعـــل بليك كان يفكر في المجتمعات الأمومية التي انبثقت منها

المدنية العصرية) .

إن كراهيات بليك المفضلة موصومة بأنها في جوهرها أنمـــاط أنثوية من التفكـــير : ازدواجية « الجسد والروح » وما يرافق ذلك من نظرية الخطيئة والفضيلة والحـــدّ من الدافع الجنسي . والدافع الرئيسي عند المرأة هو الحفظ والوقاية ، لذلك فإن تفكيرها قائم على ضرورة وجود قيود وحدود ، كما أن مبدأها العملي هو الحذر والحرص . وتبعاً لبليك فإن هذه النظرية الانثوية تبلغ أقصاهـــا عند نيوتن ، أي في النظرية النيوتنية بأن الإنسان يمكنه أن يصبح شبه إله بواسطة العلم والتفكير . لكن هذا كثير ، كما أنه يخلق نوعاً من الحساب الأخير . ويثور المبدأ الذكري ، فتندلع الثورة. وفي البيت الأخير من القصيدة، يدعو « لوس » وهو المبدأ الذكري الخلاق ، كل أبنائه الى « جهاد الدم » .

وقبل أن نترك بليك فإنه من الجـــدير أن نذكر توقعه المدهش للفلسفة الفنمنولوجية ، ويرد هذا التوقع في بداية « أوروبا » Europe :

خمسة نوافذ تضيء الانسان الكهفي : من خلال واحدة يتنفس الهواء ؛ ومن خلال ثانيـــة يسمع موسيقى الأجواء ؛ ومن خلال ثالثة الكرمة الأزلية تترعرع لكي يجني منها العنب ؛ ومن خلال رابعة ينظر ويرى أجزاء صغيرة من العالم الأزلي الذي ينمو أبداً؛ ومن خلال خامسة يستطيع هو أن يخرج متى شاء؛ ولكنه لن يفعل لأن الأفراح المسروقة لذيذة ، والخـــبز الذي يؤكل في السرّ طيب .

وهنا يبدو لنا بوضوح دور الحواس الخمس في ابقـاء الإنسان في سجن ، وفي فرض نظام معين على العالم . لكن بليك يلمّح كذلك إلى أن الإنسان يستطيع إذا شاء ، أنه يرى العالم على **حقيقته**، بدون تدخل العمدية اللاواعية التعسفية . وهذه ولا شك نظرة أكثر تفاؤلاً من نظرتي باركلي أو « كانت » اللذين يعتبران أن ding an Sich لا يمكن معرفتها . والسبب الذي يعطيه بليك لعـدم اقدام الإنسان على « أن يخرج متى شاء » هو سبب طريف كذلك وهو أن تقييـــد النفس خير من الحرية المطلقة . وهذا بالتـــأكيد قريب من نظرية برغسون عن

دور الجهاز العصبي ومن تشكيلات هوسرل اللاحقة في الفنمنولوجية [١] . إن بلميك يجيب بعد ذلك على السؤال القائل : « ما هي الحدود المسموح بها في التجربة الجنسية الإنسانية ؟» بقوله : للرجال الحق في كل النساء اللواتي يجذبنهم، إن ذلك دور ضروري مز تطور الانسان الروحي . والذي يملك رغبة ولا يفعل شيئاً لتحقيقها يولّد وباً [٢] .

وإذا صغنا ذلك بلغة الفنمنولوجية قلنا : إذا أراد الانسان أن يوسع حدود عمديته اللاواعية فإن عليه أن يوسّع تجربته الجنسية . وإذا أراد الانسان ألا يسمح لعمديته بأن تفرض عليه وعلى العالم الخارجي حدوداً مميتة ، فإن عليه إذن أن يتحكم في هذه العمدية . ويمكن تحقيق ذلك بأن يبقى الانسان على اتصال بدائرة العمدية ، أي الوعي الباطن ، عن طريق تجربة جمالية أو جنسية . إننا نبحث الآن بمصطلحات جديدة في السؤال الذي أثير أثناء الحديث عن جورديف في الفصل الثاني ، الا وهو ما إذا كانت هناك تجربة جنسية تؤدي إلى « متعة نهائية » ، إلى تعبير كامل وتام عن المركز الجنسي . ولقد التزم جورديف الصمت حول هذه النقطة . لكن كثيراً غيره من « الروحيين » قد تطرقوا إلى هذا الموضوع وكانت إجاباتهم عليه تقوم كلها على تفسيرات شخصية .

وبليك مثل نويس ، يؤمن بالحب الحر . أما ويتمان ، وهو كذلك من الصوفيين الجنسيين ، فكانت عنده ميول لوطية أكيدة ، وهو لذلك يشير ضمناً في كتاباته إلى أن اللواط هو تعبير مسموح به عن الطاقة الجنسية . (ومن المحتمل أن يصح ذلك على النساء والرجال معاً) . هذا ولورنس ، على ما يبدو ، يعتبر اللواط بطريقة ما تجربة جنسية أكثر كمالاً من الجماع العادي . وكتاب Karma Sutra

---

١ - ان هذا الربط بين هوسرل وبرغسون قد يبدو غريباً بالنسبة لقراء الانكليزية الذين لا يعرفون الا كتاب « الأفكار » Idesa لهوسرل . ومع ذلك فإن أكثر الملقين عطفاً وتعمقاً في كتابات هوسرل ، وهو هربرت شبيجلبيرج ، يشير في دراسة له لكتابات هوسرل اللاحقة الى جوته والى « الأمهات » (اللواتي ذكرهن في فاوست ؟) « حارسات مفتاح الوجود » ويتحدث عن الكشف عن الانجازات الخبيئة للذات الماورائية » .

(الحركة الفنمنولوجية The Phenomenological Movement) .

الهندي يصف كثيراً من الأعمال الجنسية التي يعتبرها الغرب شاذة ، ومع ذلك فإنه يمكن القول إن أحكامه ومبادئه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالصوفية النبوئية في الباجافاد جيتا Bhagavad Gita [1] بنفس القدر الذي ترتبط به آراء بليك الدينية بنظرياته الجنسية . وهو ببساطة شكل آخر من أشكال التعبير التام عن حرية الانسان . وكل هذا هو تكرار لإعتقاد أندريه جيد بأن التعريف القانوني « للإنحراف » ليس على الاطلاق هو التعريف « الطبيعي » .

وهذا من الوضوح بحيث لا نحتاج إلى أن نجر بليك ولورنس إلى البحث . ومعظم علماء الجنس متفقون على أن ممارسات معينة قد تتم بين رجل وزوجته لا يمكن اعتبارها « انحرافات » لأنها ليست بديلاً تاماً لعملية الجماع العادي . ومع ذلك فهناك ولايات معينة في الولايات المتحدة تحرّم فيها ممارسات معينة حتى بين زوجين بإعتبارها غير مشروعة ... مثل الجماع الأستي (أي من الخلف) والتهيج عن طريق الفم . بل إن الزوجين قد يتعرضان للعقوبة القانونية كالسجن إذا هما ضبطا يمارسان مثل هذه الأشياء .

والدكتو مارك أدامز يصرح : « إن السلطات في الولايات المتحدة تقدر أن حوالي ٩٥ بالمئة من الذكور الأميركيين قد أخلّوا في بعض الأوقات بالقوانين الجنائية الخاصة بالسلوك الجنسي » .

لكن هذا لا يقرب البحث من « التعريف الطبيعي » للإنحراف الجنسى . إلا أنه من الواضح استحالة التوصل إلى مثل هذا التعريف دون أن نقوم أولاً بالاجابة على السؤال الوارد في مستهل هذا الكتاب الا وهو :

« أي دور يلعبه الدافع الجنسي في وجود الانسان الشامل ؟ » ومع ذلك فإنه من المحتمل أن يكون البحث المتقدم قد أوضح لنا أن المسألة الجنسية والمسألة « الفلسفية » تساعدان على القاء الضوء فيما بينهما . إن الجنس لا يمكن دراسته « في فراغ » أو ضمن اطار عيادة طبيب نفساني بدون أن تتحول

---

١ ـ الباجافاد جيتا : : الحوار الفلسفي الذي يتضمن الرؤيا الالهية للإله الهندي كريشنا والذي هو بمثابة سفر العبادة الأسمى بالنسبة لأتباع الديانة الهندوسية . (هـ. م.).

المشكلة المدروسة إلى مجموعة من المتناقضات .

وقبل أن نباشر في دراسة قضية الانحرافات المعينة عن قرب أكثر ، قد يكون من المفيد أن نعيد ذكر بعض النقاط التي تبلورت أثناء البحث عن « الرؤيا » .

١) إن وعي الانسان مغمّى .

٢) إن ذلك مرغوب فيه من وجهة نظر التطور ، فالانسان ما يزال طفلاً الى حد كبير فيما يتعلق بقيامه بالتصرف حسب القيم والمبادىء . وعلى ذلك ، فانه يجب ان يجرد من حق الاختيار .

إن « وعياً مفتوحاً » سيؤدي فقط الى الكسل والتجمد ، ولذلك فانه يجب ان يحفز من قبل الأمور المزعجة والمضايقة المرافقة « لوعي مغلق » .

٣) لكن ذلك أيضاً له مضارّه . فالانسان يكون في أفضل حالاته حينما يسيّره هدف ما ، ورؤيا هذا الهدف . فاذا ما حدد الوعي هذه الرؤيا ، فانه سيحد من قدرة الانسان كوسيط تطوري .

٤) بليك يلقي إلينا بملاحظة تستحق الاهتمام وهي أن الانسان يستطيع أن يستغني عن الغمامات « متى شاء » فهل هو يستطيع ذلك فعلاً ؟

وفي الوقت الحاضر فانه يكفينا أن نطرح ذلك السؤال .

الجنس الانطواني :

إن ملاحظة دي بروين عن الفتاة التي كانت على الشاطىء تتضمن عدة معان تستحق الاهتمام لم نتفحصها بعد . فهو يقول لنا ما مضمونه أن هناك نوعين من العاطفة الجنسية :

النوع الاول هو العاطفة العادية المترتبة على التعرف الى الفتاة واغوائها . والثاني ، أعنف بكثير ، وهو الالتحام الفجائي للأجساد في عملية حيوانية غير مدبرة أو مرتبة في السابق . والكلاب قد يقللون من غزلهم الى الحد الادنى قبل الجماع ، ولكن المجتمع البشري يتطلب مقدمة « شخصية » طويلة . وحالة

الفتاة في غرفة المعاطف (المذكورة في الفصل الثاني) هي حالة استثنائية وقد يعتبرها معظم الناس « غير عادية » وقد يقال جدلاً هنا ، ان التجربتين تختلفان في عمقها أو عنفها فقط ، وليس في نوعيتها . وعلى كل حال فان هذا الموضوع يمكن اتخاذ قرار فيه فيما بعد . ولكن يمكننا توضيح نقطة الاختلاف توضيحاً أكثر إذا عقدنا مقارنة بين الفقرتين التاليتين ، والأولى هي من مطولة اليوت « الأرض الخراب » والثانية من قصيدة « ترنيمة لمجهولة » لدبيلو ، جيد ، تيرنر :

وفي الساعة البنفسجيه ، ساعة المساء التي تجهد
نحو الموطن ، وتأتي بالملاح الى بيته من البحر ،
والفتاة الطابعة في بيتها وقت تناول الشاي ، تزيل فطورها ، تشعل
مدفأتها وتضع الطعام في أوان .
كنت أنا كذلك أنتظر الضيف المتوقع .
وهو الشاب الدملي قد حضر ،
إنه كاتب لدى وكيل مساكن صغير ، ذو نظرة جريئة ،
واحد من الوضيعين الذين تستقر الثقة عليهم
كما تستقر قبعة حريرية على رأس مليونير من براد فورد
إن الوقت ملائم الآن ، كما خمّن ،
فالوجبة قد انتهت ، وهي سئمة ومتعبة ،
فيسعى الى شغلها بالعناقات
التي ما زالت غير مرفوضة وإن كانت غير مرغوبة .
وبوجه محتقن وتصميم ، يهاجمها في التو
يداه المستكشفتان لا تلقيان مقاومة
غروره لا يحتاج الى استجابة ،
ويرحب باللامبالاة ...
ويطبع عليها قبلة حارسة أخيرة .

ثم يتلمس طريقه واجداً الدرجات غير مضاءة ...

إن نغمة التفاهة العادية واللاجدوى المتعمدة هنا تؤكد النكهة الشخصية لما يحدث ، إنها على عكس العاطفة الجنسية الصرفة ، وهي مجرد وصف لشخصيتين وضيعتين في حالة وصال .

قارن هـــذه الفقرة بالفقرة التالية لتيرنر حيث يتحـــدث كذلك عن « الحب العصري » ، عن إمرأة يراها في أحد الأماكن بساحة بيكاديلّي بلندن في ٢٤ آب ١٩٣٤ :

هل أستطيع أن أعبر عن نشوة هيامي ؟
إن مضاجعتها ستكون انفصالاً في حد ذاتها !!
جسدانا كانا سيلتحمان في لهب بلوري
يتأجج في سماء لانهائية
حتى أن كل زرقة السماء غير المتناهية سكرت
في كرة واحدة من الكمال المتحد
كأنها فقاعة تحمل في داخلها كل محيطات العالم وترتقي
إلى اللهب الذي هو أسمى لهب ، وتتجاوز
محبة الله ، محبة الله ، محبة الله ....

ولأول وهلة فإن تيرنر قد يبدو أقل واقعية من اليوت ، فهـــو يرى امرأة متزوجة في أحد الأماكن العامة ، وهو لا يخاطبها لكنه يتخيل أنها ستكون الشريك المثالي .

بيد أن تيرنر قادر على أن يكون واقعياً في قصائد أخرى . فهو يقول مثلاً :

الزواج هو مجرد انشاء بيت ،
ومشاركة الطعام والرفقة ،
فأي علاقة لهذا بالحب
أو بجمال الجسد ؟

ولعل تيرنر كان في المقطع الخاص بالمرأة التي شاهدها يكاد يقترب من تأليهها

بعض الشيء ، لكنه كذلك يتحدث عن الجنس الفوري « غير الشخصي » الذي أحس به دي بروين نحو فتاة الشاطىء .

واليوت يتحدث عن الجنس اليومي العادي « المشخص » .

وهذا الصنف الأخير من الجنس هو الذي تحدثنا عنه في الفصل الخاص باللاتمييز : الجنس الدون الجواني ، وجنس كازانوفا وفرانك هاريس وهنري ميلر . إنه جنس يمتّ إلى صنف فظّ ، لكنه « طبيعي » وقد يسميه بعض الناس جنساً خارجي النزعة أو انسراحياً . وهناك أمثلة طريفة على ذلك في كتاب . ايه . آر . جونز عن ت . ا . هولم . ويبدو أن هولم كانت لديه آراء حول الجنس وإرادة القوة مماثلة لآراء الضابط السابق « م » المذكورة في الفصل الثاني . فقد كان يحب الغزوات الجنسية السريعة والسهلة وخاصة مع بائعات المتاجر الصغيرات . يروي جونز كيف أن هولم كان يجلس يوماً في مقهى « كافيه رويال » حين نظر فجأة الى ساعته وقال :

« إن عليّ موعداً ملحاً في خلال خمس دقائق » ثم هرول خارجاً ليعود بعد حوالي عشرين دقيقة وهو يتصبب عرقاً ويقول إن سلم الطوارىء الحلزوني في محطة النفق ببيكاديلي هو من أقل الأماكن راحة لمضاجعة فتاة . وكان هولم على ما يظهر خالياً من أية عقد وكوابت . فهناك حكاية أخرى تروي أنه وقف مرة في احدى الزوايا بساحة سوهو ، وشرع في التبويل ، في وضح النهار حين أقبل عليه أحد رجال البوليس زاجراً ، فما كان من هولم الا ّ أن التفت اليه وانفجر فيه قائلا :

« هل تدرك أنك تخاطب أحد أعضاء الطبقات المتوسطة الإنكليزية » ؟ وأصابت الدهشة رجل البوليس فلمس قبعته معتذراً ثم ابتعد . وقد عرف عن هولم أنه كانت تنتابه ميول فجائية نحو العنف الجسدي (يروى عنه أنه في احدى المرات قد علّق ويندهام لويس من ثنيتي سرواله على أحد القضبان في ساحة سوهو .) كما أشتهر هولم كذلك بحكاياته عن مغامراته الجنسية . لكن حادثة الجماع المتلىء حيوانية وعنفاً، والذي مارسه هولم على سلم حلزوني فولاذي

كانت ستثير بنفس القدر اشمئزاز مثالي جنسي مثل شلي أو أحد «عبدة الجسد» مثل لورنس . فهذه الحادثة مثال أكيد على الموقف الخارجي النزعة أو الانسراحي من الجنس . وهو على نقيض الموقف الجنسي الذي وصفه هكسلي في « أنتيك هاي » أو في « العبقري والالهة » .

وفي الوقت ذاته علينا أن نقر ان « الجنس الانطوائي » هو أقرب دائماً الى الجنس « غير العادي » . فهو لم ير في المرأة الهدف المنطقي لأحاسيس الرجل الجنسية ، والمستقر الشرعي لصبواته . أما الانطوائي فهو أشد التصاقاً بأحاسيسه ، وهو يدرك كذلك أن « الهدف الجنسي » أمر تعسفي ، وهو يشعر على الأقل بالحدود المائعة بين « العادي » و« غير العادي » . وحتى إذا كان يؤمن بالجنس المختلط ، فإنه يدرك ان الإحساس الجنسي يعتمد على غزو جسد غريب . وهو عملية غزو وإخضاع .

وشكسبير يجعل أحد أبطاله وهو « تاركوين » يشبّه حبيبته بمدينة يريد أن يداهمها ويدخلها . وإذا كان بلوغ ذروة النشوة الجنسية يرتبط بعملية الولوج إلى جسد المرأة ، فلماذا يقتصر الاختيار على مهبل الانثى دون فمها أو مؤخرتها ؟

وبالنسبة لمعظم الرجال الذين يمارسون الجنس المختلط ، فان الجماع «العادي» من شأنه أن يمتص أو يستهلك كل عاطفتهم ورغبتهم الجنسية . ولكنه متى عاف رجل ما الجنس « العادي » فانه قد يحس بالحاجة الى أن يجد منطلقاً « طبيعياً » لرغباته الجنسية العدوانية الحادة . (وفي الواقع ، تشير الاحصائيات المتوفرة إلى أن ممارسة الشبان لهذه « المنطلقات » البديلة أقل بكثير من ممارسة الرجال الاكبر سناً لها .) وإذا كانت الرغبة التي يحس بها رجل ما نحو إمرأة ، ناتجة في الغالب عن حافز عدواني ، فإن هذا الرجل قد يشعر أن استعمال الفم أو المؤخرة بدلاً من المهبل هو « عملية اخضاع » أكثر كمالاً .

وهناك مشهد في كتاب « سكس » Sexus لهنري ميلر ، يمكننا أن نتخذه مثالاً على نوعية الرجل المفرط في العدوانية. وفي هذا المشهد نرى رجلا عدوانياً

ثملا يجبر فتاة على القيام بعملية « مصّ » له بينا هو يقود سيارة ثم يجبرها بعـد ذلك على أن تثبت سيجارة مشتعلة في مهبلها وفي النهاية يغتصبها ثم يجامعهـا من الخلف . (وقد روت عشيقة ميلر هذه الحادثة له ، والتي تشكـّل نوعاً من أدب الدعارة في الكتاب المذكور .) وكذلك ، فـإن جرائم « إرهـابي الضوء الأحمر » (التي أعـدم كاريل تشيسمان بسببها) اشتملت كذلك على إرغـام امرأتين على خلع « كلسونيهما » (كما أنه جعل واحدة منهما تخلع كل ثيابها فيما عدا جواربها وحذائها) ، ولكنه لم يغتصب واحدة منهما . لمـاذا اذن أرغمهما على التعرّي ؟ السبب واضـح : لأنه حين يأمر امرأة بأن تتعرى فانـه يرضي بذلك الدافع العدواني فيه .

ومن السهل أن نرى ، أنه إذا كان رجـل ما يعاني من إفراط في الرغبـة الجنسية ، وأنه اذا كان يحسّ بميل عدواني غير اعتيادي نحو النساء ، فان فـترة طويلة من الإنطواء على النفس قـد تؤدي بسهولة الى تشويه أحاسيسه الجنسية وتحويلها الى احاسيس سادية .

أما دي ساد الذي كان يكره ويخاف أمه ، فقد تنبه اليه البوليس أول مرة حين تلقى شكاوي عديدة من عاهرات تفيد بأنه كان مغرماً بتشطيب أجسادهن تشطيباً طفيفاً بمطواته ، وبصبّ شمع منصهر ساخن فيهن .

إن الرمزية هنا واضحة ، لقد رفض دي ساد كل « الفتحات الطبيعية » في الانثى ، وأختار أن « يلج » الى جسدها بطريقته الخاصة ، ثم امتلكها بشكل رمزي وذلك عن طريق صب الشمع فيها . وقد اعتقل دي ساد وهـو في سن الثامنة والعشرين لإختطافه أرملة حلواني وقيامه بتطبيق هـذه العملية الغريبة عليها . (وقد اضطر لأن يدفع مبالغ طائلة على شكل رشاوى وغرامات) .

وقد يكون هناك على ما يبدو بون شاسع بـين حديث بليك البريء عـن الحب والجماع وبين حاجة دي ساد إلى إلحـاق الأذى والألم . ومع ذلـك ، فكلاهما حصيلة مذهب جنسي صوفي يسعى الى تجاوز العـالم اليومي . ولقـد نفذت سيمون دي بوفوار الى نفسية دي ساد حين قالت عنه :

« إنه يحاول أن ينقل لنا تجربة ميزتها البارزة ، مع ذلك ، هي اصرارها على أن تبقى غير قابلة للنقل » .

وشذوذ دي ساد قد يكون نتيجة لكرهه لأمه أو لنساء غيرها ، لكن جذورها تكمن في نوع من العاطفة الدينية المشوهة .

وهذه النقطة ذات أهمية كبيرة ، وعلى ذلك يجب توضيحها توضيحاً تاماً . إن إحساسنا الأساسي بالوعي هو الاحساس بالسلبية التي هي اسم آخر للسأم . اننا ننظر الى العالم فنراه هادئاً لا يتغير ، ووجهه لا ينم عن شيء ، ويتولد عندنا شعور بأنه قادر على أن يتحدانا وعلى أن يعمّر أكثر مما سنعمّر . وبالمقارنة مع ذلك ، فإن الجسد الآدمي متغير أبداً ، متأجج أبداً ، تواق إلى أن يتحرك ككلب لا يطيق ذرعاً بالسير الذي تمسكه به .

وهذا هو السبب الذي من أجله يحب معظم الناس أن ينظروا الى نار مشتعلة أو الى شلال ، أو أنهار سريعة الجريان . فمن الممتع حقاً أن نرى العالم المادي أقل سكوناً ، كما أن مشاهدتنا لمثل هذه الأشياء تخفف قليلاً من الشعور بالنقص الذي ينتابنا أمام لا مبالاة شجرة .

ولأن الجسد يتحرك بسرعة أكثر من العالم الخارجي فانه يخشى الملل والخيبة . إنه يريد أن يحس طوال الوقت ، واشد ما يخشاه هو الاستنقاع الداخلي في مواجهة لا حساسية الطبيعة .

والجنس كالخمرة يمتلك القدرة على أن يحطم هذا الاستنقاع الداخلي ، وعلى أن يحول وعينا لذاتنا الى شلال كشلالات نياجارا. إن السأم هو « حالة وجود» يجد الانسان صعوبة في الهروب منها الى حالات أخرى . إنه قلق قادر على عزل نفسه والانغلاق على ذاته كالسلحفاة . ولكننا لحسن الحظ نمتلك سلماً مضموناً يستطيع أن ينقلنا من مستوى معين من الوجود الى مستوى آخر .

العملية الجنسية هي رمز مصغر للسيطرة والاخضاع . فمن وجهة نظر الرجل ، تبدو المرأة كائناً ممتنعاً وغريباً ، « مدينة » لا يمكن دخولها . ثم ها هي بعد نصف ساعة عارية مستسلمة خاضعة ، لكنه إذا لم تكن المرأة نائية

بدون تغيير ، وعذراء بدون تغيير ، فكذلك العالم أيضاً . وبهذا يختفي الخوف من الخيبة في الحياة .

إن تكييفنا الاجتماعي يحرض في الواقع الدافع الجسدي البسيط فينا ، ذلك لأنه ، أي تكييفنا الإجتماعي ، بتنمية حصيلة من المحرمات والمخاوف فينا ، يؤدي بطريقة مصطنعة إلى زيادة « الهوة » بين حالة معينة من الوجود وأخرى .

إن شخصين متوحشين يعرفان بعضهما البعض منذ الصغر سيكون ما يزال بإستطاعتهما أن يجدا متعة في تحطيم غرابة « الآخر » حين يتجامعان . ولكن إذا تمّت تنمية هذه الغرابة بواسطة العادات المتمدنة مثل إرتداء الملابس وتبني مجموعة من الكوابت فيما يتعلق بالجنس وحتى الاعتقاد بأن الجنس شيء شرير وآثم ، فإن المتعة التي سيجدانها في تحطيم الحدود بينهما ستكون أعظم وأروع .

إن الدين ، في أبسط صوره ، هو الاعتقاد بأن الطبيعة ليست باردة لا مبالية ، جامدة الوجه ، بأن الشجرة ليست شجرة بل إله متنكر متخفّ . وحتى في أكثر صوره تعقيداً وذاتية ، فإن الدين يبقى كذلك هو الاعتقاد بأن هناك « آخرية » فيما وراء سأمنا وقصورنا الحاليين وبأن هناك معنى خفياً يتربص بنا كنمر يقبع متربصاً في دغله . وحين يتمكن صوفي أو روحاني ما من النفوذ ببصيرته بغتة الى بعض هذا المعنى (أو يظن أنه فعل ذلك) ، فإنه كذلك بعمله هذا يمارس عملية تحطيم الغرابة ، تماماً مثلما يحدث في الجنس .

إن دي ساد وبودلير يحسان بحاجة مشتركة إلى الاعتقاد بأن الجنس شرّ . فبذلك تصبح هناك موانع وحدود أكثر يقتضي تحطيمها في العملية الجنسية ، ويصبح كذلك الشعور بالإنتقال من حالة معينة من الوجود ، الى حالة أخرى ، شعوراً أروع وأكثر ايجابية .

إن ميلنا البيولوجي لإعادة خلق غرابة « الآخر » بعد تحطيمها مباشرة — وبمعنى آخر إعادة تسيير دورة الرغبة من جديد — كثيراً ما تعني أن المشاعر

المنتمية الى الجنس ما زالت غير ناضجة .

فاذا ما عانى فتى من طغيان أبيه فقد يأتي يوم يضرب فيه هـذا الفتى أباه . وفي تلك اللحظة سيحس بشعور هائل من الانعتاق ، فهو قد انتقل من حالة من الوجود الى أخرى ، ولذلك فسيغشاه شعور بالنشوة . لكن ذلـك لن يحدث الا مرة واحدة . فحتى لو عوّد الفتى نفسه على ضرب أبيـه كل يوم ، فلن يحس أبداً بنفس الشعور من الرضى الذي انتابه في المرة الأولى . لكن ذلك لا يحدث في الجنس ، أو على الأقل فإنه يحدث ببطء أعظم .

فالرجل المتزوج حديثاً والذي يسيطر على غرابـة زوجته في شهر العسل ، سيظل يشعر بنفس المتعة والانتشاء لمدة طويلة . (وإذا كان خصب الخيال فإنه قد يستمر في استنباط مثل هذه المتعة لنصف قرن آخر .) فهناك تكمن فينـا قوة تكييفية غريبة تعيد خلق الغرابة كل يوم .

وبالرغم من ذلك ، فإن الرجال عادة يملّون زوجاتهم بعـد شهر العسل . يقول فلوبير (في روايته مدام بوفاري) إن تشارلز بوفاري سرعان مـا أصبح ينظر إلى ممارسة الجنس مع « ايمّا » نظرته إلى تناول الحلوى بعد طعام العشاء . إن التكييف البيولوجي يحتاج الى مخيلة حاسة لتسنده وتساعده .

وهناك رجـال مثل دي ساد لا يصرّون فقط على إعادة خلق الغرابـة البيولوجية بل ويرغبون كذلك في إعادة خلق المحرمات الاجتماعية « المصطنعة » التي يزيد وجودها من متعة انتهاكها . ولهـذا السبب كان بودلير يحب أن يعتبر الجنس شراً في أساسه . وموقف كهذا لا بدّ أن يشتمل على نسبة معينة من عدم النضوج ، تماماً كما لو أمضى الفتى عدة ساعات كل يوم وهو يوغر نفسه ضد أبيه ، ويسعّر كراهيته له لكي ينال أقصى قدر من المتعة حـين يضربه للمرة الخمسين . فليس القصد من العواطف أن تدور في حلقة دورية متجددة كالدوافع الجنسية .

سيكون من الملائم هنـا ان نطلق على هــذا الشكل من الانسياق الجنسي « التشبث بالدورة العاطفية » ، وهناك مثال طريف على ذلك في كتاب دي ساد المسمى « ١٢٠ يوماً من سادوم » . إجتمع أربعة من الرجال المتهتكين في قصر

صيفي وقـد عزموا على أن يمارسوا كل نوع ممكن من الممارسات الجنسية . وأتوا الى القصر بعـدد كبير من الفتيات الصغيرات والفتيان الصغار الذين خطفوهم من عائلات محترمة لهذا الغرض كما أتوا كذلك ببعض « البترونات » من المواخـير ليعلمنهم فنون الشذوذ.وقد روت احدى البترونات حكاية عن رجل فاسق كانت متعته هي أن يغرق العضو التناسلي لفتاة صغيرة بسائله المنوي حين يبلغ مرحلة القذف ، دون أن يولج قضيبه في مهبل الفتاة . ولدى سماع الحكاية يصر أحـد الرجال الأربعة، وهو دورق ، على ممارسة هذه العملية بالذات مع احدى الفتيات الحاضرات التي كانت تبكي من الخجل والعار .

وهذه الحكاية هي مثال بليغ على النزوات الجنسية القاصرة . لكن يمكننا أن نتبين مدى ما تبلغه مثل هذه النزوات من عـــدم النضوج إذا قارناها بنزوة أخرى وردت في كتاب « يوميات غاو » Diary of a Seducer لكر كيغارد .

يشاهد الغاوي ، واسمه جوهانس فتاة جميلة ، لكنها صغيرة جـداً ، وهي تهبط من عربة . فيعزم على امتلاكها ويتمشق لذلك الكثير من العناء كما أنـــه يصرف أشهراً طويلة معقدة في ملاحقتها . حتى أنه يضطر بسبب ذلك أن يعقد خطوبته عليها . وفي النهاية حين تستسلم له وتمنحه جسدها ، يفقـد على التوكل رغبته نحوها وإهتمامه بها .

وكر كيغارد هنا واقعي أكثر من دي ساد.فحين أبصر فتاة جميلة في الطريق وأحس برغبته لمضاجعتها ، كانت نزوتـه أكثر واقعية وتبريراً كبيراً . أمـــا دي ساد فقد ابتكر وضعاًسخيفاً لكي ينتصر بالقوة على الغرابة المزدوجة لعذراء صغيرة في السن ، عديمة الخبرة . أضف إلى ذلك أن كر كيغارد ، وهـو أقرب الى الواقعية ، أدرك أنه يجب أولاً اقناع الفتاة بالوقوع في حب قبـل أن توافق أخيراً على أن تمنحه عواطفها كاملة .

ولكن كر كيغارد ودي ساد يكشفان عن نقص في النضوج حين يفوتهما أن يدركا أن صفاء الرغبة نحو عذراء جميلة ، ستحطمها الى حد كبير المضاعفات التي ستنشأ عن السعي لإمتلاك الفتاة . إنهما بعيدان كثيراً عن ادراك دي بروين بأن

اشباع الرغبة اشباعاً تاماً يتأتى فقط عن طرح الفتاة أرضاً وإغتصابها . وإن اتباع طريق ملتف بإنشاء علاقة شخصية ، سيؤدي الى توريط الشخصية الاجتماعية في الموضوع ، بحيث أن « الغاوى » سيدرك عاجلاً أم آجلاً ، أنه يدفع ثمناً باهظاً نسبياً من ارادته وطاقته لمجرد الحصول على متعة فض بكارة عذراء .

إن هذا العامل من اللانضوج العاطفي وسببه – أي إعادة جريان الدورة العاطفية – هما ذو أهمية كبيرة في تحليل مشاكل الانحراف الجنسي .



الفصل الخامس

معنى «الانحراف»

- ٢ -

دي ساد والسأم . مشكلة الخيبة . الفتيشية . فتيشية الملابس الداخلية . فتيشية الكلاسين . أمثلة على الفتيشية والجرائم الجنسية في الأدب . رواية موسيل « الرجــل الخالي من المناقب » . موسبراجر . فتيشية الكلاسين عند جويس . هايزنر . قضية روردني شايرز .



إن القضية التي يمكن استنباطها ضمنيـــاً من كتاب دي ساد « ١٢٠ يوماً من سادوم » ، هي : هـــل يمكن لعدد من الرجال أن يتوصلوا إلى متعة جنسية قصوى ونهائية إذا ركزوا إهتمامهم على ذلك ؟

يذكرنا هـــذا بالسعي الرومانتيكي نحو المطلق ، الذي كان يتميز به كثير من شعراء القرن التاسع عشر . وللوهلة الأولى فقد يبدو أن الفسق والتهتك هما من صنع الجسد وحده . ولكننا نحتاج إلى ثانية واحـــدة من التفكير لكي ندرك أن الكلب أو القطة لا يمكنهما أن يتوصلا إلى مثل هذا الشطط في طلب المتعـــة . فالجسد دون تدخّل العقل يستطيع اشباع حاجاته بسهولة . إن دي ساد يمكن تشبيهه بجماعة من النساك وجدوا في القرون الوسطى وكانوا يعرفون باسم « أخوة الروح الحرة » . وقد كانت عقيدة هـــذه الجماعة تدور بصفة أساسية على محور « أنا هو الله » ، كما أنهم كانوا يؤمنون بصورة أو بأخرى بمقـــدم « الملكوت الثالث » الوشيك ، حين سيتخلص الجسد البشري من الشقاء والقصور .

ولقد تركت هذه الجماعة لطرق عبادتها أن تنحدر الى هاويـــة الشعائر الجنسية الجماعية الماجنة . (قضت الكنيسة فيما بعد على هذه الجماعة بلا شفقة) . وبعـــد تسعة قرون ظهرت في روسيا جماعـــة أخرى من النساك عرفت باسم « خليستي » Khlysty وكانت هذه الجماعة تعبد رجـــلاً اسمه دانييل فيليبوف بإعتباره المسيح الجديد ، وتقيم احتفالات ديونيسية غالباً مـــا كانت تنتهي في انحلال جنسي تام ، حيث يضاجع الشباب أمهاتهم والفتيات اخوتهن . وكان راسبوتين أحد أفراد هذه الجماعة .

وهذه الرؤى من المطلق ، من إيجاد جنس بشري خـــالٍ من كل العقد والكوابت ومن « الخطيئة الأصلية » كانت المسعى الأساسي لكل الروحانيين

والشعراء . إن كل الرجال الذين يمتلكون حساسية نفسانية نفاذة يدركون بعمق ضعف «الجسد الفاني الحالي» وقصوره ويدركون عدم قدرتهم على أن يتعلموا من التجربة وعدم وفائهم للحياة الا حين يواجهون الموت . وكثير من الناس الذين يحسون بذلك يلجأون إلى الكتاب المقدس، لأنه على الأقل يتحدث عن مطلقات يمكن النظر إليها نظرة جدية . ولكنهم سواء أكانوا يقبلون ما جاء في الكتاب المقدس عن مدينة الله ، أم يخلقون مدينة خاصة بهم كمدينة الشمس مثلما فعل وليم موريس هـ . ج . ويلز (اللذين لم تكن رؤاهما هي « المطلق » الحقيقي المطلوب) ، فإنهم كلهم صرعى رؤيا عن الكمال الإنساني ، رؤيا تنتشل الإنسان من هوة شقائه وضعفه وتضعه فوقها . إن الناس قلمّا يحسون بمتعة عميقة يبدو عليها أنها تطلق كل أحاسيسهم وتوصلهم إلى قعر الوجود . وهذا بلا شك ، مغزى الأبيات التي يتحدث بها جوته بلسان ميفيستوفليس حين يَعِدُ فاوست « بمتعة تفوق في ساعة كل رتابة عام » إن السأم وشبه تحقيق الذات هما نصيبنا على ما يبدو . بل إن كير كغارد يدعي أن الناس بنوا برج بابل بسبب سأمهم.

كل ذلك له مغزى عميق ويجب أن نضعه في اعتبارنا ، حين بحثنا في أصول الدافع الجنسي . فمظم الطرق التي يتبعها الإنسان لتصريف الطاقة الفائضة فيه ، مثل سعيه للنفوذ السياسي ولجمع المال أو التملك ، هي في الواقع طرق عقيمة ، أو قد يصح اعتبارها كذلك ، مثل تشييد برج بابل .

إن رجلاً مغرقاً في انطوائيته أو ذاتيته قد ينظر إلى هذه النشاطات بدهشة ، نظرته إلى فقير هندي يلوك الزجاج بأسنانه . ولكن كل الكائنات البشرية تقر بقدرة المتعة الجنسية التامة على النفاذ إلى أعمق مواطن الإنسان العاطفية وعلى إعطائه لذة آنية ، وشعوراً وقتياً بتحقيق الذات تحقيقاً كاملاً . وعلى ذلك فليس هناك بيننا من لا تثير فيه مساعي دي ساد لتحقيق الذات الكلي والنهائي قدراً ما من العطف .

الإقرار بذلك ، معناه أننا نواجه قضية الجنس من الإتجاه المثمر الوحيد. والحديث الفرويدي عن « الليبيدو » أي الطاقة الجنسية الغريزية عند الإنسان

وعن عقد ومركبات الإنسان المختلفة قـــد يساعد على توضيح حالات فردية . لكنه لا يوصلنا إلى أبعد من ذلك .

لا يمكن بحث الجنس « في فراغ » أو بالنسبة فقط لكائن اجـــتماعي اسمه الإنسـان ، الذي ربما أراد أن يقتال أباه ويضاجع أمه . ولوضع هذه الفكرة في صيغة أخرى، أقول إن مشاكل الجنس ومشاكل الهدف الإنساني النهائي مرتبطة فيما بينها ، ولا يمكن فهم أحدهـــا بمعزل عن الآخر (وفي فصل لاحق سأبحث بإيجاز المـدرسة الحديثة في « العلاج النفسي الوجودي » التي طورها بنسو انجي ومنكوفسكي وشتراوس ألخ . مستعيناً بمفاهيم مستعارة من هيدجر وهوسرل .)

إن قضية الجنس إذن وقضية « اللاطبيعية » مرتبطتان بفكرة غامضة عن التوصّل إلى « إنجاز أو تحقيق » ما ، وهما مقيدتان كذلك بحـــدود « الطبيعة الإنسانية » وقد تكون الفـكرة نفسها غامضة ، **كفكرة مجردة** ، لكنها تتضح كفاية حين تطرح نفسها علينا في شكل إحساس داخلي عنـد الفرد بحالة عميقة شبه « إلهية » من الرضى والتمتع .

ويمكن التعبير عن هذه المشكلة بكل بساطة على النحو التالي : لنفترض أن هناك رجلاً ذا ذكاء وحيوية غـير عاديين وغير « مختل الأعصاب » وعلى علاقة حسنة مع النـاس الآخرين ، ويملك فوق ذلك سلطان حاكم مستبد من الشرق . (إن فوضوياً ما سينكر أنه يمكن لحاكم مستبد أن يكون غير فاسد وغير مختل الأعصاب ، لكننا سوف نتغاضى هنا عن هذا الإعتراض) . مثل هذا الرجل سيسأل نفسه : هل يمكن أن أتقدم ولو قليلاً على معظم الناس في السعي نحـو الألوهيـة عن طريق استخدام سلطاني وقواي استخداماً تاماً ؟ ورجل كهذا لا يمكنه فقط أن يشير إلى أية فتاة في الطريق ويأمر بحملها إلى مخدعه ، لكنه من الذكاء كذلك بحيث يستفيد ويكتسب من تجربته هذه ، بالقدر الذي تحمله هذه التجربة من مضمون .

فإذا ما شكلنا لجنـة من بليك وويتمان ولورنس ودي ساد ونويس وكازانوفا لبحث قضية : ما هي أفضل السبل التي يجب على الحاكم المستبد هذا أن يسلكها

في استخدام قواه ؟ فإننا سنخرج من كل واحد منهم بفكرة خاصة عن حدود وإمكانيات قوة الإنسان وطاقته، وستتعارض هذه الأفكار وتتناقض بشكل غريب . فبليك مثلاً سيعلن أنه لا يمكن للإنسان أن يأمل بالسعي نحو الألوهية إلا إذا قام بتطوير وتنمية « عينه الداخلية » - أو ما يسميه بليك كذلك « الرؤية الرباعية » - أي بأن يسعى الإنسان إلى رؤية الجنس البشري كوحدة ، وأن يدرك ويؤمن بأن المخيلة هي أسمى وأقوى القوى الإنسانية ، وأن يطور عقله وعواطفه إلى أقصى حد ، وأخيراً أن يجتهد لكي يرى «عالماً قائماً في ذرة رمل » . لكنه كان سيضيف إلى ذلك ولا شك ، أن البيئة المثالية لتحقيق ذلك هي جزيرة ما في بحر الجنوب تزخر بالرجال الأصحاء الوسماء والفتيات الخالصات من أية عقد أو كوابت ، اللواتي يمنحن أنفسهن إلى إنسان الرؤيا الرباعية هذا بدون شعور بالعار ، وفي أية ساعة من ساعات اليوم ، منفردات أو بأعداد أكبر .

أما نويس فكان ولا شك سيتفق مع ذلك في الأساس ، وكان سيضيف أن على كل أهل تلك الجزيرة أن يتصرفوا بشعور من الجدية الخلقية ، وأن يصرفوا الكثير من وقتهم في بحث ومناقشة أفضل السبل لتشييد « مدينة الله » .

وسوف يوافق ويتمان على هذه الصورة إلى حد كبير ، إلا أنه كان سيشعر في إحساس السعة الذي فيه ، بأن جزيرة هي مكان صغير ، وأن هذه الجنة من الرجال والنساء الأصحاء يجب أن تشمل كل العالم . وربما سيضيف بأن عليه الإحتفاظ بحقه في مضاجعة الإناث والذكور على السواء .

أما د . ه . لورنس ، فسيرفض الفكرة كلها بتقزز ، مؤكداً مبدأه الأساسي ، بأن الرجل العظيم لا يُلمس أو يُمسّ ، وبأن فردوسه سيضم امرأة واحدة فقط ، سليمة الجسم وذات إرادة . أما ممارستها الجنسية فسوف تشتمل على الإثارة المتبادلة لـِ « قعر الظلمة » بواسطة الجماع الخلفي والممارسة اليدوية .

ولا شك بأن بليك ونويس كانا سيجدان فردوس لورنس فاتر الهمة وغير مُرضٍ ، خاصة وأن لورنس لن يرضيهما فيما يتعلق بماهية الهدف النهائي والأخير .

فبليك سيجد فكرة الحرب الأزلية مع المرأة فكرة غير ضرورية ، وناجمة عن اختلال عصبي .

ولا داعي للقول إن كازانوفا سيرفض فكرة الجزيرة برمتها ، وستكون فكرته الخاصة هي استعمال الثراء والقوة لبهر المجتمع ولإقامة علاقات غرامية لا نهاية لها مع فتيات صغيرات محتشمات من دير ما ، للراهبات ، ونساء تزوجن حديثاً ، ومحظيات جميلات ، وفتيات مسترجلات، ذكيات . وفي الوقت ذاته سيؤلف كتاباً من عشرة أجزاء يلخص فيه تاريخ الجنس البشري بطريقة تجمع بين السخرية الفتاكة والذكاء المتقد . وسيكون ذلك في رأيه هو أقرب نقطة للشعور بالألوهية ، بإمكان الإنسان أن يصل اليها .

أما دي ساد فسيكون هو الرجل الوحيد الذي يفزع الكل برؤية ما ، عن حفلة تهتكية مرعبة على صعيد العالم كله . (الكل فيما عدا بليك الذي سيهمس : « دعوه يفعل ما يريد ، فما أن يكون قد أخضع دستة من العذارى الا ّ ويكون قد تغلب على نزعاته هذه ، وأخرجها من تفكيره . وعندها سترون كيف أنه رجل طيب في الحقيقة ») .

إن دي ساد سيقول بأن الإنسان لا يستطيع أن يماثل الآلهة الا ّ إذا رفض فكرة وجود الله ، والا ّ إذا (وهنا يبدو بعض التناقض الظاهري) بذل أقصى جهده لكي يسبر غور الشرّ الذي يكمن في نفسه . ومن ثم سيشرح دي ساد أنه كان بالفعل قد أولى قضية الألوهية إهتمامه وكتب بحثاً عنها ، ثم يبرز « ١٢٠ يوماً من سادوم » على اعتبار أنه كتاب يبحث في كيفية سبر غور الشر في الذات ، ابتداءً من ممارسات غير مضرّة مثل الجماع الخلفي مع المحرمات ، واغواء البنات الصغيرات اللواتي في سن السادسة ، نزولاً إلى حفلات الخلاعة الجماعية القائمة على التعذيب والوحشية الشيطانية . وسوف يبرهن دي ساد أن كل هذه الجهود ستؤدي في النهاية الى تثبيت الإنسان في مكان الله وجعله فائق القدرة .

إلا ّ أن دي ساد مع ذلك ، قد يهاجم بشدة على اعتبار أن الأمر قد اختلط

عليه ، وأن تفكيره لا يصدر الا عن اختلال عصبي ونقص في النضوج . ومن بين حوادث الشذوذ المذكورة في بداية « ١٢٠ يوماً من سادوم » هناك واحدة عن شرب بول طفلة صغيرة ، ثم تتطور الحادثة إلى أكل برازها . وهناك كذلك ممارسة توغل أكثر من ذلك في الشذوذ وتدور حول أكل دم الحيض عند المرأة بل والجنين المجهض . وفي الأخير يعبّر أحد الفاسقين عن رغبته في لعق الأقدام القذرة ، فإذا برفاقه المخضرمين يرفضون الفكرة ويصابون بالقرف . ثم يقول أحدهم بأن هذه البشاعات ناجمة عن البطر والسأم وإنها محاولات محمومة لإثارة شهية مثلمة منهكة. وقد يقال إن دي ساد كتب «١٢٠ يوماً» بعد سنين كثيرة من السجن ، بحيث أن الانطهاق والخيبة والمرارة دفعته الى أحلام انتقامية . لكنه يشترط هنا في الحاكم الشرقي المستبد الذي يدور موضوع هذا النقاش حول قضيته الا يكون مختل الأعصاب وأن يكون على علاقة طبيعية مع الناس ، وكذلك أن يكون قادراً قدرة تامة على أن يشبع شهواته قبل أن يغذيها الفشل والحبوط ، ويدفعها الى مثل الحالات المتطرفة المرعبة المذكورة أعلاه .

هذا النقاش الفرضي من شأنه أن يوضح شيئاً واحداً : إن الحبوط والخيبة هما أساس كثير من « الشذوذ » وإنه لا بد لتصوّر مرض (وغير متناقض مع نفسه) ما ، عن ماهية « الاكتفاء أو الرضى الجنسي النهائي » أن يرتبط مع رؤية غيبية أوسع وأشمل عن هدف الوجود الإنساني . وغيبية لورنس الجنسية الصرفة هي نصف الطريق .. انها رؤية غير كاملة لا تمتد الى أبعد من حالة غريبة من الصراع المستمر بلا تسوية بين رجل وامرأة .

وهذا التصور عن الدور الذي يلعبه الحبوط والخيبة في تقرير الإنحراف الجنسي يستحق أن يفحص بعناية ، لأنه يجرنا مباشرة إلى موضوع العلاقة القائمة بين الحبوط والمراحل المختلفة للسيلان والميوعة في تطور الانحراف الجنسي . وهذه العلاقات ترسم لنا بدورها صورة شاملة ، أو نوعاً من الخريطة، لتكوين وتركيب الإنسان النفساني حيث يحتل الجنس رقعة منها .

الحبوط :

قبل أن نشرع في بحث قضية الحبوط بشكل أوسع وأوفى ، فإنه يجب اعطاء عامل « الحبوط » في الوعي الإنساني أهميته الكاملة .

النسيان شيء مبْني فينا . إننا آلات غير كفؤة . وإذا كان لا بد من تخصيص المسؤولية فإن عدم الكفاءة هذه يجب أن تعتبر « مسؤولة » عن التصرف الجنسي غير الطبيعي . إن قوة الحياة قد زودت الوعي الإنساني بباب ذي نابض قوي يغلق الباب أوتوماتيكياً بعد ثوان معدودات . وعلينا أن نبقي هذا النابض في الذهن ونحن نتفحص الحالات التالية من « الانحراف » .

قبل كل شيء ، لنوضّح لأنفسنا أننا نبحث في الدافع الجنسي كرغبة حيوانية منفصلة عن الصور المختلفة للإتصال أو الارتباط العاطفي . والأمر قد اختلط على كثير من الكتّاب المهتمين بالجنس والذين يشيرون إلى أن عاشقاً ما قد يسرق منديل حبيبته أو خصلة من شعرها ثم يستخدمون مثل هذه الحادثة للتدليل على « الحلقة المفقودة » بين « الحب الطبيعي » و « الجنس المنحرف » . ويذكر هيرشفلد أن غوته ، عندما كان في الرابعة والخمسين، طلب من كريستين فالبياس أن تعطيه خفيّها لكي « يضمها إلى قلبه » . ثم يتساءل هيرشفلد عمّا إذا كان غوته من « الفتيشيين » أي عبدة الدكاكير لغرض التلذذ الجنسي . والجواب على ذلك هو بكل وضوح لا ، ذلك أن السؤال ناشيء أصلاً عن اختلاط مبدئي في التفكير . ومن جهة أخرى ، تروي مارغانيتا لاسكي أنها حين غدت شخصية تلفزيونية ، بعث اليها يوماً أحد المعجبين ، رسالة يرجوها فيها أن تبعث له باثنين من « كلسوناتها » الملوثة . ومن الواضح أن هذه الحادثة هي بالفعل دليل على الفتيشية . وقد صدمت الآنسة لاسكي كما يبدو ، إلى درجة انها ارتأت ، كما تقول ، أن تدوّن هذه الحادثة علناً كنوع من « العياذ من مثل هذا التوحش » . ولكن الطرافة في هذا الطلب تكمن في أنه ببساطة رد فعل جنسي لذات الوهم ، النابع من محدودية الوعي ، الذي حدا بمعجبين آخرين أن يكتبوا لها طالبين توقيعها على أوتوغراف، وعارضين عليها وفاءهم واخلاصهم

الدائمين لمدى الحياة . وهو في جوهره لا يختلف عن طلب الاوتوغراف ، ولكنه مثال ممتاز على كيفية عمل مبدأ محدودية الوعي . فإنه من المهم لقوة الحيـاة أن يعود الدافع الجنسي فيتشكل من جديد بعد اشباعه ، كما أنه من غـير الملائم للجنس البشري إذا تعلم الناس بسرعة وبصفة نهائية من التجربة الجنسية واكتفوا بذلك، كما يتعلمون من تجارب معينة أخرى. فالجندي الصغير في قصة اكوتاجاوا لم تعاوده في أغلب الظن تلك الرغبة الجامحة لأكل عصيدة اليام بعد أن تقيـأ بسببها في المرة الأولى . أمـا الرغبة الجنسية فهي وحدها التي تستطيع ان تتشكّل من جديد بنفس الزخم والقوة بعد ساعات معدودات من اشباعهـا. وفي حالة الآنسة لاسكي ، فإن الغريزة الجنسية لدى معجبيها تقلصت في تفاعلها الخيالي بتأثير غريزة الاعجاب بالقائد الإجتماعية الموجودة فيهم . فالآنسة لاسكي إذن ، كانت في أعين معجبيها عبارة عـن غرابة مزدوجة .. غرابـة الانثى الغريبة العادية ، وغرابة القائد ، أي الشخص الذي أختير للظهور أمـام ملايين الناس ، والذي هو اذن وفقاً للحسابات العجيبة لمثل هـذه الأوهام والتصورات أهم بمليون مرة من كل فرد يشاهده .

وعند هذه النقطة ، فانـه لمن المفيد أن نحاول وضع جـدول للإنحرافات مبتدئين بالانحرافات الصغيرة البسيطة عن « العادية » فبهذه الطريقة قد يمكننا أن نتوصل الى بعض المعرفة الباطنية لتركيب ونظام عمل الإنحراف. وسأتحدث في الوقت الحاضر عـن الانحرافات عند الذكور نظراً لأن كتابات كرافت ـ إنج ، وإيلـّيس وهيرشفلد تشير إلى ان الرجـال قابلون للانحراف أكثر من النساء .

ويمكننا لأسباب عملية أن نعتبر العادية كمركب جنسي حيواني بسيط يلعب دوراً صغيراً نسبياً في وعي الذكر . والرجال الذين يعيشون حياة جسديـة عنيفة ، مثل العمال والجنود والرياضيين المحترفين وغيرهم ، ربما لا يكون عنـدهم الكفايـة من الوقت للتفكير في الجنس ، خاصة وأن طاقاتهم تصرف في أشياء أخرى . وهذه هي فكرة تولستوي عن العادية .. الفلاح الذي يضاجع زوجته

مرة في الاسبوع وينجب طفلاً كل عام .

إن أبسط انحراف عن هذا « المثال » هو الرجل الذي يولي اهتمامه لنساء أخريات والذي قد يغتنم أية فرصة لخيانة زوجته . وتولستوي سيعتبر مثل ذلك بداية الانحراف . (إن تولستوي في هذا ، هو أقل تطرفاً على كل حال من القديس بولس الذي كان فيما يبدو ينظر الى الجنس على أنه حركة تبعد الإنسان عن تفرغه المشروع ، وبالتالي الطبيعي ، للرب) .

إن كثرة وتنوع المجلات التي تتخصص في نشر قصص منمقة متحررة عن الخيانة الزوجية ، وكذلك في نشر صور فتيات عاريات أو شبه عاريات دلالة على أن « التزويغ » عند الأزواج شيء عادي تقريباً . ومع ذلك ، فمن الملاحظ أن قليلين جداً من الرجال سيحملقون طويلاً في صورة فتاة شبه عارية ، في مجمع من الناس ، بل وستكون نظرتهم إلى الصورة أكثر إنجازاً وسرعة مما لو كانوا وحدهم . وهذا يعود طبعاً إلى خوفهم من أن يشك الآخرون في أنهم يرتكبون اغتصاباً ذهنياً مع فتاة الصورة . وإن تقديراً سريعاً رجولياً لصورة فتاة شبه عارية يعتبر أمراً عادياً ، في حين أن تمعناً أطول في الصورة قد يدل على أن الرجل يفكر في الجنس بطريقة ماسوكية نظراً لأنه لا يمكن له تحقيق رغبته مع الصورة . لذلك فإن الشعور بالخجل عند الرجل ينبع من كونه يفكر في الشيء بدلاً من أن يفعله . بل إن مثل ذلك قد يلمح إلى نوع من الاستمناء .

موضوع البحث في هذا السياق ، وفي كل الإنحرافات الأخرى ، هو وهم أو تصوّر الغرابة . ومتى ضاجع الرجل أول مرة في حياته ، بات يعرف بصفة أساسية ما هي المرأة . إنه كمسافر شدّه الشوق أعواماً لرؤية الهند ثم سنحت له الفرصة فذهب إلى هناك . بمعنى أن الحاجة الأساسية ، والكبرى ، قد تم اشباعها الآن . وقد تحدث لورنس عن ذلك ، بكثير من القوة في قصيدة « Manifesto » ، فكتب عن :

... جوع آخر
عميق جداً ، وكاسر ...

أكثر حمرة من الموت ، وأكثر صخباً .
الجوع لامرأة ...
الذي يجب أن نتعلم كيف نشبعه برضى حقيقي صرف
أو نموت ، ليس هناك من بديل ...
امرأة أشبعت هذا الجوع فيّ أخيراً .
ما لا تستطيع نساء كثيرات أن يمنحنه،تستطيع امرأة واحدة...
وقفت قبالتي كخيرات مملوكة لي .
وحتى وقتها ، في العتمة ، كنت معذباً ، ضارياً ، مقيداً ،
خجلاً ومخزياً وشريراً .
إن الإنسان يصاب برعب كبير من الجوع العنيف ،
وهذا الرعب هو جذر كل القسوة .
أحبتني ووقفت قبالتي ، تنظر إليّ .
كيف أنظر ، وأنا محموم بالجنون ؟ واختلست نظرة جانبية
وأنا محموم بجنون رغبة مفترسة ...

وبعد هذا الوصف الممتاز لعنف الرغبة الجنسية الذي لا يوجـد مثيل له إلا في بعض صفحات « Wedekind » ، تصل القصيدة إلى ذروتها :

أستطيع أن أضع وجهي بين نهديها
وأعرف أنهما قد أعطيا إلى الأبد
وانني لن أجوع أبداً
لن أضمحلّ ،
لقد أكلت من الخبز الذي يشبع
وهدأ جسد جسدي ،
صار هناك سلام وثراء ،
وتحقق .

ولورنس مدهش إلى حـد كبير لأنه ، بهذه الطريقة بالذات ، كان متحرراً

تماماً من النيوروسين (أي اختلال الأعتصاب) المعاصرة لعدم التمييز الجنسي. فقد أعلن – سواء أكان ما يقوله صحيحاً أم لا – أن تجربته الجنسية الرئيسية (وليس الأولى) قد علمته شيئاً دائماً .

وهذا ليس صحيحاً بالنسبة لمعظم الرجال . ففي احدى مقدماته الأخيرة يشير برناردشو إلى أن معظم الرجال في القرن العشرين يمارسون تجربتهم الجنسية الأولى في وقت متأخر جـداً . في العصر الاليزابيتي كانت كثير من الفتيات يتزوجن ويصبحن أمهات في سن الثالثة عشرة ، كما أن معظم الفتيان كانوا يمارسون تجربتهم الجنسية الأولى منذ سن الثانية عشرة ، وهي السن التي يبـدأ فيها الجوع الجنسي ، في اقلاق الذكر . ولقد لاقى لورنس تجربته الجنسية الأولى قبل أن يبلغ العشرين بقليل . فـإلى أي حد كانت غيبيته الجنسية اللاحقة هي نتاج حرمانه الطويل هذا ؟

ثم إنه مهما كان السبب ، فإن الرجال لا يشعرون أنهم حصلوا على شيء دائم حين يمارسون تجربتهم الجنسية المرضية الأولى . وعلى الأقل فقد توغّل لورنس في عملية الوهم الجنسي إلى حـد إدراك أن « ما لا تستطيع نساء كثيرات أن يمنحنه ، تستطيع منحه امرأة واحدة . » لكنه إذا ما كان إحساسه بأن نهدي زوجته « قد أعطياه إلى الأبد » عمقاً بالفعل ، فإن كل اهتمامه الجنسي فيها كان سيضمحل بسرعة تقريباً . فقد تكون الرغبة الدون جوانية قد اختفت ، إلا أن وهم الغرابة العادي ظل قائماً ، وإلا فإن الزواج سيكون وجيزاً جـداً . والرغبة الجنسية ليست كالحاجة إلى الطعـام ، وهي لا تتشكل من جديد وفقاً لعملية آلية تتعلق بالتغذية بل بفعل عادة ذهنية كنت قد شبهتها سابقاً بنابض قوي مركب في باب .

المجلات التي تخصص في نشر صور الفتيات شبه العـاريات إنما تقوم في الواقع بتشجيع نوع بسيط من الفويبريه Voyeurism أي التهيـج الجنسي بواسطة المشاهدة . وهناك بعض الكتب السيكولوجية التي تفرق بين الشخص الفويبري والشخص الذي يسمى بالانكليزية « Peeping Tom » وهو (وصف يطلق على

مسترقي النظر أو المتلصصين في الحالات الجنسية ، وسنسميه هنا « تلصصاً » — المترجمان) . فمعظم الرجـــال هم من صنف المتلصصين ، نظراً لأنهم سيلتفتون وينظرون إذا ما مرت فتاة شبه عارية في الشارع . أو إذا مـــا رفعت الريح ثوب امرأة . لكن هناك القليل من الرجال يعمدون الى تحدّي القانون، وذلـك لإشباع رغبتهم في مشاهدة نساء عاريات أو تتعرى . وبالنسبة للبوليس ، فإن المتلصص هـــو الرجل الذي يجعل من نفسه سبباً للإزعاج عـــن طريق محاولة مشاهدة نساء وهي تتعرى أو مشاهدة رجـل وامرأة يزاولان الجماع . أمـــا الفوييري فهو الرجل الذي يحب فعلاً أن يشاهد عملية جماع تجري أمام عينيه . (في رواية فوكنر المسماة « الملجأ » Sanctuary نرى بوب آي عاجزاً عن فض بكارة تمبل بنفسه ، ونراه يستلقي بدلاً من ذلك على الفراش، وهو يرتدي قبعته، ويراقب ريد وهو يضاجع تمبل .) وسأستعمل كلمة « فوييري » هنـــا كصفة لكل الرجـــال الذين يثارون جنسياً بواسطة حاسة البصر سواء أكان تهيجهم يصل درجة القذف أم لا . وبطل رواية باربوس المسماة « الجحيم » هـــو حالة غريبة من الفوييرية . ففي مستهل الرواية نراه يشاهد امرأة وهي تخلع ثيابها في غرفة مجاورة (مع أن باربوس يحرص على عدم الإشارة الى أي تهيج جنسي) ، لكن المناظر التي يسترق النظر إليهـــا ليس لها في الغالب أيـــة صفة جنسية . وفوييريته تنبع من رغبته في التغلب على الوحدة الأساسية للكائنات البشرية ، وفي محاولة الولوج الى الحيوات الأخرى وعيشها بالنيابة .

ينبغي هنا أن نلاحظ أنه لا يمكن وصف الفوييرية بالشذوذ بمعنى أنها بديل كامل للعملية الجنسية العادية . فإن كثيراً من الرجـــال يحبون أن يشاهدوا امرأة وهي تتعرى قبل أن يمتلكوها جنسياً . كما أنـــه سيسعد معظم الرجال المتلصصين أن يضاجعوا المرأة التي يتلصصون عليها إن كان يمكنهم ذلك بدون أي خطر أو بدون الحاق أي أذى وألم .

إن تشارلز فلويد ، الذي حكم عليه بالسجن المؤبد في تكساس عام ١٩٤٩ ، كان متلصصاً بالإضافة الى كونه مغتصباً . وكان من عادة احدى ضحاياه أن

تخلع ثيابها من غير أن تغلق ستائرها . فبعد أن راقبها فلويد لعدة ليال ، تسلق إلى شقتها في ليلة ما ، ولطمها على رأسها بحيث أفقدها الوعي ثم اغتصبها . بل انه في الواقع أمضى الليلة كلها في الفراش مع المرأة الغائبة عن الصواب ، وغادر الشقة في الصباح . وهذا يدل على أن تلهفه وانتظاره الطويلين قد غذّيا شهوته الى الحد الذي لم تكفِ فيه مجرد عملية واحدة من الإغتصاب أن تشبعه . ولقد ارتكب فلويد خلال فترة سبعة أعوام ، خمس جرائم قتل مع اغتصاب على الأقل ، وعدة محاولات اغتصاب . وبعد اعتقاله وجد أنه مسؤول جزئياً عن أعماله فأودع في مستشفي للمجانين . وفلويد هو مثال واضح على الحبوط العادي (صورته تدل على أنه رجل ضئيل ، قبيح المنظر) الذي غذّاه وقوّاه المفعول المثير لإمرأة مهملة . وقد دفعه ذكاؤه المحدود جداً بالإضافة الى تلك العوامل ، الى تخطّي كل الكوابح والموانع العادية . لكن رغبة الاغتصاب ليست وقفاً على الرجال المهزوزين عقلياً أو الذين توقف نموهم العقلي في سن مبكرة . فإن شتيبنوولف بطل رواية هيسل المسماة بالاسم نفسه ، يقرّ بأنه يحب لو احتضن « ظبية » :

وأولم نفسي بزخم على فخذها الطري
وأشرب قدراً كاملاً من دمها الأحمر
ثم أعوي حتى يمر الليل .

فهنا نرى رجلاً ذكياً يعترف بوجود عامل الإغتصاب فيه وكذلك بالرغبة في تحقيق ذلك بالعنف .

وهذا يثير السؤال التالي : لماذا يشعر الرجل بحاجة الى أن يرتكب العنف مع الجسد « الغريب » ؟ لماذا يشعر برضاء أكبر حين يحطم هذه الغرابة عن طريق الحاق الألم ؟ ها هنا اذن حالة بسيطة لسوء توجيه دافع غريزي. فالحاجة الى مشاهدة امرأة وهي تتعرى تنبع من الشعور بأنها غريبة . إن الرجل لا بدّ له أن يحسّ قدراً معيناً من الاستياء البسيط للطريقة التي بها يماص منه « الرضى الجنسي النهائي » دائماً ، وللطريقة التي يمنحه الدافع الجنسي بها قدراً من الرضى

ثم يعود فيخطفه منه . فالدافع الجنسي يصرخ في طلب شيء ما ، وبعد خمس دقائق من حصوله على مبتغاه نراه يعود ويصرخ من جديد .

ولأنه من غير المجدي أن نغضب على الدافع الجنسي ، حين يتحول جزء من هذا الغضب أو الاستياء بصورة تدريجية وغير منطقية إلى غضب أو استياء موجه ضد المبتغى الجنسي ، أي الفتاة .

ومرة أخرى ، تزودنا المراجع الخاصة بالجرائم الجنسية بأمثلة ايضاحية كثيرة . فلقد صرح باتريك بيرن ، الذي ارتكب عدة جرائم قتل ضد فتيات من جمعية الشابات المسيحيات في بيرمنغهام ، أنه أراد أن يرعب كل النساء « لكي أنتقم منهن لأنهن سببن لي توتراً عصبياً عن طريق الجنس » . ولقد اعتاد بيرن على أن يتلصص من نوافذ جمعية الشابات المسيحيات ليشاهد الفتيات وهن يخلعن ثيابهن . وفي الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٩ كان بيرن ثملاً للغاية ، ومن ثم متحرراً من كل ضوابط النفس . وكان إلى جانب ذلك يشعر بالاستياء والحنق لأن رئيس البنائين طرده من العمل بسبب سكره المتواصل ، وأقدم بيرن وهو في هذه الحالة على اغتصاب فتاة تدعى ستيفاني بيرد ، ثم قتلها وقطع رأسها بسكين كبيرة حادة . ويبدو أنه حاول كذلك أن يأكل أحد ثدييها وذلك بأن رش عليه السكّر . (وأكل الثدي أو الحلمات شائع في الجرائم الجنسية . وهناك حالتان مماثلتان أوردهما بول دي ريفر في كتابه) . وفي مساء اليوم نفسه حاول أن يقتل فتاة أخرى بأن يضربها بحجر . كما أقرّ بأنه أحس برغبة في قتل عدة « نساء جميلات » . (وقد قرر في احدى المرات الا يعتدي على احدى الفتيات لأنها كانت غير جميلة .) وقد اعترف بيرن بأنه كان ينغمس في نزوات جنسية قام في احداها بشطر فتاة الى قسمين بواسطة منشار دائري[1] .

---

١ — هذه الحالة من التصرف الخارج على المعقول ليست طبعاً غريبة على المجرمين الجنسيين ، بل انها ميزة اجرامية شائعة . فقد نقل عن ستيفن ناش الذي قتل صبياً على شاطىء سانت مونيكا عام ١٩٥٥ ، قوله : « كنت فخوراً به . ومع أنني أسفت ان الأمر حدث لصبي ، الا انه =

وجريمة القتل هذه بشكل واضح محصّلة أعوام من الهبوط والخيبة الجنسيتين، ومحصلة شعور جارف بعدم الإمتياز الجنسي في مجتمعنا بالإضافة إلى أنها نتـــاج **اعتقاد قائم بأن النساء هن المسؤولات عن ذلك**. ولا شك أن تشارلز فلويد كان يمتلك شيئاً من هـــذا الشعور والإعتقاد، كما أن هذه الحالة تنطبق بالتأكيد على هنريخ بوميرنكه، القـــاتل الجنسي الألماني البالغ من العمر ٢٣ عاماً والذي ارتكب عشر جرائم قتل. وقد ادعى بوميرنكه الذي حكم عليه بالسجن المؤبد عام ١٩٦٠، بأنه استوحى جريمته الأولى من فيـلم «الوصايا العشر» الاميركي. فقد أوحى إليه منظر النساء وهن يرقصن حول العجل الذهبي وأقنعه بأن النساء مصدر كل الشرور في العالم. وقد اغتال ضحيته الأولى في حديقة عامة وبعـــد مشاهدته للفيلم مباشرة. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنه ادعى بأن القتل كان يحدث بطريق الخطأ والصدفة، وأن قصده فقط كان أن يفقد النساء صوابهن لغرض اغتصابهن. فقد تكون النساء شريرات، لكنه يمكن معاقبتهن بشكل كاف وذلك بنكاحهن. وهذا في الواقع هو موقف عدواني من الجنس نجد أنـه ملازم بشكل غريب لطباع الذكر. (لقـــد لاحظت ذلك بشكل خاص بين الرجال العاملين. ففي احـــدى المناسبات اختلف أحد العمال في «كانتين» مع إمرأة متوسطة العمر، ولا تعتبر جذابة تمامـــاً، فعلق غاضباً: «هذه المرأة يجب أن...». وطبعاً فإن العامل كان يتصور ذلك كنوع من العقاب لإخضاعها وتأكيد رجولته).

ومثل بيرن، فقد وصف بوميرنكه بأنه «غير ناضج» جنسياً، ومع أنه ادعى بأنه أغوى صبية من جيله حين كان في العاشرة من عمره، فقد اعترف بأن الفتيات كنّ يعرضن عنه أو يسخرن به.

وعامل الاستياء والحنق هذا قد يتخذ أشكالاً أكثر غرابة. فقـــد أعلن

= كان علي ان اسوي الحساب». وكان ناش قد ارتكب عدة جرائم، وينوي الاستمرار في ارتكاب المزيد للإنتقام من، او «تسوية الحساب» مع قاضٍ في لوس انجلوس، كان قـــد حكم عليه بالعقوبة القصوى لإرتكابه جريمة صغيرة.

ويرنر بوست ، القاتل الجنسي الألماني ، بأن رؤية اثنين يتعانقان كان يثير غضبه وأن « مثل هذه الفظاعات الجنسية هي لعنه ألمانيا » وبهذه العقلية الفاضلة كان يعترض أو يفاجيء رجلاً وامرأة ما في سيارة ويرغمها على تناول قرص مخدر ، ثم يغتصب المرأة ويسرق الرجل . ومن الصعوبة بمكان أن نفهم منطقه في تبرير عملية الإغتصاب . والشيء الذي ينبغي ملاحظته هنا هو أنه لا توجد هناك أية محاولة تقريباً لإيجاد مخرج عقلي لشعور الحنق والخيبة . بل يترك لهذا الشعور أن يعبر عن نفسه بأبسط طريقة ، أي بواسطة عملية العنف والإنتهاك . وقد قام بوست هذا فيما بعد بقتل رجل وإمرأة ثم بقتل رجل وإمرأة آخرين . ففي المرة الأولى دفع بالسيارة إلى بحيرة ، وفي الثانية أشعل النار فيها ، في مكان مليء بالعشب الجاف . ومن هنا يبدو أن عامل الاستياء كان قوياً وعميقاً [١] .

وفيما أذكر،أن هناك معالجة أدبية قيمة واحدة فقط « للمجنون أو المهووس الجنسي » (إذا أسقطنا من حسابنا حادثة اغتصاب الطفلة الممنوع من رواية « المأخوذ » Possessed لدستويفسكي) ، الا وهي تلك المتعلقة بشخصية موسبراجر في رواية موسيل المسماه « الرجل الخالي من المناقب » - The Man - Without Qualities - . فقد أعتقل موسبراجر في الرواية لأنه طعن مومساً حاولت استمالته ، ولكنه في كل النواحي الأخرى يمت إلى فئة القاتل الذي يعاني من الحبوط والخيبة الجنسيتين كما ورد أعلاه . ويجدر هنا نقل تحليل موسيل

---

١ - أحد الملامح المقلقة لهذه القضية ، وللوضع كله عامة، هو أن كثيراً من مجموعة الأزواج من الرجال والنساء الذين اعتدى عليهم لم يبلغوا البوليس أو يتقدموا بأية شكوى . وفي حالة جيرالد طومسون في بيوريا « راجع بداية الفصل السابع »، اشتبه البوليس بأن القاتل ربما كان قد اغتصب نساء أخريات ، يحجمن خجلاً من التقدم الى البوليس خوفاً من الفضيحة . ولذلك وافقت الصحف على ألا تنشر أسماء الضحايا . وكانت النتيجة مذهلة ، فقد تقدم إلى البوليس أكثر من خمسين امرأة كان طومسون قد اعتدى عليهن بالإغتصاب والتقط صورهن في أوضاع مشينة وهن غائبات عن الصواب . وقد هدد طومسون بأن ملاحقته واعتقاله سيؤدي إلى الكثير من العلانية والتشهير وكذلك إلى تسرب الصور إلى النشر . ومما لا شك فيه أن احدى الخطوات الهامة في طريق مكافحة الجريمة الجنسية هو عدم نشر أية معلومات عن الضحايا .

لشخصية موسبراجر .

« حين كان موسبراجر صبياً ، بائسا وفقيراً يعمل كراعٍ في كفر صغير لم يكن فيه حتى شارع قرية واحـد . وقد بلغ موسبراجر من الفقر بحيث أنه لم يكلم فتـاة أبداً . كانت الفتيات بالنسبة له شيئاً لا يستطيع الا النظر إليهن ، وقد استمر هذا الوضع معه حتى بعد أن أصبح أجـيراً يتعلم حرفة عند مهني وحتى خلال تطوافه كعامل مياوم . ولا بدّ للإنسان هنا أن يتصور ماذا يعني كل ذلك ، مـاذا يعني أن يكون هذا الشيء الذي يتوق ويحتاج الإنسان إليه كحاجته إلى الخبز والماء ، غير متوفر الا لمجرد النظر إليه فقط .

وبعد فترة ما ، تصبح رغبة الإنسان في امتلاك هذا الشيء رغبة محمومة غير طبيعية . إنه يمر أمامه ، تهتز التنورة حول أسفل ساقيه . يتسلق سلماً ، فتبين ساقاه حتى الركبتين ، وينظر الإنسان في عينيه ، فيغيم اللون فيهما ... »

وهكذا يمكن لنا أن نتفهم لماذا برّر موسبراجر نفسه حتى بعد أن قتل أول فتـاة ، وذلك بأن قال إن الأرواح كانت تتقمصه وتنـاديه صباح مساء ... ».

وهناك في الروايةوصف مؤثر جداً للتأثير الوحشي الذي يدخله على الإنسان النوم في العراء ، في فصل الشتاء ، وعدم الاغتسال أبداً ثم التعرض للإهانـة والاعتقال بتهمة التشرد . إن موسبراجر يصر على أنـه كان يشعر بمجرد القرف من النساء اللواتي اغتصبهن وخنقهن ، أو كان يشعر بقسوة القطة الغريزيـة ضد الفأر . وإلى جانب ذلك كان يغيب في أحلام يقظة يتصور نفسه فيهـا « ملاكاً مدمراً يذبح الآلاف ، وناراً محرقة تلتهم المسارح أو فوضوياً عظيماً[1] .

ولقد استطاع موسيل هنـا أن يرسم صورة للجوع الجنسي الأساسي في الذكر ، كما فعل لورنس في قصيدته « Manifesto » والواقع أنه إذا ما بلغ أي إنسان مثل هـذا القدر من الجوع العظيم ، فلاغرابة أن تتكوّن لديـه بعض « الانحرافات » . إن الإنحراف المسمى بالفتيشيه (أي عبـادة الدكاكير لغرض

١ – راجع الفصل السابع فيما يختص بشخصية بيتر كورتن .

التمتع الجنسي) هـــو انحراف يمت بصلة وثيقة إلى أبسط أشكال الفويورية . والفتيشيه أو الدكور هي شيء أو جسم ما يكتسب دلالة جنسية بسبب وجود علاقة ما بينه وبين الجنس . ونظراً لأنه من صميم عمل التكوين الحيـاتي للإنسان الا ّ يتعلم إلا ّ القليـــل جداً من التجربة الجنسية ، وبالتـــالي فهـو يضطر إلى اعادة هذه التجربة بلا نهاية ، فإن النظام الأساسي لإختيار هـــذا الشيء أو الجسم الجنسى ينبغي بالطبع أن يكون خاطئاً وغـــير كفء . وإن أيـــة « انحرافات » تدمج بطريق الخطأ أو الصدفـــة ضمن « مغناطيسية » الرغبات الجنسية ، قد تصبح ثابتة ومستديمة بتأثير النظام المتكرر .

إن ستيكيل يذكر حالة بطلها رجل لا يمكنه أن يبلغ ذروة النشوة الجنسية أي القذف ، إلا ّ متى وضعت المرأة المعنية مريلة . وقد دلّ التحليل على أن الرجل المعني كان يربط بين المريلة وبـــين الممرضة التي كانت تلعب بأعضائـه التناسلية حين كانت تحممّه .

وكتاب ستيكيل المسمى **الانحرافات الجنسية** Sexual Aberrations (وهو كتاب يبحث كلية في الفتيشية) يحتوي على حـالات من فتيشية الشعر وفتيشية العكازات ، وفتيشية اللحى وغيرها . لكنني أميل إلى الشك في أن هناك أيـة أهمية عامة كبيرة لمثل هذه الانحرافات ، سوى أنها مثال على أن الدافع الجنسي قد يخضع « لمغناطيسية » أشياء غريبة جداً . ومن الغريب أن معظم الكتّاب الذين يكتبون عن الفتيشية يولون إهتماماً ضئيلاً لذلك الصنف من الفتيشية الذي هو على وجه التأكيد أكثر أصناف الفتيشية شيوعاً في القرن العشرين ، الا وهو فتيشية الثياب وعلى الأخص الكلاسين . وقد يكون سبب ذلك أن التركيز على الثياب الداخلية للمرأة قد شاع وتطور في الخمسة والعشرين عامـاً الماضية (أي منذ منتصف الثلاثينات) .

فالمجلات والإعلانات في الشطر الأول من القرن ، أي في عهـــد فرويـــد وستيكيل وايلـّيس وهيرشفلد ، لم تكن تحتوي على صور مغريـــة لفتيات في ملابسهن الداخلية . (لا شك أن هناك أزياء مختلفة في الفتيشية ، وأنا أشك على

سبيل المثال أن تكون فتيشية المشدات أو الكورسيهات شائعة كما كانت على ما يبدو حوالي عام ١٩٠٠) .

وإلى حد ما فإن فتيشية الملابس الداخلية يمكن اعتبارها « طبيعية » ، في أبسط مظاهرها ، كالفويورية . والمقطع التالي من روايــة نلسون الغرين المسماة « Awalk On The Wild Side » توضح ما أعنيه ؛ إنّ الصبي دوف تثيره أرملة مكسيكية ممتلئة الجسم تملك متجراً عاماً :

« وورد اليه عطر من الشرك فترك الكتاب وتبع أنفـــه الذي كان يشمشم المكان كأرنب الى ان وصل الى دولاب الملابس .

« بلوز من الشيفون ، وشلحة بيضاء مهترئة عند خط الدرزة ، وصدريـــة سوداء ، كأنها زيّ أحد أسلاك الرهبنة . وأحس دوف نحو هذه الأشياء بشعور من ذلك الإحترام الخاص الذي تكنه قلوب رجال عاشوا منفصلين عــن النساء تماماً . وخطر له فيما يشبه السحر أنه تحت هذه الملابس تسير السنيورة عارية ، وقد أوهنه هذا الإدراك الى حد أنه جلس على حافة السرير والشلحة ملقاة على ركبتيه ، وراح يتحسسها كأنها جسدها . وفي الفجوة التي تقبع فيها الحلمة ، في الصدرية أمكنه أن يشتم رائحتها الخاصة ، كأنها رائحة الجلد الروسي . . .

« وبشوق عميق كالحاجة التي فيه انبطح على معدته وشد شلحتها الى صدره ثم وضع رأسه موضع رأسها في الوسادة . وتشنجت أعضاؤه وانتفضت ثم غمرته موجة من الخدر خلفته رخواً هامداً كالشلحة . ومكث الصبي فترة في استلقائه هذا وهو مغمض العينين يطفح منه العرق ويغامره شعور من الإنهاك والذنب . إن شيئاً كهذا لم يحدث له من قبل حين كان يفيق من النوم » .

إن الجملة الأخيرة تشير إلى أن المستر ألغرين أقل واقعية مما يبدو ، فهناك في الغالب عدد قليل جداً من الصبية، في السادسة عشرة من عمرهم ، ممــن لم يمارسوا بلوغ النشوة الجنسية أبداً الا ّ في الأحلام الجنسية ، أحلام الاستمناء . ولكن وصفه لحالة بسيطة من الفتيشية هو وصف مقنع تماماً .

والواقع أن أول مثـــال على فتيشية الملابس الداخليــة في الأدب ورد في

رواية جيمس جويس المشهورة يوليس Ulysses . وحوادث هذه الرواية تجري في عام ١٩٠٤ (في ذلك الوقت كانت الكلاسين النسائية عبارة عن سراويل منتفخة نصف طويلة من الحرير الصناعي الملوّن) . وفي الرواية نجد أن المستر بلوم هو من فتيشيي الكلاسين ، كما نسمع المز بلوم تقول :

« طبعاً انه يكاد يجنّ بالسراويل التحتية . هذا أمر واضح ، خاصة إذا ما لاحظت كيف أنه يراقب باستمرار تلك الأشياء الوقحة التي تركب الدراجات فتتطاير فساتينها حتى سرّة البطن ... »

ونسمعها تقول في مكان آخر :

« إنه يحاول بأي عذر أن يضع يـــده بالقرب من دولاب سراويلي التحتيه طوال الوقت ، حتى وعدته أخيراً بأن أخلع سراويل «دميتي» التحتية وأعطيه إياها ليحملها معه في جيب سترته » .

وفي مشهد الشاطىء حيث يمارس بلوم العادة السرية بعد أن يشاهـــد فتاة تميل إلى الخلف ويداها معقودتان على ركبتيها ، فإن سبب تهيجه هـــو رؤيته لملابس الفتاة الداخلية :

« وصاحت جاكي كافري تدعوها أن تنظر : فقــد كان هناك واحد آخر ، فمالت إلى الخلف فإذا رباط جواربها ازرق يماشي اللون الشفاف ... واضطرت أن تميل أكثر فأكثر إلى الخلف لتلاحقه ببصرها وهو يعلو ويعلو ويــكاد يختفي عن الأنظار .

« واكتسى وجهها بحمرة إلهية ساحرة من عنف ميلها إلى الخلف ، فأمكنه أن يرى أشياءها الأخرى كذلك .. سروالها التحتي المصنوع من القطن يحتضن بدنها .. وإذ كان كل ضلع فيها يرتعش لفرط ميلها إلى الخلف ، كان هو يستطيع أن يرى كل شيء أعلى الركبة ... »

وقد افترض البروفسور ولسون نايت في البحث الذي أشرت إليه آنفــاً ، ان تهيج بلوم كان سبب رؤيته لردفي الفتاة جيرتي ماكدوويل . ويبدو لي هــذا غير محتمل بسبب الأدلة الأخرى في الرواية . ففي مشهد آخر نرى لينش يرفع

شلحة مومس بمحراك النار . كما أن فيراج ، والد بلوم (الذي يوجد في مخيلة بلوم فقط) ، يعلق بقوله :

« وبغفلة منها كشف منظرها الخلفي أنها لا تلبس ذلك الرداء الخصوصي الذي تعشقه بشكل خاص » . (ولقد كان جويس فيما يبدو واحداً من عشاق تلك « الأردية الخصوصية » . ويروى عنه أنه وقف مرة على جسر ، وكان ثملاً ، فأخذ يرقص ويلوّح بكلسون نسائي كان يحمله في جيبه ، من تأثير العادة[1]) .

ورواية جويس هي طبعاً ، عرض لمجموعة من الإنحرافات الجنسية (منسوبة في غالبها إلى بلوم) . فبلوم منغمس في علاقات غرامية خارج زواجه ، وقد حاول مرة واحدة على الأقل أن يعتدي جنسياً على خادمة بيته ، وهو كذلك من فتيشي الملابس الداخلية . وإلى جانب كل هذا فهو يبعث أيضاً برسائل مشينة إلى سيدات المجتمع الجميلات (إذا أخذنا المحاكمة الهزلية في مشهد Night Town على علاته) ، بل إنه يطلب إلى واحدة منهن أن « تلوث الرسالة بطريقة لا تقال » (أي بأن تستعملها كورقة تواليت) . وهو لم يمارس الجماع العادي مع زوجته لمدة عشر سنوات ، لكنه كان يحبّ أن يرقد على الطرف الآخر من السرير ويقبّل ردفيها و « الشق الأصفر ذا الرائحة » بينهما . (وقد قيل كذلك إنه في أحد المشاهد الختامية في الرواية ، يقوم بلوم كذلك بإيلاج لسانه في شرجها . ولغة جويس في الرواية غامضة جداً في أحيان كثيرة بحيث قد يكون ذلك صحيحاً ، لكنني شخصياً لم أستطع أن أجد ذلك المنظر بالذات) وفي بداية الرواية يتذكر بلوم كيف أنه ضاجع زوجته قبل أن يتزوجها وكيف أنها وضعت فمها على فمه ودفعت فيه بقطعة من الحلوى كانت تمضغها .

وأخيراً تذكر المسز بلوم في مكان ما من الرواية ، بأن زوجها يحب أن يغسل ويكوي كلاسينها . إذن فإن عادات بلوم الجنسية كانت تتراوح بين

---

١ - يروي فرانك بدجين أن جويس كان من فتيشي الكلاسين وأنه ، مثل بلوم ، كان يحمل السراويل التحتية لإحدى العرائس في جيبه .

الإنحرافات البسيطة والميول الشاذة الأكيدة[1] .

ولست أدري ان كان جويس قد قام بأية محاولة يوماً لتفسير ميـــول بلوم الجنسية . ولكن رسمه لشخصية بلوم يبلغ من الدقـة والشمول بحيث يمكننا أن نعتبر بلوم حالة مستقاة من ستيكيل ، كما أنه تكاد تبرز هناك عدة استنتاجات أكيدة . إن بلوم يعاني من عقـدة نقص قوية . وهذه الحقيقة بالذات تتضح أبلغ إيضاح في المشهد الذي يلي مدينـــة الليل Night Town (وهو المشهد المسمى يومايس Eumaeus) . وهذا المشهد مكتوب بلغة باهتة مليئة بالكليشيهات ، أي باللغة التي ينتظر من واحد مثـل بلوم أن يكتب بها . إن بلوم يعـــاني من من « وهم التفاهة »، من شعور بالنقص بسبب جنسه (أي عرقه) وضآلة ثقافته (بالمقارنة مع الطلبة الذين يختلط بهم) وكذلك بسبب منظره الخارجي. ثم إنه يعاني كذلك من ميول مازوكية قوية تتضح في مشهد مدينة الليل حيث يحمـل من نفسه امرأة ويسمح لـ « مدام » الماخور (أي البترونه) أن تضربه .

وهو يبدو طوال الرواية كلها رجلاً ذا طبيعة سمحة ، من الذين لا يمكنهم أن يلحقوا أي أذى بالغير . واحساسه بعدم التمييز الجنسي هذا ، أي بالحبـــوط والخيبة ، يعبّر عن نفسه في انحرافات صغيرة أبرزها فتيشيته .

ما هو بالضبط مغزى الفتيشية كتنفيس عن الحبوط ؟ ولنبتدىء بالقول إنها نوع من الإغتصاب الرمزي للأنثى الغريبة . إن نوع الرغبة الجنسية التي يحسّها موسبراجر هو في جوهره نوع لا شخصي .

يقول بطل رواية باربوس « الجحيم » : « إن ما أريده ليس إمرأة .. بـل كل النساء » حتى أن الاتصال الشخصي قـد يؤدي إلى افساد التجربة . إلا أن الجنس اللاشخصي هو أمر نادر ، فكلا الرجـل والمرأة ينجرفان في دوامة شخصية بعضها البعض . فقد يمكننا تسمية اغتصاب امرأة غائبة عن الصواب عملاً لا شخصياً ، لكن الرجال من صنف بلوم في هـــذه الدنيا عاجزون لحسن

---

١ – نجد أن تعلق جويس بالشذوذ قد تطور في روايته finnegans Wake إذ نرى بطل الرواية يقنع زوجته بأن تغوّط في فمه .

الحظ عن ارتكاب أي اغتصاب . لذلك فإنهم ينفسون عن عقدهم بالنزوات الأونانية (أي تلك التي يستحضرون فيها اللذة الجنسية وحدهم كالعادة السرية..) تعززها حوزتهم على رداء نسائي لا يمكن توفره في الأصل إلا للحبيب .

إن سلبية الشيء أو الغرض الجنسي ، التي تعرضنا لها في بحثنا عن الجنس « الفوري واللاشخصي » ، هي ذات أهمية كبرى إذا كنا نريد أن نتفهم طبيعة الشذوذ الجنسي . وهنا قصة قصيرة لليونيد أندرييف بعنوان الهاوية Abyss توضح ذلك تماماً .

يقوم طالب وطالبة بنزهة على الأقدام معاً . إنهما يعيشان قصة حب ولذلك فهما يغرقان في حديث مثالي طويل عن الحياة . ويمران أثناء سيرهما ، بجماعة من المتشردين الذين يجذبهم جمال الفتاة فيقتفون أثرها ثم يهاجمونها . وبعد أن يضربوا الفتى حتى يغيب عن صوابه ، يجردون الفتاة من ثيابها ويغتصبونها كلهم . وحين يعود الفتى إلى رشده يجد رفيقته غائبة عن لوعي ، فيشرع في تغطيتها ثم يهيجه عريها وإغماؤها فيغتصبها هو أيضاً . وهذا هو معنى عنوان القصة « الهاوية » .

لم يفسر أندرييف فكرة قصته هذه أو مغزاها أبداً ، لكنه يبدو من المحتمل أن الطالب قد تهيج بسبب اغمائها وكذلك بكونها أعتدي عليها لتوه بنفس القدر الذي تهيج به بسبب عريها .

وتبعاً لذلك فقد وجد نفسه قادراً على أن يشبع تلك الشهوة العنيفة الثورية التي تحدث عنها فيليب دي برون .

ولقد سمعت قصة عن لواطي أعرض عنه شركاؤه الجنسيون لأن متعته الكبرى كانت في أن يجامعهم وهم نيام بينما كان لا يشعر بأي تهيج جنسي وهم في حالة اليقظة . وهذا بالطبع هو الدافع الجنسي الصرف ، وهو يحاول ان يتجنب الإحساس بالإتصال الشخصي الذي يحدّ منه ويخففه .

والنقطة التي أود أن احددها هنا ، والتي هي بلا شك النقطة الرئيسية في هذه الدراسة ، هي أنه يمكن اعتبار كل هذه « الإنحرافات » محاولات يقوم بها أفراد للتملص من ميكانيكية التكرار . وهناك حكاية رمزية رواها أفلاطون

عن كيف تمّ تقسيم البشر الى ذكور وأناث .

كان البشر يوماً مخلوقات كروية يتحد فيها الذكر والأنثى ، الا أنهم أبدوا من الطاقة والذكاء غير العاديين ما جعل الآلهة تقلق خشية أن تصبح هذه المخلوقات آلهة كذلك . ولهذا قامت الآلهة بشطرها من الوسط الى نصفين صارا يعرفان فيما بعد بالذكر والانثى .

وقد أدى هذا الاجراء الى النتيجة المرغوبة إذ أن المخلوقات المقسمة راحت تصرف كل وقتها وجهدها في محاولة اعادة توحيد الذكر والانثى ، وبذلك لم يعودوا يشكلون أي تهديد للآلهة[1] .

هذه مجرد قصة رمزية ، لكنها على ضوء علم النفس الوجودي تحمل من الحقيقة أكثر مما تحمله كثير من النظريات « العلمية » فإنه لأمر حقيقي أن المسعى الجنسي الأساسي هو مسعى وراء الالوهية ، وراء نشوة « شبه الهية » من تأكيد الذات تتحقق عن طريق بلوغ قمة النشوة الجنسية ، وأن ذلك ينطبق كذلك على كل جهد انساني آخر من تأليف السمفونيات الى ارتكاب الجرائم .

ويبدو كذلك ان القوى البيولوجية غير الواعية التي تحركنا قد اهتدت الى ميكانيكية التكرار لكي تجعلنا نستمر في التحرك والتناسل . وذلك مشابه لربط جزرة على عصا مثبتة في طوق حمار بحيث تتدلى الجزرة أمامه فتحثه على لحاقها ومن ثم التقدم الى الامام . أو انه يمكن تشبيه هذه الميكانيكية بأرجوحة من أراجيح معارض اللهو المثبتة على قضيب حديدي والتي تدور من فوق القضيب ثم ترتدّ الى مكانها الاصلي .

فالجنس يحملنا الى ذروة مرغوبة من الشعور الآني بالألوهية ثم يعيدنا مباشرة الى نقطة البداية .

وأود أن أؤكد مرة أخرى ان ذلك لا ينطبق على كل النشاط الإنساني. فإن قوة الحياة تسمح لنا بأ نتعلم شيئاً من معظم تجاربنا ، فنحن نكبر وننضج

---

١ - يذكر أفلاطون ثلاث « فئات رئيسية من الجنس » بمعنى ان الفئتين الأخريين أصبحتا الذكور « الذكور » (اللواطيين) والاناث « الاناث » (السحاقيات) .

الى حد ما . والعقل يتعلم بسهولة . وحتى العواطف تتعلم على مرّ الزمن بحيث أن سخافات كالغيرة والحسد لا تعود تحطمنا . بل وحتى الجسد يتعلم قليلاً . فإذا انت أكلت مثلاً، صنفاً من الطعام سبّب لك غثياناً فإن معدتك ستشمئز من ذلك الصنف ، من تلقاء نفسها لأمد طويل .

والتجربة الجنسية هي التجربة الوحيدة التي يسمح لنا بالاّ نتعلم منها أي شيء تقريباً . والتعلم هنا يعني ، طبعاً ، أن بعض الرواسب من التجربة تستقر « في الجهاز » الانساني وتبقى فيه دائماً . وبعض التعلم هو تعلم فكري ، بحيث أنه يمكنك بالفعل ان تعبر عن « الدرس الذي تعلمته من تجربة ما » بالكلمات وأن تعني ما تقول حين تعلن بأن تلك التجربة « قد علمتني درساً » . بل ان السكر وتعاطي المخدرات يخلف قدراً معيناً من الرواسب ، مع أنه من المعروف حقاً أنه يخيل للانسان حين يكون ثملاً أنه « يعرف » مختلف الأشياء التي تختفي حين يصحو من سكره . لكن ليست هناك تجربة أكثر اعياء واكثر مدعاة الى الحيرة والخيبة من الجنس . فمهما يكن ما يثيره فينا الجنس من رؤى وما يقوم به من أجل توحيد « الذات المجزأة » بحيث يخلق فينا شعوراً آنياً بما يعنيه ان نكون جهازاً كفؤاً ، فإن « دروس » الجنس تكاد تكون عصية الفهم على طريقتنا البليدة في التعبير عن أنفسنا .

إن تاريخ النشوء والارتقاء الانسانيين كان تاريخ محاولة التخلص من الحدود والفواصل الفظيعة التي غرستها « الآلهة » في الحيوانات من أجل الحفاظ على الذات . فالانسان يلتقط لمحة من بعض رؤيا تطالعه خارجاً في الحديقة ،فيندفع الى خارج الغرفة ويهبط السلالم ويمر عبر رواق ثم يفتح أخيراً الباب الذي يؤدي الى الحديقة ، ولكنه سرعان ما يجد نفسه مرة أخرى في الغرفة الذي بدأ منها . هذا هو الجنس .

وبالنسبة لابسط العضويات الحية فإن ذلك كله تجربة محضة وقد ابتكر البشر لغة للتغلب على المحدودية ، وتعلموا استعمال الكلمات لكي يحافظوا على جوهر بعض التجارب — مثل كيفية اشعال نار أو بناء بيت على سبيل المثال.

وبعد ذلك ، ابتكروا الكتابة لكي يتمكنوا من المحافظة على جوهر التجارب الأكثر تعقيداً . وابتكروا الرياضيات لكي يستعينوا بها على التحكم في العالم المادي . ثم ابتكروا الاسلوب العلمي الذي هو أعظم قفزة تطورية منذ أن تعلم القرد ان يسير مستقيم القامة . ومع كل ذلك فإن ٩٩ بالمئة من تجربتهم بقيت عصية على الإدراك وغير قابلة للإستعمال كالارض التي تعصى بعناد على الري والحراثة .

هذا هو الوضع اليوم . فالخطوات القليلة الصغيرة التي خطوناها في اتجاه الألوهية تمت على مدى ملايين السنين . وفي نواح كثيرة فإننا بالفعل مخلوقات شبه الهية ، وعندنا كل الحق في إن نتباهى ونفتخر بأنفسنا ، وبالمقارنة مع أي حيوان من ذوات الاربع ، فان احقر وأحط مجرم بيننا هو « زفس » (رب الارباب عند قدماء الاغريق) آخر . ومع ذلك فإننا لا نعيش كالآلهة ، بل نعيش كملك عصبي المزاج يعيش في رعب دائم من خنجر قاتل مغتال . إننا نعيش حياة مهزومة منهارة، تصفعنا الحياة عند كل منعطف وتتركنا منهكين .. جياداً مخذولة مرهقة من تلك التي تجر عربات الحمل ، تخر على الطريق وتريد أن تبقى مكانها وتموت دون ان تعي او تفهم ماذا كان معنى كل حياتها او لماذا قضي عليها أن تجر عربة الحمل طوال كل السنوات الماضية . بل ان الاشخاص الذين هم من مستوى أينشتاين أو برناردشو يموتون بنفس الحيرة واللافهم اللذين يموت بها أي عامل مستغل .

لذلك فإنه ليس من الإشتطاط القول بأن الآلهة قد اهتدت إلى سلاح ميكانيكية التكرار لمنع البشر من التقدم شوطاً كبيراً نحو الألوهية التي يهفون اليها . **لكن من الواضح أنه إذا كان « للوجودية الجديدة » من نقطة بداية فان هذه النقطة تكمن في الجنس . وهذه النقطة هي أن نبتكر الطرق الكفيلة بسد الطريق على ميكانيكية التكرار .. التي هي بالنسبة للانسان حالياً كالتأتأة التي لا تجدي نفعاً .. وأن نبتكر من ثم صيغة أو لغة ادراكية تمكننا من أن نعي ونفهم بعض معنى التجربة الجنسية .**

إن « انحرافاً » جنسياً مثل فتيشية ليوبولد بلوم هو عبارة عن محاولة الجهاز السليم الصحيح أن يمزق الغمامات التي تغشي قدرته على الوعي الذاتي وعلى تعميق هذا الوعي .

وهناك نكتة معروفة في أوساط الأطباء النفسانيين مؤداها أن طبيباً نفسانياً يقول لأحد مرضاه : « لقد اكتشفت أخيراً سبب عقدة النقص التي تشكو منها . إنك ناقص » وعلى صعيد موضوعي ، فليس هناك أي إنسان ناقص . فإذا نظرنا إلى الإنسان من وجهة نظر معينة ، نجد أنه ذروة عملية تطورية . وإذا ما اعتبر الإنسان نفسه على ضوء هذه الفكرة ، فإن « عقدة النقص » ستختفي إلى الأبد وسيضع الإنسان على وجهه إبتسامة الرضى الذاتي دوماً . (وبالنتيجة فستكون حضارتنا أكثر انهياراً مما هي عليه الآن) .

إن ميكانيكية التكرار من شأنها أن تمنعنا من اكتساب شعور عظيم بالتفوق (وهي كذلك تمنعنا من أن تكون لدينا الإستجابة الحادة القوية لتحديات البيئة التي نعيش فيها .) ولا تمييز كازانوفا الجنسي هو محاولة متكررة « لإثبات نفسه » . ولقد بقي كازانوفا أسير هوس الإغواء لأن ميكانيكية التكرار كانت تتسلل وتخطف منه دليل « اثبات نفسه » بعد كل عملية ناجمة من الاغواء الجنسي . فلولا هذه السرقة الشاملة الكلية لثمار تجربتنا ، لما كانت الحياة الإنسانية عبارة عن مثل هذا الجهاد المؤسي والمؤلم للفوز بمثل هذه المكاسب الصغيرة . ولكان كازانوفا الذي أثبت بمغامراته تفوقه الاجتماعي والجنسي ، قد صبّ طاقاته الغنية في عمل أدبي فخلّف وراءه شهرة كفولتير آخر بدلاً من مذكرات أحمق مخادع .

فالكتّاب والفنانون العلماء ليسوا في الغالب رجالاً «ولدوا وفيهم العبقرية» ، بل هم رجال تمكنوا سواء عن طريق الحظ السعيد أو الجهد أن يتخلصوا من أغلال ميكانيكية التكرار التي تقضي على معظم الناس بالعبث واللاجدوى .

فالقول أن فولتير أو تولستوي أو برناردشو كانوا « يمتلكون عبقرية » معناه بكلمة أخرى أنهم كانوا أقل تأثراً من معظم الناس بالعصبانية (أي النيوروسية)

الناجمة عن مركب النقص . وإنه لمن المغالطة القول بأن العصبانية هي شكل آخر من أشكال العبقرية. فقد تكون العصبانية عاملاً مساعداً في بعض الأحين بمعنى أن تكون حافزاً سلبياً يحث الارادة في غياب وجود حافز ايجبي . لكننا إذا نظرنا إلى معظم الأدباء والفنانين الكبار الذين كانوا من العصبانيين . مثل دستويفسكي وشيلر ولورنس، فإننا سنلاحظ أن العصبانية كانت هي العامل الذي حطم أعمالهم تدريجياً .

فالإنحراف الجنسي إذن هو محاولة الإنسان أن يتحايل ويتغلب على عصبانية النقص التي فيه بأن يزود نفسه بنوعية من التجربة أغنى وأكثف مما يمكنه الحصول عليه من التجربة ضمن الحدود « العادية » . إنه محاولة الإنسان أن يتنفس بعمق أكثر وأن يحرر نفسه من ربقة عدم تحقيق الذات .

يقول بطل رواية « الجحيم » لباربوس :

« انني لا شيء ، ولا أستحق شيئاً » فهو لا يريد امرأة معينة بل كل النساء، لكنه يعرف أنه لا يستحقهم . وإن موقفاً مثل موقف « القاتل الجنسي الألماني» بوميرنكه أقل خسة وإن كان عملاً أكثر عداءً للمجتمع ، فبوميرنكه على الأقل يقوم بمحاولة ضالة للفوز بكل النساء. والشيء المؤسي في حالة بوميرنكه ومعظم المجرمين والمنحرفين الجنسيين هو أنهم لا يكتسبون أو يتعلمون شيئاً من التجربة، فميكانيكية التكرار غير رحيمة أو متهاونة معهم كما هي مع كازانوفا . وهذا هو ما يجعل من قضية مثل قضية تشيسمان شيئاً مفجعاً ، بمعنى أن الخطر الذي أحدق بحياته (أثناء محاكمته والحكم عليه بالإعدام) حفزه الى أن يغير ويعكس خط السير الهبوطي المعتاد بالنسبة لأي مجرم وأن يرتقي مقاماً ويكتسب عطفاً كإنسان .

إذن فالمصابون بانحرافات جنسية طفيفة مثل الفوييريين والفتيشيين هم أناس يرغبون في أن يوسعوا تجاربهم الجنسية من غير أن يستعينوا بأبسط وأوضح السبل الى ذلك أي بالاعتداء على النساء وافقادهن الوعي ثم اغتصابهن . (وانني هنا أسقط من الاعتبار طبعاً ذلك النوع من الفتيشيين الذين لا يفعلون شيئاً سوى

أن يستسلموا « لمغناطيسية » شيء معين ، مثل مربلة أو طاقية نوم ، ينسبونها دوماً الى امرأة امتلكوها) .

ولا شك أن حالة مثالية من حالات الفتيشية البسيطة ستوضح هذه ، وهي مأخوذة من كتاب لـ « بكهارت » اسمه « المنتهكون » The Violaters واسم الفتيشي في هذا الكتاب هو رودني شايرز الذي لفت نظر بكهارت كواحد من الأحداث المجرمين الذين يحتاجون إلى معونة مراقب للأحداث. كان شايرز إبن ممثل مشهور تزوج عدة مرات . ولم تكن كل زوجـاته يعطفن على الصبي الذي كان انثوي المظهر والذي كان يتـوق دائماً إلى المحبة والعطف بالإضافة إلى أنه كان يتأتىء في كلامه . وحين كان شايرز طفلاً صغيراً كان يترك لوحده مرات عديدة، وكان لذلك يحمل معه إلى الفراش بعض ثياب أمه ويتصور أنها معه . وتحولت هذه العادة فيما بعد إلى حالة جنسية يقوم شايرز فيها بالحصول على مـا يمكنه من الثياب النسائية الداخلية (الجوارب وقمصان النوم كانت تروق له بنفس القـدر كالكلاسين النسائية) ويستعملها لممارسة العادة السرية؛ وحين كان شايرز في سني ما قبـل العشرين حصل على عمل اضافي كصبي مراسل في احدى الوكالات المسرحية ، التي كان أبوه أهم زبائنها ، وهناك قابل ساحراً مسناً كان يعمل على المسارح . وقد علـّمه الساحل العجوز كيف يفتح أقفـالاً بسيطة بقطعة سلك وبمفاتيح خاصة . وحـدث لأسباب خاصة أن شايرز كان يمر في ذلك الصيف بالذات بتوتر عصبي . وزاد في تهيجه منظر العديـد من الممثلات الصبايا اللواتي كن يترددن على الوكالة . ونتيجة لكل ذلك فقـد اهتدى إلى فكرة السطو على شقق الممثلات للحصول على بعض ثيابهن الداخلية . وعلم يومـاً بطريق الصدفة أن ممثلة ما ستغيب عن شقتها تلك الليلة .

وفي المساء اتصل بالشقة هاتفياً ، ولما تأكد من عدم وجود أحد فيها توجـه إلى الشقة واستطاع أن يدخلها وأن يسرق عدداً من الكلاسين والجوارب وقميصاً من قمصان النوم . وحين عاد إلى بيته فرش الثياب المسروقة على سريره ومارس العادة السرية . لكنه أحسّ بالخجل والوجل بعد ذلك فألقى الثياب المسروقة

في محرقة القيامة. وعند هذه النقطة فإن قيامه بالتنفيس عن توتره الجنسي وكذلك بالجماع الرمزي مع الممثلة الجميلة وبالتحطيم الرمزي «لغرابتها» كانت ستدفعه ربما إلى التخلي عن القيام بأية مخاطرات أخرى لقاء مثل هذه النتيجة الضئيلة. إلا أنه ما أن مرت أيام معدودات حتى سنحت له فرصة مماثلة فاغتنمها وأعاد الكرّة.

يقول بكهارت: «كان يقدم على كل سرقة وهو يرتجف وجلاً بينما كان جسده يتصبب بالعرق البارد. ومع ذلك وبالرغم من خوفه .. كان مأخوذاً بفكرة الدخول خلسة إلى مخادع النوم وكان يحظى لذلك برعشات من النشوة لم يكن بمقدوره أن يصفها» هذا هو أيضاً جزء مألوف من النسق العام للتصرف الفتيشي فميكانيكية التكرار غير المدركة تربط بين مختلف المشاعر وتكوّمها في كتلة مشوشة. فالثياب الداخلية ترتبط بفكرة تعرية امرأة من ثيابها. (إن تحوّل الثياب الداخلية نفسها إلى الهدف الجنسي بالذات أمر غير وارد، وإلا لكان خلعها عن فتاة فقدت صوابها سيكون بلا شك أكثر متعة ومرضاة).

ودخول غرفة النوم يرتبط بالثياب الداخلية. وفكرة السرقة ترتبط بدخول غرفة النوم. وكل المشاعر المختلفة التي تخالج الفتيشي كالخوف والخجل التي تبلغ ذروتها في ممارسة العادة السرية هي نوع من عملية تطهير النفس. وكانت الغلطة التي ارتكبها شايرز هو أنه اختار ضحاياه من الممثلات اللواتي يتعاملن مع الوكالة التي يعمل فيها بالذات، كما أنه غالباً ما كان يسطو على مجموعة معينة من الشقق.

وذات ليلة تبعه رجال البوليس ثم ضبطوه وهو يحمل عدداً من الثياب الداخلية تحت البلوفر التي يلبسها. وبدلاً من أن يعامل كشخص مصاب بإختلال عصبي يحتاج الى معالجة، أحيل إلى محكمة للأحداث. وقضت المحكمة بالا تحكم عليه بالسجن إذا ما انخرط شايرز في سلك الجندية. وبعد عدة أسابيع من التحاقه بالخدمة العسكرية توفي شايرز في احد المستشفيات من مرض مفاجىء.

إن حالة شايرز توضح عدة نقاط. فذلك النوع من الفتيشية الذي كان

يعاني منه ناشىء عن الحبوط والخيبة ، بل انه كازانوفية رمزية .

وفي نواح معينة فانه كذلك يشبه تعاطي المخدرات : ومن الممكن استخدامه للحصول على زخم في التجربة لا يمكن تحققه بغير ذلك . وبتشبيه علمي فإنـــه مثل عملية تجميع معلومات جديدة . لكنه كذلك باعتباره مشابهـــاً لتعاطي المخدرات قادر على أن يعطي اليد الطولى لعامل « التجربة » فيقضي بذلك على قوة الارادة .

وقد حاول أحد علماء النفس التابعين لمدرسة يونج ، أن يفسر بسخرية سبب فتيشية الكلاسين النسائية واستقلالها الظاهر عن المسببات الكامنة وراء ضروب أخرى من الفتيشية مثل فتيشية العكازات وفتيشية الشعر الخ ، فقال بأنها قـد ترجع الى أصول عرقية قديمة ، أيام كانت المرأة تقدم كلسونها الى الرجل كدلالة رمزية على الاستسلام له . لكن عالم النفس هذا لم يطرح نظريته هذه على صعيد جدي طبعاً . (الكلاسين هي في الواقع ابتكار حديث تقريباً يعود تاريخـه الى أقل من مئتي عـــام : فالنساء في العصر الإليزابيثي لم يكن يلبسن شيئاً تحت تنانيرهن) . وهذه النظرية قد تكون تقليداً للفكرة الفرويدية القائلة بأن فتيشية الأحذية تنبع من الشعور والاعتقاد بأن الحـذاء هو مهبل رمزي ، إلاّ أنها تشير إلى حقيقة هامة في هذه القضية ، الا وهي أن بعض الأشياء والرموز الفتيشية تُربط قسراً وجوراً بالعملية الجنسية، وذلك عن طريق خضوع الدافع الجنسي منذ البداية تقريباً لمغناطيسية ونفوذ الرمز الفتيشي المعني . أمّا الأنواع الأخرى من الفتيشية فهي تمتلك ميزة البديل الحتمي للعملية الجنسية الذي يفصله عن العملية الفعلية نفسها حاجز ضئيل من شعور القصور والخيبة ، مثلهـــا في ذلك مثـــل الكلب المتهيج جنسياً الذي يلتجىء الى الاحتكاك بذراع أو ساق صبي .

في عـــام ١٩٢٣ ، كتب هافيلوك إيلـّيس يقول : « إن الانحرافات الجنسية قابلة للحدوث على وجه الخصوص في مدنية مثل مدنيتنا ، حيث توجـد حوافز قوية للنشاط الجنسي ، وتوجد معها في ذات الوقت كوابت قوية للحدّ من هذا

النشاط خارجاً أو داخــلا » . ومنذ ذلـك الحين ازدادت « حوافز النشاط الجنسي » في حين ارتفعت نسبة الجرائم الجنسية في انكلترا بثلاث مرات عمّا كانت عليه . فإذا ما قارنا بـين المجلات الشعبية التي كانت تصدر في الثلاثينات محمّلة بقصص الجرائم الجنسية التي كانت تحدث بالفعل ، وبين المجلات الشبيهة التي تصدر الآن في الستينات ، فسنتوصل الى النتيجة ذاتها وهي أن عدد الجرائم التي تمتّ الى الجنس والإنحراف الجنسي قد ازداد . وقـد يكون من الطريف أن نتوصل الى احصائية دقيقة لهذه الزيادة إذا ما قارنّا بين خمسين عدداً صدرت في اوائــل الثلاثينات لمجـلة من تلك التي تنشر « قضايا بوليسية حقيقية » وبــين خمسين عدداً من أعداد هذه المجلة صدرت في الستينات . ففي أعداد الثلاثينات كانت ستطالعنا قصص عن الزوجات اللواتي كنّ يدفنّ بعد قتلهن في الحدائق الخلفية وأبنـــاء المزارعين الذين كانوا يغتالون أوصياءهم ، والأزواج الذين كانوا يقتلون بالتسميم ، وهي كلها قصص لا تختلف كثيراً عـــن تلك التي تحدث في السنوات الحالية . لكن القارىء في الثلاثينات كان من غـــير المتوقع أن يطالع بنفس القدر الذي يطالع به قارىء اليوم قصصاً عـــن « مجرم مولع بالكلاسين النسائية » أو « رجل يجنّ بالبنات الصغيرات » .

كانت هناك في الثلاثينات جرائم جماعية ومجرمون وقتلة جنسيون ، لكنه لم يكن هناك من يماثل بيتر مانيويل الذي قتل فتاتين لمجرد سرقـة كلسونيهما على ما يبدو (أعدم مانيويل عام ١٩٥٦)[1] .

ولربما كان بعض الكتاب المتخصصين مثل بينيه وفرويد وهيرشفلد يضخمون أحياناً الأسباب الكامنة وراء نشوء أنواع مختلفة من الفتيشية . وإن كرافت -

---

١ - من سوء الحظ أنه لم يصدر بعد أي تقرير نفساني عن مانيويل ، وما ذكر عـن حالته في كتب مثل كتاب جون جراي ويلسون لا يتعدى سرد وتقديم «الحقائق» المتعلقة بجرائمه (ارتكب مانيويل عشر جرائم قتل) بدون تقديم أية استنتاجات عن عقلية مانيويل . لكنه يستدل من التلميحات الواردة أثناء محاكمته أن مانيويل كان مصاباً بفتيشية الكلاسين . ومع أن ثمـاني من ضحاياه كن نساء إلا أنه لم يكن هناك أي دليل على قيامه باغتصابهن .

إنج مثلا يفترض بأن فيشية الأحذية تشتمل على شيء من المازكوية نظراً لأن القدم هي رمز من رموز الانتصار والقهر ، كالقول « مداس تحت الأقـدام » . وقد يردّ فيلسوف على هذه النظرية الافتراضية باستعارة ما قاله أوكهام من أنـه من غير المفيد أبداً أن نطرح من النظريات ما هو أكثر مما هـو ضروري اطلاقاً لتفسير مشكلة مـا . ومن السهل بمكان أن نفهم كيف يمكن للحذاء ان يصبح « رمزاً جنسياً » إذا حـدث أنه ارتبط بفكرة الجنس بطريق الصدفـة ومن خلال حادثة معينة . ويورد هيرشفلد حادثة يمكنها ان تفسر ذلك .

كان فتى في الرابعة عشرة من عمره يقيم مع عائلة صديقـة ، عندها فتـاة وحيدة جميـلة في العشرين من عمرها . وكان الفتى يجد متعة في الاستلقاء على السجادة المفروشة أمام المدفأة . وذات مساء أرادت الفتاة ان تتناول شيئاً من الرف القائم فوق المدفأة فداست بإحدى قدميها مازحة عليه ورفعت تنورتهـا قليلا بينا رفعت قدمها الاخرى وقربتها من النار . وأصيب الفتى نتيجة لذلـك بتهيج جنسي محموم فأمسك بقدمها القريبة من النار ، ووضعها على عضوه التناسلي وراح يحركها حتى بلغ حالة القذف . وسرعان ما أصبح ذلك « لعبة » منتظمة بينهما ، فكانت الفتاة تقف عليه وهو مستلق على الأرض وتحرك قدمهـا على معدته واضلاعه ، ثم يمسك هو أخيراً بقدمها الأخرى ويضعهـا على قضيبه حتى يصل ذروة النشوة الجنسية ويحدث عنده قذف . ولم يذكر الفتى مـا إذا كانت الفتاة تبلغ كذلك مرحلة الانتماظ أي ذروة النشوة الجنسية ، لكنـه ذكر في وصفه لها كيف كانت « عيناها تبرقان ووجنتاها تتوهجان وشفتاها ترتعشان » إذ كانت انتفاضات قذفه تنتقل الى قدمها .

وفي هذه الحـالة نجد أنه من غير الضروري ان نتحدث عن الساديـة أو المازوكية . فقد تكون المشاعر الجنسية لفتى في الرابعة عشرة من عمره ، قوية وعارمة الى حـد كبير . وحتى إذا كان الفتى طبيعياً وغير مصاب بأي شذوذ ما ، فانه من المحتمل ان يصاب بالتهيج لدى رؤية ساقي فتاة في جوارب بيضاء تنتصبان فوقه . فاذا ما رفعت تنورتها فإن تأثير ذلـك سيكون أقوى . ففي

هذه المرحلة يكون القضيب كبندقية ذات زناد حساس جداً ينطلق بأقل قدر من الضغط . إن استمرار الفتى والفتاة في ممارسة هـذه العملية حتى أصبحت عادة لا يعتبر دليلاً على الشذوذ بـل على القصور والحبوط الجنسيين وعلى وقوع العاطفة الجنسية تحت ضغط هائل . (وعلى كل حـال ، فقد سعى الفتى جدياً بأن يتخلص من هذه العادة بحيث أصبح من المترددين على عيـــادة هافيلوك ايليس) .

والنقطة التي ينبغي ملاحظتها هنا هي أن تكرارهذه الممارسة كان من المحتمل أن يؤدي إلى نشوء أي عدد من « الانحرافات » . فقد كان من المحتمل أن يربط الفتى بالإضافه الى الحذاء بين المتعة الجنسية وجوارب الفتاة أو كلسونها (إذا كان قد تمكن من رؤيته) ، أو كان من المحتمل أن ينشأ عنـده حب الاستلقاء تحت أقدام إمرأة (وهو ما حدث بالفعل) . إن الطاقات الجنسية لها كل عنفوان النهر السريع ، كما أنها ذات قابلية لأن تشق لها مجرى في أي اتجاه يحدث أن تكون قد سلكته عنـــد فيضانها المعتاد . وعندها تقـوم ميكانيكية التكرار بتضخيم هذا الميل وتحويله الى « انحراف » . ولا ضرورة هناك لأيـــة نظريات إفتراضية حـــول شخصية المريض ، فالعاطفة الجنسية وميكانيكية التكرار يمتلكان من القـــوة ما يمكنهما من احـــداث انحرافات جنسية في أي نوع من الشخصية .

والنقطة التي تبرز بوضوح من هذه الاعتبارات هي أن « الفتيشيه » هي اسم مخدّر لحالة غير محددة. وكانت الفتيشيه تعني يوماً مجرد الشغف الجنسي بالجوامد عديمة الحياة . وفيما بعـــد أصبح من الضروري توسيع معناها ليشمل اجزاء من الجسد كالشعر والأقدام الخ . ولكن هـــل هناك من سبب منطقي يمنع تسمية رجل ذي ميول جنسية عـادية بـ « فتيشي نساء » وتسمية لواطي بـ « فتيشي رجال ؟ » فإذا كان الجنس « عقلياً » كما تبين كل هــذه التحليلات (أي مركباً من طاقة جنسية خام ، كالرصاصات في مسدس مثلاً ، ومن عامل عقلي هو الذي يختار الأصبع التي تضغط على زناد ذلك المسدس) فإنه يجب التشكك حتى في

كلمات مناسبة مثل « فتيشية » . وقد يجد كثير من القراء أن تمييع مصطلحاتنا وعدم تحديدها تحديداً دقيقاً هو ضرب من الفائدة المريبة وانه كذلك خطوة في طريق التشويش التام . وفي الواقع أن عدم التدقيق هذا يساعد على تحطيم تلك النظرة الى الجنس بإعتباره شهية مباشرة كالجوع تحتاج الى اشباع مباشر كالطعام ، ويضع التشديد على عامل الاختيار العقلي الذي هو الحرية .

إن التحليلات الفرويدية القديمة للجنس بدأت من منطلق مادي . لكن الاستنتاجات التي توصل اليها التحليل الوجودي هي على طرفي نقيض من النظرة الفرويدية . ويمكن تحديد هذه الاستنتاجات على الوجه التالي : **عامِل الجنس بدون أية مفاهيم أو تصورات سابقة ، وطبق عليه أساليب التحليل الفنمنولوجي وسترى أن دراسة الدوافع الجنسية تؤدي بالبحث إلى مجال الحرية الانسانية .**

ودراسة الجنس بالأساليب الفنمنولوجية لربما يكون أقوى وأبلغ أسلوب تم اكتشافه حتى الآن للتحقيق في المسألة الوجودية .

في مجال بحثنا في موضوع الدافع الجنسي تبدو كلمة « الانتقاء » أفضل في بعض الحالات من كلمة « التعمُّد » وفي حالة المريض الذي تحدث عنه إيليس فقد قامت عدة عوامل ذاتية « بانتقاء » هدفها أو بالأحرى بإنتقاء شكل تجربة المريض الجنسية المقبلة .

وحالة رودني شايرز تبين لنا كيف أن التعمد في الانتقاء قد تشتط أبعد مما وصلتُ اليه في عملية الربط بين العملية الجنسية والرمز . فقد اعترف شايرز بأن دخوله إلى مخادع النساء كان يسبب له اثارة جنسية . (تلامذة فرويد سيفسرون ذلك بقولهم إن المخدع هو جحر وانه لذلك رمز جنسي للأنثى) .

ويبدو كذلك أن التحسب والخوف من اكتشاف أمره كانا يزيدان من تهيج شايرز الجنسي . وليس هناك كبير فرق في ذلك بين نفسية رودني شايرز ونفسية المصاب بداء السرقة الذي يدفعه التهيج إلى السرقة من المتاجر الكبيرة .

ومن أطرف الأمثلة على كيف تتم عملية الربط حالة قاتل من شيكاغو اسمه

وليم هايزنر ، فهايزنر هذا الذي صدر الحكم عليـــه وهو في سن الثامنة عشرة لإرتكابه ثلاث جرائم قتل ، كان ذا سوابق جنائية تعـود الى يوم كان في سن الثالثة عشرة. فقد أمضى فترتين في اصلاحية للأحداث بسبب ارتكابه السرقة. الا ّ أنه يبدو بأنهم لم يدركوا سبب تسلله الى المنازل ، فقـــد كان يسرق لمجرد سرقة الكلسونات النسائية. وقد بدأ هايزنر يتمتع جنسيا بسرقة الثياب الداخلية منذ كان في سن الثانية عشرة . وفي سن الثالثة عشرة بـــدأ يقوم بالسرقــة من المنازل . **وسرعان ما كان منظر نافذة مفتوحة يسبب عنده حـالة انتصاب .** وكانت أول مرة قـــام فيها بالإعتداء على امرأة هي على أثر خروجه من الفترة الثانية التي قضاها في احدى الإصلاحيات . فقد هاجم امرأة وضربها على رأسها بقضيب حديدي فأغمى عليها ثم قيدها إلى كرسي . (وقد ادعى فيما بعد أنه لم يكن يهاجم النساء الا ّ عندما كنّ يفاجئنه أثناء قيامه بالسرقة) . وبعد هــذه الحادثة ارتكب جريمتي قتل . كان في هذه الأثناء قد أصبح عرضة لحافز سادي قوي . فقد طعن أول إمرأة منهما في حلقها ثم ربط قميصاً للنوم حول عنقهـا . أما الثانية فقد شوّهها أكثر من ذلك . وبعد أن قتلها كتب بأصبع الحمرة فوق فراشها :

« بالله عليكم اقبضوا عليّ قبل أن أرتكب المزيد من القتل . لا أستطيع أن أتحكمّ بنفسي » .

وفي نهاية المطاف قتل هايزنر طفلة في السادسة من عمرها كانت قد أفاقت من نومها وحادثته عندما مرّ بغرفتها . وقد قطعها إلى أجزاء صغيرة وألقى بجسدها المقطع في المجاري . وحين ألقى البوليس القبض عليه أخيراً وجد في بيته أكثر من ثلاثين كلسوناً نسائياً .

وتكشف شهادة هايزنر إلى الأطبـاء النفسانيين عـــن التركيب النموذجي للمجرم الذي يشغل عقله الجنس . فقد كان هايزنر يتعرض لدافع قوي يحضه على السرقة ، فإذا قاومه أصابه صداع أليم . وكان أثناء قيامـــه بالسرقات يعيش حالة من التوتر العنيف كانت تدفعه الى أن يقدم بدون تردد على القتل إذا مـــا

فاجأه أو اعترضه أحد. ولتبرير هذه الجرائم أمام نفسه ابتكر شخصية أخرى لنفسه أسماها جورج . وقد صرح بعد اعتقاله بأن جورج هو الذي كان يرتكب السرقات وجرائم القتل[1] .

وفي احدى المرات وضع ثيابه في غرفة الغسيل وقفل عليها الباب والقى بالمفتاح الى داخل الغرفة . ولكن ألحت عليه الرغبة بعد منتصف الليل ، وتغلبت على مقاومته فزحف إلى غرفة الغسيل من خلال خندق المجاري ولبس ثيابه ثم خرج .

وقد وُجد هايزنر سليم العقل فحكم عليه بالسجن مدى الحياة .

والذي يستحق الإهتمام في هذه القضية هي الطريقة التي أصبح بموجبها الجنس مرتبطاً بفكرة الشر (أو معاداة المجتمع) . ففي البداية لم تكن هناك ضرورة لإرتكاب أية جريمة لإشباع رغباته الفتيشية . ولكنه ما ان أصبح يسرق للحصول على الثياب الداخلية حتى بدأ شعور التهيج الجنسي يرتبط بشعور التهيج الناتج عن الخطر ، كما كان الحال مع رودني شايرز . وأخيراً نراه يتخذ موقفاً اجرامياً بحتاً مع نفسه ومع المجتمع . والموقف الإجرامي هذا هو عكس موقف المصلح الديني والاجتماعي . فالمصلح يؤمن بأنه على حق وان المجتمع على خطأ وان عليه تبعاً لذلك أن يستخدم قوة حجته واقناعه لجعل المجتمع يقبل قيمه . أما المجرم فيرى في المجتمع ضحيته التي لا تشك فيه . لكنه كذلك يرى فيه القاضي الذي سيدينه . فيتكون لديه نتيجة لذلك احساس الجرذ الذي يختبيء في جحره ، احساس الرجل المختبيء الطريد. إنه محاط بالأعداء والكراهية . لكن « قواه المثالية » لا تملك فرصة على النمو والتبلور ، فهو لن يستطيع أن يندمج في أي تفكير بناء لأن أي تفكير بناء هو في الأساس من أجل **الشخص نفسه** . والمجرم لا يمكن أن يكون ذاتياً بشعور من الثقة لأن نظرته الأساسية إلى الحياة هي نظرة

---

١ – بعد صدور الحكم عليه ، اعترف هايزنر بأن جورج هو مجرد اختراع من بنات أفكاره التجأ اليه في محاولة للدفاع عن نفسه بحجة الفصام العقلي أي الشيزوفرانيا .

صراع ضد المجتمع . كما أن « التفكير المفيد » بالنسبة له هو ذلك التفكير الذي سيساعده في معركته ضد المجتمع . وبالنتيجة فهو يفتقد مركز ثقل حقيقياً ، لأنه لا يتوقف عن التفكير في نفسه بالمقارنة مع الناس الآخرين . وبدلاً من أن ينمي فيه هذه النظرة الذاتية التي تقول : الحقيقة هي ما يحركني بعمق ، والشر هو ما يؤذيني أو يحطم علاقتي بالآخرين ، فإنه يفكر بالخير والشر ببساطة وبدون تعمق . إنه يتمتع بالجنس لكن الجنس شر . (هذا هو نقيض مفهوم بليك) . لكنه يحتاج الى الجنس ويجب أن يناله ، لذلك فهو على استعداد لأن يعتبر نفسه شريراً ويتقبل ذلك .

وما أن يقع فريسة لعادة اعتبار نفسه إنساناً شريراً ، وحشاً برياً عليه أن يمارس الحيلة والخديعة لكيلا يتمكن المجتمع من إبادته ، حتى يكون قد اكتسب الحالة النفسية والعقلية التي تدفعه الى ارتكاب الجرائم السادية . وحين يقترف جريمة فإنه لا يحسّ بوخز الضمير ، لأن ذلك لن يؤدي الا الى تأكيد اعتقاده السوداوي بأنه شرير بدون أمل أو شفاء .

وشرّه هذا عالة أو عبء ثقيل ، فهو اذن يكتب توسّلاً إلى المجتمع بأن يقبض عليه . ثم هو يبتكر كذلك شخصية ثانية لنفسه ويسميها جورج لكي يعتقد على الأقل بأنه ما زال فيه بعض الخير . (ربما كانت تنشئة هايزنر الكاثوليكية قد زادت من ميله نحو انفصام الشخصية ، فعلى الرغم من أن عادة الإعتراف في الكنيسة الكاثوليكية لها بلا شك مزايا كثيرة الا أنها عاجزة على كل حال عن تقوية ميل الإنسان نحو أن يكون أكثر اعتماداً على نفسه أخلاقياً .

وقد يجد بليك أو نويس في هايزنر مثالاً مؤسياً على التأثيرات الهدامة لحضارة تجارية . فالحيوية الجنسية التي يعتبرها بليك « هبة من الله » قد ضلت السبيل على طول الخط .

ويتحدث بيتر كيجان ، أحد أبطال برناردشو ، عن إنسان ما فيصفه بأنه « روح مسكينة ضائعة ، سجنت بدهاء داخل قضبان غير مرئية » .

وهذا هو الحكم الذي سيطلقه على هايزنر ، أيّ إنسان يهتم إهتماماً ذكياً بالتعليم وبمشاكل المجتمع .

إن القضايا التي تثيرها جرائم هايزنر هي من التعقيد والتشابك بحيث يستحيل حلّها بتعميمات واسعة عن التعليم والثقافة . إنها قضايا تتعلق بالاتصال والترابط بين الناس ، وهي قضايا يحتاج حلها إلى علم نفس أعمق مما هو موجود الآن .



الفصل السادس

معنى «الانحراف»

- ٣ -

الراعي الذي شطر قضيبه . جرائم القتل الجنسية .
قضية كريستي . هيث . حب الأموات . قضية د . و .
الجاويش برتراند . اللواطية وجماعة اللوطيين .



إن تحليل الشذوذ الجنسي والجرائم الجنسية يكشف عن صعوبة لم تحدّد يوماً بوضوح حسبما أعرف . هناك عاملان متميزان في كل حالة « شذوذ » ، يعتبران عادة عاملاً واحداً . هناك عامل الحيوية التي تجهد في أن تشق مجراها الخاص ، وعامل الإنحلال والإرهاق الذي يقوم بجهد ضعيف أخير للتوصل الى « الغرابة » من خلال لذة جديدة . ومن الأهمية بمكان أن نميّز بين هذين العاملين . وقد وضع دي ساد اصبعه على العامل الثاني حين جعل دورسيه يعلق بأن معظم الإنحرافات المتطرفة هي نتيجة للملل والتشبع والتفاهة . ويسرد هيرشفلد حادثة تكاد تكون رمزاً للإنحلال الهدّام . وتتعلق هذه الحادثة براع كان عمله يشتمل على قدر كبير من الوحدة . وقد بدأ هذا لراعي بممارسة العادة السرية وهو في سن الخامسة عشرة ، وكان في بعض الأحيان يمارس هذه العادة حوالي خمس عشرة مرة في اليوم ، وكان توتره وتهيجه من القوة بحيث أن الدم كان يتدفق منه بدلاً من المني . وبعد حوالي عشرة أعوام أو أكثر بدأ الراعي عادة بإدخال قطع صغيرة من الخشب في القناة البولية بحيث أن عضوه التناسلي بلغ حالة من عدم الحساسية والتأثير لم تعد تنفع معه كثيراً الطريقة اليدوية المعتادة في الإثارة . ثم اكتشف الراعي أنه يستطيع أن يتوصل إلى ذروة النشوة الجنسية ومن ثم القذف عن طريق اجراء جرح صغير في طرف عضوه التناسلي بواسطة سكين . وقد كرر هذه العملية مئات المرات بحيث أن عضوه التناسلي انشطر يوماً إلى جزئين متساويين . وقد توفي هذا الراعي وهو في الثلاثين من عمره ، بعد أن أجريت له عملية جراحية لإخراج قطعة من الخشب كانت مستقرة في مثانته .

إن أول ما يلفت الانتباه حين نمعن النظر في هذه الحادثة هو الفراغ الذي

كانت تعاني منه حياة الراعي المذكور، إلى حدّ أنه لم يكن يجد ما يفعله أفضل من أن يمارس العادة السرية حوالي خمس عشرة مرة في اليوم . وهـو لم يجامع امرأة أبداً ، اما بسبب الخجل أو الشعور بالذنب . (وهذه حالة ليست غريبة كلية كما قد تبدو . فأشهر مثال على رجل لم يضاجع امرأة بالمرة ، هو نيكولاي غوغول الذي شحن بشعور من الإثم نتيجة لممارسة العادة السرية ، وقـد عذبه هذا الشعور ولون قصصه بأشباح غريبة ترمز كلها الى احساسه بالاثم) . وربما لم يكن بمقدوره ، أو لم تكن عنده الفرصة لأن يقرأ أو يكتب كما أنه كان ذا تعليم ضئيل . فالحياة ستكون عبأً طويلاً مملاً من الوعي اللامرغوب بدون هذه المتعة الوحيدة . لكن الغريزة الجنسية لم يكن المقصود منها أبداً أن تتحمل كليـة عبء حاجة الإنسان إلى أن ينفس عن طاقته . والتركيز الزائـد على الجنس سيؤدي حتماً إلى الانحلال . وهنـا يمكننا أن نعتبر العضو التناسلي المشطور كرمز لتحطـّم النفس .

ويؤدي هذا مباشرة إلى اثارة مسألة ايجاد سبل « أكثر ملاءمة » للطاقـة التطورية كما ويؤكد من جديد الفارق المميز بين العوامل الإنحلالية والعوامـل الخلاقة في النشاط الجنسي .

كتب بليك يقول :

حين ينغـّل الفكر في كهوف

فعندها يظهر الحب جذوره في أعماق الجحيم

وبمعنى آخر ، فإن الطاقات الحيوية المنهزمـة الفاشلة ستعبّر عـن نفسها في التدمير .

الا ّ أن ذلك يجب الا ّ يعمينا عن طبيعة هذه الطاقات . ولعل نيتشه هـو الوحيد من دون الفلاسفة الذي أدرك حقيقة هـذه الطاقات بعمق عظيم وشدد تشديداً تاماً على الدور الذي تلعبه . إن التركيب الإنساني كلـه تتلبسه إرادة تحقيق القوة ، وقد اعتبر نتيشه إرادة القوة هذه كأسمى الإرادات التي يمكن للبشر أن يمتلكوها . والنزوع الخارجي نحو السيطرة الإجتماعية أو السياسية هو

أقل مظاهر هذه الإرادة أهمية وأكثرها غباءً . ولقد بحثنا في الفصل السالف الإندفاع نحو « الإدراك الكلي » . والرجل الذي يحول هذا الإندفاع إلى سعي خارجي للسيطرة الشخصية ، هو مذنب بتهمة التغرير بالنفس وخيانة للذات لأن الطاقات الموجهة في الطريق الخاطىء ستدخل الآن في حلقة مفرغة من عدم التحقق والخيبة بحيث يتبدّد الإندفاع التطوري ويذهب سدى . والقوة أو السلطة هي اسم آخر لما وصفه وايتهد بـ « الكلية المطلقة للمتعة الذاتية » .

وقبل أن يمكننا إدراك مفهوم القوة عند نيتشه ، يجب علينا أولاً أن نرفض فكرة « القوة الخارجية » .. أي السيطرة على الناس الآخرين . وعندما نفعل ذلك يمكننا فقط أن نفهم الفقرة التالية فهماً تاماً :

« ما هو الشيء الجيد ؟ إنه كل ما يزيد الشعور بالقوة في الإنسان ، ارادة القوة ، القوة ذاتها .

« ما هو الشيء السيء ؟ كل شيء يولد من الضعف .

« ما هي السعادة ؟ الشعور بنمو القوة وبالتغلب على المقاومة .

« لا القناعة ، بل مزيد من القوة . لا السلم بل الحرب ، لا الفضيلة بل القابلية ... » .

(من « المسيح الدّجال » Antichrist القسم الثاني) .

أما بالنسبة لنظرية جوردييف عن « الرجل المتوازن » ، فإن السعي نحو القوة الجنسية هو مجرد خط واحد من الكفاح من أجل « تطور أسمى » . إن يأس الفلاسفة والغيبيين ينبع من إدراكهم لسيطرة « ميكانيكية التكرار » التي تحول دون النضوج الفكري أو العاطفي الجنسي . وإن على أي واحد فقط أن يقرأ أعمال هـ . ج . ويلز ليدرك مدى شهيته الجبارة للأفكار ومدى الحماس الحيوي الذي يتأجج فيه ، وهما شهية وحماس مماثلان في شراهتها لحماس دي ساد الجنسي . وحين يكون هذا النوع من الحماس ذا بنية عاطفية قوية فإنه يتجه إلى الدين أو الى نوع من المثالية الشاعرية مثل شاعرية شيلي ووردزورث وبليك . فإذا ما اطلعنا على حيوات هؤلاء الرجال أمكننا أن ندرك أن تجربتهم

« المثالية » مرهقة بقوة الحياة تماماً كتجربة دي ساد الجنسية ، بمعنى أنها كانت كالتجربة الجنسية غير كافية لإيصال أصحابها الى « الألوهية » . إن أثرها في « توسيع » الوعي قصير الأجل كالأثر الناجم عن بلوغ ذروة النشوة الجنسية ، والحماس التطوري في رجـــال كالآلهة Men Like Gods وبرميثيوس طليقاً يتحول الى احساس قاتم بفشل وخيبة كل الجهد الإنساني .

ومع ذلك فإن ما يتبقى من رواسب التجربة الفكرية أو العاطفية العظيمة هو بلا شك أكثر بكثير مما يتبقى من بلوغ ذروة النشوة الجنسية .

إن المعركة ضد « ميكانيكية التكرار » تحارب على أصعدة كثيرة . فالرجل الصحي والمتوازن تماماً (على افتراض أنه موجود فعلاً) سيشن حربه ضد « الطبيعة الجزئية للوعي » على جبهات كثيرة . (ومن الطريف أن ويلز وشيلي كانا يؤمنان بالتجربة الجنسية المتعددة ، وأن ويلز على الأقل مارس ذلك بعنف) .

وإرادة القوة النيتشوية ، تلك اللهفة الى الوعي الكامل ، تعبر عن نفسها على عدة أصعدة . لكنها في كل الأوقات سعي نحو التغلب على ميكانيكية التكرار . وفي مكان ما من الجهاز الإنساني يقبع مختبئاً ، نوع من الترمستات . وكما أن ترمستاتاً عادياً يوقف سخاناً عن العمل حين يتم بلوغ درجة حرارة معينة ، فإن ترمستات الوعي هذا ، يوقف الوعي عن العمل حين يتم بلوغ مستوى معين من القوة والشدة . إننا نأمل باستمرار أن يزداد فيضان وعينا ، الفيضان الذي يبدأ من إيحاء داخلي والذي يغزو العقل بشعور من « الآخرية » .. أماكن أخرى ، أناس آخرون ، تجارب أخرى ، وعلاقات جديدة بين أجزاء نصف منسية من هذه التجارب . لكن الترمستات يتدخل ويوقف العمل . إنه مثل مدبرة منزل شحيحة تحمل معها مفاتيح بيت المؤونة ولا تعطينا الا كميات ضئيلة من الطعام تكفي فقط لمنعنا من الوقوع في المجاعة .

اننا نحلم جائعين ، بتربيطها وسرقة المفاتيح لكي نأكل كل ما وكما يحلو لنا . أو إذا استعرنا تشبيهاً آخر (والإستعانة بالرموز والتشابيه في بحث من هذا القبيل

أمر لا غنى عنه) ، فإننا نحـــلم بالإهتداء إلى الإرادة الصحيحة التي تتحكم في بوابات سدّ الحيوية لكي نحوّل حيويتنا التي ترشح بقطرات واهيـــة عكرة إلى سيل قوي صاف من الوعي . ونوعية وعينا اليومي هو نوعية رديئـة بشكل لا يصدق . ويمكننا أن ندرك مدى رداءتها حين يقوم حافز معين أو تقـوم اثارة معينة بشحن وتقوية هذا الوعي لبعض لحظات .

(يقول المستر هكسلي بأن « المسكالين » وهـو نبات مهيج يتعاطاه الهنود المكسيكيون ، يؤدي إلى مثل هذا الأثر كذلك) .

نصف وجودنا عبارة عن عملية شعائرية رتيبة لا بد لها من أن تكون مثيرة . فبالنسبة لطفل مـــا ، فإن رحلة إلى الشاطىء تخلق فيـــه دفقات كبيرة من « الآخرية » ، وهذه الدفقات بدورها تخلق فيـــه احساساً داخلياً بوعي عظيم وقوي حين يشب ويبلغ سن الرشد . وفي الواقع إن وعي الإنسان الراشد هـو حسائي مائي مخفف وخبز شبه متعفن يبقيانه هزيـــل النفس و « مظلوماً » . وهـذا الغذاء الرديء هو الذي يحول بـــين الإنسان وبلوغ الألوهية . والوعي مرادف هنا للرؤية ، والرؤية تعني الألوهية .

فما دام الإنسان مغمماً ، وما دام وعيه يسيل في خط رفيع متقطع ، فإن الإنسان سيسير حتماً منحني القامة وسيعرض عـن التجربة لئلا تخطف منـــه مؤونته المزرية من الذاتية و « المتعة الذاتية » .

وبدلاً من أن ننظر إلى البشر على أساس أنهـــم مقسمون الى « طبيعيين » و « غير طبيعيين » ، الى فئة السويين اجتماعياً ، والى فئة المجرمين ، فإن علينـا أن ننظر اليهم على أساس أنهم داخلون في معركة من نوع واحد ضد ذلك السارق الأوتوماتيكي الذي يسلبهم كثافة وزخم تجربتهم ، والذي يقبع في جهاز الدماغ . والذين اصيبوا بهزيمة مريعة قد يصبحون مختلي الأعصاب لا بل ومجانين كذلك في الواقـع أو أنهم قـــد يقومون بمحاولة بليدة لأن ينتقموا لهزيمتهم بالالتجاء إلى العنف ومن ثم يصبحون مجرمين . ومن الأمور ذات الدلالة أن معظم المجرمين يمتلكون هذا الشعور الضال بالعداء .

إنه الشعور بأن « الدنيا مدينة لي بالحياة » أو « المجتمع دفعني إلى الجريمة » الخ . والطبيب النفساني الذي يفهمهم أن « العالم » و«المجتمع» هما من التجريدات المعنوية التي لا يمكن أن تكون مدينة لأحد بشيء ، كما ولا يمكنها أن تدفع أحداً الى أي شيء ، يكون كالذي يزيل الماء القذر من اناء ما بدون أن يستبدله بآخر نظيف . والمجرم محق في شعوره الداخلي المبهم بوجود عدو يعامله بإجحاف . وسيكون أقرب الى الحقيقة إذا ما قال إن « الحظ ضده » أو أن « الحياة ليست في جانبه » . إنه يتعرض للسرقة والضرب ، وخطأه يكمن في أنه يفترض بأن الناس الذين يبدون أكثر سعادة متحالفون مع الظالم المستبد .

وهذا هو السبب الذي من أجله يصبح الأشخاص غير اللائقين اجتماعياً مجرمين جنسيين في أحيان كثيرة جداً . فقد نجد أعذاراً لعامل يتضور جوعاً إذا ما أقدم على تحطيم زجاج متجر كبير لأن أصحابه وضعوا أسعاراً مرتفعة على بضائعهم تحكم عليه بالجوع . لكن المجرم الجنسي هو في كثير من الأحيان ، رجل في هذا الوضع بالذات . فميكانيكية التكرار تسلبه بحيث يجد نفسه مدفوعاً الى تعليق أهمية كبرى على الغزو الجنسي ، لكن السعر الذي يطلب منه أن يدفعه لقاء البضائع الجنسية التي يهفو لها أبداً هو سعر مرتفع بلا حدود. لذلك فليس من المستغرب أن يحاول نفر من الأقلية أن يحطم الزجاج ويأخذ البضائع بدون أن يدفع ثمنها من طاقته ومن قوة الإرادة .

وأود هنا أن أكرر بأن هذا التصوير للمخلوقات البشرية المستغلة والتي لا تملك أي حق ممتاز يقصد منه أن يفهم نسبياً . فكل « القانون » هو في ذات الوقت عملية صيانة وعملية حيف وإلى أن يصل البشر إلى درجة من القوة وتقرير المصير تجعل من المستحيل على الإنسان أن ينزلق إلى أسفل السلم التطوري ، فإن المرض الاصطناعي على تحمّل الشدة والظلم يبقى ضرورياً . فالرجل الذي يرغب في أن يتخلص من الضريبة العالية التي يدفعها من وعيه والتي هي ضمانة جهدنا المستمر ووسيلة صيانته يجب أن يبرهن على أنه قادر على تقرير مصيره وعلى مقاومة الانعكاسات التي تسبب الملل وتؤدي الى

أنهيار الهدف والمقصد .

ومع أن « القانون » قد يكون ضرورياً ، فإن صفته الكلية الجامعة تتضمن حتماً قدراً من الحيف . فكثير من الناس قد يكونون سعداء بالقدر الذي يسمح ضعفهم به تحت الضغط المستمر لعدم التحقق وبلوغ الهدف . والآخرون ، وهم الأكثر حساسية وذكاءً ، قد يكونون سعداء حتى « بالجسد وسخافته » (وهو تعبير للشاعر ييتس) الذي يقف سداً في وجه ضعفهم . لكن هناك كذلك أناساً ولدوا بعلل أو نواقص معينة ، وهؤلاء الناس مقضي عليهم بأن تبقى غرائزهم الحيوية في حالة من الجوع الدائم . إنهم أناس ما أن يدفعوا « الضريبة المرهقة على الوعي » حتى يصبحوا عاجزين تماماً عن اثبات أنفسهم . وفي بعض الأحيان يثور مثل هؤلاء الناس ويصبحون مجرمين جنسيين، وذلك للحصول على لحظات من ذلك الشعور النيتشوي بالقوة ، بالسيطرة على الوجود .

مثال طريف على ذلك ، يستحق الإهتمام هو القاتل الجنسي ديويت كلنتون كوك الذي وردت قضيته في كتاب دي ريفر .

كان كوك ، الذي أعدم وهو في العشرين من عمره يهاجم الفتيات بقطعة من الخشب ثم يغتصبهن بعد أن يفقدهن الوعي . وكان عضوه التناسلي من الضآلة بحيث أنه لم يكن يستطيع أن يشبع زوجته جنسياً ، لذلك فقد كان الإثنان يضطران إلى اشباع بعضهما البعض بالإسلوب الفموي. وقد كان كوك شاباً ضعيفاً يعاني من مركب نقص ملحوظ ، ويشك دي ريفر في أن قطعة الخشب التي كان كوك يلطم بها ضحاياه ربما كانت رمزاً للعضو التناسلي المنتصب . والطريف أن كوك كان يهاجم ضحاياه حين يكتمل البدر في السماء ، إذ كان يدّعي بأن منظر القمر كان يفقده القدرة على مقاومة الرغبة في الإغتصاب . ومن الواضح أنه كان رجلاً لم يكن يحسّ بالإنعتاق من مركب النقص إلا أثناء قيامه بإغتصاب فتاة غائبة عن الصواب .

وهناك حالة أكثر مطابقة لموضوع حديثنا في هذا المجال ، هي حالة جون ريجنالد هاليداي كريستي . فقد قتل كريستي ست نساء على الأقل في المنزل

رقم ١٠ ، شارع ريلنجتون بليس ، ناتنغ هيل جيت (منطقة في قلب لندن) ، خمساً منهن لغرض الإغتصاب . ومثل كوك ، كان كريستي يعـاني من شعور عصبي حاد بالنقص . وقد ولد كريستي في يوركشير من عائلة فقيرة عاملة ، وكان أبوه من الرجال الذين يعاملون أولادهم بقسوة فكتورية : وكانت أمـه تدلـّله لكن شقيقاته (وكانت ثلاث منهن أكبر منه سناً) كن يتسلطن عليه ويسخرن منه . وقد تبين عند دخوله المدرسة بأن ذكاءه أقل من المستوى العادي ، كما أنه كان لا يجيد الرياضة . ونظراً لكونه أقرب أخوته إلى قلب أمه فقد راح يستغل ضعفه كوسيلة لإستدرار العطف . وقد كان عرضة للمرض والتوعك باستمرار . وفي سن الخامسة عشرة قام كريستي بأول محاولة له في مضاجعة فتاة ، ولكنه فشل في هذه التجربة . وحـين شاع خبر محاولتـه الفاشلة أطلق عليه الفتية الآخرون نعوتاً وألقاباً تهكمية . وبعد عامين ، وفي وجه التحديد في عام ١٩١٥ ، تعرّض كريستي في فرنسا لحادثة انفجار . وكان من نتيجة الرعب الذي أصابه أنه فقد القدرة على النطق لعـدة أسابيع ، ثم أصبح لا يستطيع الا النطق همساً لسنوات عديدة . (ادعى كريستي أن الإنفجار أعماه ، لكن ادعاءه كان كاذباً فيما يبدو) .

وفي عام ١٩٢٠ التقى كريستي بفتـاة اسمها إثيل وتزوجها ، لكنهما لم يمارسا أية علاقات جنسية لمدة عامين بسبب عدم قدرته على الجماع نتيجة للعقدة التي أصابته منذ فشله الأول .

وقد كان كريستي مجرماً صغيراً له سوابق متعـددة مـع البوليس منذ صغره ، وكان حظـه سيئاً في أنه كان يضبط في جنح صغيرة ، كان غيره من الصبية الاصحاء يقومون بها بغير ان يضبطهم أحد . وفي سني مـا قبل العشرين فقد كريستي وظيفتين بسبب سرقات صغيرة . كما أنه بعد زواجـه أمضى سبعة شهور في السجن لسرقته حوالات بريدية أيام كان يعمل موظفاً في دائرة للبريد ، ولقيامه بعدد من الجنح الأخرى كلطمه امرأة على رأسهـا بمضرب كريكيت . وفي مطلع الحرب عام ١٩٣٩ أصبح شرطياً تابعـاً لقوة الاحتياطي الحربي ،

واكتسب شهرة في منطقة ناتنغ هيل بسبب قسوته مع مرتكبي الجنح البسيطة . وكان يستمتع بإرهاب المخالفين الى أقصى حد ممكن. ولمدة أربع سنوات استطاع ان يكتسب نوعاً من الشعور بالثقة في النفس لتمكنه من التحكم بجيرانه ، بل إنه أنشأ علاقة جنسية مع امرأة متزوجة كان زوجها جندياً في الحرب . وذات يوم عاد الجندي الى بيته فوجدهما معاً . فكان أن اعتدى على كريستي بالضرب.

يقول لودفيج كنيدي الذي كتب عن هذه القضية أن حادثة الضرب هذه هي في اعتقاده العامل الذي حوّل كريستي إلى قاتل جنسي . وقد دعا كريستي يوماً عاهرةً صغيرة السن الى بيته حين كانت زوجته في زيارة أهلها في شفيلد ، ثم قام بخنقها وبعد ذلك نكحها ودفنها في حديقة منزله الخلفية . وقد جاءت هذه الحادثة بعد ان ضربه الجندي بفترة قصيرة جداً . وبعد عام من ذلك ، أي في عام ١٩٤٤ ، قتل كريستي إمرأة ثانية . ولكنه استعمل هنا حيلة وجد فيما بعد أنها مفيدة جداً في افقاد ضحاياه وعيهن . فقد أقنع المرأة بأنه يستطيع أن يعالج التهاب غشائها المخاطي إذا هي تنشقت نشوقات طبية معينة من إناء خاص ، ثم أعطاها انبوباً خاصاً لتضعه في فمها ، وكان الانبوب موصولاً بمصدر الغاز . وبعد أن غابت المرأة عن صوابها جرّدها كريستي من ثيابها ثم اغتصبها ، وأثناء المجامعة خنقها حتى فقدت الحياة .

ومرت خمس سنوات دون ان يرتكب كريستي جريمة اخرى ، ربما يعود ذلك لوجود زوجته باستمرار في البيت ، أو لاعتقاده بأنه قد يفضح نفسه إذا ارتكب جريمة أخرى . أو ، وهذا هو الاحتمال الاكبر، **إن جريمتي الاغتصاب كانتا بمثابة عملية تطهير للنفس** ، وانهما أزاحتا عنه عبأ نفسانياً وخلفتاه أكثر رضاءً .. للوقت الحاضر .

لكن الإغراء تعاظم جداً عام ١٩٤٩ . فقد انتقل الى الشقة التي تقع فوق شقة كريستي زوجان في مقتبل العمر . وكان الزوج واسمه تيموثي إيفانز عينة سيئة جسدياً وعقلياً . فقد كان طوله خمسة أقدام فقط بالإضافة الى إصابته بالعرج . وكان عقله من الضحالة بحيث أنه لم يستطع أبداً أن يتعلم القراءة

والكتابة . أما زوجته بيريل فقد كانت جذابة وفي الثامنة عشرة ، وعندها طفلة صغيرة ، وفجأة اكتشفت بيريل أنها حامل مرة أخرة ، فأخبرت زوجها الذي قلق جداً وسعى الى كريستي يستشيره في الامر . فجـأة استفاق الجوع الجنسي في كريستي وانطلق عقله يفكر بسرعة ، فها هي الفرصة تتاح له للتمتع بجسد إمرأة شهية . وبدأ يحدث ايفانز بغموض عن قدرته في القيـام بعمليات الإجهاض . ونتيجة لذلك صعد كريستي ذات يوم في تشرين الثـاني عام ١٩٤٩ الى شقة بيريل لإجراء عملية إجهاض وانتهى بأن قتلها خنقاً واغتصبهـا . ومن المشكوك فيه فيما إذا كان كريستي ينوي حقاً ان يفعـل ذلك ، خاصة وأن معرفة زوجها بأمر زيارته سيؤدي الى اكتشاف أمره حتماً . وربما أنه كان ينوي ان يشبع رغبة فوبيرية فيه فقط ، وذلك بإفقادهـا الوعي لا أكثر ، بواسطة انبوب الغـاز الذي ابتكره ، وأن يمتع نفسه بها قبل أن تعود إلى رشدها . ويعتقد لودفيج كنيدي أن بيريل قاومت كريستي قبل أن تستسلم الى انبوب الغاز، وأن كريستي لطمها حتى غابت عن صوابها ثم اغتصبها لأنه كان في حالة مجنونة من التهيج الجنسي .

وما حدث بعد ذلك غير مؤكد . لكنه يبدو من المحتمل ان كريستي أبلغ ايفانز أن زوجته توفيت أثناء عملية الإجهاض ، وإنه ما لم يتكتم الأمر فإن كليهما سيحا كان بتهمة القتل . وعرض كريستي على ايفـانز أن يأخذ الطفلة الى بلدة أكتون حيث يضعها في رعاية بعض الأصدقاء . وبعد يومين من ذلك قتلت الطفلة خنقاً ، ومن شبه المؤكد ان كريستي كان هو القاتل . (كل ما عرف عن شخصية ايفانز يؤكد بأنه لا يستطيع ان يرتكب مثل هذه الجريمة ، فمع أنـه كان متأصلاً وذا خيال خصب في الكذب ، إلا أنه كان يتدفق حبـاً ووفاءً لعائلته) . ويبدو أن ايفانز كان يعتقد بأن طفلته ما زالت في أكتون . وبعـد اسبوع توجه ايفانز الى ويلز لقضاء بضعة أيام عنـد خالة له ، وفي الثلاثين من تشرين الثاني سلّم نفسه الى البوليس في ميرثرفيل قائلاً بأنه قتل زوجتـه . وهذا الجزء من القضية ما زال غامضاً !! فمع أن ايفانز اتهم كريستي في احدى

المرات بقتل زوجته إلا أنه عاد فسحب اتهامـــه حين أبلغ بأنهم قد عثروا على جثه طفلته . وقد سمح ايفانز لنفسه بأن يحاكم ويعدم ، وكان كريستي أحـد شهود الاثبات ضده .

بعد مضي ثلاث سنوات ، بدأ كريستي آخر حلقة في سلسلة جرائمـه وهي التي انتهت باعتقاله أخيراً . ففي أواخر عام ١٩٥٢ خنق زوجته ووضع جثتها تحت ألواح أرضية المنزل، لكي يخلو له البيت في أغلب الظن. وفي خلال الشهرين التالين قتـــل كريستي واغتصب ثلاث نساء أخريات ، كلهن فتيات في سن العشرين . ويبدو أنه استعمل اسلوب الاستنشاق لإفقادهن الوعي أولاً . وقـد خبأ جثثهن في خزانة منزلية غطـّاها بورق خاص من ورق التلصيق على الجدران ثم أخلى المنزل . وبعد أربعـــة أيام اكتشف مستأجر جامايكي الجثث الثلاث ، وعلى أثر ذلك تمكن البوليس من أن يكتشف جثة زوجـــة كريستي والهياكل العظمية الاخرى المدفونة في الحديقة الخلفية. ثم اعتقل كريستي وحوكم وأعدم. وقد كتب الشيء الكثير عن براءة تيموثي ايفانز ، ومما لا شك فيه ان قضية ايفانز ساهمت في ايقاف تطبيق عقوبة الإعدام في انكلترا عام ١٩٥٧ . (وحتى بموجب قانون الجنايات الجديد فان ايفانز سيحكم عليه بالموت لانه أتهم بإرتكاب جريمتي قتل « في مناسبتين مختلفتين ») .

لكننا هنا ولأغراض البحث الحـالي سوف نركز الاهتمام على جرائم القتل بالذات . فإن إقـــدام كريستي على قتل الطفلة جيرالدين ، بالإضافة الى سجل سوابقه الإجرامية ، يبينان ان هذه ليست مجرد حالة من حـالات « القتل الناجم عن الحبوط » بل يوجد هناك عنصر قوي من الخلق الاجرامي المتفسخ . وعامل الحبوط هو كذلك عامل قوي جداً بالفعل وهو يؤهل كريستي لأن يُعتبر قـــاتلا من صنف موسبراجر ، أي من الصنف الذي يحطم زجاج المتجر ليحصل على الطعام الذي ليس بمقدوره ان يشتريه لفقره . وحالة كريستي تمثل صراعاً بين عوامل المرض وعوامل الصحة . فقد كان كريستي يصاب كثيراً بحالات من وسواس المرض وبالإحساس العصبي بالنقص الذي يرافق تلك الحالات.

وتمرده على النقص كان استجابة صحية من قبل تركيبه العضوي ، لكنه مثل كل ثورات الإنسان الضعيف ، كان تمرداً عنيفاً جداً . وقد أدى هـــذا التمرد الى استبداده بالناس يوم كان رجل بوليس .

ولا شك أن ذلك كان نوعاً من الفصام العقلي (أي الشيزوفرانيا) . ويشير رولو ماي إلى أن الفصام العقلي هو فقدان الصلة « بالعالم الحقيقي » بسبب الخوف والإحجام عن مواجهـــة العالم بشرف ، وأن ذلك يتم اخفاؤه تحت شخصية مصطنعة ، وستار من المسوغات والمبررات العقلية ، تماماً كما يجري تغطية حفرة خطرة تغطية مؤقتة بلوح خشبي بدلاً من سدّها كلية . لكن الضغط والتـــوتر هما من الشدة بحيث يحتمل أن يؤديا إلى انهيار تام أو الى أشكال مختلفة من العنف. ويشير ماي كذلك الى أن حـــالات الفصام العقلي تزداد باطراد . وقبل خمسين عاماً كانت «الهستيريا» هي الحالة الشائعة والنموذجية بالنسبة للمحلل الفرويدي، أما اليوم فهذه الحالة هي الفصام العقلي .

وقد قضي على كريستي أن يصاب بالفصام العقلي بسبب ضعفه . فإستجابته للحياة كان عليها أن تكون امـــا إعراضاً عن الحياة وإما محاولة فرض نفسه عليها بالخديعة . (هناك أمثلة كثيرة على محاولاته في أن يتظاهر « بالأناقة » .. الخ . وعلى حدّ قول دنكان وب فإن كريستي استطاع أن يتزوج أثيـــل عن طريق التظاهر بـــأنه من طبقة الأثرياء) . ومع أن شهوته الجنسية كانت قوية – إذ أن شقيقاته قد أيقظنها فيه وهو في سن العاشرة على حـــد قوله – فإن وجله من النساء كان قوياً كذلك . ونتيجة لذلك تركب عنده الاتجاه المعتاد إلى الجنس الخفي وممارسته خلسة ، وهو الإتجاه الذي يلازم الصنف الذاتي الضعيف. ومن المحتمل أن كريستي كان فتيشياً، فقد كانت كل الجثث خالية من الكلاسين، كما أنه كان يحتفظ « بشِعْرةٍ ما تحت السُرّة » للنساء اللواتي اغتصبهن في علبــة تبغ . وبالنسبة لكريستي فإن الهدف الجنسي المثـــالي كان امرأة غائبة عن الصواب . وقد اعترف بالنسبة لبعض الحالات أنه كان يحسّ بشعور غريب من السلام والسعادة بعد عملية القتل والإغتصاب . بل وربما كان يشعر بالافتخار .

وكريستي إذا اعتبرنا أن « الحياة » قـد حكمت عليه بالحبوط والفشل . استطاع أن يتحدى الحياة وأن يتصرف تجاهها بإجتهاد ودهاء وحش بري وأن يشبع شهوة لا يمكن اشباعها كما كان يبدو . إن الحياة ارتكبت معه خديعة مريرة بأن جعلت منه رجلاً ضئيلاً ضعيفاً غير قادر على الدفاع عن نفسه ، رجلاً يخاف من مجامعة إمرأة صحيحة متطلبة . وهو قد رفض أن يبقى خاضعاً قابعاً تحت هذا القيد . ولأن المجتمع يعارض شهوته ، فقد نصّب نفسه حكما وقرر أن شهوته يجب أن تشبع بأية وسيلة كانت . وفي تلك اللحظة فلربما قد شعر بما وصف به شتيبنوولف شخصيته الأخرى ، أي بكونه وحشاً برياً شديد البأس. لقد هزمته الحياة وجعلت منه ضحية مدحورة ، لكنه كسب معركة واحدة على الأقل . فالرجل ليس دودة على كل حال ، فبالكفاية من القوة والقـدرة على الصراع يستطيـع أن يصبح إلـهاً. فالتحقيق الجنسي يستطيـع أن يوحّد الذات المنقسمة للحظات وأن يعيد إلى الإنسان إحساساً بالإنتماء والالتقاء مع الواقع والقوة.

وفي حالة كريستي يمكن لنا أن نتبين بوضوح العاملين اللذين تقوم عليهما الجريمة الجنسية : العامل الإنحطاطي التفسخي ، وعامل النزوع إلى التعـافي . فالسادية (المتمثلة في الحاجة إلى خنق النساء بعد نـكاحهن) وقتل الطفلة هما دليـل على فقـدان الإرادة والتحكم وعلى السماح للغرائز لأن تهوي الى درك المرض . لكن عمليات انتهاك الحرمات كانت محـاولة من كريستي لتعديل أو تقويم الحساب ، ولإكتساب تجربة كان يعتقد بأنها « حق » له ، وللهروب من الإستنقاع والتأسن الروحيين .

وهو لا يعني طبعـاً أن نقول بأن الجرائم الجنسية التي ارتكبها كانت « على حق » بطريقة ما ، بل القصد أن نقول بـأن هناك قوتين تعملان في اتجـاهين مضادين ، الأولى تسعى إلى زيادة المرض والثانية تسعى إلى التعافي . وإذا كانت الطبيعة البشرية سهلة كما تبدو ، أي أنـه إذا لم تكن الطبيعة تفرض « أتاوة » ضخمة على تجربتنا ، فإن إرتكاب جريـمة جنسية يمكن أن يكون خطوة في اتجاه الظفر ، في اتجاه الألوهية .

فالعصابية (النيوروسية) تتبدد مؤقتاً ، والحياة تهاجم وتهزم . فإذا ما اتخذ المجرم بعد ذلك موقفاً سارترياً من جريمته ، أي رفض التبرؤ من عمله والتصميم على أن يتطور الى أبعد ، فقد يؤدي ذلك إلى « المعافاة » . والموقف السارتري يتمثل تمثلا تاماً في دي فلوريس بطل رواية توماس ميدلتون المسماة « المتقلب » The Changeling الذي يقترف جريمة قتل لمجرد تهديد امرأة بمضاجعة . وحين يلقى القبض عليه يقول :

... غنيمة شرفها
كانت مكافأتي ؛ لا أشكر الحياة لشيء
إلاّ لتلك المتعة ؛ فقد كان عذباً جداً بالنسبة لي
اني شربت كل شيء ، ولم أخلف شيئاً
لأي رجل لكي يرتهني به ...

إن هذا هو الموقف الوجودي النموذجي من كل تجربة . إنه موقف الإنسان الذي لا يضيع أي شيء والذي يرفض أن يدفع الضريبة على التجربة بحيث أنه لا يحسّ فيما بعد بأنه تعرض لأي « غش » أو خديعة وذلك بعد أن نال المتعة التي كانت تبدو يوماً مرغوبة إلى أقصى حد . لكن أشخاص وأبطال الأعمال الأدبية هم فقط الذين يتجنبون دفع الضريبة إلى ذلك الحد . فإن رجلاً مثل كريستي قد يحسّ مثل « دي فلوريس » لبرهة وجيزة حين يشعر بالخواء التام من طاقة جنسية اختلطت بسّم الحبوط . وبعد خمس دقائق تطحنه جرأته الخاصة فيخاف ويرسم الخطط الكفيلة بالتخلص من الجسد ثم ينثني فيسمح للعدو الذي لفظه بعنف ، قبل برهة ، أن يعود .

وإذا ما قورن كريستي بقاتل سادي مثل نيفيل هيث فستتضح لنا الغاية من هذا التحليل مباشرة. فهيث هو نموذج لصنف المجرم الكازانوفي . فهو ضعيف الإرادة وسيم الشكل ، كذاب بالسليقة ، وهو رجل كانت عملية الإخضاع الجنسي بالنسبة له أمراً هيناً جداً . ومثل كازانوفا ، كان يحس بأنه فاشل في كل الأشياء فيما عدا الإغواء. وعلى هذا فقد كان يصب كل طاقاته الحيوية في عملية

الإغواء ، الأمر الذي كان يؤدي الى النتيجة المعتادة.. التفسخ.فالامتلاء وفقدان قيمة الأشياء يؤديان إلى نشوء الإنحرافات.وفي البداية تكون هذه الانحرافات — مثل ايذاء وإيلام الشريك الجنسي — نوعاً من التوابل لإضفاء مذاق طيب على العملية الجنسية ثم تتحول فتصبح هي الغاية الرئيسية من العملية الجنسية . وإذا تفحصنا قضية هيث — الذي قتل وشوّه فتاتين عام ١٩٤٦ — وتابعناها بدقة فلن نجد أي دليل على وجود رغبة أو نزوع لديه نحو الصحة والتعافي . فالجرائم التي اقترفها لم تكن محاولة يائسة للهروب من مرضه الخاص، بل كانت امعاناً وانجرافاً متعمدين في الجريمة من قبل رجل هو من الضعف بحيث انه فقد القدرة على أي احساس بالمعنى أو القصد .

وهناك حالياً اعتراف متزايد وإن يكن مبهماً إلى حدّ ما ، بهـــذا الفارق بين الجريمــة المتفسخة تفسخاً تاماً ، والجريمــــة المدفوعــة بالرغبة في الصحة . فالقضاة الذين رفضوا أن يستنكروا ويشجبوا روايتي « لوليتا » و « يوليس » كانوا يعترفون بأن هاتين الروايتين وإن كانتا تعبران عن ناحية غـير بهيجة من الجنس الا ّ أنهما على كل حال تعبران عن نوازع خلاقة وليس تفسخية انحطاطية. ومحاولة « علاج » المجرمين الذين تعتبر جرائمهم تعبيراً عن غضب عدائي للمجتمع هي كذلك اعتراف بأنه من المحتمل ردّ الطاقة الحيوية وتحويلها عــن مسالكها الهدامة . ولا شك أن الهياج العــام الواسع الذي رافق قضية تشيسمان كان مصدره هذا الشعور بالذات .

ولا شك أن هذه النقطة قد أصبحت واضحة للقارىء ، ومع ذلك فإنهـــا تستحق مزيـــداً من التفصيل لتبيان كل جوانبها ومضامينها . إن معظم الآباء والامهات في أيامنا هذه ، سيحجمون عن ضرب ابنهم الصغير إذا حاول خلع ثياب ابنة عمه مثلاً لرؤية جسدها ، بل سيعتبرون هذا العمل حــالة طبيعية من حالات الفضول التي ينبغي اشباعها .

وماذا عن التجربة الجنسية الخاصة بالضابط السابق «م» مع الفتاة المصابــة بالشبق الجنسي (أي الـمفومانيه) ؟ قد تختلف الآراء هنا ، لكنــه سيكون

هناك حتماً إجماع بين بعض الآراء على أن هذه التجربة هي في الغالب تجربة صحية . وينبغي هنا ان نلاحظ بأن الإحساس بالظفر الذي عبّر عنه « م » حين سرح بنظره في الغرفة التي تضم « الأجساد الملقاة » ليس بعيداً كلية عن احساس كريستي « بالسلام والسعادة » حين كان ينظر الى ضحاياه . فكلاهما يعبران عن اشباع وارضاء الرغبة في تحقيق الذات . ومرة أخرى ، فمع أنه من الصعب علينا ان نتصور أنه يمكن لكتابات دي ساد ان تنشر كاملة في البلدان الناطقة بالإنكليزية – ذلك أن تأثيرها سيكون بلا شك ضاراً – فإن دي ساد نفسه بات ينظر اليه على نطاق واسع ، بنوع من العطف والاهتمام ، وهو أمر يدلّ على ان هناك ادراكاً ما بذلك الخليط الغريب من القوى الخلاقة والتفسخية التي تحفل بها كتاباته .

لنلق نظرة على قضية « فيليكس وإدي » التي يوردها بكهارت كذلك . كان كلا الرجلين في العقد الثامن من العمر ، وقد قضيا أوقاتاً طويلة معاً . كان من عادتهما أن يجلسا على أحد المقاعد في أحد الأماكن العامة يتمتعان بالشمس ويتبادلان الحديث . واعتادت ثلاث فتيات صغيرات أن يلعبن قربهما . كانت الأولى في العاشرة والثانية في الحادية عشرة والثالثة في الرابعة عشرة . وكانت الأخيرة وهي اكبرهن غير مكتملة النمو العقلي لكنها كانت « مستيقظة » جنسياً . وكانت هي التي توجهت يوماً الى الرجلين المسنين وطلبت منهما بعض الحلوى ، وهي التي سمحت لأحدهما يوماً أن يجلسها على ركبتيه ويدللها لقاء اعطائها بعض الحلوى . وسرعان ما تطورت العلاقة إذ اصبحت الفتيات الثلاث يسمحن للكهلين بأن يجلساهنّ في حضنيهما ويتحسساهنّ ، وفي بعض الأحيان يجردانهنّ جزئياً من بعض ثيابهن لقاء الحلوى . وقد اشتبه بعض الجيران يوماً بما يحدث . وقاموا بتبليغ القصة للبوليس الذي قام باعتقال الرجلين وقدمهما للمحاكمة . (لسبب أو لآخر ، حكم على أحد الكهلين بالسجن عشرين عاماً وعلى الآخر بالسجن ثلاثة أعوام) .

ومع ذلك ، كما يقول بكهارت ، فإن فداحة جريمتيهما تعتمد كثيراً على

وجهة نظر . فالدلائل تشير الى أن الفتاة ذات الأربعة عشر عـاماً تتحمل على الأقل ذات القدر من المسؤوليـــة بالنسبة لتنمية العلاقة وتطويرها . فهي التي أقنعت البنتين الأخريين باتباع حذوها . أما دور الكهلين فيمكن تشبيهه بدور الرجل الذي يشتري بضاعة مسروقة بثمن بخس جداً لا يمكنه مقاومة اغرائه . وإن أي أرمل في سن السبعين ، من المحتمل جداً أن يقبل أي عرض بمضاجعـة فتاة صغيرة جذابة .

ولو وقعت هذه الحادثة في الهند أو مراكش بدلاً من نيويورك لما حرّك أحد ساكناً . ومع ذلك فإن الرجلين قد اقترفا جريمـــة بالفعل وذلك بأن ساعدا على إفساد البنات الصغيرات الثلاث ، وفي هذه الحالة يمكن تسمية عملهـــما « بالإنحراف » . وقد يحسّ الإنسان بأنه ها هنا يكمن الخط الفاصل بين الطبيعة والشذوذ ، بين الجريمة والقانون .

فإذا كان على الفارق بين « الشذوذ » و « الطبيعية » أن يعني شيئاً ، فإن عليه بلا شك أن يمـاثل بصورة قوية الفارق بين العوامل الخـــلاقة والعوامل الإنحطاطية في الجنس . وقـــد كان تولستوي محقاً في شجبه للخيانات الزوجية السائبة بين أفراد الطبقة الإرستقراطية المصابين بالسأم . فالسأم والتفسخ يكادان يكونان مترادفين . لولا أنـــه لا يمكن بحث قضية التفسخ أو التطور في النطاق الجنسي وحده ، **لأن هذه القضية هي قضية تليولوغية أو غائية**[1] . وذلك يعني أنه يجب طرح قضية الإنحراف الجنسي بأكملها باسلوب جديد . وبموجب هذا الأسلوب تصبح المسائل التي كانت ستكون غير ذات علاقة بالنسبة لفرويد – وكذلك بصورة أكيدة بالنسبة لعلماء النفس « العنصريين[2] » مثل ميـــل وسبنسر – تصبح ضرورية لتـــطوير الموضوع . وباختصار ، هناك حاجة إلى « سيكولوجية وجودية » تكون ربما أعمق وأوسع من سيكولوجية بنسوانجر

١ – نسبة إلى Teleology التي تسمى بالعربية الفلسفة الغـــائية أي فلسفة البحث عن غايات الطبيعة .

٢ – نسبة إلى المذهب القائم على نظرية الجوهر الفرد والعنصر .　　　　المترجمان .

وزملائه . وسيجري بحث ذلك بالتفصيل في الفصل الأخير . يمكن القول بمعنى ما ، إن كان كريستي أقل « شذوذاً » من الفتيشي رودني شايرز .

صحيح أن كريستي كان ينفر من الجماع « العادي » إلا أنه على الأقل بقي في حاجة إلى جسد الأنثى[1] . أما رودني شايرز فكان ينال متعة ورضاء كاملين من الثياب الداخلية ، وهو أمر أكثر ابتعاداً عن « الطبيعية » . وكلا الإنحرافين ينبعان من الحاجة إلى تلافي الإتصال الشخصي مع المبتغى الجنسي . وعلى ذلك فلا يمكن اعتبارهما مجرد نتيجة لوهن الدافع « الطبيعي » ، إذ أنهما محاولة لبلوغ تجربة جنسية مختلفة نوعاً وليس بمجرد درجة أو قدر .

وهذا الدافع يبلغ حـــالة معينة من التطرف في « النكروفيليه » أي حب الأجساد الميتة ، أو تفضيل الجماع الجنسي مع الجثث. وقد اشتبه في أن كريستي كان « نكروفيلياً » لأنه أقر بأن ولعه المريض بالموت بدأ عندما شاهد ، وهو طفل ، جثمان جده وهو يُعدّ للدفن . غير ان صحة ذلك مشكوك فيها، ولكن ليس من غير المحتمل أن يكون كريستي قـد أبقى بعض الجثث في البيت لبعض الوقت قبل أن يخفيها وان يكون قد تعاطى الجماع مع الجثث .

ومع أنه يجوز دون شك اعتبار « النكروفيليه » عملاً شاذاً ، الا أنهـــا لا تنتج بالضرورة من دافع نكروفيلي معـــين . إن الرغبة والفضول الجنسيين قد تبلغان درجة كبيرة من القوة في أي شاب . فإذا أعطي الفرصة فإنه يقبل بالجماع الجنسي مع جثة بنفس الروح التي قام بها الفريد باكر، آكل لحوم البشر الأميركي

---

١ ــ أورد الدكتور فرانسيس كامبس ، الذي عمل في قضية كريستي ، افتراضات تستحق الإهتمام . فقد اكتشف آثار سائل منوي في تدريزة بعض أحذية كريستي ، وفسر ذلك بأنه كان من عادة كريستي أن يمارس العـــادة السرية وهو واقف . (وربما كان يقف على أو فوق أجساد ضحاياه) . وقد دفع هذا الإفتراض الدكتور كامبس إلى افتراض آخر وهو إن كريستي لم يكن ينوي قتل النساء حين كان يفقدهن صوابهن ، بل كان جل ما يبغيه هو أن يمنعهن من مقـــاومة ممارساته أو من افقاده الرغبة الجنسية عن طريق توجيه طلبات فعلية له بفعل كذا وكذا. وكانت جرائم القتل تتم خوفاً من العواقب بعد أن كانت الضحية تعود إلى رشدها وتتهمه بالإغتصاب . ولعل هناك بعض الصحة في هذه النظرية .

الشهير ، الذي أكل رفاقه في البرية .

يقول دي ريفر : « النكروفيلي إنسان مصاب بجنون دوري . إن شهوانيته هي على وجه التأكيد ذات صفة منحرفة وشاذة » . وهـذا الحكم هو حكم مجرد جـداً . فقصيدة لورنس Manifesto تكشف عن « شهوانية شاذة » وكل من جويس وولف يقران بشهوانيتهما الشاذة في روايات منسوجة حول شخصيهما. والظن هو ، أن كل شاب سليم البنية والصحة عنده شهوانية شاذة.أما الإعتراض الثاني على قول دي ريفر فهو أن النكروفيلي ليس بالضرورة رجلاً يمارس عملاً نكروفيلياً ، بل إنه قد يمارس ذلك كأفضل بديل .

وعلى كل حـال فإن « شذوذاً » يطلق عليه اسم « النكروفيلية » هو شيء موجود فعلاً ، وإن دراسة هذا النوع من الشذوذ ستساعدنا على توضيح عـدة نقاط تتعلق بطبيعة الدافع الجنسي .

وقبل كل شيء علينا أن نفرق بشكل أكيـد بين النكروفيلي الحقيقي والشخص الذي يصادف أن يكون قـد مارس النكروفيلية . يورد دي ريفر حالة أعتقـد أنها تنتمي إلى الفئة الأخيرة ، كان المتهم فيها طالباً جامعياً في الحادية والعشرين من عمره، أنهى دراسته وصار يعمل في معرض للجثث المجهولة. وكان الشاب الذي يرمز إليه دي ريفر بـ « د . و » يشعر بالخجل أمام الفتيات، كما أن تجاربه الجنسية كانت تكاد معدومة أو سلبية قبـل اقدامه على اقتراف أعمال الشذوذ . فقد وقع الشاب في حبّ فتاة في السابعة عشرة من عمرها ماتت بالسلّ بعد فترة ، ولم يضاجعها إلا مرة واحدة . وقد أثاره جسدها المسجى في التابوت حينما رآه . وتهيج جنسياً .

كان يريد أن يصبح طالب طب لكن نفقات دراسة الطب كانت أكثر مما يتحمّل فاضطر إلى أن يختار تعلم تحنيط وتعهّد دفن الجثث كبديل للطب. ومن نتيجة ذلك وجد نفسه منجرفاً في ممارسة النكروفيلية مع الجثث ، خاصة حين كان يخلو لوحده مع الجثث في الليل . (يجب ملاحظة أن تعاطي الجمـاع مع جثة هامدة أمر مرهق وغاية في الصعوبة نظراً لأن العضلات تكون جامدة .

لذلك فقد كان يكتفي بالجماع الفموي) .

والحادثة التي أدت إلى اعتقاله كان سببها جثة فتاة في الخامسة عشرة من عمرها . فقد أثارته جثة هذه الفتاة إلى درجة أنه شرب قليلاً من دمها ثم أولج أنبوباً مطاطياً في قناتها البولية وشرب بعض البول الموجود في مثانتها. ثم أحس برغبة في أن يأكلها فقضم قطعة من ردفها ثم ارتكب معها الجماع الأستي « الجماع الخلفي» وقد أدين « د . و » في المحكمة وأحيل إلى مستشفى للمجانين .

ومع ذلك فليس هناك في أدلة الإتهام ما يثبت أن « د . و » كان معتوهاً أو نكروفيلياً حقيقياً . إن فكرة تعاطي علاقات جنسية مع جثة قد تثير اشمئزاز وقرف معظم الرجال ، لكن معظم الرجال لا يحسون بأي نفور من « غرابة » امرأة حيّة ، في حين أن طفلاً حساساً قد يجد أن فكرة الجماع الجنسي برمتها ، فكرة قبيحة و « غريبة » كأكل البراز مثلاً . فالموضوع إذن هو موضوع مدى أو درجة القابلية عند الشخص وموضوع القبول بمجامعة جسد غريب . وأي مراهق سريع التهيج سيقبل ، إذا ما أتيحت له الفرصة ، أن يجامع أية فتاة جميلة يصادفها . (في احدى الحالات في شيكاغو ارتكب فتى في التاسعة عشرة يدعى صمويل هرايشوك ما يقرب من سبعين عملية اغتصاب قبل أن يلقى القبض عليه. وهناك قليل مز المراهقين من لا يحس بقدر من الحسد لما حظي به صمويل وإن كانوا سيجدون ما ارتكبه منفراً) . والقيام بأعمال جنسية مع نساء عاريات لا حول لهنّ ولا قوة – حتى وإن كنّ جثثاً هامدة – هو دلالة على الجوع الجنسي العنيف أكثر منه دلالة على الشذوذ . وهذه الحالة التي نحن بصددها الآن تبين لنا بوضوح أكثر من المعتاد التفسير الجائر لكلمة « الإنحراف » . إن الانحراف الجنسي ينظر اليه على أنه « ضد الطبيعة » ، ولكن كيف يمكن اتهام « د . و » بأنه تصرف ضدّ الطبيعة ؟ هل إن قيام انثى القرد بضم وليدها الميت اليها هو عمل « ضد الطبيعة » ؟ الجواب الواضح هو لا . والأمر مناف للمجتمع ليس إلا لأنه آجلاً أم عاجلاً ، لا بد أن يزعج الجيران. وفي هذه الحالة ينبغي اذن تفسير الشذوذ على صعيد الإزعاج الإجتماعي.

وبالإضافة إلى كونها بعيدة عن منافاة الطبيعة ، فإن معظم الإنحرافات الجنسية هي في الواقع غلطة الطبيعة نفسها .

والطبيعة تلام بإعتبارها مهندساً رديئاً يخرّب السفينة بسبب كمية تافهة من القطران . وإذا كانت الطبيعة أكثر كفاءة ، فإن التكوين الجنسي في الانسان لن يعتمد على غريزة واحدة. كل الأغراض معرضة إلى أن تصاب بالخلل بسهولة، وستكون الغرائز الجنسية مرهفة وانتقائية وذات دقة محكمة . وإذا كان هدف الطبيعة هو التطور عن طريق المدنيـــة ، وكان المؤرخون على حق في اعتقادهم بأن انهيار وزوال الحضارات القديمة قد عجّل بها الإنحراف الجنسي ، فيمكننا اذن أن نتهم الطبيعة بنوع من الخديعة والتلفيق اللذين يؤديان في النهاية إلى قهر هدف الطبيعة نفسه .

إن مغزى حالة « د . و » – وعلى الأخص العمل الذي أدى إلى القاء القبض عليه – ليس له إلا علاقة ضئيلة بالنكروفيلية . فمن الواضح أنه وجـــد النسوة الميتات صالحات جـــداً للهدف الذي أشار إليــه دي بروين في مستهل الفصل الرابع ، ومؤداه أن الدافع الجنسي هو شيء فوري وأنه يود في أشد حــالاته عنفاً أن يتخطى الحواجز والعراقيل التي تمثلها الشخصية . وقــد يتحدث شاعر مثل تيرنر بمثالية رومانسية عن « الأجساد التي تنصهر في لهب واحد » ، لكن هذا القدر من العاطفة الجنسية المحضة يــكاد يكون مستحيلاً بالنسبة لشخصيتين إنسانيتين . وقد استطاع « د . و » أن يحصل عملياً على ما تحدث عنـــه تيرنر نظرياً فقط . فالرغبـــة في شرب بول فتات أو أكل لحمها تكشف عن اندفاع جنسي عــارم عنيف ، عن اختفاء معنى « الأنا وأنت » (أي الازدواجية) ، وبالإختصار عن عدم وجود « الغرابة » .. وهي حالات ومشاعر نادراً جداً ما تتحقق للناس الذين يمارسون الجمــاع الجنسي « الطبيعي » . إن كون « د . و » قد اختار أن يقوم بالنكاح الأسي بدلاً من النكاح العادي ، يجعل ما أقوله أكثر وضوحاً . ولورنس الذي تحدث عن « ينبوع الظلمـــة » كان سيفهم ذلــك . و « د . و » يستطيع أن يباهي بأنه تمكن من خلال « انحرافه » أن يقترب من

« التجربة الجنسية ذات المتعة الكلية المطلقة » أكثر مما يمكن لمعظم الناس أن يصلوا اليه في حياتهم .

وهذه نقطة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لتحري قضية طبيعة الدافع الجنسي . وينبغي لنا ان ندرك بوضوح أن هذه الاعتبارات لا تثبت أن انحرافات مثل النكروفيلية والفتيشية (التي تمتّ اليها بوشائج قوية) هي بطريقة ما « مفضلة» على ، أو حتى مساوية لعملية الجماع العادي (كما قد يقول أندريه جيد) . بل إن هذه الاعتبارات تشير فقط الى صدق الفكرة الأساسية في الفصول السابقة وهي ان عملية الجماع الجنسي متشابكة مع الحدود الغريبة التي تقيد الوعي الإنساني الى درجة أن عملية جزئية أو منحرفة قدتصل الى حالة شعورية عارمة وزخمة كتعبير عن « المركز الجنسي » ... نادراً ما يمكن تحقيقها في عالم التصرف « الطبيعي » الذي هو عالم اكثر تعقيداً .

ويتضح ذلك بدرجة أكبر حين نتفحص الحالة التي تعتبر الحالة الكلاسيكية في النكروفيلية ، وهي حالة الجاويش برتراند التي يوردها هيرشفيلد (نقلاً عن ايبولار) . وصحيح أن هناك نزعة سادية في برتراند قد تؤدي الى التباس في القضية ، ، الاّ أن مراجع القضية تعطينا صورة واضحة بشكل غير عادي عن انحراف برتراند . وبدون أدنى شك فإن برتراند « نكروفيلي حقيقي » ، وهو بذلك يتميز عن شاب مثل « د . و » (الفارق بينهما واضح كالفارق بين فيتشي حقيقي مثل هايرنز والمثال الذي أورده نلسون الغرين في Wlak on the Wild Side في الفصل الخامس) .

ومن المؤسف ان تاريخ حالة برتراند ليس كاملاً كما أورده ايبولار ، وهو أمر متوقع نظراً لأنه اعتقل في ١٩٤٩ ، قبل نشوء التحليل النفسي بكثير .

ولد برتراند عام ١٨٢٢ وبدأ يكتسب ميولاً جنسية قوية بصورة غير عادية وهو لمّا يزل في سن الثامنة . ففي تلك السن كان يمارس العادة السرية وهو يتخيل أنه يعذب وينتهك فتيات عاريات . وقد تكون ساديته مرتبطة بضيق خلقه وبفورات تبرمه وقلة صبره . وكانت نزعة الطفل العادية لتحطيم الاشياء

أقوى من المعتاد عنده ، وعندما كبر لم يكن باستطاعته الإحتفاظ بغليون أو بوسى صغيرة لأكثر من يوم ، ذلك لأن الرغبة التي كانت عنده لتحطيم الأشياء، كانت عنيفة جداً ، وحين كان يسكر كانت تتملكه رغبة جامحة لتحطيم كل شيء يقع في متناول يده . ومع ذلك فقد كان جندياً صالحاً مولعاً بالاناقة ، كما كان كاثوليكياً صالحاً ويكره الكلام القذر . أما مواقفه من النساء فقد كان شهماً للغاية . وكان برتراند ناجحاً في علاقاته الغرامية ، وكانت له عشيقات كثيرات من القرويات كنّ كثيراً ما يتحدثن معه عن رغبتهن في الزواج منه .

وفي سن الرابعة والعشرين بدأ يعامل الحيوانات بطريقة سادية . ومع ذلك فإن الأمثلة التي يوردها ايبولار كقتل الكلاب وانتزاع أحشائها، لا تدل على سادية حقيقية . فإن قتل الكلاب يدل أولاً على أن إلحاق الألم ليس هو الدافع أو الهدف ، بل الدافع هو اشباع حبّ التحطيم فيه .

ويصف برتراند أول عهده بالنكروفيلية في أعتراف أدلى به عندما كان في الخامسة والعشرين :

« في الظهيرة ذهبت في نزهة مع أحد اصدقائي ، وسرنا مسافة طويلة ، وحدث أننا وجدنا أنفسنا بالصدفة قرب مقبرة الحامية ، ولاحظت قبراً نصف ممتليء ، فاعتذرت لأتخلص من صديقي وتركته ثم عدت الى القبر بعد فترة . وتملكني تهيج عظيم ، ورحت أزيل التراب من على القبر بمعول متناسياً أنني أفعل ذلك في واضحة النهار ، وان أحداً قد يراني . وحين رأيت الجثة ، وكانت جثة امرأة ، أصابتني حمّى مجنونة ، ونظراً لعدم وجود أداة أخرى ، أخذت في ضرب الجثة بالمعول . وقد أدى عملي هذا الى إحداث ضجة كبيرة لفتت انتباه عامل كان يعمل قرب المقبرة فترك عمله واقترب من البوابة . وحين أبصرته ألقيت بنفسي الى جانب الجثة ورقدت ساكناً لدقائق . وبعد قليل ابتعد العامل بحثاً عن شرطي ، فوجدتها فرصة لأهيل بعض التراب على الجثة ، ثم غادرت المقبرة عن طريق تسلق السور .

«وجلست ساعات في دغلة صغيرة وأنا أرتعش وأتصبب بالعرق البارد وأحس

انني كالمشدوه . وحين أفقت من شبه الغيبوبة هـذه أحسست كأن جسـدي كله قد لطم بقسوة ، ورأسي يأكله الوهن » .

وفيا بعد قام برتراند بنبش القبر بيديه ثم بقر ومزّق بطن الجثة .

ومن يومها اعتاد ان ينبش القبور مرة كل اسبوعين تقريباً ، وأن يترك العنان لرغبة التحطيم فيه ، بأن تمزق الجثث . وقـــد أعترف بأنه كان يمارس العادة السرية أثناء قيامه بهذه الأعمال وبعد فترة طويلة من الإمساك والإمتنـــاع عن مثل هذه الممارسات ، قام في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٧ بنبش جثة فتـاة في السادسة عشرة وراح يعاملها لفترة ربع ساعة وكأنهـــا جسد عشيقة تنبض بالحياة .

وقد وصف ذلك بقوله :

« أستطيع ان أصف ما شعرت به آنذاك . ولكن متعـــاتي مع النساء الموجودات على قيد الحياة لا تعتبر شيئاً بالنسبة لذلك . قبلت الفتاة في كل مكان وضممتها الى قلبي كما لو كنت أريد أن أسحقها ، وباختصار فعلت معها كل مـــا يمكن لعاشق ولهان أن يفعـــل مع عشيقته . وبعد أن تمتعت بالجسد لمدة ربع ساعة ، قطعته الى عدة أجزاء ، ثم جرياً على عادتي مع الجثث الأخرى انتزعت احشاءها » .

وقد نمت هذه النزعة فيه وتحولت الى نزعة جارفة حتى أنه في آذار (مارس) ١٨٤٨ أعاد الكرة مع جثث أربع أناث ، ولكنه هذه المرة استعمل سكينـاً لتشويه وتقطيع الجثث . وكان هدفه من ذلك الا يترك جزءاً من الجسد بدون أن يمسه . « كنت أريد أن أقضي عليهن كلية » .

واستمر برتراند في علاقاته الغرامية مع بعض الفتيات القرويات حتى وهـو منغمس في ممارساته هذه ، وكان يرضيهن تماماً . ولعل أحـــد الملامح الطريفة للقضية هو عنف وقوة النزعة النكروفيلية التي كانت تتملكه ، الى درجة أنه اضطر مرة ان ينبش خمس عشرة جثة قبل أن يهتدي الى جثـة انثى مناسبة . وفي مرة ثانية أطلق عليه الرصاص وهو يتسلق أحـد الأسوار ، لكن ذلك لم

يردعه . كما أنه كان يخرج في الليالي الثلجية باحثاً عن المتعة ، بل إنه في احدى الليالي الشتائية سبح عبر بحيرة صغيرة واستلقى دون حراك لمدة طويلة بثيابه المبللة حين سمع أصواتاً وحركة .

وقد قبض على برتراند في النهاية عن طريق فخ . وذلك بأن سار عفواً ، على شريط موصول بزناد بندقية ، فأصيب بطلقة نارية . وبعدها بقليل حكم عليه بالسجن لمدة عام واحد ثم « اختفى » على ما يبدو بعد انتهاء مدة الحكم واطلاق سراحه .

ومن الواضح أن حالة برتراند تختلف جداً عن حالة « د . و » . فمن زاوية معينة لم يكن برتراند نكروفيليا حقيقياً لأن الغريزة الأساسية فيه كانت هدامة محضة . وهذا يثير عدة تساؤلات . كيف يمكن تفسير هذا الدافع التخريبي ؟ إن كثيراً من الأطفال تتملكهم نوازع تخريبية ، لكن هذا شيء طبيعي ، ذلك أن الطفل يصرف وقتاً كثيراً في كبح جماح مجموعة من النوازع الحيوانية المختلفة لكي يليق بالمجتمع المتحضر. عملية التخريب هي رمز لتصريف الطاقة الديونوسية . ولهذا السبب فإن الأطفال يتلذذون أكثر من الكبار في مشاهدة الحرائق أو الفيضانات ، كما أنهم يتمتعون بتحطيم الزجاجات أو النوافذ . أما الإنسان الراشدفإنه بمعرفته الأعظم للعالم المادي يرى أن الحياة هي مشكلة اشاعة وضغط النظام بالرغم من ميل الطبيعة نحو الفوضى . ولكن الرغبة في التحطيم تضعف عادة حين ينمو الطفل ويكبر . فالحياة تتطلب منه المقدرة على التنظيم والخلق ومن ثم فهي تزيد من احترامه للتنظيم . أما النزعة التخريبية أو الفوضوية فهي تلازم في العادة الأشخاص غير المكتملين عقلياً أو الذين تخضعهم الظروف جوراً لنفوذ وتسلط قاهرين .

إن إيبولار لا يقدم لنا من التفاصيل ما يكفي لتوفير قاعدة أكيدة يعتمد عليها في تفسير أو تحليل العنصر التخريبي في برتراند . ولا شك أن عالماً نفسياً فرويدياً كان سيخرج من استعراضه لطفولة برتراند بمجموعة من « الأحداث المـَرَضيّة » تفسّر نوازعه .

ومهما تكن الأسباب ، فإن برتراند لم يتخل أبـــداً عن تخريبيته الطفولية حتى بعد أن كبر وبلغ سن الرشد . لكنه كان فيما يبدو رجلاً ذا خلق جيـــد بحيث أنــه لم يكن في مقدوره أن يقسو على أي إنسان واعٍ ، ومعارفه من الرجال والنساء أجمعوا كلهم على تأييد ذلك. فإذا كان ايبولار دقيقاً وعلى حق في قوله بأن برتراند بدأ في ممارسة العادة السرية في سن الثامنة (أي قبـــل خمس سنوات على الأقل من معظم الأولاد) فقد يجوز أن نموه الجنسي وتخريبية الطفل الغريزية فيه تداخلا بحيث أصبحا فيما بعد متلازمين ومترابطين في عقله. وكرجل ذي خلق حسن كان يشعر بالرعب والاشمئزاز من فكرة قتل وتعذيب نساء على قيد الحياة ، لذلك فإن الشيء المثالي للتنفيس عن نوازعــه الجنسية التخريبية هو جسد امرأة ميتة . وينبغي ملاحظة أن برتراند كان يختلف عن « د . و » بمعنى أن إهتمامه الرئيسي كان تشويه وتقطيع الجثث وليس مجرد اشباع الرغبـــة الجنسية العادية .

كان موقف برتراند من « ضحاياه » قائماً على الكراهية ، أما موقف «د . و» فكان بلا شك قائماً على الحب كما تكاد آخر حادثة ارتكبها ، تبين لنــــا . وأهم جزء من شهادة برتراند هو وصفه لمشاعره بعد محاولته الأولى في النكروفيلية : « ... أرتعش وأتصبب بالعرق البــــارد وأحس أنني كالمشدوه » . فالكوابت وضبط النزعات التخريبية انهارت كلها كالسد حين توفرت له الفرصة فجـــأة في اشباع هذه النزعات . وقـــد انفجرت هذه النوازع المكبوتة بقوة هزته بعنف وسلبته كل حذره المعتاد ، بحيث أنه راح يضرب الجثة في احدى المرات بمعول، جالباً إلى نفسه الانتباه . وكل الأدلة تبين أن برتراند كان يُصعق بنوازعـــه الجارفة ، ولكنه كان يغتبط في ذات الوقت لإدراكه أن هناك امكانية لتحقيق الذات بصورة أعمق مما تهيـــأ له . ويتضح ذلك في قوله : « .. كل متعاتي مع النساء الموجودات على قيد الحياة لا تعتبر شيئاً بالنسبة لذلك . » فقد كان الوعي الجزئي يكتمل لبرهة ، كانت الشخصية المنقسمة تتحد وتتلاحم .

وليس هناك مكان للشك في أن برتراند كان «سادياً قاصراً أو فاشلاً» اذا صح

التعبير وأمكن تصوره . لكنه من المهم كذلك أن نتأمل ادعاءه ، بأن نوازعه السادية بدأت في التلاشي بعد عمليته الجنسية التخريبية الأخيرة التي تمادى فيها في التشويه أكثر من أي وقت مضى . وقد تكون تلك طبعاً حالة مؤقتة فقط. لكنه يحتمل من الناحية الأخرى بأن برتراند الذي كان قوي الإرادة ومتديناً ، بذل جهداً أكيداً لكبح جماح ميوله الانحلالية ، وربما أنه كان يتبع نظرية بليك التي تدعو إلى طرد « القوى السوداء » عن طريق افساح المجال لها كاملاً .

إن الطابع المنفر لهذه الحالات تجعل من الصعوبة بحثها بتحليل متجرد . وحين يقول بليك بأنه من غير الصحيح أن « الخير من الروح والشر من الجسد » وأن « الطاقة أو القوة هي غبطة أزلية » ، وإن الكبت والخيبة هما أصل كل الشرور ، فإنه يمكننا أن نقبل بالمضمون النظري لهذه الكلمات بدون أن نبصر نتائجها العملية . ولكن أفكار بليك يمكن تطبيقها عملياً على أمثال برتراند و « د . و » بل وكذلك على أمثال كريستي . إن الإنسان لا يمكنه أن يتطور وهو يتصارع مع شخصية منقسمة . وكل الشرور هي نتيجة الحبوط والخيبة والنشاط غير المتزن والسليم « للمراكز » . (بليك يشير إلى هذه المراكز برموز ميثولوجية مثل أوريزن ولوفه وثارماس الخ .) فإذا سُمح للطاقة أن تنطلق إلى الخارج بصورة طبيعية وبدون قمع ، فإن « الشر » يصبح مستحيلاً . وعمليات القمع تؤدي إلى نشوء « قرح » نفسية ، جيوب سمّ غريبة ، ينبغي استئصالها . وأول نتائج عملية الإستئصال قد تكون كريهة ومريعة ، مثل استئصال قرحة أو ثبرة جسدية ، لكنها ضرورية . ذلك أن النتيجة الأخيرة هي تعافي الجهاز العضوي .

وهذا كله بالطبع يحدث إذا كان الرجل يملك « شجاعة آثامه » ولا يسمح للعملية الإنحطاطية أن تسيطر عليه عند ارتخاء ارادته . ويبدو محتملاً أن بليك لم يكن يدرك قوة « ميكانيكية التكرار » وبالتالي فإن تأدية الكوابت والموانع قد يؤدي إلى الإنحطاط .

ومع ذلك فإن سيكولوجية بليك هي في كثير من النواحي أكثر نفوذاً من

السيكولوجية التي نطبقها على « الجانين المجرمين » . فقد أدرك مثلاً أنه مـــا لم يكن الإنسان قادراً على معالجة نفسه ، فلن يستطيع أن يشفى .

إن علم النفس يساعد طبعاً ولكن علم النفس نفسه يقوم على تناقض أساسي ، لأنه لا يمكن أن يكون هناك علم للنفس الحيّة يسعى إلى أن يعـــالج النفس كما يعالج الكهربائي أجهزة الراديو .

في جزء من « هكذا تكلم زرادشت » عنوانه « **المجرم الشاحب** » ، يتحدث نيتشه عن مجرم حكم على نفسه بنفسه **لأنه يحتقر نفسه** . « ما هو هذا الرجل ؟ إنه كتلة من الأفاعي نادراً ما تنعم بالراحة من بعضها البعض ... » . لذلك فإن زرادشت ينصح القضاة بأن يحكموا عليه بالموت لأنـــه هو نفسه حكم على نفسه . وهذا هو الحكم الذي كان نيتشه سيطلقه لو أنـــه شاهد كريستي يقف في قفص الإتهام . لكن العكس صحيح كذلك: فالمجرم الذي لم يـدن نفسه – تشيسمان مثال بارز على ذلك – « قابل للشفاء » دوماً لإن إرادته تسعى بنشاط نحـــو توحيد الذات .

وهذه الإعتبارات تؤدي بالبحث الى تعقيدات عجيبة . فالأصناف العصبانية المختلفة التي تحدثنا عنها في هـــذا الفصل حاولت أن تؤدي وتمارس نيوروسيتها لكي تفجر كوابتها . وهذه النيوروسية كانت نتيجة لظروف غير عادية . فحين أصبح برتراند نكروفيلياً فإن استجابته لضغط نيوروسيته منحته تجربة عارمة فاقت كل ما خبره من قبل . لكننا ها نحن نفكر ونحكم مرة أخرى كأن هناك « نسقاً » أو « نهجاً » جنسياً . ولا شك أن استجابة برتراند كانت غير طبيعية وخاضعة لعملية تأثير تقوم بهـــا قوة نيوروسية تخريبية غريبة . ولكن هل من الممكن أن نؤكد بأن عملية تأثير ما هي شيء « طبيعي ؟ » . ويبدو من المحتمل أن عملية التأثير التي خضع لها « د . و » كانت طبيعية ، وان عنف رغبة المراهق الجنسية فيه ، وانهيار بعض العقد والروادع عن الموت (الذي نتج عن مشاهدته لفتـــاة عاشرها وهي مسجاة في تابوتها) ، هما اللذان قاداه الى النكروفيلية . إن افتراض دي ريفر بأن « د . و » كان إلى حـــد ما ، مصاباً بالجنون ، وإن

جنونه هذا تسبب عن تأثره بموت حبيبته ، يهمل امكانية أن يكون « د . و » قد مارس عمدية غير واعية ، لكنها على كل حال عمل اختياري ، في كل مرحلة من مراحل « مرضه » . فقـــد قام مدفوعاً برغائب معينة ، بعمل اختياري في موقف محدود . وقد ننتقد تفسيره لإحتمالات هذا الموقف التي أدت به الى ذلك العمل الاختياري ، لكنه من العبث أن ننتقد العمل الاختياري هذا من وجهة نظر « نهج » مثالي ما .

ومع ذلك فإذا أدى هذا العمل الاختياري إلى جريمـــة قتل سادية ، كما هو الحـــال في قضية كورتن ، فليس هنــاك بديل من أن ننتقدها من موقف « اطلاقي » . ومن الممكن أن نقيم فارقاً بسيطاً هنا فنقول إن « حكماً أخلاقياً » يصبح نافذاً إذا اشتملت العملية الجنسية على اعتداء ، على حقوق شخص آخر ، كما هو الحال بالنسبة للإغتصاب أو القتل . ويمكن تشبيه ذلك بمـــا قاله أحد الإنكليز لرجل فوضوي ادعى لنفسه الحق في أن يلكم أنف الإنكليزي المذكور: « حقوقك تنتهي حيث يبدأ أنفي » . لكن ذلــك يصبح تجنباً للموضوع ، ذلك أنه بينما يمكن لقوانيننا أن تقرر بأنه يحق للواطيْين راشدين أن يجامعـــا بعضهما بالتراضي ، فإنه لا يمكن لنا أن نقرر على هذا الأساس بأنه يجب تحليـل النكروفيليه لأنها لا تسيء إلى أي إنسان .

بإختصار نحن مطالبون بتفسير « للطبيعية » في نطاق العمدية . هـــل من الممكن أن نستغني عن الأحكام الخلقية وعن النسق الاجتماعية وعن الحديث عن الجنون وسلامة العقل ، ونتوصل مع ذلك الى نظرية معقولة ومتماسكة عـــن الجنس يمكنها أن تنتقد العمدية التي تؤدي الى السادية والنكروفيليه ... الخ ؟ إذا كان ذلك ممكناً ، فإن العلاقة بين نظرية العمدية الجديدة هذه وسيكولوجية فرويد ستكون مماثلة للعلاقة بين نظرية اينشتاين النسبية وأحكام نيوتن الطبيعية ، أي أنها لن تكون نفياً ، بل ستكون امتداداً ضرورياً لملاءمة حالات ومشاكل جديدة . وعلينا أن ندع بحث هذه الإمكانية الى الفصل الأخير .

اللواط :

هناك صنف معين من « الانحراف » لا أنوي أن أتحدث عنه طويلاً في هذا الكتاب ، إلا وهو اللواط (الذي أدخل ضمنه كذلك ما يسمى بالـ Transvestitism أي تفضيل بعض الرجال ، ارتداء الملابس النسائية) . وذلك لأن دراسة اللواط لن تضيف شيئاً متميزاً جديداً على النظرية الوجودية للإنحراف التي أحاول أن أرسمها .

فاللواط من دون كل الانحرافات الجنسية ، فيما عدا الكازانوفية ، هو أسهلها فهماً .

بادىء ذي بدء فان الحد الفاصل بين الذكر والانثى مطموس وغير واضح . وقد أدرك الجمهور العام ذلك بوضوح أكثر في السنين الأخيرة بسبب الدعاية الكبيرة التي أحيطت بها حالات « التحوّل من جنسٍ إلى آخر » . فإذا كان من الممكن للرجال والنساء أن يتحولوا من جنس الى آخر ، فمن المعقول إذن أن توجد فئة كاملة من الرجال الذين هم **بصورة جزئية نساء** ، والنساء اللواتي هن بصورة جزئية رجال. فهذه قضية غدد وهرمونات، وليست قضية « شذوذ ».

يذكر دونالد وبستر كوري في كتابه « اللوطي في أميركا » (١٩٥٣) ، The Homosexual in America بأنه لم يكن يدرك معنى الشذوذ الجنسي اللواطي لما يقارب العامين بعد تجربته الأولى ، في الانجذاب نحو رجل آخر . وهو يتحدث عن حيرته أمام هذا الشعور فيقول :

« لم أتعلم أبداً أن هناك رجالاً ينجذبون الى رجال آخرين . ولم يحدث أن أحداً حاول أن يغويني أو يغريني » .

وعلى ذلك فإن اللواط بالنسبة لشخص مثل كوري هو شيء طبيعي وإن أي شكل آخر للحياة هو أمر لا يخطر على البال .

إلاّ أن دي ريفر يعتقد أن نسبة صغيرة فقط من اللوطيين تنتمي إلى هذه الفئة ، أي فئة الرجال والنساء الذين يمكن إرجاع ميولهم اللوطية إلى تحولات غددية . لكننا حتى إذا افترضنا صحة ذلك ، فليس معنى ذلك بالتالي أن كل

الفئات الأخرى من اللوطيين مسؤولة ارادياً بطريقة ما عن أذواقها وميولها .

إن قضية «الضريبة على الوعي»تكمن وراء اللواط وكل الانحرافات الأخرى. فالذي يبدو هو أن مقدرة « جهازنا الشعوري » قد تمّ الإضرار بها عن تعمد . وهذه واحدة من التعميات القليلة التي يمكن لإنسان ما أن يطلقها عــن الطبيعة الإنسانية بثقة . ويظهر أن هناك حركة اقفــال أوتوماتيكية ، أداة تشابه «الترمستات » متصلة بوعينا . بحيث أنه حين يشتكي الشعراء من عــدم مقدرة الانسان على العرفان ، ومن قصر ذاكرته بشكل سخيف ، ومن أن الطمــع يلتهمه ومن أنه غــير قادر على أن « يعدّ بركاته » ويشعر بالسعادة ، فانهــم يلاحظون بذلك عمل الجهاز الذي أدّى الى بناء الحضارة، كما انهم يلاحظون عمل الجهاز الذي يؤدي الى كل الانحرافات. **ان الاحساس بالاثم هو العنصر الرئيسي في الدافع الجنسي** ، أو بمعنى أكثر اعتدالاً ، **إن العنصر الرئيسي للجنس هو الاحساس بالتعدي على خصوصية شخص آخر ، والاحساس بالتخلي عن شخصية الانسان المنفصلة .**

فحين يتم الاتصال مع شخص آخر تكتمل الدائرة الجنسية مؤقتاً . لكن الإحساس بانجاز شيء ما يضمحل ، ويصير استمرار نجــاح العلاقة معتمداً على مــدى تمكن الشخصين من الاحتفاظ بذلك الشعور المتبادل من « الغرابة » . وبالنسبة للصنف الكازانوفي من الرجال ، فإن الغرابة تضمحل حتماً ولا يمكن تجددها الاّ مع شريك جنسي جديــد . وبالنسبة للآخرين فان الانحرافات الجنسية الصغيرة مثــل « اللعق أو اللحس » والنكاح الأسقي أو غـيرها من الأساليب ، تساعد على مقاومــة فقدان العاطفة الجنسية القوية . إن عملية « المضائل » أو « المخمّد » هي المسؤولة[1] . » فالانحراف هو محاولة للتحايــل

---

١ ـ التشبيه مستعار من الفيزياء الذرية . فالمواد الذرية المخزونة تحتوي على « مضائلات » أو (مخمدات) ، وهي نوع من المعدن الممتص الذي يمكنه أن يبطيء التفاعلات أو حتى أن يوقفها كلية في حالات الطوارىء ، ويمكن مقارنة ذلك بأجهزة اخماد النار الاوتوماتيكية الموجودة في المخازن التي تحتوي على بضائع قابلة للإشتعال .   المؤلف

على المضائـــل . ويمكننا أن نتفهم اللواط بسهولة بمجرد أن ندرك بأن تأثير المضائل هو ان يوهن الدافع الجنسي ويجعله غير واثق من هدفه . فجسد شخص من نفس الجنس هو على كل حال شيء « خصوصي » كجسد شخص من الجنس الآخر ، وانتهاك خصوصية الأول عـن طريق النكاح له ذات الفعالية كانتهاك خصوصية الثاني . فإذا مـــا اعتبرت « اللحس » لحس الرجل لمهبـل المرأة ، واللعق ، لعق المرأة لذكر الرجـل » والنكاح الأستي ، محـــاولات لاسترداد الغرابة وتجديد الزخم العاطفي في الإتصال الجنسي ، فإنه يمكن إذن ادراك أن اللواط قد يُقبل به كالخطوة المنطقية التالية .

اللواط يتحول بسهولة إلى « نسق » ، خاصة إذا ما كانت الإثارات الجنسية المبكرة مرتبطة بشخص من نفس الجنس .

يروي فرانك هاريس عـــن أيام دراسته كيف أن عرفاء المدرسة كانوا يختارون الصبية الأصغر ليكونوا خنثاء لهم[1]وكيف كانوا يمنحونهم امتيازات معينة . ويصف هاريس كيف أن عريف قاعة النوم التي كان ينام فيها هو ، كان يستعمل الزبدة كمادة ملينة مع محظيّيه . وهكذا يرى بأن الجماع في مثل هـذه الظروف مع صبي أصغر قد يصبح الى حد كبير رديفاً أو بديلاً للإثارات الجسدية والنفسية التي تصاحب مضاجعة فتاة ، بما يرافقها من عوامل التسلط والانتهاك الخ ، وأنـــه ما أن يتأكد هـذا النسق ويثبت حتى يصبح استمراره في سني الحياة اللاحقة أمراً سهلاً . والخنيث قد يسعى فيما بعـــد الى اجتذاب الرجال الذين يرضون بانتهاكه ... وهذا الميل قد يتحول بسهولة الى مازوكية ، في حين أن الشريك الفعال قد يستمر ربما في انجذاب الى الرجال المخنثين .

وعلى هـــذا فإن اللوطي يصبح حتماً أكثر استعداداً من غيره للإنزلاق في انحرافات أخرى . فالعلاقات اللوطيـة تنحو الى ان تكون أكثر عرضية وأقل ثباتاً من العلاقات بين جنسين مختلفين . يذكر كوري أنه على الرغم من عزمـه

---

١ – مفردها « خنيث » أي الغلام الذي يتخذه الرجل محظياً جنسياً له ، كما كان شائعاً منذ سنين طويلة ، في بعض المناطق العربية . (م.م.)

في كثير من الأحيان على الجهر برغائبه وعلى أن يعيش «حياة كاملة مليئة بالإتحاد مع ذكر آخر » إلا أنه وجد من الصعوبة تحقيق روابط حب دائمـــة في عالم اللواط . صحيح أنه توجد هناك « قرانات وزيجات دائمة بين اللوطيين » لكنهـا ليست كثيرة او شائعة . وحين تتكرر وتتبدل العلائق الجنسيـة بين اللوطيين لمدة طويلة ، يحل هنـاك نوع من الرتابة وتنشأ الحاجة الى التنويـع ومن ثم الى « تجارب » جديدة .

يورد مارك .ي . آدامز في كتابه « The Sexual Criminal in prison » « المجرم الجنسي في السجن » حالة مثالية على ذلك :

أعلن « د. ج » أنه مارس أول تجربة جنسية في حياته وهو في سن العاشرة حين نكحه رجل كان يسبح معه في نفس المكان . وبعد ذلـك أغواه حلاق ، وقد جعله الحلاق ينتظر حتى غادر آخر زبون الصالون ، ثم اقترف معه العمليـة الجنسية بينما كان « د. ج » منحنياً على كرسي . وبدأ « د. ج » بعدها يحس بميول انتحارية وعولج في احدى العيادات لتخليصه من اللواط ، لكن عبثاً . ثم عاش في نيويورك مع رجل علمه اللعق وكان يستعمل معه « ذكوراً » اصطناعيـة ، بل وكذلك الخيار والجزر . وسرعان ما بات « د . ج » يفضل أن يجامعه أكثر من رجل واحد في نفس الوقت . وقد القي القبض عليه فيما بعد لاغتياله لوطيـاً كان يهوى أن يولج في أسته خضاراً متنوعة ومقابض المكانس وحتى زجاجـة البيبسي كولا . وكان آخر مذلة فرضها عليه ذلك اللوطي هو أن أولج فيـــه ثقالة ، وقد استعمل « د . ج » الثقالة لقتل الرجل .

ويمكن لنا هنا أن ندرك مدى دقة الملاحظة التي أدلى بها دي ساد وهي أن اللاتمييز الجنسي يؤدي إلى الشبع والسأم اللذين يؤديان بدورهما الى وسائل اثارة أعنف وأكثر تطرفاً .

ولإختصار مـا تقدم نقول إن اللواط ، كباقي « الانحرافات » الأخرى ، هو محاولة لتعويض عدم القدرة المريع للوعي الانساني . وفيما يتعلق بكونه « مرضاً » ، فإنه عبارة عن تلوّي مخلوق لا يملك من الحرية إلاّ النزر اليسير .

أما ما إذا كان يجب اعتباره مرضاً ، فهذا سؤال مفتوح ، لأنه مثـــل الدين ، محاولة من قبل الإنسان لتحسين نوعية الوعي الرديئة التي مُنحها . وهناك فارق هام واحد بين اللواط ومعظم « الإنحرافات » الأخرى ، فإن اللواط قلمّا ينشأ عن تشويه الدافع الجنسي من قبل « إرادة القوة » .

فالسادية والفتيشية والنكروفيليه تنبع كلها من شكل من أشكال « عقدة الإغتصاب » ، وهي تقوم على حاجـــة الفرد إلى أن يفرض نفسه على الشريك الجنسي (أو بديله) . وهــذا ليس صحيحاً اجمالياً بالنسبة للواط (مع أن السحاق ترافقه دوماً الرغبة في التسلط) . وهو ليس صحيحاً كذلـك بالنسبة لحالة تفضيل بعض الرجال ارتداء الملابس النسائية .. وهذا هو السبب الذي من أجله صنّفت هذه الحالة ضمن اللواط بدلاً من الفتيشية (مع أنها تشتمل بوضوح على عناصر من الشيئين) .

إن محللاً نفسانياً كان قد تقبل اسطورة افلاطون عـــن الجنس على اعتبار انها صحيحة رمزياً ، قد يقول ان الرجل الذي يفضل الملابس النسائية يحاول ان يوحّد في ذاته عنصري الذكر والأنثى اللذين قد يكونان انشطرا بصورة اصطناعية لأغراض التناسل ، وان العملية هي محاولة توحيد « النفس المنشطرة » والافلات من عواقب « الخطيئة الأصلية » . وعلى كل حال فهذه التكهنات بعيدة بشكل غير ضروري عن موضوع البحث الرئيسي . (قيـــل مراراً إن تفضيل بعض الرجال ارتداء الملابس النسائية هو بصورة جزئية « مرض إجتماعي » نظراً لأن النساء لا يتهمن بالشيء ذاته حين يرتدين ملابس كالرجال) .

المجتمع اللوطي :

يلقي الدكتور إفلين هوكر (من جامعة كاليفورنيا) ضوءاً هامـاً في بحث كتبه بعنوان « المجتمع اللوطي» The Homosexual Community على جانب مهمل من اللوط يتعلق « باللواطي الطبيعي » الذي يعيش حياة اجتماعية عادية ويعتبر نفسه عضواً في المجتمع اللوطي . وقد أجرى الدكتور هوكر أبحاثه في

لوس انجلوس ويمكن لذلك اعتبارها مثالاً على أية مدنية كبيرة في العالم .

يمكن تقسيم اللوطيين الى ثلاث فئات :

هناك اللوطي المنفرد الذي قد يشعر أن انحرافه « مرض » يجب أن يستره بعناية وحذر ، ومن ثم فهو يشعر بأنه « غريب » . لكن غالبية اللوطيين هم من الفئتين الأخريين :

فئة « المتزوجين » (وهي الرابطة الدائمة المنتظمة إلى حد كبير بين اللوطيين) . وفئة « العابرين » وهذه الفئة الأخيرة ربما كانت أكبر الفئات الثلاث . والدليل أنه يوجد في لوس انجلوس حوالي (٦٠) باراً مما يسمّى بـ Bars « Gay » [1] . وحين طلب من أحد اللوطيين أن يُعرف كلمة « Gay » أجاب بقوله :

« ان تكون Gay هو أن تذهب إلى البار وتطالع الوضع وتنظر وتنظر وتنظر ، وتقضي متعة ليلة واحدة، **وهي الا تحب أو تحب حقيقة بالمرة** ، وأن تعرف ذلك بالفعل وتفعله ليلة بعد ليلة وعاماً بعد عام » . (التشديد مني) .

ويصف الدكتور هوكر « الوضع » في هذه البارات :

البار هو أولاً سوق للجنس . يقف اللوطيون فيه ويتحدثون .. وينظرون . و « النظرة » هنا شيء هام . يلتقي زوجان من الأعين ، ويتفحص أحدهما الآخر لبرهة وجيزة . وقد يخرج الرجلان بعد عدة دقائق معاً وبصورة عابرة ، وفي بعض الأحيان لا يتبادلان الحديث أبداً . وبعد عدة دقائق أو ساعات سيتم اللقاء الجنسي بينهما ، وقد يفترقان ويذهب كل واحد منهما على حدة ، الى بارات أخرى ، وقد يقضيان الليلة معاً .

يقول الدكتور هوكر : « يعزى اللاتمييز عند اللوطي الى تكوينه النفسي .. الديناميكي ، بما في ذلك « نرجسيته » التي تمنعه من اقامة علاقات عاطفية مستديمة » .

---

١ – كلمة « Gay » بالانكليزية تعني « مرح » ومرادفاتها . أما هنا فهي ذات دلالة خاصة بين اللوطيين . المترجان

أما اللوطيون الذين « يتزوجون » فهم ينسحبون عادة من مثل هذا النشاط لكي يحافظوا على علاقاتهم . وقد يعيشون في « ضواحي اللوطيين » التي تتكون من شوارع وعمارات سكنية يقطنها اللوطيون (مع أن الجيران قد يجهلون ذلك) . إن سلوك اللوطي العابر يمكن اعتباره مثالاً على الكازانوفية التي عولجت في الفصل الثاني ، لولا أن سؤالاً طريفاً يطرح نفسه هنا : إلى أي حد يمكن اعتبار هذا السلوك « غير طبيعي » ؟ .

يقول الدكتور هوكر :

إن العلاقات بين اللوطيين هي أكثر عرضية واتفاقية من العلاقات بين الجنسين ، لأن الجنس له وزن أكبر بالنسبة للمرأة ولأن المرأة معرضة للخسارة أكثر بكثير من الرجل ، إذا ما مارست سياسة اللاتمييز .

ويمكن القول كذلك ان النساء يملكن ميلاً غريزياً أقوى نحو الاستقرار والأمان بسبب تكوينهن الأمومي . لكن في هذه الحالة لا تكون العلاقة بين الرجل والمرأة « طبيعية » بمعنى أن هذه العلاقة ستكون نتيجة محرمات وعقد خوف قد يجدها الرجل تعسفية . والمرأة هي التي تفرض هذه القيود والمحرمات لكي تسيّر الغرائز الجنسية « العابرة » عند كل الرجال الى تيارات ضيقة من التقبل الاجتماعي .

وهناك كثير من النقاط التي يمكن اثارتها ضد وجهة النظر هذه . فالمجتمعات التي انجرفت فيها النساء في مواقف عابرة اتفاقية من الجنس هي مجتمعات متهاوية . أضف إلى ذلك أن الجنس العابر الاتفاقي وعدم الاستقرار العقلي غالباً ما يكونان متلازمين على ما يبدو . وسبب ذلك واضح . فالعلاقات الجنسية العابرة لا تخلّف شيئاً وراءها ، وحين تنتهي ينشأ هناك شعور بالعودة الى نقطة البداية من جديد . وكلما تكرر ذلك أكثر ، كلما إزداد تجرده من أي معنى. وبالنسبة لأي شخص عنده استعداد تلقائي لإيجاد « معنى في الحياة » فإن الجنس العابر الاتفاقي بكثرة سيخلق فيه يأساً انتحارياً ، لأن مثل ذلك الجنس سينمي فيه باستمرار الشعور بأنه قد خدع بنجاح ، بأنه قد بذل قصارى جهده

ليفهم شيئاً تسرب منه وتوارى . وقد تحدثنا عن هذه المشكلة في الفصل الثاني .

وإذا كان اللواط قد احتل ، حتى الآن ، مكاناً بارزاً في الكتب التي تعالج قضية الانحرافات الجنسية ، فذلك لأنه كان يُقرن في القديم بالامور الاجتماعية المنبوذة ومن ثم فقد تحوّل الى أحد مسببات النيوروسية . وانه لمن الصعب على لوطي في يومنا هذا أن يدرك مدى العذاب الناتج عن الشعور بالذنب الذي كان يلازم أشخاصاً مثل تشايكوفسكي أو شوبرت ومدى الآلام التي كانوا يتحملونها لإخفاء ميولهم اللوطية . ومنذ ظهور أندريه جيد جــاهر كثير من الكتاب المعروفين بميولهم اللوطية بدون أية ردود فعل كريهة أليمة . ومع أنه مــن المعترف به عموماً أن بعض الشرور الاجتماعية المرتبطة باللواط (مثــل افساد القاصرين الخ ..) يجب أن تظل محظورة قانونيــاً وعرضة للعقاب ، فإن الانحراف الجنسي لم يعد يعتبر دليلاً على الإنحراف الأخلاقي .



الفصل السابع

السادية والعقلية الاجرامية

الوجودية وفئاتها . الوجود الزائف ، سوء القصد الخ .
قضية بييدانيل احـدى قضايا الاغتصاب السادي . قضية
ستاشي . فرويـد . جون كوبر بويس والسادية . قضية
كورتن . نظرية فرويد عن رغبـة الموت والعدوانية .
الدافع الجنسي لدى الحيوانات . نظرية جيشتالت. احدى
قضايا البهيمية . البديـل الوجودي لفرويد . ملاحظات
حول منع الجريمة الجنسية .

تطرح السادية أمام التحليل الوجودي أكثر المشاكل تعقيداً .

وعلينا هنا أن نبدأ بالتمييز بين السادية الحقيقية والسادية – المازوكية . إن السادي الحقيقي يشعر نحو ضحيته بما يشعر به الرجل نحو قطعة لحم مشوية قبل أن يلتهمها . أما السادي – المازوكي فهو « ينتمي » إلى ضحيته ، إلى حد ما ، ويتفاعل معها . إنه يؤلم نفسه أيضاً ، لكنه يتمتع بالألم . والسادية – المازوكية ليست صعبة الفهم . فأقل الناس مازوكية يعرف أنه يمكن « التمتع » بالألم إلى حدّ ما . والأطفال يتمتعون بتحريك أسنانهم المخلخلة ، مع أن ذلك يؤلمهم بعض الشيء . فالألم منبّه ومحرك على جرعات صغيرة .

ويمكن تعريف السعادة – أو المتعة – بأنها تعميق الوعي وتبديد بلادة حواسّنا . كما يمكن تقسيم المتعة الجسدية إلى نوعين : محرّك ومسكّن . فمتعة أكلة دسمة هي متعة مسكّنة ، في حين أن متعة تحريك وشد العضلات بعد الإستيقاظ من النوم ، هي متعة محركة ، إذ أنها عبارة عن نوع من تصريف الكهرباء الإحتكاكية (أو الساكنة) المخزونة في العضلات. والمازوكية مرتبطة بهذا النوع الأخير من المتعة . فتصريف « الكهرباء الساكنة » هذه يبدو وكأنه يصفّي الذهن والحواس . وإن درجات صغيرة من الألم ، كالألم الناتج عن القرص أو الصفع الرقيق ، يمكنها أن تؤثر على عملية التصريف هذه . وحين يعتاد الإنسان على القرص أو الصفع ، فإنه (أو إنها) يصبح قادراً على تلقي «جرعات» أكبر من الألم . ونظراً لأن المتعة الجنسية هي كذلك نوع من تصريف الكهرباء الساكنة ، يصبح من السهل علينا أن ندرك كيف يمكن لمحرّض الألم أن يرتبط بالجنس . وفي بعض الحالات طبعاً فإن الذي يلتمس الألم يتصرف عن دافع جنسي ليس بالضرورة سادياً .

يروي هيرشفلد أن مربية ما ضبطت صبيين وهما يمارسان العـــادة السرية، فضربتهما على قفاهما . وقد صرح أحـــد الصبيين يصف شعوره بعد ذلك قائلاً : « لقد ألهب كفـّها مؤخرتي كالنـــار ، لكن اللهب كان في الوقت نفسه يلسعني بشكل لذيذ . وقبل الضرب لم تكن العادة السرية تمثل هذه اللذة ... وقـــد لاحظت فيما بعد أن يدي المربية كانتا أثناء الضرب ، الذي أصبح عقاباً منتظماً، تتسللان إلى ما بين فخدي وتمكثان هناك برهة ما . لذلك كنا نفرح بالضرب ، وحين انتهى زمن ذلك أخذنا نحنّ إليه » .

إن كل ما حدث هنا هو أن المربية قد وجدت عذراً للمشاركة في لعبة الصبيين الجنسية بحجة تأديبهما [1] .

وهناك حالة أخرى مفادها أن معلـّمة « كانت ترتـّب ثيابها بطريقة معينة بحيث أنه حين كنـّا نصفع على قفانا ، كنا ندفع بأيدينا داخل ثيابها ونتحسس ثدييها اللذين كان إرتجاجها يعطينا لذة ممتعـــة . وقد سعى كثير من الأولاد إلى استحقاق العقاب بالجلد لممارسة هذه اللذة [2] » .

وفي كتـــاب Crime and the Sexual Psychopath ، نشر دي ريفر صورة كانت بعض المومسات توزعها على محبي الجلد ، والصورة تمثـل معلمة تلبس تنورة قصيرة ، وهي تؤدب صبياً ، وقد وضعت احدى قدميها على كرسي . وقد أخذت الصورة بشكل يوحي بـأن أعضاء الصبي التناسلية ملتصقة بأعضاء المعلمة التناسلية [3] .

وفي كل الحالات يتضح أن « السادية » هي الحجـّـــة الأساسية للحصول على المتعة الجنسية . ويروي هيرشفلد حـــالة أخرى تلقي مزيداً من الضوء على ذلك[4] . فقد طلبت أرملة شابة من صديق أن يؤدب ابنتيها البالغتين من العمر

١ – الصفحة ٣٠٩ من Sexual Anomalies And Perversions London Encyclopedic Press الناشر

٢ – المرجع السابق ، صفحة ٣٦٧ .

٣ – ص ٦٣.

٤ – ص ٣٦١ .

١٤ عاماً و١٢ عامــــاً لسوء تصرفها . وفي البداية كان على الإبنتين أن تنزلا كلسونيهما فقط عند الضرب ، لكنه فرض عليهما فيما بعد أن تتجردا من ثيابهما كلية ؛ وحين رفضت كبرى الفتاتين أن تتعرى أمام « صديق العائلة » سمح لها بأن ترتدي بنطلون سباحة ، قصيراً جـداً ، أحمر اللون ، يكاد يستر أعضاءها التناسلية . وكانت عملية التأديب تتم بحيث أن الفتــاة كانت تستلقي على ظهرها فوق احدى الأرائك ، وكانت أمها تمسك برجليها وتثنيهما نحو رأسها . وكثيراً ما كانت الأم تسمح للبنطلون بالإنزلاق بحيث يمكن للرجل أن يرى مهبل الصبيّة». وبعد ذلك كانت الأم تطلب من « مستشار وصديق العـائلة » أن يضربها هي . وكان الرجل يفعل ذلك ، ولا يشير هيرشفلد مــا إذا كان الصديق والأم قـــد أصبحا عشيقين فيما بعد . ومرة أخرى ، يمكننا أن نرى هنا أن عامل السادية ربما كان موجوداً أو غــير موجود . فالضرب كان حجة لإقامة نوع من العلاقة الجنسية بين الأطفال والكبار . لكن من الواضح أن الإثارة الجنسية والألم قــد يصبحان مرتبطين معاً ، في عقول الأطفال والكبار ، بحيث يؤدي ذلــك إلى نشوء ميول مازوكية عند الأطفال ، وميول سادية عند الكبار .

وفي كل هذه الحالات فإن السادية كانت في الواقع « أفضل بديل » ، ويجب كذلك أن نتذكر أن عامل السريّة هو عامل مهم وأنه ينمي اللذة إلى درجـــة يستحيل تحققها في علاقة أكثر علنية وانفتاحاً. ففكرة الجرم هي شيء جوهري في الجنس . فبدون الشعور بانتهاك كائن غريب فإن الإثارة الجنسية تضعف ، بل ربما تضمحل تماماً . (تتضمن كتابات موباسان وستندال وصفاً طريفاً لحالات من « الفشل » كانت تحدث حين يصبح الشخص المرغوب فجأة متاحاً جداً .)

الا أن الإعتبارات الآنفة الذكر تفسر درجـــات صغيرة فقط من السادية والمازوكية. فهي لا تفسر السادية الإجرامية أو السادية الحقيقية التي لا تشتمل على أي عنصر من المازوكية . وهذه مسألة أصعب كلية . والصعوبة هنا تكمن في ادراك كيف يمكن للسادي الا « يتفاعل » مع ضحيته . فبرتراند ، كما ذكرنا سابقاً ، كان من الطيبة بحيث لم يكن ساديـــاً بالفعل على الرغم من ميله الغريب

الى تحطيم الاشياء . فقد كان « يتفاعل » مع ضحاياه بسهولة . وهذا التفاعل هو النتيجة الطبيعية لمكان الإنسان على سلّم التطور ، باعتبار أن الإنسان أكثر حيوان « إجتماعي » بين الحيوانات الأخرى . وعلينا ان ندرك بأن الحيوانات التي تتمتع بأقل قدر من الميزة الأجتماعية هو أكثر الحيوانات قسوة وبطشاً . وهناك رابطة مؤكدة بين القسوة والوحدة . فأسلاف الكلب الأوائل كانوا يصيدون جماعات جماعات في أغلب الظن ، كالذئاب ، لكن من الصعب أن نتصور القطط تقيم علائق جماعية بينها . ونتيجة لذلك طبعاً فإن الكلب هو حيوان أكثر عطفاً ومحبة ، بل إنه يكاد يخلو من عنصر القسوة ، في حين أن القط هو حيوان أناني بشكل غريب يجد متعة في تعذيب ضحيته وهي لمّا تزل على قيد الحياة .

والإنسان ، باعتباره أكثر الحيوان امتلاكاً للميزة الاجتماعية ، ينبغي إذن ان يكون أقلها قسوة . وهذا هو ما يجعل السادية الحقيقية صعبة الفهم .

على أن هناك كثيراً من العوامل الأخرى التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار. أولها أن أقل الحيوانات نشاطاً وحيوية هي أقلها قسوة كذلك . فلا يمكننا أن نتصور بأن البقر أو الغزلان أو حتى التماسيح وسيد قشطه هي حيوانات قاسية ، لأنها كسولة جداً لكننا نستطيع أن نعزو القسوة الى النمر أو القط (وحتى الى العنكبوت ، تلك الحشرة التي تعمل وحدها والتي تتميز بسميها الدائب وأناتها) . فالقسوة غالباً ما تكون نتيجة فائض من القدرة يبحث عن مخرج . (كلمة « قادر » أو « قادرة » ترد كثيراً في الإعلانات الخاصة بالساديين والمازوكيين : « سيدة قادرة تقدم خدماتها الى رجال يحتاجون الى تأديب.. ») وحين ترتبط القدرة بالغباء فإن النتيجة غالباً ما تكون هي السادية ، نظراً لأنه يصعب على الغباء أن يجد منافذ ومتنفسات للقدرة .. يعادل ذلك في الأهمية عامل الخوف أو الشعور بالنقص. فكلاهما لا يحولان دون التفاعل . فالقول بأن إنساناً ما يرهب إنساناً آخر يكاد يعني أنه قادر على أن يقسو عليه . وفي الأطفال استعداد لأن يكونوا أكثر قسوة من معظم الكبار لأنهم يحسون بالنقص

تجاه الكبار ، ويشعرون بشكل عام أنهم أقل ثقة بأنفسهم أمام العالم والأطفال الآخرين ، ويستدل من بحث احصائي عن الجرائم الجنسية أن المجرمين الجنسيين ينتمون إلى ثلاث مجموعات رئيسية :

أ) الأغبياء والناقصون عقلياً الذين يشعرون حتماً بالنقص بالنسبة لبقية المجتمع والذين تفرض عليهم أحوالهم وظروفهم أن يعيشوا الى حد ما « كالذئب المنفرد » .

ب) الاشخاص ذوو السوابق الإجرامية والذين يشعرون نتيجة ذلك بقدر معين من الذنب ومن الحقد على المجتمع .

ج) الرجال ذوو الحساسية الغريبة والرجال العصبيون الذين يفتقدون الشعور « بالإرتباط » بالمجتمع .

مثال على الفئة الاولى : حارس المدرسة الذي قتل ثلاث فتيات والذي حدثنا عنه دي ريفر. ومثال آخر أيضاً هو، سترافن قاتل الأطفال الانكليزي؛ وقد كان سترافن هذا معتوهاً وأودع مستشفى للأمراض العقلية . أما الصنف الثاني فقد يكون ذكياً جداً مثل تشيسمان وكورتن ، لكن الصدمات الباكرة مع القانون تنمي في مثل هؤلاء الأشخاص شعوراً بالحقد على المجتمع ومن ثم يتحول هذا الشعور الى عذر لاطلاق العنان لغريزة جنسية عنيفة . وقد يحس الشخص الذي ينتمي الى هذه الفئة بأنه قد لقي معاملة ظالمة من المجتمع ، وأن من حقه لذلك أن يثأر لنفسه . لكن الصنف الثالث من المجرمين هو أكبر داع للخوف ، لأنه من المحتم أن يزداد عدد مثل هؤلاء المجرمين في مجتمع آلي متنام . فالمجرم من هذا الصنف يشعر بعدم وجود رابطة مشتركة بينه وبين الناس الذين يمر بهم في الشارع ، كلهم بالنسبه له غرباء كسكان المريخ . ونظراً لقلة نضوجه ولعدم اكتمال نموّه العاطفي ، فانه قد يكون أنانياً كالطفل .

مثال على ذلك القاتل جيرالد طومسون (الذي أعدم في ١٩٣٥) .

كان طومسون يتصدى للنساء ويغتصبهن في المقعد الخلفي من سيارته ، ثم يلتقط صوراً لهن أثناء قيامه بالاعتداء عليهن . وكان بعدها يقول للفتيات إنه

سيرسل الصور الى عوائلهن وأصدقائهن ان هن قدمن أية شكوى ضده . وكان كذلك يدوّن حوادث الاغتصاب هــذه بالتفصيل في كتاب مذكرات . وقد سجّل بالفعل أكثر من خمسين حادثة . وقد أدى قتله لميلدرد هولمــارك الى تجريد حملة تفتيشية ضده انتهت بالقاء القبض عليه . ها هنا نجد موقفــاً سادياً حقيقياً وانفصالاً تاماً عــن الضحية التي تبقى مجرد « شيء » حتى وهو يتبادل الحديث معها . وسيكون من المفيد حتماً لو أننا كنــا نعرف شيئاً عن نشأة طومسون وحياته السابقة وهل أن افتقاره الى المحبة والعطف أثناء طفولته هو الذي أدى الى هذا الموقف « المستقل » من الناس الآخرين .

ومع أن طومسون قتل واحدة من ضحاياه فقط ، وربما كان ذلــك بطريق الخطأ ، فإنه بلا شك « سادي حقيقي » . فقد كان يلعب بضحاياه كما يلعب القط بالفأر . وقد روت احدى الفتيات كيف أنه أبقاها في السيارة مدة ساعتين قبل أن يتم اعتداؤه عليها . ومعظم المجرمــين الجنسيين يفضلون ان تكون الضحية غائبة عن الصواب وأن يقوموا بعملية الاغتصاب بأسرع ما يمكن . كما وأن كثيراً منهم أقروا بأن شعوراً بالندم كان ينتابهم فيما بعد . بل إن بعضهم ، مثل هايرنز، كان يذهب الى القول بأنه منفصم الشخصية أو أنه ذو شخصية مزدوجة مثل جيكل وهايد . لكن طومسون كان فيما يبدو ينغمس في الاستمتاع السادي بالإغتصاب ، كما كان يندمج في تسجيل التفاصيل فيما بعــد بدون أقل شعور بالندم . ومثل هذا الإنفصال التام عن شخصية الضحية هو شيء غير عــادي . وهناك مثال أوضح على ذلك هو موريس لبلانــد الذي كان يغتصب النساء في بورتلاند بولاية أوريغون الأميركية . فقد صرح ليلاند أثناء اعترافه بقتل فتاة في الخامسة عشرة بقوله :

« كانت فتاة رقيقة حلوة جداً . لم أكن أريد قتلها أبــداً ... لطمتها على رأسها وحين غابت عن الصواب لم أجد مانعاً من طعنها » .

ومــع ذلك فقد كان من عادة ليلاند ، مثــل طومسون ، أن يبقي المرأة سجينة لديه بعض الوقت مهدداً إياها بسكين الى أن ينهي عمليــة الإغتصاب

برمتها . (وقد أعـــدم ليلاند في ١٩٥٣ ، بعد أربع سنوات من ارتكابه الجريمة .)

ويمكن القول كذلك بأن رجـالاً مثـــل طومسون وليلاند هم من صنف « اللامنتمي » أو « الغريب » ، إذ أنهم لا يحسون بأية رابطة مع بقية المجتمع . ولقد أشرت في مكان آخر الى ان مجتمعاً مثل مجتمعنا لا بد أن يخلق « غرباء »، أي رجالا يعيشون في مجتمع ولا يحسون مع ذلك بالانتماء اليه . وهــذا لا يعني أن « اللامنتمي » هو بالضرورة ذو قابلية إجرامية . فالجريمة الجنسيـــة تبدو مرتبطة في العادة بالتطور العاطفي الناقص أو المكبوت، وهي تشبه ميل الطفل الى ان يستولي على ما يشاء دون التفكير في العواقب . فإذا كان من شأن تزايـد الطبيعة اللاشخصية للمجتمع أن تؤدي الى تزايد عدد «اللامنتمين» ، فمن المنطقي إذن أن يزداد عدد المجرمين الجنسيين نسبياً كذلك . وينبغي أن نعترف هنا أن نزوع إنسان ما الى اسقاط الغير من حسابه ليس بالضرورة دليلاً على عدم أهليته الإجتماعية . وتتضح هذه النقطة في احدى المقـاطع من كتاب « حكايات المستر كوينر » « Stories of Mr Keuner » تأليف بيرت بريخت . سئـــل المستر كوينر مرة : « ماذا تفعل حين تحب إنساناً ما ؟ » فأجاب قائلا : « أرسمه ثم أبذل جهدي للتأكد من أنني أحصل على درجـــة كبيرة من الشبه » . « الشبه بالشخص ؟ » « لا » أجاب المستر كوينر ، « بل بالرسم » .

وهذا يعني أن شرط الحب عند المستر كوينر هو أن هدف هذا الحب ، أي المحبوبة ، يجب ان تماثل تصوره لها . لكن الموقف الذي نطالعه هنا هو موقف فنان لا يطيق صبراً ، يريد ان يرفع الناس الى مستوى آرائه ومثـله . فبريخت « اللامنتمي المثقف » يعامل الشخص الآخر كوسيلة لإرضاء فكرة ذهنيـــة . والسادي يعامل الآخرين أيضاً كوسيلة لإشباع شهوة جسدية .

الوجودية وسيكولوجية الساديه :

من الواضح أن السادية ترتبط بالحاجة إلى تأكيد الذات . وفي الوقت ذاته لا

يمكن فصلها عن فكرة الهزيمة . فالسادي هو بمعنى مـا رجل يقف وظهره إلى الحائط . وليس هناك أبعد عن السادية ، على سبيل المثال ، من العقلية المرحـة المتفائلة لرجل مثل برناردشو أو هـ. ج. ولز .

وهذا الإحساس بالهزيمة يحتاج إلى تحليل أكثر دقة . ولقـد كان هيدجر هو أول من أدخل إلى الوجودية مفاهيم الوجود «الحقيقي» والوجود «غير الحقيقي». وبالنسبة لهيدجر فـان الوجود الحقيقي هو الوجود القـائم في وجه الموت – الإدراك المفاجىء لقيمة الحياة ، الإصرار والشدّة .

وهناك كما يتضح قاسم مشترك بين مفهوم هيدجر هذا عن «الوجود الحقيقي» ونظريـة جورديبف عن الإنسان الذي يحتوي على مراكز سبعة كلهـا تعمل بإنسجام . والواقـع أن جورديبف في Ail and Everything يجعل إحـدى شخصياته تقول إن أكثر مـا يحتاج اليه الإنسان هو عضو يمكنه من أن يحس دوماً بساعة موته .

إن كسلنا وسأمنـا وافتقارنا إلى الإحساس بالإستعجال تؤدي بنا إلى أن نعيش بهذا الشكل شبه الفاتر وغير الفعّال . وهذه « الحياة العادية » يسميهـا هيدجر وجوداً غير حقيقي .

وقد وسّع سارتر سيكولوجية هيدجر بأن أضاف إليها تعبيراً جديداً هو : فكرة « سوء النية » . فقـد بيّن سارتر في **الوجود والعدم** أن الوجود غـير الحقيقي معناه أن الإنسان قلما يكون مدركاً لوجوده الخاص .

إن اهتمامه يتجه خارجاً إلى الأحداث الطبيعية . انه يعتبر نفسه شيئاً يشبه « الثقب في الطبيعة » بدلاً من حقيقة صلبه . ولا يحدث إلاّ في لحظات معينة من العنفوان فقط ، كبلوغ ذروة النشوة الجنسية مثلاً ، أن يـدرك الإنسان حقيقة كونه وجوداً فعالاً ، وليس مجرد أداة مستخدمة ومفعول بها دائماً .

إلاّ أن الإنسان يكره هذا الشعور بالعدم وهـذا الشك الأزلي بالذات . ولذلك فهو ينحو إلى أن يدخل في معاهدة مع غيره من البشر لكي يفلت ويتملص من هذين الشعورين ، وهي معاهدة تقوم على المديح المتبادل واحترام الذات . إنه

يطلب أن يعامل كهوية .. « كرجل ذي جوهر » مثلاً... لأن احترام الآخرين يطمئنه ويمنحه الثقة حين يواجه الفراغ داخل نفسه . وذلك يشبه رجلاً يعاني من تصلب في الرقبة ، يمنعه من أن ينظر إلى أسفل ليطمئن الى أن جسده موجود . لذلك فقد بنى الرجل المذكور قاعة من المرايا بحيث يمكنه أن يرى صورته معكوسة في كل الإتجاهات .

يسمي سارتر هذه المعاهدة Mauvaise foi، أو خداع الذات . وأبرز قيمة لكتاباته هي تحليله للأنواع المختلفة من خداع الذات . فعلى سبيل المثال يدور أثران من أروع كتاباته حول موضوع العداء للسامية ، الأول هو قصته المسمّاة « طفولة زعيم » والثاني بحثه عن « صورة اللاسامي » . والقصة والبحث يعالجان معاداة السامية باعتبارها محاولة من قبل الإنسان للإفلات من عبثه وعقمه الخاصين .

وحتى هذا الايمان الهش بالنفس الذي يمنحنا إياه شعورنا بأن لنا هوية يمكن، على حد قول سارتر ، أن ينتزع منا بسهولة عظمى . فإذا ما ضبطت وأنت تقوم بعمل سيء فإنك « ترى نفسك » بمنظار الشخص الذي ضبطك . وهنا تتلاشى الهوية تماماً وتصبح أنت كلية شيئاً منظوراً إليه من قبل الشخص الآخر ، مجرد ثقب في الكون . ليس هناك ثمة من شرارة داخلية صغيرة تعلن « أنا موجود » ، والإدراكات تتهاوى إلى أعماق الوعي الباطني مخلفة الإنسان غائصاً في منطقه الخاص وفي المشاعر التي تنبع من الخارج ، مثل المذلة والألم، بدلاً من المشاعر التي تنبع من الداخل .

ان يضبط الإنسان وهو يفعل شيئاً معيباً هو مثال على حالة قصوى .(مثال على حالة أكثر تطرفاً من ذلك ، هو الرجل الذي يكاد ينفذ فيه حكم الإعدام . فإنه سيشعر أن أي قدر يمتلكه من « الحقيقة » والواقعية هو في يد الذين سيعدمونه وأن هذه الحقيقة على وشك أن تنبذ جانباً بإعتبارها شيئاً عديم النفع) . لكن أية لحظة من النهار تكاد تحمل معها طارئاً صغيراً ما يسلبنا جزءاً صغيراً من هويتنا .

يقول السيد اليوت : إن مجرد أن تطيش قدمنا عن درجة واحدة ونحن نهبط درجاً ما ، يولد فينا الشعور بأننا مجرد أشياء ، مجرد ضحايا للقدر . (يهمني أن أشير إلى أن « السيكولوجية الوجودية » ليست من ابتكار سارتر أو هيدجر ، فهي تتخلل وتعم الأدب الحديث منذ دوستويفسكي فصاعداً) .

ولقد ابتكر وايتهد تعبيراً لا يثمّن بالنسبة لعالم النفس الوجودي وهو : فكرة « الاستيعاب » Prehension ، والاستيعاب هو عملية هضم تجربتنا . لقد عبر سارتر يوماً عن اعتقاد مشكوك فيه مؤداه أن هناك نوعاً من الغثيان يقبع في قعر وعينا . لكن فكرة وايتهد عن « الاستيعاب » هي صورة أقل تطرفاً من فكرة سارتر . فحين تشعر بالغثيان فإنك كثيراً ما تبذل جهداً لكي لا تتقيأ . فإذا نجحت فإن الشيء الذي كان يضايق المعدة سيرغم أو يقنع بأن يسمح لنفسه أن يستوعب . لكن لا يوجد هناك شيء يستوعب أو يهضم أوتوماتيكيا . فكل أعمال الجسم تنبع من عملية إرادية لا واعية . وعلى هذا فإن الجهد الواعي في سبيل تجنب التقيؤ يمكن اعتباره شكلاً متطرفاً من الجهد الذي تبذله المعدة بعد كل وجبة طعام . والاستيعاب هو كذلك عملية مستمرة نظراً لأن « وجبات » التجربة لا تتوقف أبداً . وقد يكون على الانسان أن يستسيغ ويهضم تجربة صعبة جداً مثل كارثة شخصية أو مذلة شخصية ، أو تجربة بسيطة مثل أن تزل قدمه عن درجة سلم. لكن الانسان يبذل جهداً مستمراً غير منقطع للاستيعاب.

ومن الواضح أن هذا الاستيعاب مرتبط بصورة وثيقة بالعمدية . فحين تقرأ جريدة بإنتباه وتمّن فإنك تستوعب محتوياتها . أما إذا طاش انتباهك فإنك ستقرأ بدون استيعاب . لولا أن ذلك هو شكل آخر من القول بأن « العمدية » قد توقفت عن العمل ، أي أنه قد توقفت عملية غربلة واختيار وترتيب معاني كل جملة . إن العمدية هي غرفة الانتظار بالنسبة للاستيعاب ، وهي ضرورية له كضرورة الفم بالنسبة إلى المعدة .

وقبل أن ننتقل من هذه العموميات إلى مشكلة السادية ، علينا أن نشير إلى مدخل آخر للبحث ، وذلك بأن نطرح مثل هذا السؤال العام : أي قدر من

الإهتمام « يجب » علينا أن نعطيه لكل فرد من أجل أن نحسّ أننا مرتبطون معه بطريقة « سليمة » ؟ وبمعنى آخر ، من أجل أن نحسّ أننا لسنا مرتبطين معه بطريقة قد تؤدي (في حالة وجود علاقة عاطفية) إلى علاقة جنسية غير طبيعية ، كعلاقة السادي بضحيته ؟ إن المسيحي سيجيب بلا تردد على هذا السؤال ، بقوله : إن علينا أن نرتبط مع كل فرد بشكل كامل وعميق بغرض الوصول إلى علاقة من التفاهم والحب التامين . وقد يكون ذلك صحيحاً ، سوى أن هناك اعتراضاً مباشراً عليه . فحين نخاطب فرداً ما ، فمن المحتمل أن نحس نحوه فجأة بشعور عارم وفريد كأنه عالم غريب بأكمله . والمسيحي سيقول ، إن هذه الرابطة هي أفضل من معاملة الشخص الآخر وكأنه مجرد شيء ، مجرد معادلة أو رمز بدلاً من عالم فريد بأكمله . ولما كانت الحياة الإنسانية هي ما هي عليه الآن ، فكيف يصبح من الممكن أن نعامل كل إنسان بهذا الاسلوب « المسيحي » ؟ . إن المشكلة مشابهة لأمير أوسكار وايلد السعيد الذي كان يتعذب لبؤس الناس الآخرين ، ولكنه أدرك بعد ذلك بأنه لا يستطيع أن يحمل كل شقاء العالم على كتفيه . إن مسيحياً صالحاً (أو انساناً صالحاً) قد يشعر أن معاملة أي شخص بإعتباره أقل من انسان كامل يحتوي على قدر من اللاأخلاقية . لكننا لا نستطيع أن نعيش بأية طريقة أخرى . إن لامبالاة السادي « بالشخصية الحقيقية » الضحية هو شكل متطرف من أشكال اللامبالاة التي يضطر حتى أصلب « المسيحيين » أن يمارسها مع تسعين بالمئة من معارفه .

وفكرة هيدجر عن الوجود الزائف تزودنا بالمفهوم الأساسي الذي يمكننا بواسطته أن نتفهم عقلية السادي . إن رجلاً ضبط وهو يسترق النظر من خلال ثقب المفتاح ـ وبذلك استحال إلى نوع من الشعور بأنه مجرد شيء ، مجرد أسير حقوق شخص آخر ـ سيفقد كل ما بقي فيه من « توجيه داخلي » ومن ذاتية ، ومن ثم سيفقد القدرة على أن يعامل شخصاً آخر كإنسان كامل . وقد لاحظ برنارد شو أن اهتمامنا بالعالم هو استمرار لاهتمامنا بأنفسنا . فالشخص الذي

سُلبت منه ذاتيته تماماً لا يمكن أن نتوقع منه أن يبدي اهتماماً عطوفاً بالعالم أو أن يبذل جهداً « برغسونياً » من أجل أن ينفذ إلى وجود شخص آخر عن طريق وهم الحب .

أول ما يدركه الإنسان عن السادي ، كما عن المجرم بشكل عام ، هو أنه إنسان خسر معركته مع العالم ، إنسان خسر ذاتيته . والسادية تشتمل بصفة جوهرية على جانب من المراهقة المطولة وعدم النضوج . فالسادي ، مثله مثل المجرم الذي اعتاد على الاجرام ، يكذب بفعل العادة . وكذبه هذا يكشف عن قلة نضوجه ، لأن معظم الناس يعرفون أن الكذب هو في العادة عملية خاسرة ، سوء تصرف اجتماعي من شأنه أن يسيء أكثر مما يفيد .

وقضية نيفيل هيث ، الواردة في الفصل السابق ، مثال على ذلك ، فحين تم القاء القبض عليه أخيراً ، بتهمة قتل مارجري جاردنر ودورين مارشال ، اكتشف بأن له سوابق كثيرة في ارتكاب الجرائم الصغيرة . وقد قال أحد الذين كتبوا عن هذه القضية ، إن معظم الجرائم التي اقترفها هيث كان سببها إلى حد ما غروره وحاجته إلى أن يحظى بالإعجاب . لكن الغرور والحاجة إلى نيل الإعجاب ليسا في حد ذاتهما بعض سمات المجرم ، بل إنهما قد يكونان مزايا يتحلى بها أكثر المصلحين الاجتماعيين تجرداً من الأنانية .

اننا كلنا مغرورون وكلنا يحب أن يحظى بالإعجاب . وكما يقول برنارد شو فإننا كلنا نجهد في سبيل نيل الإعجاب بدون أن تكون عندنا النية لإستحقاقه . وهذا ليس بشيء ، بل المؤسي في كل ما نقرأه عن رجال مثل هيث وكريستي ، هو أن فكرتهم عن كيفية نيل الإعجاب تخلو من الخيال . فبالنسبة لهيث ، الذي ينتمي بلا شك إلى فصيلة من الدون جوانيين ، فنيل الإعجاب يتأتى عن القهر الجنسي اللانهائي . ونظراً لأنه كان يفتقر إلى سعة حيلة كازانوفا في إيجاد النقود ، فقد كان يختلس ويغتصب بطريقة غير مربحة أو مجدية . فكان يعطي صكوكاً بلا رصيد ويستدين مبالغ من المال لقاء كفالة مزيفة أو باطلة . وبسبب فقر خياله وتصوره فقد كان عالمه أكثر بلادة وفراغاً من عالم كازانوفا . وكما تنبأ

دي ساد فإن فقدان القدرة على التخيل والتصور والإمتـــلاء الذي هو النتيجة الطبيعية لذلك ، أدى إلى شدّ عصب المتعة أكثر مما ينبغي .

ويستدل من كتاب ألّفه أحد معارف هيث ، أن الأخير كان معروفـاً في المدرسة بأنه « قبضاي » وأنه ضرب يوماً فتاة في الثامنة من عمرها ضرباً مبرحاً بحيث نقلت إلى المستشفى . لولا أنه من الطريف أن نعلم أن ضحيته الأولى (أي ضحيته المعروفة) كانت مازوكية وأنها رافقته إلى فندق ما وهي تعرف تمـام المعرفة بـــأنه سيسيء معاملتها وقد شوّهها هيث وقتلها . ومع ذلك فإنه قبل هذه الحادثة بأيام معدودة اصطحب فتاة محترمة قضت ليلة كاملة معه (بعد أن وعدها بالزواج) . وقد أكدت هذه الفتاة بأنها لم تكتشف أية ميول سادية في هيث . كما أن زوجة هيث أعلنت أنه كان يعاملها برفق . وهذا الميل إلى إلحاق الألم والأذى بالذين لا حول لهم ولا قوة، هو بكل وضوح ميزة من مزايا الطفولة الباكرة ؛ واستمرار هذا الميل والـــتمادي فيه هو علامة على نقص تطور هيث ونضوجه ،وعلى كل حال فهذا لا يساعدنا في تفهم الدافع السادي الذي كان يتملك هيث . ومن المهم عنـــد هذا الحد أن نميّز بين الدافع السادي الحقيقي ومجرد الرغبة في المعاقبة بإلحاق الألم . فنحن نقول بدون تدقيق أن توركيمادا ، رئيس محاكم التفتيش ، كان سادياً . ورجل محاكم التفتيش الذي يجمله برناردشو أحـد أبطال روايته « سانت جون » Saint Joan هو مثال ممتاز على نوعية الرجال الذين كان توركيمادا منهم — رجال مخلصون تمامـــاً ، همهم الوحيد هو « اللعنة الأبدية » على من كانوا يعاقبون .

لكن من الممكن أن ينغمس إنسان ما في عملية الحاق الألم بأحد « المذنبين » من غير أن يكون سادياً . وقد يجوز أن توركيمادا كان يحس بنوع من المتعـــة الكئيبة وهو يراقب الملحـــدين وهم يموتون (الواقع ان الذين كان يحكم عليهم ، هم الذين تحدّوه ورفضوا أن ينتصروا) ، من غـير أن يكون « سادياً » بكل معنى الكلمة . فالرجل الذي ينفّس عن غضبه أو عن تقواه وصلاحه الساخطين الجريحين عن طريق الحاق الألم، ليس بالضرورة سادياً ، مع أنه قد يكون يخفي

عن نفسه احساساً جنسياً ما . إن السادي هو الرجل الذي يتهيج جنسياً عند الحاق الألم .

يصف هيرشفلد حالة طريفة من السادية الحقيقية ستوضّح لنا الفارق بين السادية الحقيقية والسادية غير الحقيقية . وتختصّ الحالة بالقاتل الفرنسي يوسوبيوس بيدانييل الذي أوحى لزولا بشخصيته جاك لانتيير في روايته « La Bête Humaine » وقد حوكم بدانييل عام ١٨٧١ لإقترافه أربع جرائم قتل . حين كان بيدانييل طفلاً ملك عليه روعه دكان لحام كان يقع مقابل بيته ويملكه رجل يدعى المسيو كريستوبال . « رائحة الدم الطازج ، اللحم الشهي ، قطع اللحم التي كانت تقطر منها الدماء – كل هذه كانت تخلب لبّي ووجدتني أحسد مساعد اللحّام لأنه كان في إمكانه أن يقطع كتل اللحم وقد شمّر عن ساعديه ويداه تقطران دماً » .

ومن المؤسف أنه ليس ثمة أية إشارة الى ما اذا كان بيدانييل يمارس العادة السرية في طفولته ، أو كيفية نشوء الرابطة بين رائحة الدم والجنس عنده . وقد أقنع بيدانييل والديه بأن يرسلاه إلى دكان المسيو كريسبوتال للتدرب على المهنة ، وبعدها بدأ يشرب الدماء خفية ويجرح الماشية . (الدم هو مادة مقيئة ، ولا يقول بيدانييل شيئاً عن كيفية شرب الدماءدون أن يتقيأ) . ثم سُمح له بأن يذبح الماشية بنفسه ، وكانت هذه أعظم متعة بالنسبة له . الاّ أن والديه عادا فقررا أن يرسلاه الى مكتب أحد المحامين للتدرب على مهنة المحاماة . وعندها بدأ بيدانييل في الإحساس بالكآبة ثم بدأ في قتل الناس . وبعد أن ارتكب ست جرائم قتل غمره شعور بالندم والذنب ، فحاول أن يعيش في كهف باحدى الغابات ، لكن دافع القتل غلبه على أمره فعاد الى درب الجريمة . فكان آخر ضحاه هو المسيو كريستوبال نفسه . ويبدو من التقرير الموجز الذي أورده هيرشفلد أن بيدانييل كان يستقي المتعة من مجرد رؤيته للدماء ، وليس من اعتدائه الجنسي على ضحاياه (ومعظمهم من النساء) . وأخيراً سلـّم بدانييل نفسه طوعاً الى القضاء ، ورجا المحلفين أن يحكموا عليه

بالموت لأنه لم يعد يحتمل فظاعة جرائمه .

وهنا تظهر لنا ببعض الوضوح الشخصية المنفصمة التي تحدثنا عنها في فصل سابق . فالسادي يتملكه الشعور بأنه شخصيتان ، كما أن دوافعه الجنسية ترعبه .

يسرد دي ريفر حالة تبين ذلك بوضوح :

شاب في الواحدة والعشرين من عمره ، قابل فتاة عند موقف باص في وقت متأخر من الليل ، فحادثها ثم عرض عليها بعد نزولها من الباص أن يرافقها الى باب بيتها . فوافقت ، بل أكثر من ذلك وافقت على أن يدخلا احدى الحدائق العامة . وحين حاول الشاب ان يقبلها تمنعت وصدّته (معظم الظن أنها فعلت ذلك عن غنج ودلال لأنها كانت قد سمحت له أصلاً أن يطوق خصرها بذراعه أثناء السير) . فما كان منه الا أن أطبق بيديه على عنقها ، وبعد عراك بينهما تمكن من أن يفقدها صوابها . ثم اغتصبها وبعد أن عادت إلى رشدها أفقدها الرشد مرة أخرى ، وربط بعض الثياب حول عنقها وحملها بعض المسافة الى أقرب مبنى ثم اغتصبها مرة أخرى . كما قضم احدى حلمتيها وازدردها. وتوجه الى أقرب صندوق للهاتف واتصل بالبوليس وسلّم نفسه . (ولقد صرح بقوله : « أعرف أنني ارتكبت عملاً سيئاً ») .

ويعتقد دي ريفر أن مقاومة الفتاة له وصده عن تقبيلها أثارا الحافز السادي فيه ، ولو سمحت له بأن يقبلها لما حدث ما حدث . ولم تكن للشاب أية سوابق اجرامية كما لم يكن من مدمني الكحول أو المخدرات ، أضف إلى ذلك أنه كان يعيش مع فتاة أخرى أنجبت طفلاً منه وكان سعيداً معها . وقد كان ردّ فعله الفوري على جريمته هو تسليم نفسه ، فمن الواضح أنه صُدم بالنزعات العنيفة التي سيطرت عليه فجأة . (عند محاكمته ، حكم عليه بالسجن المؤبد) .

وفي بعض النواحي فإن هذه الحالة مماثلة لأية حالة أخرى من الإغتصاب العنيف . وقد يقول قائل إن الشاب ، مثله مثل بوميرنكه ، أراد فقط أن « يجرّد ضحاياه من أية مقاومة » . لكن الواقع أن هناك فارقاً واضحاً بين

عملية الانتهاك هذه والحالات المذكورة في الفصل السابق . إن معظم الشباب يتقلص تهيّجهم الجنسي لدى عراكهم مع الفتاة الضحية ، لكن التهيج الجنسي في هذه الحالة كان يزداد حدة ، والوحشية التي أخرس بها الشاب الفتاة قد تولّد عند أغلب الرجال شعوراً بالندم بعد عملية الاعتداء ، لكن الشاب في هذه الحالة أحسّ بتهيج أكثر بعد أن أفقدها الوعي مرة أخرى (بأن راح يضرب رأسها بقارعة الطريق) الى درجة أنه حملها إلى مكان آمن واعتدى عليها بالاغتصاب مرة أخرى ناهيك عن الأعمال السادية الأخرى التي مارسها معها .

ومرة أخرى فالمعلومات التي أوردها دي ريفر ليست كافية لأن تفسر لنا كيف تمّ نشوء الرابطة بين الاهتياج الجنسي والايذاء عند الشاب المذكور . ولا بدّ لنا مع ذلك ، أن نعترف بأنه قد لا يكون بالامكان أبداً تفسير ذلك بشكل مرض. فان قوة الدافع الجنسي تصعب على أي تحليل دقيق. والمفارقات التي كانت تحدث بعد الغارات الجوية أثناء الحرب كثيرة ومتفرقة . ومنها ما كان يلاحظه عمال الإنقاذ حين يرون بيتاً وقد تهدم بأكمله ، ومع ذلك فإن فرشاة كانت تستقر في مكانها على الطاولة دون ان يحركها الانفجار . ومن الواضح أنه لا يوجد أي أمل في أن يتوصل العلماء يوماً الى علم معصوم من الخطأ يستطيع أن يفسر لماذا وكيف تحدث مثل هذه المفارقات . وهكذا فان مفارقات وأهواء الدافع الجنسي قد تصعب في النهاية على أي تحليل علمي أو منطقي .

والتهيج الجنسي في العادة يبقى خاضعاً لتحكم الفرد ، فالرجل الذي يضاجع زوجته ليس من المحتمل أن يتعرض فجأة لرغبة عارمة جارفة تجعله يحس بأنه ذو شخصيتين مختلفتين . أما حين ينفجر التهيج الجنسي بسبب ظروف فجائية وغير عادية فان انفجاره قد يطلق من أعماق اللاوعي مختلف النزعات الغريبة المطمورة . مثال على ذلك التهيّج المحموم الذي اجتاح برتراند لدى رؤيته المرأة في القبر المفتوح .

وقد حدثت في شيكاغو مؤخراً جريمة قتل تبيّن ذلك . فقد وجدت امرأة

متزوجة في السادسة عشرة من عمرها قتيلة ، بعد ان ضربت ضرباً مبرحاً ، وكانت لا ترتدي الا روب دي شامبر فتح من الأمام وكلسوناً تحته . لكن طفلها النائم في سريره لم يُمسّ بأذى . ثم دلت التحريات على أن مصوراً شاباً اسمه ستاشي كان قد زار منزل القتيلة يوم وقوع الجريمة . واكتشف البوليس أن ستاشي هذا كان شاباً متديناً من الذين يتملكهم احساس عارم « بالخطيئة » . وحين احتجز ستاشي اعترف بأنه زار منزل القتيلة في الصباح ليصور الطفل، وقد استقبلته القتيلة وهي ترتدي الروب دي شامبر . وحين انحنت على سرير الطفل انفتح الروب واكتشف ستاشي أنها شبه عارية . وهنا اجتاحته فورة جنسية عارمة فأمسك بضرب بيسبول كان يحمله في حقيبته وانهال عليها ضرباً حتى الموت ، وحين أدرك فعلته أصيب بالهلع ففرّ من المنزل دون أن يعتدي عليها جنسياً بالمرة .

وليس من الصعب أن نتفهم نفسية القاتل في هذه الحالة . فلعلّ الفتاة تعمدت أن ترتدي روباً مكشوفاً حتى تقوم بإغوائه . وبالنسبة لشاب شبه مكبوت مثله فإن الحاجة الى امتلاك الفتاة أصبح فجأة ، هو الشيء المهم الوحيد في العالم . ونتيجة لعدم ثقته بنفسه ، وربما لتهيجة الجامح العنيف كذلك ، فقد استعاض عن المحاولة الجنسية العادية باسلوب أفقدها الصواب . ومن الممكن القول إن ستاشي أصبح قاتلاً بسبب سوء الحظ الصرف . فان كثيراً من الشبان في وضعه قد يتصرفون مثله فيتحولون الى قتلة ، او على الأقل مغتصبين ، لكن الكثيرين أيضاً كانوا سيعرفون كيف يغتنمون الفرصة فيحظون بالمتعة والرضى وتتحول العلاقة الى اتخاذ عشيقة مجانية .

إن حالات مثل هذه ، والحالة التي أوردها دي ريفر ، قد توحي بأنه من السهل أن تفهم السادية على اعتبار أنها مشتقة من الدافع الجنسي . فقد يقال إنه حتى أقل الرجال قسوة يحسّ بالمتعة واللذة حين يسيطر على امرأة ، وان السادية هي هذه السيطرة في أبشع صورها غير الطبيعية . وقد يقال كذلك بأنه حتى أكثر الرجال تعقلاً وسلامة عقلية يقدرون على الاغتصاب في حالات وظروف

قصوى وغير اعتيادية ، أو ليس ذلك ضرباً من السادية ؟ لكن هذه الاستنتاجات أقل صحة مما تبدو عند أول وهلة . ومع ان بيدانييل كان قد قتل ضحاياه من النساء بسبب دافع جنسي (يصف احدى جرائمه بقوله انه احسّ برغبة في تقبيل امرأة نائمة ثم سيطرت عليه فجأة الرغبة في طعنها بالسكين) فان الدافع الأصلي للسادية فيه ، كان يرتبط برائحة الدماء ودكان اللحام .

في الكتاب المسمى « حياة كونان دويل Life of Conan Doyle » يسرد جون ديكسون كار قضية غريبة قام دويل فيها بدور البوليس السري . فقد اعتاد مجهول في احدى المناطق على ان يتسلل الى بعض المواشي وهي نائمة في الحقول ليلاً ، وأن يبقر بطونها ويقطع بعض أوصالها بالسكين وكان بعد ذلك يبعث برسائل الى البوليس يسرد فيها بشغف تفاصيل أعماله ويعلن عن نيته في الشروع باتباع هذه الأعمال مع البنات الصغيرات في المستقبل القريب .

وقد قام البوليس باعتقال شخص يدعى جورج ايدالجي ، وهو ابن أحد المتدينين الايرانيين ، وتقديمه للمحاكمة . وقد حكمت المحكمة عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات مع ان الدلائل عليه كانت واهنة جداً . وقرر دويل الذي كان مقتنعاً ببراءته أن يقوم بدور شرلوك هولمز وتمكن في الأخير من أن يهتدي الى المجرم الحقيقي وهو فتى يسميه كار « بيتر هدسون » . وكان هذا الفتى في نفس المدرسة التي كان ايدالجي ينتسب اليها وكان يكنّ ضغينة لإيدالجي . وحتى حين كان هدسون في المدرسة كان يبدي ميلاً غريزياً لاستعمال السكين . فقد كان يشق المقاعد الجلدية في القطارات بالسكين ، وقد اضطر أبوه عدة مرات الى ان يدفع غرامات بسبب ذلك . ومع انه قد أطلق سراح ايدالجي بعد ثلاث سنوات وأقرّ ببراءته فإن هدسون لم يقدّم الى القضاء قط . والظاهر أنه توقف عن تشويه الماشية بعد القضية ولعلّ تحريات دويل قد أفزعته .

إن « بيترهدسون » هذا أقرب إلى نوعية السادي الحقيقي من القاتل الجنسي

الذي تحدث دي ريفر عنه ، فالحاجة الى تمزيق وشق المقاعد والوسائل الجلدية بالسكين هي نزعة تخريبية صرفة قد لا يكون لها أية علاقة بالجنس . وكثير من الأطفال تفتنهم السكين ولا يقاومون الرغبة التي تدفعهم إلى اللعب بها ، وإلى تمزيق أي سطح جلدي . وهذا هو نفس النوع من الحافز الذي يدفع الأطفال إلى إقامة أشكال كبيرة من الرمال على شاطىء البحر ، ثم حفر قناة صغيرة تتدفق بواسطتها مياه البحر لكي يتمتعوا بمشاهدة المياه وهي تجرف ما بنوه .

ان الكتابات في علم النفس تحتوي بشكل ملحوظ على قدر ضئيل من الحالات السادية التي تمّ مراقبتها ودراستها بتعمق وعن كثب . وقد يكون سبب ذلك أن النظرية الخاصة بالسادية هي من عدم الاكتمال لدرجة أن علماء النفس يرون من العبث أن يبنوا عليها أية دراسات أو معلومات .

يقول فرويد مثلاً في كتابه Three Contributions to the Theory of Sex

« إما أن القسوة والغريزة الجنسية متلازمان بشكل وثيق جداً فهو أمر يعلمنا إياه تاريخ الحضارة بدون شك، لكن أحداً لم يذهب في تفسير هذه العلاقة إلى أبعد من تأكيد العوامل العدوانية في الليبيدو (أي النشاط أو الطاقة الجنسية الغريزية) » . وهو يضيف إلى ذلك قوله ، إنه من المحتمل أن يحدث في السادية والمازوكية أن « كثيراً من النزعات النفسية تتحد هنا في أثر واحد » ، وقوله كذلك ان السادية والمازوكية تنبعان أصلاً من مصدر خاص في الدوافع ، وان هذا المصدر يميزهما عن الانحرافات الأخرى . لكن فرويد نفسه لم يذهب الى أبعد من هذا الحد كثيراً ، بل إنه يفرد صفحتين فقط في الكتاب المذكور أعلاه للحديث عن السادية والمازوكية ، ومعالجته لهذين الموضوعين معالجة محدودة بشكل غريب كما يتضح من المقطع التالي :

« ليس عندي شك في أن مفهوم « الجمال » يضرب جذوره في تربة الاثارة الجنسية ، وانه **يدل أصلاً على ما هو مهيج جنسياً** . وعلى هذا فإن الشيء الذي يدهش أكثر هو أن الأعضاء التناسلية، التي يثير منظرها أعظم تهيج جنسي لا يمكن اعتبارها « **جميلة** » — » .

وتمشياً مع هذا المنطق فإن كل الأشياء الجميلة – المناظر الطبيعية مثلا – يجب أن تعتبر نوعـــاً من الرموز الجنسية ، فالتلال هي نهود ، والبحيرات مهابـل وهكذا. وهذا المنطق يكشف عن نوع ساذج من «الأساسيّة» ، فالدافع الجنسي شيء لا يمكن انكاره حتى من قبل أعرق ماربي القرن التاسع عشر . والليبيدو يمكن اعتباره كذلك موجوداً . والفكرة القائمة أن هناك نوعاً من الجماليـة في النزوع الطبيعي إلى الحرية ينبغي اعتبارها مغرقة في الميتافيزيقية. وهكذا فبدلاً من أن ينظر إلى كل مظاهر الجمـال ، بما في ذلـــك الموسيقى والتذوق البصري والنوازع الدينية والدافع الجنسي ، على اعتبار أنها تعبيرات عن شيء واحد هو ذلك الجوع التطوري إلى الحرية والإنعتاق ، بدلاً من ذلك يجب خسف كل هذه المظاهر وإرجاعها إلى عامل واحد معين هو الليبيدو . وبعد ذلك يجد فرويـد نفسه وجهاً لوجه أمام تناقض أكيد :

كل الجماع هو بشكل ما انعكاس للشهوة التي يثيرها منظر الأعضاء التناسلية ، ومع ذلك فإن الأعضاء التناسلية أقل جمالاً من بحيرة أو سمفونيـــة لبيتهوفن . ولأن فرويد لم يستطع أن ينظر إلى الجنس كحافز تطوري – بل في الواقع أنه لم يقرّ بوجود نزوع تطوري غير ميكانيكي– فلم يجد أمامه إلاّ أن يختزل كل هذه الدوافع وينزلها إلى مستوى الليبيدو . وكان يمكن لفرويد أن يقوم بأول خطوة في دحض افتراضيته الخاصة بنفسه لو أنه خطر له أن فينوس لو جلست وقـــد فرجت فخذيها وكشفت عن أعضائها التناسلية لكانت ستكون أقل جمالاً من الشكل الذي وضعها فيـه براكسيتيلس والواقع أن الأعضاء التناسلية ليست فقط غير جميلة بشكل خاص ، لكنه من غير الصحيح كذلك أن « جوهر » إدراك الجمـــال مشتق من ، أو متعلق بالأعضاء التناسليـــة . ومعظم الرجال سيوافقون على أن امرأة مستلقية على الفراش وهي عارية وساقاهـا منفرجان ، هي عادة أقل إثارة للشهوة الجنسية من امرأة في كامل ثيابها ، أو نصف عارية .

ان خطأ فرويد هنا يكمن في أنه استعان بسيكولوجية « تحليلية » بدلاً من سيكولوجية الجيشتالت. فالجيشتالت الكلي للمرأة هو الذي يحتوي على الجاذبية

الجنسية . إن فرويد يقول ما معناه ضمناً إن المهبـل هو نوع من مصدر الضوء ، وإن أي عاشق يجد عنق أو شعر حبيبته جميلاً ، فإن سبب ذلك أن عنق أو شعر الحبيبة يعكس هـذا الضوء . أما سيكولوجية جيشتالت فتعلن ان مصدر الضوء يكمن في مجموع الجسد بأكمله ، في نزوع تطوري نهائي ، بل وتعلن أكـثر من ذلك ، أن مصدر الضوء هذا هو نفسه الذي يعطي صفة الجمال لمنظر طبيعي أو لسمفونية أو لسعي مصلح إجتماعي إلى تحسين المجتمع .

ومن الصحيح القول إن الأعضاء التناسلية هي نوع من فوهة الدوامة في أمواج الجنس المتلاطمة ، وإن الإعجاب بوجه فتاة أو قدّها من شأنه أن يجرف الرجل إلى فوهة الدوّامة . وسبب ذلك أن « مصدر الضوء » التطوري هـذا ينعكس أكثر ما ينعكس في تلـك النقطة . لكن من الصحيح القول كذلـــك إن قوة الدوامة تعتمد على الإبتعاد عنها ، فكلما زاد الإبتعاد زادت قوة الدوّامة .

إن جاذبية امرأة معينة تقل نسبياً إذا ما نظر الى المرأة كشيء مجرّد معزول من بيئته ، أي « مجرد امرأة » أو « مجرد جسد » أو حتى « مجرد مهبـــل » ، وتزداد اذا نظر إلى المرأة كجزء من كل ، كحلقة من سلسلة اجتماعية أو بيولوجية متصلة . والسيدات اللواتي كن يجـذبن فرسان الملك آرثر اكتسبن جاذبيتهن من البيئة والخلفية الإجتماعية لهن ، من العـــادات والظروف التي جعلت منهن نساءً متواضعات ، فيهن خفر وحياء ، رمزاً « للأنثى الأزلية » الملائكية . وكيتي في رواية الدوس هكسلي « العبقري والإلهة » اكتسبت جاذبيتها عن طريق جعل الرجال يدركون أنها جزء من محتوى بيولوجي ، أي رمز للمرأة . ويمكننا أن ندرك بذلك أن اسلوب جيشتالت في معالجـــة قضية الجنس هو أوفى وأكثر شمولاً نوعاً ما ، من اسلوب فرويد التحليلي .

وهذه الاعتبارات تفسر لماذا لم ينجح فرويد وتابعوه في التوصل إلى « نظرية موحّـدة » حول الساديـــة . فإذا كان الليبيدو هو « المنتهى » وهو أصل كل « الدوافع المنحرفة » ، فلا غرابة إذن ، أن التحليل الفرويدي قد عجز عـــن إدراك كنه مشكلة السادية .

ولعلنا نجد في روايــة اسمها « حب في جلاستونبري » « A Glastonbury Romance » من تأليف جون كوبر بويس محاولة طريفة ، وإن تكن غامضة بعض الشيء ، لتفسير أن السادية هي « انحراف تطوري » .

يعترف بويس بحرية في سيرته الذاتية أن «أقوى رذائلي منذ طفولتي الباكرة وحتى الآن كانت وما تزال هي أخطر أنواع الرذائل. أشير بذلك إلى السادية». وقد اقتصر شذوذ بويس على الأهواء السادية الغريبة الى أن بلغ سن الخمسين . وبعدهـا « شفى نفسه » ، أو على الأقل شفى نفسه من القيام بمحض اراداتـــه بالانغماس في مثل هذه الأهواء .

يتحدث البروفسور ولسون نايت عن بويس فيقول :

« ... في « حب في جلاستونبري » تطالعنا شخصيـــة من أغرب وأفظع الشخصيات الروائية ، هي شخصية المستر ايفانز السادية . والمستر ايفـــانز هو رجل محبوب ذو عقلية أكاديمية وولع بالمخطوطات الولشية[1] لكنه كان رجلاً معذباً بسبب شعور سادي جارف كان يعاوده بين الفينـــة والأخرى ، شعور مناقض تماماً للجانب الطيب فيه . ولا يعرض بويس هذا الشعور على أساس أنــه « انحراف » تأتّى عن خطأ في التربية او الشخصية ، كما أنه لا يبين لنا بشكل مباشر أن تركيب ايفانز الجنسي يعكس او يستجيب لهـذا الجانب من عملية الخلق ، أو « السببية الاولى » المسؤولة عن أعمال القسوة الظاهرة هذه » .

ويتحدث بويس نفسه عن ايفانز فيقول :

« ... لقد تمكن من ان يتخلص من كل تجسيد للإغراء الأسود الذي يراوده، فيما عدا فقرة واحدة فقط في « الخطيئة التي لا تغتفر » التي يجوز أن يكون قـد صاغها شيطان داهية من شياطين ما فوق الطبيعة ليحطم ويسيطر عليه . فقـد كانت هذه الفقرة تصور له خيالات معينة كان يحس بضعف في ركبتيه حين كان يفكر فيها . وأسوأ هذه الخيالات كان يتعلق بضربة قاتلة توجّه بواسطة قضيب حديدي ... ولقد وردت هذه الأفكار الشريرة الكريهة مبـــاشرة من الشر

(١) نسبة الى ويلز في بريطانيا « هـ . م »

الكامن في قلب السببية الأولى ، وسارت عبر مفازات بين الأقمار ثم استقرت في عصب الجهاز الغريزي لدى المستر ايفانز الذي كان مقدراً له أن يستجيب لهذه الأفكار .

ومثل هذه اللغة قد تبدو إنشائية منمقة أو رمزية بلا ضرورة . ومع ذلك فهي تستحق تفحصها بعناية . فقد أقر بويس بأنه كان يشعر هو شخصياً بكل ما ينتاب إيفانز من عذابات ، مثل « كان يبصر روحه على شكل دودة مقيتة تتلوى بحثاً عن ضحايا عقلية جديدة وتمتص دماً جديداً باستمرار » . وفي مقطع بليغ في سيرته الذاتية ، يروي بويس كيف أنه راح يوماً يسير على التلال ، تجتاحه رغبة عارمة في أن يخرب ويعذب ، وكيف أنه كان في صراع داخلي مع هذه الرغبة التي كانت تتوق الى تحطيم الأشياء وقتل الطيور والحيوانات . وإن رجلاً خبر مثل هذه المشاكل شخصياً وبهذا الشكل ، واستعان بذكائه وفكره التحليلي الوافر لتفهمها قد يتوقع منه أن يخرج باستنتاجات أعمق من تلك التي قد يتوصل إليها عالم نفسي اهتمامه بها لا يتعدى أن يكون اهتماماً مهنياً أو أكاديمياً .

إن فكرة بويس عن « الشر الناتج عن السببية الأولى » (والتي كان يؤمن بها كثير من الصوفيين المسيحيين بما في ذلك بوهيم) قد تكون رمزية كفكرة افلاطون الاسطورية عن قيام الآلهة بقطع البشر إلى جزءين ، وقد تحتوي في الوقت نفسه على قدر كبير من الحقيقة السيكولوجية .

وعلى الأقل فإن رؤيا بويس هي في أساسها رؤيا سيكولوجية جيشتالت ووجوديته . من الممكن تحليل الجنس حسب تركيبه العضوي ، مع التشديد على الأعضاء التناسلية ، أما نتيجة هذا التحليل فستكون متناقضة فيما بينها . قال سري راما كريشنا لتلاميذه يوماً ، إنهم إذا ما أحسوا يوماً باغراء النساء ، فعليهم أن يذكروا بأن المرأة مكونة من أشياء كريهة مثل الدم والعظم والغضاريف . وهذا ينطبق على المنطق الفرويدي . فالجنس لا يمكن تفسيره بإرجاعه إلى عناصره ، تماماً كما لا يمكن تفسير الحياة

بتشريح الجسد . لكننا انصافاً لراماكريشنا نقول إنه ما كان ليحسب أنه يمكن تفسير الجنس تفسيراً وافياً بواسطة الدم والغضاريف والعظام ، كما أنه ما كان ليندهش أبداً للقول بأن الأعضاء التناسلية ذاتها ليست جميلة . بل كان سيعلن أن كل الجمال هو انعكاس للأم الإلهية ، أي لقدرة الخلق الأزلية عند براهما ، وإن كل امرأة هي مرآة صغيرة تعكس جزءاً ضئيلاً من هذه القدرة .

إن المرآة مصنوعة من الصفيح اللامع ، لكن ذلك لا يعني أن القدرة هي مجرد وهم . ومثل بويس ، فإن راما كريشنا ما كان ليجد صعوبة في فهم السادية ، نظراً لأن « كالي » تملك القدرة على الخلق وعلى الاعدام في نفس الوقت ، وهي على شكل امرأة سوداء الوجه تحمل في اثنتين من يديها سيفاً ورأساً مقطوعة وتمنح البركة لأطفالها بيديها الأخريين ، وهي ترتدي حول عنقها عقداً من الجماجم البشرية وتقف على جثة جسدها « شيفا » الذي يرمز الى الحياة الواعية . و « كالي » هنا رمز للقدرة الكاملة اللامنطقية لقوة الحياة ، وإن لمحة من هذه القدرة هي التي أوحت إلى نيتشه أن يقول بأن « الحرب هي دافع أعمق وأنبل من النزوع إلى السلم » .

وبلا شك فإن أفضل دراسة عن السادية ظهرت حتى الآن هي كتاب « السادي » Der Sadist للبروفسور كارل بيرغ ، والكتاب دراسة عن القاتل بيتر كورتن . وفي هذا الكتاب لا يخرج البروفسور بيرغ علينا بأية نظريات بل هو يعرض للحقائق فقط . لكن ما من دراسة أخرى تضاهي هذه الدراسة في مجموعة الحقائق والوقائع التي ترسم لنا صورة واضحة عن الدوافع العميقة الكامنة وراء جرائم كورتن .

ولقد اعترف كورتن الذي أعدم في تموز ١٩٣١ بأنه ارتكب تسع جرائم قتل وأربعة عشر اعتداءً آخر أدى بعضها الى إلحاق جروح خطيرة بالضحايا . وقد أمكن للبروفسور بيرغ الذي عمل كخبير نفساني مع بوليس دوسلدورف أن يمضي وقتاً طويلاً مع كورتن وهو في السجن ، وسرعان ما اكتسب ثقة

كورتن المطلقة . في البداية أعلن كورتن أنه اقترف جرائمه للانتقام من المجتمع . (قضى كورتن ٢٧ عاماً من أعوام عمره الثماني والأربعين في السجون) . لكنه عاد في النهاية ليعترف بأن الدافع الذي دفعه لارتكاب هذه الجرائم هو دافع جنسي محض . وقد كشف كورتن عن ذكاء ونزاهة غير عاديين . وعلى عكس « المجرم الشاحب » عند نيتشه ، فقد أدرك وأقرّ بأن انحرافاته هي جزء من طبيعته ، ولم يشعر بأي وخزات من تأنيب الضمير ، وتاريخ حالته كما رواها هو للبروفسور بيرغ على مدى عدة أشهر هو كما يلي :

ولد كورتن في كولون – ملهايم عام ١٨٨٣ لأب عنيف وحشي المزاج كان يعمل بناءً . وكانت العائلة المكونة من ١٣ فرداً تقطن لمدة طويلة في غرفة واحدة فقط ، وفي ظروف من البؤس الشديد .

وقد أصبح عامل الجنس هاماً في حياة كورتن منذ سن مبكرة . فحين كان والده يعود إلى البيت ثملاً كان كثيراً ما يعتدي بالضرب على زوجته ويجبرها على أن تضاجعه . وقد بدا للصبي الصغير الذي كانت هذه الأحداث كثيراً ما تتم تحت سمعه وبصره ، أن أمّه كانت تنتهك . وقد حاول أبوه كذلك الاعتداء على احدى بناته وكان نتيجة ذلك أن أمضى خمسة عشر شهراً في السجن . وقد ادعى كورتن أن كل شقيقاته كنّ شبقات وأن احداهن حاولت في احدى المرات أن تغويه . كما حاول مرة أن يجامع شقيقته التي حاول أبوه اغتصابها ، ولكنه لم يصب أي نجاح[1] .

وفي هذه البيئة من الشقاء والإنحطاط فإن المتنفس الوحيد للطاقة التطورية

---

١ – يشير علماء الاجتماع الى أن العلاقات الجنسية بين أفراد العائلة الواحدة أمر مألوف في الأحياء الفقيرة المزدحمة بالسكان ، وكذلك في العائلات الفقيرة الكبيرة حيث يضطر الأشقاء والشقيقات أن يناموا في فراش واحد أحياناً . لكن ذلك ليس دائماً هو المسؤول عن الفسق العائلي. فمدام دي برينفيي، القاتلة التي أعدمت عام١٦٧٦ ، كانت تنتمي الى عائلة ارستقراطية ثرية . وقد أقرت في اعترافها أنها ضاجعت كل أشقائها حين كانت فتاة صغيرة ، وانها مارست انحرافات مختلفة بلغ من فداحتها ، أن الناشر الذي تعاقد على نشر اعترافاتها اضطر الى طبع الاعترافات باللغة اللاتينية بدلاً من الفرنسية . « المؤلف »

كان الدافع الجنسي . وحين بلغ الثامنة من عمره صادق رجلاً سادياً كان يعيش في الطابق الأرضي من المنزل ، وكانت مهنته القبض على الكلاب الضالة . قد علّم هذا الرجل كورتن على أن يستمني الكلاب ، كما كان كورتن يراقبه وهو يعذبها . وهكذا بدأ التلازم بين الجنس والألم يتأكدان في ذهنه . وقد ادعى كورتن أنه عندما كان في سنّ التاسعة دفع صبياً من على طوف على نهر الراين ، وأنه حين وجد أن صبياً آخر حاول أن ينقذه دفعه تحت الطوف أيضاً بحيث قضى الصبيان نحبهما معاً غرقاً . وفي هذه السن ربما لم تكن الجريمة بالضرورة مرتبطة عنده بأية نزعة جنسية . إن الطفل يعيش في عالم الكبار ويحسّ فيه بالعجز . ولذلك فإنه يجد نفسه ميّالاً إلى أن يؤكد وجوده بتحطيم الزجاج أو تخريب أو تكسير أشياء أخرى ، الخ . على أن معظم الأطفال يخافون من الإستسلام لدافع التخريب هذا ، إلى جانب أن كثيراً من الأطفال لا يحسّون بقوة هذا الدافع إذا كانوا يعيشون في أمان وراحة معقولة . لكن كورتن لم يكن عنده ما يخسره ، لم يخسر إلا القليل ، كما أن حالة البؤس التي كان يعيش فيها دفعته إلى أن ينظر إلى العالم بعداء بارد كأنه عدو لدود. وقد بلغ شقاؤه حداً وهو لما يزل في سن الثامنة ، لدرجة أنه فر من البيت ، وعاش في شاحنات نقل الأثاث لبعض الوقت. ومثل هذا الطفل الذي يملك هذا القدر من الإستقلال ليعمل ما يريد ، يمكنه أن يؤكد ذاته ضد « عالم الكبار » وذلك بأن يرتكب جريمة مزدوجة .

وبعد أن بلغ العاشرة بقليل ، راح كورتن يمارس العادة السرية بكثرة ، وراح يحاول اغتصاب شقيقاته وبعض الطالبات الصغيرات . وفي سن الثالثة عشرة اعتاد على أن يتجول في المروج القائمة على شاطىء نهر الراين ، باحثاً عن حيوانات ليمارس النكاح معها . وقد ادعى أنه نجح في تعاطي الجنس مع الماعز والخنازير والخراف ، كما اكتشف انه يستطيع أن يزيد من متعته الجنسية لأحد الخراف إذا قام أثناء العملية بطعن الخروف بمدية . وكانت هذه بلا شك الخطوة الرئيسية التي أدت بكورتن ليتحول إلى قاتل جماعي من أفظع وأبشع

القتلة .

وفي سن السادسة عشرة أرغمه والده على أن يصبح أجير بنّاء ليتعلم المهنة ، وذلك رغم معارضة كورتن الذي كان يمقت مهنة أبيه. وقد اسيئت معاملته أثناء ذلك ، فما كان منه إلا أن سرق بعض المال وهرب الى كوبلتز ، حيث عاش مع مومس مازوكية . وبعد ذلك بفترة قصيرة ألقي القبض عليه بتهمة السرقة وأودع السجن ، وكانت تلك بداية محاكاته السبع عشرة ، والتي جاءت فيما بعد . وحين أطلق سراحه عام ١٨٩٩ اصطحب فتاة إلى غابات جرافنبيرجر وخنقها حتى الموت أو هكذا ظن أثناء مجامعته إياها. وقد صرح أن هذه الحادثة علّمته متعة الإيذاء أثناء العملية الجنسية لأول مرة . ومع أنه ظن بأنه قد قتل الفتاة الا أنه لم يعثر على أية جثة ، ومن المحتمل أن الفتاة لم تمت وانما فقدت رشدها فقط ، وأنها قررت الا تبوح بالحادثة إلى أحد .

وتلت ذلك عدة فترات قصيرة قضاها كورتن في السجن بسبب جرائم مختلفة منها قيامه بالترصّد لفتاة ومحاولته قتلها باطلاق النار عليها من بندقية . وكان يتعمد ارتكاب مخالفات لقوانين وأنظمة السجن لكي يوضع في زنزانة انفرادية من أجل أن ينغمس في نوازع سادية . وبعد اطلاق سراحه عام ١٩٠٥ ، اكتشف أن إشعال الحرائق في أكداس العشب الجاف ومخازن الشعير والحبوب يثيره جنسياً . وبدأ يشعر هنا « بالحقد على المجتمع » (وكان يجد قدراً معيناً من المبرر لذلك) ويربط بين متعته الجنسية و « انتقامه » من المجتمع . بل انه ابتكر نظرية في « العقاب التعويضي » فحواها أن العقاب المستحق عن جرائمه يجب أن ينزل بالذين كانوا قد عذبوه . ويمكننا أن نرى هنا المنطق الإجرامي في أجلى صوره . فقوى الحياة أو قوى « القدر الفردي » تتجسد في شكل « المجتمع » ، كما أن العجز عن تحليل الذات يؤدي أكثر فأكثر إلى الجريمة .

وبعد سبع سنوات أخرى في السجن بسبب السرقة (فقد خلالها توازنه العقلي لبعض الوقت كما ادعى أنه أفلح أثناءها في قتل أحد زملائه السجناء في

المستشفى بدون أن يجرّ إليه أية شبهة، أطلق سراح كورتن عام ١٩١٣) خرج ليرتكب أول جريمة قتل جنسية ، وكانت الضحية فتـــاة في الثالثة عشرة من عمرها . فقد تسلل كورتن إلى بيت في كولون – مولهايم في احدى الأمسيات ، وكان البيت خالياً سوى من فتاة صغيرة ، لأن عائلتها كانت تحضر احتفـالاً مـــا .

وكانت الفتاة نائمة في فراشها ، وقـــد خنقها كورتن ثم قطع عنقها واخترق أعضاءها التناسلية بأصابعه . وقد منحه ذلك متعة عظيمة بحيث أنه تمكن بعد ستة عشر عاماً من أن يتذكر ويسرد أصغر التفاصيل. وقد اتهم عمّ الفتاة زوراً بإرتكابه هذه الجريمة ، ولكن ساحته برئت فيما بعد . وكان كورتن يجد متعـة عظيمة في الإصغاء إلى الناس ، في الأماكن العـــامة وهم يتحدثون عن الجريمة ويعبرون عن هلعهم من فظاعتها .

ومنذ ذلك اليوم بدأ كورتن يسعى عن تعمد إلى آفاق جديدة لساديته أثناء عمليات السرقة ففي احـدى المرات استعان ببلطة لكي يضرب رجلاً وامرأة ويجرحهما ، ثم توصل إلى ذروة النشوة الجنسية وحالة القـــذف وهو يرى دمهما يسيل (ولسبب ما لم يبلغا البوليس عن الحادثة) . كما فاجأه أحد يوماً وهو على وشك أن يهوي بالبلطة على فتاة نائمة فلاذ بالفرار تاركاً البلطة وراءه . ومن بـين أعماله قيامه بحرق عربة زراعية ومحاولته خنق امرأتين . وكان يبـــدو من كل ذلك أنه أصبح الآن على استعداد لأن ينغمس في سلسلة من أعمال القتل والإغتصاب على نطاق واسع . وعلى كل حال فقد ألقي القبض عليه مرة أخرى وهو يحاول السرقة ، وحكم عليه بالسجن ثماني سنوات .

وحين أطلق سراحه عام ١٩٢١ عاد كورتن الى « ألتنبيرج» مدينته القديمة» مدعياً أنه كان سجين حرب في روسيا . وفي ألتنبيرج التقى بالفتاة التي أصبحت فيما بعد ، زوجته . كانت أكبر منه سناً ، وكانت كذلك قـــد قضت فترة في السجن لإطلاقها النار على عشيقها ، وهو بستاني كان قد وعدها بالزواج ثم غـير رأيه بعد أن عاشرها فترة من الزمن ، ومن المؤكد أن كورتن قد انجذب نحوهـا

بسبب طبيعتها السمحة والضعيفة ، لأنه من المستحيل على رجل مثل كورتن أن يميل إلى امرأة لا يستطيع أن يتحكم بها ويطوّعها لمشيئته . وكان موقفه منها هو موقف الشفقة والحماية. وقد قبلت الزواج منه بعد أن توعدها بالقتل إذا رفضت. وعلى كل حال فقد اتضح بعد مدة قصيرة أن اختياره كان ممتازاً . ومع أنــه لم يعاملها أبداً بقسوة ، (الغريب أن كورتن لم يكن رجلاً قاسياً ، إلاّ في حالات الشذوذ الجنسي) فقد اضطرت إلى أن تتحمل الكثير من خياناته الزوجية ، بل انها في احدى المرات ضبطته في الفراش مع امرأة أخرى . فالواقع أن النساء كن يجدن كورتن لسبب غريب ما، رجلاً جذاباً جداً . فهو لم يكن قبيح الشكل ولم يكن يحمل الصفات الخارجية لمجرم مثل لومبروزو مثلاً ، كما أنــه كان يتكلم بهدوء وكان بلا شك ذكياً ويعتني بهندامه ومظهره الخارجي بقدر امكانه. وكان يهوى ملاحقة النساء ومغازلتهن ، ووجد أن التقاط الفتيات عملية سهلة له. (قال كورتن أثناء محاكمته ، ان النساء اللواتي سمحن له بالتقاطهن بسهولة يتحملن بعض المسؤولية عن جرائمه) . ولم يكن يقتل أو يؤذي ضحاياه دوماً . فبعض الفتيات وجدن طريقته في الجماع الجنسي خشنة بعض الشيء ، لكنهن لم يكن يمانعن في ذلك . وعلى الأقل فإن فتاة واحدة وقعت في الحب معــه وكانت تتمنى لو تتزوجه ، ثم أصيبت بصدمة عنيفة حين اكتشفت صدفة أن «خطيبها» متزوج.

ويبدو أن زواج كورتن كان ذا أثر حسن . فقد قضى عدة سنوات يعمل في مهنة البناء في التنبيرج ، أصبح أثناءها نقابياً نشيطاً . ولم يقترف أية جريمة قتل خلال ذلك . لكنه اتهم مرتين باساءة معاملة خادمتين ، وفي احدى هاتين المرتين أنقذتــه زوجته من السجن بأن توسلت إلى واحدة منهما بسحب الدعوى ضد زوجها . ولكن أهواءه السادية استمرت في النمو ، لذلك قرر أخيراً العودة الى دوسلدورف ، ربما لأن مدينة كبيرة كهذه ستوفر له مجالاً أكبر ، وسيكون فيها غير معروف الهوية . وفي مساء اليوم الذي عاد فيه إلى دوسلدورف ، وكان ذلك في عام ١٩٢٥ ، لاحظ باغتباط أن لون الغروب كان أحمر كالدم . وهنــا بدأ « عصر الرعب » في دوسلدورف ، وهو عصر يندر وجود مثيل له في تاريخ

الجريمة . فقد بدأ كورتن يطلق العنان لميوله السادية بجملة اعتداءات على عدة نساء ، لكنها لم تكن مميتة . إلا أن الاعتداءات أخذت في الازدياد تدريجياً . وقد وجدت زوجته عملاً كنادلة في مطعم ليلي ، وكان كورتن يوصلها إلى مكان عملها ليلاً ثم يذهب بحثاً عن ضحايا جديدة . وحتى عام ١٩٢٧ لم تكن هناك إلا ثلاث حالات من محاولة الخنق المتعمد ضد ثلاث فتيات . ثم عاد كورتن إلى ممارسة اشعال الحرائق ، فقام بإشعال ثماني عشرة حريقة في غضون العامين التاليين . وكان يأمل في كل مرة يشعل فيها حريقاً ، في أحد مخازن التبن ، أن يكون أحد المتشردين نائماً فيه لكي يموت حرقاً . كما أن شهوته للدم أخذت تنمو كذلك ولم يعد يكتفي بخنق النساء فقط . ففي احدى المرات التي لم يستطع فيها أن يجد أية ضحية ، قطع رأس بطة نائمة وشرب قليلاً من دمها . وفي احدى المرات الأخرى أبصر حصاناً ملقى في الطريق ، ضحية حادث تصادم طازج ، فسبب له هذا المنظر حالة قذف سريعة .

وفي عام ١٩٢٩ بدأ يستعمل عدة أدوات حادة في اعتداءاته ، كالمدى والسكاكين والمقصات والبلطات ، واقترف خلال العام نفسه ثماني جرائم قتل وأربعة عشر اعتداءً أدى بعضها الى اصابة الضحية بجروح خطيرة . وكانت الضحية الأولى هي السيدة كون التي هاجمها في الظلام وطعنها ٢٤ مرة . وقد شفيت من جروحها بعد عدة أشهر قضتها في المستشفى . ثم طعن حتى الموت عاملاً ثملاً وبعده صبياً في الثامنة من عمره . وقد ترك الصبي خلف سياج ما ثم عاد في فجر اليوم التالي ومعه بعض البترول لكي يشعل النار في الجثة . وكان غرضه الوحيد ، كما صرح فيما بعد ، هو أن يزيد من فظاعة الجريمة . وفي اليوم التالي انضم إلى جموع الناس التي وقفت عند مكان وقوع الجريمة وأمكنه أن يتوصل إلى حالة قذف وهو يستمع إلى استنكاراتهم وتعليقاتهم .

وفي الأشهر القليلة التالية قام بأربع محاولات خنق فقط ، ثم قام بعدها بقتل خادمة اسمها ماريا هان في المروج التي تقع قرب بابينديل ودفنها هناك . وبعد فترة عاد ليغير موضع دفنها،فجامع الجثة جماعاً استيأ وراودتهرغبة في ان

يصلها بين شجرتين ، لكنه عدل عن ذلك بسبب ثقل الجثة ، وقبل أن يفعل ذلك ذهب مرات عديدة الى موضع قبر الجثة ومارس العادة السرية فوقه .

ولا ضرورة هناك لسرد تفاصيل حالات أخرى[1] . فقد اغتال كورتن ثلاثة أطفال آخرين ، وقتل خادمتين بمطرقة حديدية بعد أن اعتدى عليهما جنسياً. وقد حيرت هذه الجرائم البوليس الذي افترض أن وراءها أكثر من مجرم واحد . فبعد مقتل طفلين في ليلة سبت ، اكتشف البوليس جثة خادمة وقد طعنت حتى الموت بعد ظهر اليوم التالي أي يوم الأحد . وقد اعتبر البوليس أنه من غير المعقول أن يقترف رجل واحد ثلاث جرائم في يومين متتالين .

ومع ان كورتن لم يعتقل الا في أيار ١٩٣٠ ، فانه لم يكن في غضون ذلك قد اقترف أية جريمة قتل ، وإن يكن قد قام بعدة محاولات خنق لإشباع غرائزه السادية . ومن المحتمل أنه كان يحس آنذاك بنوع من الاشمئزاز بسبب جرائم القتل ، فهو لم يكن منحطاً تماماً مثل هيث وكريستي أو منهاراً إذا قورن بالمجرمين الآخرين ، بل إنه كان يهتم اهتماماً كبيراً بحالته ، وكان يحاول جاهداً أن يمنطق ساديته كما أنه قرأ عدة كتب في علم النفس . وهكذا فهناك احتمال ضئيل في أن يكون كورتن ، حتى في ذلك الوقت المتأخر . قد نجح في إنقاذ ما تبقى من حطام حياته .

وعلى كل حال فقد أدت الإعتداءات المتكررة الى حملة نشيطة من قبل البوليس الذي تلقى ما يناهز ١٣٠٠٠ رسالة تستنكر الجرائم ، وأجرى مقابلات وتحريات مع ٩٠٠ الف شخص وحقق في ٢٦٥٠ بينة ودليلا . وقد جاءت احدى رسائل الاستنكار من فتاة كان كورتن قد اعتدى عليها ، إلا أن البوليس غرّمها مبلغاً من المال على أساس « التمادي في الهذيان » .

وقد التفت الشبكة أخيراً حول كورتن عندما اعتدى على خادمة اسمها ماريا بودليك وكانت قبيحة مقوسة الساقين . وقد أغواها كورتن واصطحبها

---

(١) هناك تقرير واف عن قضية كورتن في كتاب كولن ويلسون المسمى : « Encyclopaedia of Murder » « موسوعة الجريمة » (هـ . م)

الى بقعة نائية ثم أرغمها على أن تتقبل « خنقاً بسيطاً» أثناء الجماع . لكن كورتن أخذها معه بعد ذلك الى بيته وأجرى معها نفس الشيء ، ولم تكلف الفتاة عناء إبلاغ الأمر الى البوليس ، لكنها سردت الحادثة في رسالة كتبتها الى احدى صديقاتها. الا أن الرسالة وصلت الى عنوان آخر بطريق الخطأ ، ففتحها شخص آخر ولمّا قرأ محتوياتها سلمها الى البوليس . وفي أحد أيام أيار عام ١٩٣٠ أبصر كورتن أثناء خروجه من منزله صدفة ، ماريا بودليك وهي تشير اليه لأحد رجال البوليس . ولم يعتقل مباشرة ، مع أنه أحس بأن النهاية باتت وشيكة . لذلك اعترف بكل جرائمه الى زوجته ونصحها بأن تسلمه للبوليس وتفوز بالمكافأة المالية . وقد أخذها الى أحد المطاعم لتناول العشاء ، ولمتابعة الحديث عن جرائمه ، وبلغ من اضطرابها أنها لم تستطع أن تأكل شيئاً ، فقام هو بالتهام طبقه وطبقها معاً. وفي اليوم التالي توجهت الى البوليس وألقي القبض على زوجها . وقد حصلت زوجة كورتن على المكافأة فيما بعد ، مما أنهى مخاوفها من مجاعة الشيخوخة . أما زملاء كورتن وجيرانه فلم يصدقوا في بادىء الأمر ان البوليس قد اعتقل « الوحش » وظلوا يعتقدون بعض الوقت أن البوليس قد اخطأ الحساب .

ولم يبد كورتن كثير قلق أثناء محاكمته. فقد كان يأكل وينام جيداً – يبدو أن الخطر كان يزيد من شهيته – كما أنه كان يتلذذ بشكل ملحوظ في استذكار جرائمه وسرد تفاصيلها « بدقة غير عادية » وكان صريحاً جداً مع البروفسور بيرغ . وقد شهدت احدى صديقاته بأنه وقف يوماً أمام تماثيل لمجرمين عريقين في أحدم تاحف الشمع وقال انه سيصبح شهيراً مثلهم في يوم من الأيام . وقد كان المجرم العريق الشهير « جاك ريبر » (الذي ذاع صيته حين كان كورتن في الخامسة من عمره) مصدر وحي لكورتن فيما بعد . وتحدث كورتن مع بيرغ عن أحلامه وخيالاته السادية المثيرة ، وكيف أنه يعيش حلمه الرائع باستمرار بنسف مدينة كاملة بالديناميت ؛ وأحياناً أخرى بإنقاذ المدينة من « الوحش » وبقيام المواطنين الشاكرين بتنصيبه رئيساً للبوليس . وتحدث عن « مظالمه »

وعن الإنتقام وكيف أن نظام السجن يخلق من السجين « مجرماً أصيلاً » . وكان صريحاً الى أبعد الحدود مع البروفسور . بل انه أقر في مقابلة أخرى بأنه كان يتفحص باهتمام غريزي عنق سكرتيرة بيرغ الأبيض النحيل . وفي عشية اعدامه أكل وجبة كبيرة بنهم شديد وطلب المزيد . وقد أخبر بيرغ قبل إعدامه بأن رغبته الأخيرة الكبرى هي أن يسمع قطرات دمه وهي تسقط على السلة بعد أن ينفصل رأسه عن جسده، وعلى الرغم من حملة احتجاج واسعة النطاق(كانت ألمانيا قد ألغت عقوبة الإعدام الا بالنسبة لأقصى الحالات) فقد أعدم كورتن بالمقصلة في ٢ تموز ١٩٣١ .

هناك حالات نادرة جداً في تاريخ الجريمة تفوق هذه الحالة فظاعة . فلم يكن في أميركا أو بريطانيامن يعادل كورتن الألماني سوى جاكريبر الإنكليزي، وألبرت فيش الأميركي[1] . إلاّ أنه من السهل والبساطة بمكان القول ان كورتن قد تحول الى مجرم بسبب مجموعة الظروف الاجتماعية التي ربي فيها . فمن الجائز جداً أن كورتن كان سيصبح فقط في ظروف اجتماعية مختلفة ، مجرد « سادي عقلي » مثل بويس أو « المستر ايفانز » لكن التحليل الفرويدي لمبدأ « الليبيدو العدواني » هو نوعاً ما أقل اقناعاً من نظرية بويس عن الرجل الذي يتلقى عصبه الغرائزي قوة وطاقة هائلتين من الجانب الهدّام « للسببية الأولى » إن كورتن الذي أثاره منظر الغروب الأحمر الدامي ، والذي كان يسير في شوارع دوسلدروف يحلم بنسف المدينة عن بكرة أبيها ، ثم الذي كان مع ذلك يهتم بحالته اهتماماً ذكياً ، هو رجل يمكن فهمه بصورة أفضل لو قبلنا بنظرية «القوة السوداء » التي كانت ترده من خارج نفسه .

---

١ – خنق فيش طفلاً وأكل بعض أجزائه . ومع أن الطبيب النفساني الذي عمل في قضية فيش وهو الدكتور فردريك ويرثام قد وصف فيش بأنه «ملك المنحرفين» ، الا ان ما نشره عن القضية لم يكن بمثل سعة وعمق كتاب البروفسور بيرغ عن كورتن . لقد كان فيش سادياً ومازوكياً ذا تصورات وأوهام دينية ، ولم يكن يعتدي الا على الأطفال فقط . ولا شك أنه أرتكب من الجرائم أكثر مما أدين به . ويمكن قراءة تقرير ويرثام الموجز عن فيش في كتابه : « استعراض العنف »The Show of Violence .

وهــذه الاعتبارات المختلفة تؤدي بالبحث الى ما هــو بالتأكيد أصعب مراحله . ذلك أنه يبدو أن هناك شواهد كثيرة تؤيد نظرية فرويـد القائلة إن السادية تنبع من مصدر غير المصادر التي تنبع منهـا الانحرافات الأخرى . وهذا « المصدر الخاص » مشروح بالتفصيل في كتاب « ما بعد مبـدأ اللذة » Beyond The Pleasure Principle . انـه « رغبة الموت » أو مـا يسمى بالإغريقية « Thanatos » ، ولقد حيرت مشكلة العدوانية الإنسانية فرويـد الذي كان يشعر بأن تفسير ماركس القائم على نظرية الحرب الطبقية هو تفسير سطحي ، لذلك كوّن مفهومه « الجديد » فيما يتعلق بذلـك . (وفي الواقع أن ذلك المفهوم هـو من ابتكار شوبنهاور الذي استوحـاه من بعض الصوفيين المسيحيين ومن البوذية) . لقد خاض البشر الحروب لأنهم في أعمـاق سرائرهم كانوا يودون أن يموتوا . إن الحاجة الى حفظ الذات قد تكون عميقة جـداً ، لكن شهوة الموت أعمق . فالسادية اذن (كما يعتقد فرويد) هي مزيـج من أقوى الدوافع اطلاقاً في الكائن البشري : الجنس ورغبة الموت . ويمكن فهـم كورتن على ضوء أنه كان يسعى الى الانتحار حين كان يسعى إلى القتل ، وانـه ألقى بنفسه في نهـر سيحمله الى الموت وسمح لحاجته الى الجنس ، وحاجته الى الموت ان تمتزجا في نوع من الحمّى المجنونة .

وللوهلة الأولى فقد يبدو هـذا الرأي قابلاً للتصديق . وقـد يقول أحد الفرويديين جدلاً أن نيتشه كان قد افترض شيئاً من قبيل رغبة الموت في «المجرم الشاحب » الذي خلقه . ولكن ذلك سببه أننا نخلط بين الرغبة الرومانتيكية « للرجوع الى الرحم » برغبة الموت. إن المجرم الشاحب لم يكن يود فعلياً أن يموت . لقد وصل فقط إلى درجة من الارهاق والانحطاط بحيث أنه لم يعد يريد فعلياً أن يعيش. إن البشر يفكرون أحياناً بالموت كما يفكر رجل أعمال تراكمت عليه المصاعب والضائقات ، وهددته بالافلاس . لكن رجـل الأعمال في واقع الأمر يود أن يبدأ تجارة جديدة أو مشروعاً جديداً من غـير اعبـاء الديون القديمة. وبالطريقة نفسها فإن رومانسيي القرن التاسع عشر كانوا يحلمون بالرجوع

الى الرحم « نصف هائمين بالموت السهل » (كما جاء في احدى القصائد) . لكن الذي كانوا يريدونه حقاً هو أن تخف وطأة الحيـاة ومصاعبها ، أو بمعنى آخر فترة للراحة والنقاهة . وفي بعض الأحيان كان يتهيأ لهـم أن الحياة كلها هي شقاء لا مفر منه وأنها تسمح لنا أحياناً بالراحة والاستجمام لكي تعـود فتستغلنا بقسوة أكبر . الا ان شعراء مثل تراهيران وبليك ووردزورث ، وحتى شيلي ، كان يتملكهم إدراك داخلي بزخم حياتي أكبر وأعمق ، بقوة تجعل كل العذابات تبدو تافهة . وقرب نهاية القرن ، كان موضوع « نعم الأزلية » و « لا الأزلية » قد توضح عن طريق عـدد لا بأس بـه من الشعراء والكتاب والفنانين بينهم كارليل ونيتشه وفان كوخ وريلكه . وفي كثير من الحـالات لم يكن الجواب مجرد « نعم » رابطة الجـأش على طريقـة الرواقيين الذين لا يبالون بالمؤثرات الجسدية ، كما قالها كارليل ، بل كان تأكيداً صوفياً روحياً . ولم يذهب فرويد أبعد من رومانسيته المريضة التي كانت تفهم رحم الحياة الأسود خطأ على أنـه الموت . (وقد كان ريلكه ميالاً الى أن يرتكب الخطأ ذاته) . أما كامو فقـد حدّد موقفاً أكثر صحة وعمقاً من الموت حين قـال : « إنـه بالنسبة لي بابٌ مغلقٌ ... مغامرةٌ مريعةٌ وقذرةٌ » . وقد أدرك ذلـك أيضاً برنارد شو ؛ ففي روايته : « The Domesticity of Franklin Barnabus » يرد هـذا الحوار :

كونراد : ... هل تعرف ممّ يموت الناس فعلاً ؟

ايمنسو : من المعقولية . انهم لا يريدون ان يعيشوا الى الأبد .

كونراد : من الكسل والحاجة الى الاقتناع ، ومن فشلهم أن يجعلوا من حيواتهم شيئاً يستحق أن يعاش . هذا هو السبب » .

وحتى دوستويفسكي ، الرومانسي العريق، تبرأ من « رغبة الموت » وقال إن « الحياة الأبدية » لا تعني الحياة في السماء بل الحياة المـادية هنا على الأرض ، في حالة من العمق والعنفوان ليست في مقدور تصورنا في الوقت الحاضر . فـإذا تمّ تفضيل وجهة النظر هذه على رومانسية فرويد الجديدة فإنه يجب التخلي إذن

عن تفسير السادية على أساس رغبة الموت . إن الإنحلال ليس مرادفاً لرغبة الموت . احدهما حالة من الحياد والآخر هو حركة هبوطية أكيدة . لقد شك برناردشو أنه من الممكن للمخلوقات البشرية أن تتمنى موتها الخاص بأعمق غرائزها ، وهناك أدلة كثيرة تؤيد وجهة نظره . فبطلة تولستوي أنا كارانينا تكتشف فجأة وهي على شفا الانتحار ، بعد أن فات الأوان ، ان الموت هو آخر شيء كانت تريده . إن بصيرة تولستوي كانت أعمق هنا من بصيرة فرويد. فالانحلال هو نتيجة « العدمية » أو « النيهيلية[1] » . وكل الحيوانات تنجو من هذه الحالة الغريبة بسبب قوة غرائزها التي تعطي الحياة خلفية معينة من «القيم». لكنه كلما يزداد العقل قوة تضعف الغرائز ، وإذا ما تحول المجتمع فجأة الى مجتمع أكثر صعوبة وتعقيداً ، كما حدث في المئة سنة الأخيرة ، فسيصبح الناس بحاجة إلى زيادة تنسيقهم الفكري وتلاؤمهم الحياتي زيادة هائلة من أجل البقاء . وأي لندني أو نيويوركي وحتى لو كان غبياً ، سيبدو بالنسبة لأي رجل من العصر الاليزابيثي مثالاً رائعاً على التنسيق والتلاؤم الاجتماعي . إن الغرائز تضعف فجأة ، وتكون النتيجة أن يحس الإنسان بأنه موجود في شيء يشبه الصحراء « الروحية » لا يعرف ماذا يفعل لأن غرائزه لم تعد تدله على ما يفعل . وفي هذه الحالة ، فقد يلتفت إلى اللذة كالقيمة الايجابية الوحيدة ، كما فعل الناس دائماً في الحضارات الزائلة. لكن عصب اللذة ليس من القوة بحيث يحتمل كل عبء السعي الانساني نحو التطور . إنه يصبح عديم التأثر والحساسية . والانحرافات الجنسية هي محاولة لتحريك وإثارة عصب اللذة الخامد . والجنس يستعمل غريزياً كصمام أمان لأنه يربطنا مؤقتاً بالقوى الغرائزية التي هي مصدر كل « القيم » .

وفي كتاب African Genesis لروبرت آردري مثال طريف على ازدياد التركيز على الجنس في ظروف تضعف فيها الغرائز . فقد راقب السير سولي

١ – استعمل الكلمة هنا بمعناها النيتشوي أي الإنهيار الكامل لأي معنى للقيم أو احساس بها بسبب وجود شيء مسمم « بكسر الميم » في النظام الإجتماعي أو بسبب « الانهيار والزوال » .
« المؤلف »

زوكرمان سلوك وتصرفات جماعة من قردة البابون في حديقة الحيوانات بلندن ليخرج بعد ذلك بتعميم مفاده أن الجنس هو القوة المحركة العظمى في مجتمع الحيوان . فقردة البابون مثلهم مثل كثير من الحيوانات والطيور يتقيدون بنظام طبقي من الامتيازات ، مما يجعل القرد « الارستقراطي » منهم يملك عدداً كبيراً من الاناث (والطريف في الأمر أن الاناث هن اللواتي يخترنه) في حين يعاني القرد « البروليتاري » من الحرمان الجنسي . وقد لاحظ السير سولي أن ذلك ما يؤدي في الغالب الى معارك واشتباكات جنسية ، إذ يحدث أن يقوم أحد القردة المحرومين من الامتياز الجنسي بمحاولة لاختطاف واحدة من حريم القرد الارستقراطي ، يؤيده في ذلك بعض القردة الآخرين . وهنا يضطر القرد الارستقراطي إلى الدفاع عن حقوقه . فإذا خسر فسينحط مقامه ويصبح أحد المعدمين ، بينما يحتل القرد الأقوى مكانه . وقد أدت هذه الحوادث وغيرها لأن يأتي السير سولي ويؤكد هذا التعميم . لكن ظروف حديقة الحيوانات ، كما يشير آردري ، هي ظروف اصطناعية غير طبيعية . ذلك أنه اذا راقب أحد الناس قردة البابون في بيئتها الطبيعية ، فلن يشهد أية معركة جنسية . « فالبروليتاريا لا تتحدى « النظام الاجتماعي » أبداً . إن أعظم قوة في مجتمع البابون هي الأفضلية ، « ارادة القوة » ، لكنها تصبح الجنس في الأسر فقط ، لأن الجنس يكون عندها هو المتنفس الوحيد . (يقدم اردري مجموعة ممتازة من الأمثلة لدعم وجهة نظره) فيقول : « الجنس هو عامل جانبي في عالم الحيوانات ، لأن الخوف هو اللون المميز لذلك العالم » . إنه يورد كذلك أمثلة تستحق الاهتمام على الكيفية التي تضعف بها « الغرائز الطبيعية » في الحيوانات حين يلقى بهم في ظروف اجتماعية غريبة (على ظهر سفينة مثلاً) . فإذا طبقنا ذلك على المجتمع البشري فسنبدأ في تفهم كيف تنمو نسبة الجرائم الجنسية باضطرار في مثل هذه الحالات ولماذا تزداد كذلك الانحرافات الجنسية . ان الحيوانات والطيور تختار شريكها الجنسي على أساس الأفضلية الاجتماعية . أما في مجتمعنا الآلي العصري الشديد التعقيد ، الذي يمكنه أن يسحق الفرد سحقاً ، فهناك عدد كبير من الأفراد

أصحاب الامتياز الذين لا يجدون أية صعوبــة في ايجاد مخارج لغرائزهم الجنسية وعدد أكبر من « المعدمين » الذين يشعرون بعدم الامتياز الجنسي .

إن نجماً سينمائياً كبيراً يمكنه أن يضاجع كل فتيات الكورس والمضيفات في هوليوود ، في حين أن سائق شاحنة غير ناضج عقلياً مثل تشارلز خلويد مضطر إلى أن يقتل فتاة جميلة لكي يستحوذ عليها . إن مجتمعاً كمجتمعنا هو تربة خصبة مثالية لنمو كل أنواع الشذوذ الجنسي .

لكن ذلك لا يفسر الدافع إلى الساديــة . كان تشارلز فلويد يضرب النساء حتى الموت من أجل أن يغتصبهن ، لكنه على الأقل لم يكن يحس بأية رغبة في تعذيبهن . فالسادية تؤدي إلى أغوار أعمق . وهنا يقدم روبرت اردري لنـــا آراءً ذات أهمية كبيرة. يقول اردري نقلاً عن العالم الانثروبولوجي ريموند دارت من جنوب أفريقيـــا : إن الجنس البشري تطور من قبيلة من القردة القاتـــلة . والنظرية الأكثر اطراءً التي يؤمن بها معظم علماء الانثروبولوجيا[1] هي :

إن « الإنسان الأول » كان يمتلك عقلاً أكبر من عقل القرد ، وانه لذلـــك تمكن من أن يبتكر الأسلحة والأدوات .

يقول دارت : إن قبيلة من القردة القـــاتلة تفرعت من قبيلة من القردة غير العدوانيــة ، وإن القردة القاتلة استعملت الأحجار والعظام الكبيرة كأسلحة ، وإنها اضطرت الى أن تنمي قواها العقلية من أجل أن توفق وتنسّق بين العضلات والفكر . هكذا تطور الإنسان .

ونظرية اردري المؤسية نوعاً ما هي أنه ما دام الإنسان قد تطور على أساس أنه قاتل . فالعدوانية هي جزء لا يمكن استئصاله من طبيعته . وبينما يتحـــدث المبشرون والإنسانيون وعلماء الإجتماع عن السلام العالمي والوئام والأخوة بـــين البشر ، يظل سباق التسلح مغروساً في أعمق أعماق النفس البشرية . وإذا كان بقاء الأجنـــاس البشرية متوقفاً على السلام ، فإنه من المستحيل علينا إذن أن نضمن البقاء .

---

١ – علم التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية . « المترجمان »

هذا هو ما تقوله نظرية اردري . كما أن اردري يشير الى أن القبائل هي على عداء مع بعضها البعض . وقد قام أحد العلماء الطبيعيين بوضع جماعة كبيرة من القردة على جزيرة بعد أن تأكد من وجود طعام ومساحة كافيين للجميع . وبدلاً من أن يقيم القردة مجتمعاً فوضوياً، ومن أن يتجولوا ويهيموا بسلام فوق جزيرتهم الجديدة ، انقسموا الى قبائل وجماعات وقسموا الجزيرة إلى مناطق وحدود وراحت كل قبيلة تعادي الأخرى .

وقد تكون هذه النتيجة مؤسية وربما غير دقيقة كلية ، الا أنها تقرر الحقيقة التي بدأها نيتشه والتي تكرر ذكرها في الثقافة الحديثة وهي : ان « الطيبة والنور » هي صيغة ممتازة لكنها بعيدة جداً عن حقيقه الإنسان النفسية العميقة بحيث لا يمكنها أن تكون قانون عمل للمجتمع .

ولنفاد صبره من مدرسة «الطيبة والنور» فقد تطرف نيتشه في آرائه وأعلن أن الحرب أنبل من السلام وانه يفضل مقاتلاً على راهب[1] .

أما بيرغسون وسوريل وباريتو فقد ذهبوا الى أبعد منذلك وأقاموا تعليلات للامعقول . قال هولم :

إن الطبيعة الإنسانية فاسدة باستمرار وبدون تغيير ، وإن مبدأ الخطيئة الأصلية يحتوي على حقيقة أساسية .

كما أنه كتب سلسلة مقالات ضد المسالمة والسلم، وشرح فيها لماذا يحس بالفخر لأنه اشترك في حرب ١٩١٤ . ومن سوء الحظ أن القدر كان إلى جانب غريمه برتراند رسل فأنهى الجدل بينهما بقتل هولم ، مؤكداً أنه حتى إذا ما صمم المثقف على القيام بدفاع متناقض عن العنف فإن عليه أن يحذر من أن يتصرف حسب معتقداته التي أعلنها . وقد تابع ازرا باوند التقليد النيتشوي فنظم قصيدة قال فيها : « لا حياة لي الا حيث تتشابك السيوف » . (لكن باوند كان من التعقل

---

١ — لا أظنني بحاجة الى أن أضيف بأن موقف نيتشه النهائي لا يعتمد على هذه الآراء وانه هو نفسه كثيراً ما قال أشياء تعارضها . والذي يحدث هو أن اللاانساني يجد نفسه في كثير من الحالات مدفوعاً لأن يشتط في تقرير موقفه من فرط الغيظ . «المؤلف»

بحيث أنه لم يشترك في الحرب) . وأخيراً جاء أرنست همنغواي بأقوى هـــذه الحجج كلها بأن بيّن أن الشكل الصحي والحيوي العام من الكتابة قد تكون جذوره موجودة في العنف وتقبل الموت. ومثل هولم فإن همنغواي سرعان ما سار بمعتقداته إلى درجـــة السخافة ، فخلق نوعاً من العالم القائم على مصارعة الثيران وصيد الحيوانات الضخمة والموت ، وانتهى هو نفسه كضحية « لمذهبه الخاص »، **مذهب العنف واللافكر** .

لكن الحقيقة القائلة بأن هولم وهمنغواي كانا مخطئين تقريباً مثل ماثيو أرنولد ووليام موريس لا تعني أنه يجب أن نستبعد المدرسة « اللاعقلية » . فالقرن التاسع عشر أدرك الحقيقة الأساسية القائلة بأن الإنسان قد تطور بسبب قدرته على التحليل واستعمال الرموز . وهذه نقطة مركزية ذات أهمية عظيمـــة ولا يمكن تقريرها بدون تشديد . إنها نقطة مركزية بالنسبة لهذا الكتاب . هناك طريقتان أساسيتان يمكن للإنسان بواسطتها أن « يفهم » العالم الخارجي :العقل والبديهة. لكن لنمعن النظر في المعاني التي تتضمنها هذه الكليشيه . أنت تتعرف على وجه أخيك بالبديهة وليس بالتحليل ، وبمعنى آخر بواسطة قـدرة تشتمل على « جيشتالت » . قد يمكنك أن تتعرف الى غريب بالإدراك التحليلي ، كأن تقول : « هذا الرجل شعره أحمر وأنفه مكسور ، لذلك فهو لا بد أن يكون فلاناً الذي قابلته في الأسبوع الماضي » . لكن اسلوباً كهـــذا هو اسلوب غير مألوف . إن كل قدرات تعرفنا الأساسيـــة تجيء عن طريق الإدراك الجيشتالتي الذي يحتوي على ما يعرّفه هوسرل بعامل العمدية أو القصديـــة (أي أن نقرر بصورة غير واعية أية نواح أو ملامح من وجه إنسان مـــا نريد أن **نلاحظها أكثر شيء**) . وفي ذلك فإن البشر هم مثل الحيوانات .

لقد لوحظ أن طيوراً وحيوانات معينة تستطيع ان « تعدّ » الى أربعة أو خمسة . وقردة البابون ، كما يقول آردري ، تستطيع أن تعـــد الى رقم ثلاثة وهناك طيور معينة تستطيع أن تصل في العد الى رقم ستة . ويمكن تقرير ذلك بواسطة اختبار بسيط . لنفترض أن جماعة من قردة البابون سطت على بستـان

أو بيّارة وتصدى لهـا ثلاثة مزارعين فإن القردة ستهرب ، لكنهـا ستكمن بالانتظار في مكان قريب . فاذا خرج اثنان من المزارعين الثلاثة وغادرا البيّارة بينما ظل الثالث يحرس المكان خفية فإنالقردة ستدرك ان هناك ثالثاً يترصد لها، ولذلك فهي لن تحاول الاقتراب من البيّارة خوفاً من الوقوع في الفخ . وإذا ما أعيد هذا الاختبار وكان هناك أربعة مزارعين ، غادر ثلاثة منهم المكان بعـد محاولة السطو بينما تخلف الرابـع وراح يتربص بالقردة ، فان القردة لن تلاحظ أو تدرك ذلك وستقوم بالسطو مرة أخرى وبذلك تقع في الفخ .

ويروي العالم الطبيعي الانكليزي لوبوك قصة مماثلة عنغراب أظهر أنه يمكنه أن يعد الى أربعة . ومن المعروف بصفة عامة انه إذا ما أخذت من عش مـا بيضة واحدة فان الطير لن يلاحظ ذلك ، اما إذا أخذت بيضتان فان الطير سيهجر العش .

ولكن القول إن الطيور والحيوانات تستطيـع أن «تعدّ» هو قول مضلـّل . فالعدّ يقوم على استعمال الأرقام والرموز مثل واحد واثنان وثلاثة ، كما أنـه يشتمل كذلك على اجراء تحليلي يعتبر كل وحدة قائمة بذاتها ، كأن تلصق بطاقة مرقمة على كل وحدة تقريباً . أما الحيوان « فيعدّ » بنفس الطريقة التي يميز بهـا وجه أليفه ، أي « باستيعاب المجموع الكلي والاعتماد على عمل العمدية فيـه لكي يمكنه أن يحتفظ بصورة دقيقة أو شبه دقيقة عن ذلك المجموع . وهـذا مألوف أيضاً بالنسبة للكائنات البشرية . ففي « Kim » لكبلنج ، نرى كيم يدرب على أن يكون رجل استخبارات سري كفؤ بأن يطلب إليـه أن ينظر إلى صينية عليها عدد من الأشياء ثم يحاول أن يعدّد ما رآه بعد عـدة نظرات خاطفة . وهذا يتطلب المزيد من تدريب القدرة الجيشتالتية . ويمكن للقارىء أن يجرب هذا الاختبار بأن يلقي نظرة خاطفة على أحـد رفوف الكتب لمدة ثانيتين ثم يحاول أن يستذكر أكبر عدد أمكنه الاحتفاظ به في ذاكرته . ليس هنـاك وقت للعدد أو لإلصاق « بطاقات » ذهنية على كل كتاب ، لذلك فإن عملاً مثل هذا يجب أن يترك كلية للقدرة الجيشتالتية ، لبديهة الشكل . وهذه البديهة ضمن

حدودها وامكانياتها ، أسرع وأكفأ بكثير من العقل . فالعقل يحتاج الى تمعن خمس دقائق في رف الكتب ويحتاج الى تطبيق أرقام وأسماء على الكتب . وعلى كل حال ، فان العقل ، على كل بطئه السلحفائي ، هو الأكثر كفاءة في النهاية ، إذ يمكنه أن يستوعب كميات هائلة من المواد الغريبة – مكتبات بأكملها – في حين أن القدرة الجيشتالتية لا تعدو حدود رف واحد من الكتب . إن الحيوان لا يمكنه أن يدرك وجود أي معنى في الأساليب البشرية التفكيرية مثل اللغة والرموز الرقمية، تماماً كما لا يمكن لرجل معدم أن يرى وجود أية حاجة لحساب في البنك أو لبوليصة تأمين على الحياة . فاللغة البشرية هي فخر لايماننا بقدرتنا على الجلد والاحتمال ولبعد نظرنا ، وتطورها البطيء هو دلالة على عدم ثقتنا الحيوانية الأساسية بأي اجراء الا بالاجراءات المباشرة البدهية .

لكن ما علاقة كل ذلك بنظرية الجنس وعلى الأخص بالسادية ؟

إن نقطة البحث الأساسية هنا هي : إن القدرة الجيشتالتية (وهو تعبير أكثر دقة من البديهية) تلعب دوراً صغيراً لكن لا يمكن الاستغناء عنه كلية في التطور البشري . والعقل هو الذي يقوم بكل العمل الحقيقي . ولآلاف السنين، وربما لملايين السنين ، استخدم الانسان كلتا هاتين القدرتين بشكل متكافىء . ثم فجأة وفي غضون آلاف السنوات الأخيرة ، قرر الإنسان أن يغامر ويرهن مستقبله ورأسماله بالعقل . وحتى على الرغم من ذلك ، فإن تطور العقل كان بطيئاً جداً . وإن رجلاً مثل ارسطو كان يمكنه أن يطلق ما شاء من التعميات العجيبة دون أن يتجشم عناء فحصها والتأكد منها بواسطة «الاجراء السلحفائي» للتجربة والبرهان .

إلاّ أن الارتفاع المفاجىء العظيم في أسهم العقل حدث منذ أقل من أربعة قرون ، وارتبط بأسماء مثل اسماء غاليليو وكيبلر ونيوتن . ومنذ ذلك اليوم وهذه الأسهم ترتفع وتتضاعف حتى وصلت إلى آلاف أضعافها . لقد استمرت في الارتفاع طوال القرن الثامن عشر حتى بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر . ولقد عبّر رجال مثل كومته وميل وماركس عن إيمان غير محدود بالأسلوب

التحليلي . بل ايمانهم وتفاؤلهم كانا من الكبر بحيث أنهم ، في غمرة ذلك ، التهوا عن رؤية القدرة الجيشتالتية ذات الأهمية الكبرى . لقد أعلنوا أن التحليل هو كل شيء وان الانسان لا يحتاج الا" الى التحليل لكي يزيدمن مكانته ويحس بمجتمعه بغير حد" . لكن ذلك يشبه القول إنه يمكن تأسيس اقتصاد بلد ما على الأوراق المالية كلية ، بدون وجود أرصدة ذهبية في البنوك . ذلك معناه قطع للجذور . ولذلك فلن يكون من المدهش أن تبـــدأ أعراض مرض خطير في الظهور على ثقافة مبنية على مثل هذه الأسس . ولن يتم أي تحسّن الا" إذا أعيـدت فكرة القدرة الجيشتالتية إلى مكانها الصغير . لكن الصحيح ، وهذه ، في الواقع ، هي الثورة الآخـــذة في التقدم ببطء ولكن باطراد في كثير من الحقول في المئة سنة الأخيرة .

وإنه لمن سوء الحظ أن الذي خلق النظرية الجنسية خلقاً كلياً تقريباً هـــو رجل يكاد يماثل جون ستيوارت‌ميل في ايمانه بالتحليل وتعاميه عن الجيشتالت. إن ما أنجزه فرويد هو شيء يفوق الوصف والتصور . لكن فرويد مع ذلك ، وفي نواح عديدة ، هو اسوأ شيء حل" بعلم النفس الحديث .

وهذه الاعتبارات تجعل بالإمكان طرح تعريف أساسي وشامل للوجودية . إن الجيشتالت هو أساس حيواتنا ومن ثم تطورنا . فالجيشتالت (أو البديهية) هو جذور الشجرة ، والتحليل والعقل هما الشجرة نفسها ، أي الجزء القائم فوق الأرض . ولقد أعلن القرن التاسع عشر أن الشجرة لا تحتاج إلى جذور ، فعـاد الوجوديون وأعلنوا بتحدٍ أن الجذور لا تحتاج الى الشجرة . (وهكذا هاجـم كير كيغاردُ هيجلَ ، بينما أعلن هيدجر أنـــه مهتم فقط « بالوجود المحض ») . ومع ذلك فهذه مواقف متطرفة عقيمة . إن أعظم المفكرين الوجوديين مثـل نيتشه ووايتهد ووليم جيمس (يمكن كذلك اضافة اسم جون ديوي إلى هـــذه اللائحة مع بعض التحفظات) بنوا مواقفهم على النظرية المعقولة ، القائلة بأن الشجرة تحتاج الى جذورها في موضعهـا الصحيح ... تحت الأرض ، بالإلتصاق مع التربة الحية ، مع القوى الحيوية الأساسية . ولقد سلك كل هؤلاء المفكرين

طريقه الخاص في تقرير ذلـك ، لكنهم كلهم كانوا متفقين تماماً عـــلى الفكرة العامة .

وكما قلت سابقاً ، فان ذلك ينطبق بشكل خـاص على الجنس الذي سيبقى غير قابل للفهم بدون اتباع ذلك الاسلوب. وفي الفصول الأولى من هذا الكتاب حاولت أن أظهر فائدة هذا الأسلوب . لكن مشكلة السادية تبين وتؤكد أن هذا الأسلوب لا يمكن الاستغناء عنه . إن احتياج فرويد الى أن يخترع نظرية رغبة الموت يكشف عن قصوره . لقد اكتشف الحاجة إلى أن يعمق مفهومـه نوعاً ما لكي يفسر العدوانية ، لكنه لم يشأ أن يحاول تعميق نظريته عمومـاً . وهكذا فان رغبة الموت تبقى بمثابة النسر بين حمامات فرويد . وهذا هو عادة مصير أية محاولة لتقليص التعقيدات واختزالها في مفهوم واحد مبتسر جـداً . (إن محاولة راسل ووايتهـــد لإخضاع كل الرياضيات للمنطق في Principia Mathematica مثال آخر على ذلك . لقد بقي « نظامها » ناقصاً غـير متمم حين أخذت التناقضات الداخلية في الظهور ، لكن بعد أن حاول راسل عـدة حلول وسطية على نسق رغبة الموت) . ما هو اذن البديل الوجودي لوجهـــة النظر الفرويدية ؟ إنه أولاً الحاجة الى ادراك أن الدافع الجنسي ليس هـو القوة الانسانية الدافعة الأساسية . فهو ليس « أساسياً » أكثر من الدافع الى الاصلاح الاجتماعي أو الى مزاولة الرياضيات . وقد يكون أقوى ، لكن ذلـــك شيء يختلف كلية . لقد أعلن فرويد أن الجنس هـو مولد الطاقة العالمي وان كل « التيارات » الأصغر والأقل شأناً تنبثق منه . وقـد حاول أدلر أن يعدل من هذه النظرة وذلك بأن يؤكد أهمية إرادة القوة والحاجة إلى التكييف الاجتماعي واحترام النفس. ويشير كتاب اردري إلى أن تلك النظرة أخذت تظهر كحدث بديهي في علم الحيوان . لكن حتى ذلك ليس أساسياً بالقدر الكافي . وبويس على الرغم من صوفيته أو روحانيته الغامضة، هو أقرب إلى فكرة موحِّدة (بكسر الحاء) اساسية حين تحدث عن « سببية أولى » ذات محورين ايجـــابي وسلبي . لكن ذلك يجب الا يفهم حرفياً جداً. فان الحقيقة بالنسبة لعالم النفس الوجودي

قد تبدو شيئاً مثل ذلك :

مولّد الطاقة هو دافع تطوري بلغ من القوة الهائلة حداً أنه من المستحيل تقريباً أن ندلي بأية تأكيدات أساسية عنه .

لقد كتب هولم يقول : ـ « إن عملية التطور يمكن تفسيرها فقط بأنها ادخال المزيد والمزيد من الحرية في المادة ... وفي الأميبا ، إذن ، تستطيع أن تقول إن الدافع قد صنع منفذاً صغيراً يستطيع النشاط الحر أن يدخل من خلاله إلى العالم ، وأن عملية التطور كانت هي التوسع التدريجي في هذا المنفذ » . لكن المسألة ليست فقط قيام قوة عاتية بتوسيع المنفذ . إن رغبة الحياة هي شيء يشبه ثوراً في دكان خزف أو ربما يمكن وصفها بفيل يحاول أن يتعلم الخياطة بالإبرة . وبخفة وسماحة باهرتين بالنسبة لقوة هائلة مثلها ، فإن رغبة الحياة استطاعت أن تبني سلسلة دقيقة من الصمامات والسدود التي يمكن تشبيهها بالمصاهر الكهربائية التي تمنع أي خلل في التيار الكهربائي من أن يؤدي إلى حريق في المنزل . وهذا هو بالضبط دور الجهاز العصبي الذي يقوم بالربط والتنسيق بين اليد والعقل كما يقوم بدور « المصهر » الذي يمنع قدراً كبيراً من الحياة ، من الإنحراف إلى داخل العقل بحيث يسبب وعياً ذا عمق وجسامة عظيمين يفوق كثيراً ما تتطلبه مهام التطور الوضيعة . كأن حاكماً مستبداً قد وضع حداً معيناً لازدياد الأجور ونمو الرفاهية بحجة أنه لو أصبح كل الناس أثرياء فلن يبقى هناك أحد لكي يقوم بأعمال الكناسة وتنظيف المجاري .

ولكن ماذا عن السادية ؟

متى تم ادراك الطاقة الهائلة لمصدر القوة هذه ، ينبثق تلقائياً جواب يبدو مقنعاً . إن « قيمنا » (أي مفاهيم الخطأ والصواب والحق والباطل) كلها مرتبطة بالغرائز ، والغرائز بدورها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجهاز العصبي وبالصمامات المختلفة التي تقوم بدور « منع دخول » القدر الكبير من قوة الحياة . ويشير اردري إلى أن غريزة النظام هي غريزة عامة في عالم الحيوان ، حتى حين لا تكون هناك حاجة اجتماعية إلى الأسبقية والتسلسل المقامي . إنها قانون

أساسي من قوانين الطبيعة وهو لا بد أن يكون قانوناً مجحفاً بالنسبة للقلائل إذا ما أريد منه أن يكون عادلاً للجميع . فالأعصاب والغرائز مكرسة كلها لحفظ النظام ومنع الفوضى . ومع ذلك فمن الخطأ أن نتحدث وكأن هناك تعارضاً أساسياً في الهدف بين الأعصاب وبين « الدافع الحياتي » ، فنظام الصمامات برمته هو من خلق الدافع الحياتي .

ومع ذلك ، وكما شاهدنا تكراراً في هذا البحث ، فهذه الصمامات وميكانيكيات التكرار كثيراً ما تظهر كطواغيت فيما يتعلق بالجنس . وهكذا فعندما تضعف الغرائز بسبب ازدياد مفاجيء في تعقد حضارة ما ، يصبح من الممكن الثورة على «الصمامات » . وحينما تضعف الغرائز فإن المخلوق الحيّ يتجه طبيعياً إلى مصدر القيم ، الى الدافع الحياتي نفسه . ويصبح على الأعصاب المتعبة أن تخفف من قبضتها ومن قيودها على الدافع الحياتي .

ولكن إذا كانت الأعصاب والغرائز هي « رجال البوليس » فينا ، فهي كذلك مصدر القوانين فيما يتعلق بالخطأ والصواب . إن قوة الحياة نفسها لا تهتم في قليل أو كثير بأخطائنا أو صواباتنا الاجتماعية . إنها كقيصر فوق القانون ، وهي تترك مهمة التحقق من أن أتباعها يطوّعون القانون لرجال بوليسها . فإذا أصاب رجال البوليس هؤلاء الوهن أو إن تمّ تجاوزهم وعدم الإلتفات إليهم ، فإن أي شيء قد يحدث . ويكتشف القابع المندهش فجأة أن الدافع الحياتي ليس مهتمّاً بالمحرّمات الاجتماعية و « بأفكار الخير والشر » . ويعبر نيتشه عن ذلك تعبيراً تاماً في رسالة لأحد أصدقائه ، يحدثه فيها عن أنه كان يسير يوماً على قمة هضبة حين أحس باقتراب عاصفة ، فاضطر للالتجاء إلى كوخ قريب حيث وجد رجلاً يقتل طفلين . وفي الأحوال العادية فإن منظر الدماء كان سيروّعه وسينفره ، لكن العاصفة انفجرت في تلك اللحظة . وكتب نيتشه يقول : « غمرني شعور لا يمكنني وصفه بالحمية والسعادة ... **البرق والعاصفة هما عالمان مختلفان ، قوى حرة بلا أخلاقية** . ارادة صرفة بدون تشويش من العقل ... يا لها من سعادة ويا لها من حرية ! » .

وللحظة واحدة فإن العنصر الديونيسي في الحياة تخطّى العنصر الأبولوني ، واندلقت المياه من الوعاء .

هذه كلها مجرد تشبيهات ورموز طبعاً ، ولذلك فإن لهـا محاسن ومساوىء التشبيهات والرموز المعتادة. الاّ أنها مع ذلك تفسر طبيعة السادية بصورة أكثر مباشرة من أي قدر من اللغة التحليلية . إن الأعصاب والغرائز مثل الرقبـــاء الذين يحرمون الكحول ، والسادي هو الرجل الذي وجـــد مصدراً للكحول المصنوعة سراً . وعلى عكس الكحول العادية فإن هذه الكحول تأتي بدون ضريبة « أخلاقية » .

وهكذا يتم تخطي كل ميكانيكيات وآليـــات الذنب التي ترتبط بالغرائز . وهذه الكحول كمعظم الكحول المصنوعة سراً، أكثر تسميماً بكثير من الكحول التي تصنع بصفة مشروعة . وهذا هو إذن سبب انحلال وتدهور أمثـــال هيث وكريستي .

وماذا عن الرأي الذي أفضى به كل من بويس وبوهيم من أن هناك نوعين من الطاقة تنبعان من «مولد الطاقة » ؟ الواقع ان هذه الفرضية غير ضرورية لتفسير السادية . فالأعصاب تكوّن الدائرة الكهربائية « المشروعة » والطاقة تسري في اتجاه واحد ، من الموجب الى السالب . فإذا ما تمّ تخطي ذلك ، فلا يدري أحد ما الذي قد يحدث . إن فكرتنا الخاصة عن الخير والشر مرتبطة بسريان الطاقة ذي الاتجاه الواحد هذا . فاذا ما تراكمت الطاقة وارتدّت على نفسها كالمـــدّ ، فسيبدو الخير والشر وكأنهما قد انعكسا .

وعلى ذلك فإن بويس مصيب وغير مصيب في اطلاقه صفة « الازدواجية » على الدافع الحياتي . إن التقليد الديني في الغرب يصرّ على أن « الله خير » . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكنه على وجه التأكيد ليس صحيحاً بمعنى أن « الله أخلاقي » . فما هو « خير » بالنسبة للدافع الحياتي هو فوق ادراكنا كلية وعلاقته بمفاهيمنا عن الخير والشر هي علاقة مبهمة .

الاّ أن بويس مخطىء من ناحية أخرى ، فلمـاذا يكون من الضروري أن

نفترض وجود نوعين من الطاقة في الدافع الحيـاتي يرمزان الى الطيبة والقسوة ؟ فالكراهية هي عادة طاقة حيويـة أصابها التلف فتعفنت . وما علينا إلا أن نفكر في الحسد والعقلية الصغيرة المحدودة التي تتميز بها المجتمعات الصغيرة لـكي تدرك أن « الشر » غالباً ما يكون اسماً آخر للحبوط أو السأم ، وهذا هو مـا يعنيه بليك حين يقول : « حين ينغلق الفكر في كهوف ، ستظهر عندها جذور الحب في أعمـاق الجحيم . » أو لم يكن استبداد وقسوة الطغاة الشرقيين تابعاً من السأم لمدى ما يملكون من بأس وسلطان دون أن يكون هنـاك أي هدف ؟ إن العادات الجنسية ، كالعادات الأخرى ، غالباً ما تكون الشيء الوحيد الممكن عمله .

وسيتضح هذا أكثر لو سردنا هذا المثال :

يتحدث بول دي ريفر عن حالة غريبة من البهيمية تتعلق بفتاة وكلب من نوع الكلاب البوليسية . وكانت الفتاة سليمة الصحة والتكوين ، لكنها كانت ذات ميول جنسية قوية . وكثيراً ما كان يثيرها منظر الجياد في مزرعة قريبـة وهي تتزاوج . وفي ليلة ما نزعت ملابسها لترتدي قميص نومها ، عندما دخل كلبها إلى الغرفة وأبدى اهتماماً ملحوظاً بأعضائها التناسلية ، وهنا سمحت له بأن يلعقها ، ثم ساعدته أخيراً على أن يضاجعها جنسياً . وسرعان ما تحولت هذه الممارسة إلى عادة . وحين ضبطت بعد مدة ، أقرت بأنها لم تعـد تنجذب إلى الرجال ، وان الحيوانات هي وحدها القادرة على إثارتها جنسياً .

ومع ذلك فسيكون من عدم الدقة ، القول بأن هناك دافعـاً جنسياً معيناً عند النساء يتجه الى الحيوانات بدلاً من الرجال ، وإن هـذا الدافع قد يصل في ظروف معينة إلى حد الشذوذ . وبالنسبة لهذه الفتاة فإن الدافع الجنسي الطبيعي فيها قد « تسمّر » في مرحلة باكرة على منظر جواد يمتطي فرساً .

وقد أقرت بأنها كانت تنساق في أحلام جنسية ، تتعلق بعملية جمـاع بينها وبين أحد الجياد أثناء نكاح الكلب لها . إن عضو الكلب التناسلي أصغر بكثير من أعضاء معظم الرجال التناسلية . لكن المتعة بالنسبة للفـتاة كانت عملية

ايحائية بالتواصل والإرتباط بين الجواد ، والنكاح والكلب . ذلك أن الكلب كان « أفضل بديل موجود » للجواد ، لأنه أقرب إلى الجواد من الرجل . وهكذا يصبح البديل الأفضل في الجنس عادة وحاجة .

ويمكن تشبيه ذلك برجل فقير جداً اعتاد على أن يتعاطى كحولاً رديئة رخيصة حتى إذا قُدم له بعض الويسكي ليشربه وجد أن مذاقه لا يروق له ، فعفّ عنه ؛ والكحول الرديئة هي كحول كالويسكي أيضاً، وتفضيلها يعود سببه إلى **شوائبها وعدم نقائها** لا إلى محتواها الكحولي .

وهذا الحال ينطبق على السادية . إن أسباب الإدمان على « الخمر المهرب » غير المصنوع في معمل للخمور العديدة المتنوعة، يعود إلى الرقباء ، أو إلى الفقر. وفي معظم الحالات فإن « الفقر » هو أحد الأسباب الرئيسية ، وهو المسؤول كذلك عن قدر كبير من السادية الإجرامية . ولكن كيف ينشأ الدافع السادي في إنسان ما في المقام الأول ؟ ولماذا مثلاً كان كورتن هو السادي الوحيد في عائلة مكونة من ثلاثة عشر شخصاً ؟ إن الإنحلال الوراثي يلعب دوراً هاماً ، لكنه يؤدي في الغالب إلى بعض الوهن في الدوافع الحياتية وليس إلى رغبة في القسوة والإيذاء . والسادية تنبثق من رد فعل ، وتأثير الدافع الديونيسي على جهاز عصبي أصابه الوهن . والذي نستطيع أن نقررة بقدر معرفتنا هو أن الناس الذين يولدون وفيهم القدرة على تلقي « دفقات » مفاجئة من الدافع الحياتي غير المخفف هم من القدرة كالتوائم السيامية . ولو تم توجيه وتسيير حيوية كورتن الزائدة بعناية وترتيب بحيث أُبقيت بعيدة عن الجنس بقدر الإمكان، فمن المحتمل أن يكون كورتن قد أصبح انساناً ناجحاً ومرموقاً بدلاً من مجرم فظيع . إن الدافع الإنحلالي كان قابعاً في كثير من الرجال النابغين . والمركيز دي ساد هو طبعاً حالة متطرفة قد يجوز إلصاق صفة الإجرام بها . لكن إيزيدور دوكاس ، الذي كان يكتب بالاسم المستعار لوتريمونت ، يكاد يعتبر من أكبر الشعراء ، ومطولته المسماة Chants de Maldoror تتحدث بلسان أحد « اللامنتمين الرومانسيين » وتزخر بالتهويمات السادية التي لا يمكن اعتبارها « فناً » ، وهي

تهويمات منحلّة ورديئة . والذي يقرأ شعر دوكاس يستحيل عليه أن يستسيغه كلية أو يقبل ما يقوله الا إذا كان يجد من الممتع أن يقرأ مثلاً عن منظر طفل تقلع عيناه بالأظافر . ومع ذلك فإن مقاطع من المطولة المذكورة أعلاه يمكن مقارنتها بقصيدة رامبو المسماه « Illuminations » كأعظم ما أنتجته فرنسا من الشعر المرسل في أواخر القرن التاسع عشر .

وهذا هو الفارق بين العقلية الإجرامية والعقلية الخلاقة . العقلية الإجرامية تحتوي على عنصر ينبغي رفضه حتى وإن كان جزءاً من التعبير عن حيوية غير عادية . وبينما يمكننا أن نتقبل بذاءات رابليس أو فحش جويس كجزء « مستساغ » من إبداعها ، فاننا لا نتقبل أخطاء واشتطاطات نابغة ما حين يكون في مستهل حياته الأدبية ، بل اننا نفصل هذه الأخطاء والاشتطاطات عن الأجزاء الأحسن في كتاباته، أو اننا قد نهمل هذه الكتابات تماماً لئلا نقلل من متعتنا . إننا إذن نضع خطاً مميزاً بين ما هو ابداعي وما هو عرضي ، والجرم الإنحلالي الحقيقي هو شيء عرضي كلية . وهو ليس طاقة حيوية تجري لسبب ما على النقيض من مفاهيم الخطأ والصواب فنياً ، بل إنه شيء يتميز عادة بإحساس محزن من السأم والتبدد . والتبدد حين يجري في الأجهزة الحية يكون كالسم . والسادية هي في حقيقة الأمر سمّ وليست جزءاً منفصلاً من الطاقات الحيوية . إنها ، كما قال فرويد ، تختلف عن « الإنحرافات » الأخرى لأسباب ظاهرة . فاللواط هو مجرد سوء توجيه للدوافع الجنسية ، وربما يصدر عن عوامل جسدية كالهرمونات . وينطبق هذا على الفتيشية والنكروفيلية اللتين يمكن تبريرهما نوعاً ما على أساس أنهما محاولتان لتحقيق تجربة جنسية « صرفة » خالية من العوامل المخففة المعتادة، أي العوامل الشخصية والاجتماعية . وتأثيرهما الإنحلالي قد لا يزيد عن تأثير العادة السرية . لكن السادية هي ببساطة تسمم للدوافع الجنسية . إنها سمّ ذو أثر انحلالي هائل وله قابلية التحول إلى عادة مستديمة . وفشل رجل مثل بويس في اجتثاثها من تكوينه وجهازه هو برهان مؤسف على عدم النضوج الذي يظهر مراراً في بواكير أعماله . (إن عملاً يحتوي

على مجموعة مقالات مثل The Pleasures of Literature مباهج الأدب ، يكشف عن بعض التشويش في التفكير واللغة ، وعن نزوع إلى الإيغال في شحطات أدبية مبهمة) . وكلا السادية والمازوكية مرض من أمراض الطفولة ، ووسيلة من وسائل تكثيف الدافع الحياتي .

ومع ذلك فإن انهيار « القيم » في مجتمعنا ، الذي حلله نيتشه بعمق كبير ، لا بد أن يؤدي حتماً إلى زيادة في السادية ، وفي كل الإنحرافات الجنسية الأخرى من العادة السرية إلى النكروفيلية . وينبغي أن ندرك أن هذا الإنهيار هو في معظمه **انهيار ثقافي** . وثقافة مجتمع ما هي الا نوع من الثقل المقابل لضغوطه الإجتماعية . ولقد حققت العصور الوسطى شيئاً قريباً من التوازن التام عن طريق مجتمع زراعي بسيط وكنيسة ذات سلطان ونفوذ عظيمين . ومنذ ذلك الحين ، تغير الميزان الى الحد الذي يجعل من مجرد اعادة احياء « الدين » أمراً عقيماً . فنحن نعيش في حضارة ذات ثقافة مادية أساسياً . وقد يقال اعتراضاً أن ثقافتنا التي تستمد جذورها من نيوتن وماركس وفرويد تكاد تكون منقطعة العلاقة بالنسبة المتزايدة للجريمة الجنسية والشذوذ . وهذا غير صحيح . فالاحوال الاجتماعية المحسنة تمنح حرية أكثر من قبل للذكاء أو العقل البشري . وأي رجل أو امرأة معتدل او معتدلة الذكاء يمكنه أن يحوز على فرصة التعليم . ويطبيعة الحال فإن رجلاً ذا ذكاء نشيط سيهتم بنوابغ الفكر والذكاء المعاصرين أكثر من اهتمامه بالنوابغ الأقدم . وعدد النوابغ المعاصرين الذين يؤثرون على معظم العقول المدركة هو عدد ضئيل بالفعل . فقبل ٢٥ عاماً كنا نجد الأسماء السحرية في كتاب ت . س . اليوت وهولم وبودلير ودانته ولافورج ونيومان الخ . فإذا أضفنا اليهم أسماء جويس وبيتس وبروست فسوف تكتمل القائمة تقريباً . وقبل جيل كانت الأسماء السحرية كلها ، أسماء أشخاص معاصرين : فرويد واينشتاين وويلز وشو وربما نيتشه . وقبل خمسين عاماً كانت الأسماء مثل كارليل ورسكين . وهذه المجموعات من الأسماء تترابط وتلتحم كلها بحيث تكوّن نمطاً واحداً قد لا يمثل واحداً منهم . فمثلاً ، بعد عشرين عاماً من اعتناق نيومان

للديانة الكاثوليكية اجتاحت بريطانيا موجة من اعتناق الكاثوليكية ، وبعد قيام برناردشو وصحبه بتأسيس الجمعية الفابية تكونت في انكلترا أول حكومة اشتراكية . ولهذا نجد ان نتائج وتأثيرات « التغيرات الثقافية » أعظم بكثير مما قد يبدو لنا . ومهما تكن درجة الصدق أو الصواب كبيرة أو صغيرة في هذه التعميات ، فهناك شيء واحد جازم وهو أن أي تغير اجتماعي كبير يجب أن يسبقه تبدل كبير في « القيم » ، أي تغير ثقافي . فاذا كانت إحدى المشاكل الكبرى هي مشكلة الإزدياد في الجرائم الجنسية ، فان مشكلة الجنس برمتها يجب أن تبحث بلغة أكثر دقة ، وأكثر مرونة .

ملاحظة : مشكلة منع الجريمة الجنسية .

سبّب الإزدياد المطرد في عدد الجرائم الجنسية في أوروبا وأميركا القدر الكبير من القلق والجزع والخوف . ومن الإنصاف أن نقول بأن كل أصناف الجريمة قد ازدادت ، إلا أن الجريمة والعنف الجنسيين قد سجلا أكبر نسبة من الإزدياد .

والأرقام هي كما يلي :

كان عدد الجرائم الجنسية عام ١٩٣٨ في انكلترا ٥،٠١٨ جريمة . وفي عام ١٩٥١ ارتفع العدد الى ١٤،٦٣٣ جريمة ، ثم ارتفع الى ١٧،٠٧٨ عام ١٩٥٥ . ومنذ ذلك الحين والنسبة ترتفع بصورة منتظمة تقريباً بحيث تسجل ازدياداً بنسبة « ٣٠٠ » بالمئة وقد ازدادت عمليات السطو والإختلاس بنسبة « ٥٠ » بالمئة فقط . أما جرائم العنف فقد تضاعفت ثلاثة اضعاف[1] .

وفي الولايات المتحدة ما يزيد على ١٥،٠٠٠ اعتداءً جنسياً في العام . والسبب هو بلا شك ، الضغوط والتوترات الإجتماعية المتنامية في مجتمعنا الحضاري الآلي،

١ ـ هذه الارقام مستقاة من الكتاب السنوي للموسوعة البريطانية لعام ١٩٥٦ ، إلا أن الإحصائيات الاميركية غير متوفرة مع الأسف ، لكنها تبين على كل حال ازدياداً مماثلا . وآخر إحصائيات الجريمة في بريطانيا ظهرت عام ١٩٦١ وتبين زيادة تبلغ (٢٦) بالمئة . « المؤلف »

والخطر الدائم المفزع الذي يهددنا بحرب ذرية فانية ، والنزوع الى مزيد من المركزية . وهذا ما يزيد من شعور الفرد « بالتفاهة »،و « غير الاصحاء عاطفياً» هم أول من يستجيب الى هذه الضغوط . ولما كانت النزعة الإجرامية هي في جوهرها حالة من حالات عدم النضوج الإجتماعي، فان النتيجة المباشرة هي إذن زيادة في الجريمة . ومن الملاحظ كذلك أن عدد المجرمين «الأحداث» قد ازداد . وقد أشار راينهارت إلى هذا الأمر حينما قال : « حيث تظهر الشهوة كعامل ، فهي تبدو كأنها صارت عضواً تابعاً لعامل مسيطر ، وهو الشهوة التي تسعى وراء لذة القيام بجريمة قاسية مرعبة » . وقضية ليوبولد هي مثال واضح على كلمات راينهارت السابقة .

ولكن المشكلة معقدة وينبغي دراستها في تفصيل .

إن الفكرة البسيطة العادية عن الجريمة ، والتي كانت شائعة في مطلع هذا القرن ، هي أن الجريمة حصيلة الفقر . فاذا ما تغيرت الأحوال الاجتماعية وتحسن نظام التعليم فستختفي الجريمة . وهناك بعض الصحة في ذلك كما يستدل من حالة كورتن الألماني. إلا أن تحسين الأحوال الإجتماعية لن يكون الحل الكلي والنهائي إذا رافق هذا التحسين إزدياد في التصنيع وبالتالي ازدياد في الضغوط الملازمة له والتي تخلق شعوراً بتفاهة الفرد في الفرد ذاته . وبينما قد يؤدي الاصلاح الاجتماعي الى تخفيض نسبة السرقات، فإن تأثيره على الجرائم الجنسية قد يكون عكسياً. وفي انكلترا كان الفقر منتشراً في القرن الثامن عشر ، وكانت الجريمة الجنسية العصرية تكاد تكون غير معروفة كما يستدل من كتاب Newgate Calendar لبلهام chronicles of Crime .

وفيدوك ، أول رئيس للأمن العام في باريس ، حين دوّن مذكراته ذكر مئات من قضايا القتل والسرقة التي قام بحلها ، ولكنه (كما ذكر) لم يسجل جريمة جنسية واحدة . وتجدر الاشارة هنا الى ان المنحلين المعروفين في التاريخ، مثل تايبيروس وجيل دي راي والمركيز دي ساد ، كانوا من فئة أصحاب الامتيازات والثراء وليس العكس . ومعظم الجرائم الجنسية المدونة التي حدثت

في القرن الثامن عشر كانت جرائم اغتصاب واختطاف قام بها بعض النبلاء . وفي يومنا هذا ، فالجريمة المنحرفة المثالية تأتي غالباً من السأم وتدعى « جريمة السأم » أي الجريمة التي ليس لها أي دافع معين والتي تنتج عن « الحرية الزائدة » وعن فقدان أي احساس بالهدف .

ويقترح دي ريفر « وجوب إيجاد قوانين لمنع انتشار مختلف الأمراض الوراثية الفاسدة» . فالمجرمون الجنسيون ينحدرون غالباً من سلالة من السكيرين والمصابين بالصرع وما شابه ذلك . ومرة أشار البروفسور جوليان هكسلي الى ان المجتمع لا بدّ من أن يتجاوب في القريب مع فكرة انتقاء النسل لإنتاج مستوى أعلى من « المدراء الإداريين » ويمكن اعتبار فكرة دي ريفر رديفاً طبيعياً لاقتراح هكسلي هذا . فإذا كانت القرانات والوصالات « المرغوبة » ستشجع ، فمن الواضح أن ينبغي عدم تشجيع القرانات غير المرغوبة .

وفي الوقت ذاته ينبغي تكريس وقت وجهد أكثر لدراسة العقلية الإجرامية ، فالدراسات المماثلة للدراسة التي أجراها البروفسور بيرغ عن كورتن هي شيء نادر جداً . ويجوز اعتبار مبادىء التحليل الفرويدي القديمة حائلاً دون معرفة أوسع بعالم الجريمة . ونحن بحاجة الى اعادة النظر في بعض هذه المبادىء . (وسيبحث ذلك بصورة أوسع في الفصل القادم) .

وحتى الآن فإن الإشمئزاز والارتياع اللذين تثيرهما الجريمة الجنسية قد عملا على تعقيد مشكلة الجريمة الجنسية . ولا شك أن الحملة الواسعة التي نظمها الألمان عام ١٩٣٠ لإنقاذ حياة كورتن ، على الرغم من فظاعة جرائمه ، هي شهادة على سعة ادراكهم ، فهي على وجه التحديد اعتراف متمدن بأن قتل القاتل ليس حلاً . فالمجرم قد يستطيع أن يكون « مفيداً » للمجتمع رغم كل جرائمه ، إذا ما حللّت عقليته بعناية للوصول الى معرفة الأسباب النفسية والاجتماعية للجريمة. وفي اميركا بالذات فإن معالجة القضية عقيمة وجامدة بحيث تزيد في تعقيد مشكلة الإنحراف الجنسي . (يمكن ملاحظة ذلك من اللهجة الاخلاقية الغرّة التي تتضمنها بعض الكتب عن المعتدين الجنسيين ، وهي لهجة توحي لنا أحياناً ،

بأن الكاتب يحاول أن يقنع القراء بأنـه لا يكتب عن شغف مريض بموضوع بحثه .) ومثل هذه الأشياء تولّد في المجرم الجنسي الشعور بأنـه خطير صاحب مشا كل خلقية مستعصية على الحل .

والمقطع التالي المنقول عن راينهارت يوضح هذه النقطة ، وهو يتعلق برجـل في الرابعة والثلاثين من عمره ، حكم عليه بالسجن لمدة أربع سنوات لنكاحـه صبياً في العاشرة من عمره :

« ما زال ديل يبحث عن منفذ لورطته وحيرته . وقد انغمس في الدين علّه يجد خلاصه فيه ، يدعمه في ذلـك أفراد من عائلته وبعض من أعضاء الكنيسة الذين يقومون بمساعدته للتأهب في الانخراط في سلك الكهنوت بعـد اطلاق سراحه . وبينما لا يوجد هناك أي أمل له في تعديل ميوله الجنسية بحيث يمكنه أن يحقق علاقات جنسية « طبيعية » مع الجنس الآخر ، وهو يأمـل في العيش بشكل سعيد ومفيد « كأعزب متبتل قدسي » ولكنه يخشى أن يصبح تعلقـه الجنسي بالصبيان وعـدم مقدرته على التسامي لتصعيد ميوله الجنسية بواسطة « مخارج مقبولة اجتماعياً » – أن يصبحا مصدراً لصراع نفسي حاد في داخله بقية عمره » .

ومع أنه يستحيل أن ندلي بأي حكم في هذه القضية بدون معرفة المزيد من التفاصيل ، الا أنه يبدو أن ديل قد اختار طريقاً للخلاص قـد يكون أكثر خطورة من الجناية الأصلية . ونتيجة مثل هذه القرارات قـد تكون مريعة في كثير من الأحيان[1] .

وإذا أمكن لديل أن يتقبل ميله اللواطي كشيء « طبيعي » بالنسبة له ، وأن يجد متنفساً لهـذا الميل في دوائر تعتبر اللواط شيئاً عادياً ، فقـد يختفي

١ – في مدينة بليموث بانكلترا أعيد أحد القسس الى مركزه في الكنيسة بعـد أن أمضى مدة في السجن لاعتدائه جنسياً على صبي صغير . وبعـد عودته شرع في انشاء ناد سري للواط بين الصبيان الذين ينشدون في جوقة الكنيسة . وكان يمنح كل من يصبح أهـلا للعضوية أرنباً واحداً . وأخيراً ضبط ووجهت اليه تهمة ممارسة النكاح مع ١٠٧ أولاد من صبيان الكورس ، كانوا كلهم أعضاء في « نادي الأرانب » . «المؤلف»

صراعه الذاتي تماماً ويتلاشى معه احتمال قيامه باعتداءات أخرى على القاصرين .

وليس من المستغرب في مثل هذه الظروف أن نجـد بأن معظم اللواطيين في أميركا يفضلون التجمع في المـــدن الكبيرة مثل نيويورك وواشنطن وشيكاغو ولوس انجلوس ، حيث يساعد الإحساس بالإنتماء إلى جماعة ما ، على التخفيف من وطأة الضغط الإجتماعي .

ويورد راينهارت عدداً من حالات الاعتداء الجنسي كانت الأحكام القضائيـة فيها غير متناسبة على الإطلاق مع الجنايات . هناك مثلاً قضية جلين الذي ذهب إلى احدى صالات الرقص ليلتقط فتاة ترضى بأن تشاركه متعة ليلة واحدة . وبالفعل فقد وجد فتاة دلت تصرفاتها على أنها قـــد تحقق مسعاه ، وبعد قضاء أمسية من الرقص والشرب ، تهيّج جلـين جنسياً ، وحاول أن يبدأ ، ولكن الفتاة أفهمته بأنها لن تسمح له بأيـــة مداعبة جنسية ، وهي تود أن تذهب الى بيتها دون أن يرافقها . فصمت على مضض وتبعها ثم أفقدها الرشد واغتصبها . وقد حكمت المحكمة بسجنه مدة خمسة عشر عاماً . وكانت هذه أولى جرائمـــه الجنسية علماً بأنه أدخـل احدى الاصلاحات بتهمة السرقة . وفي مثل هـــذه الظروف ، فالحكم يبدو وحشياً . وقد وصف جلين من قبل ممثل الإدعاء بأنـه « رجل شرير ... لا يتورع عن ارتكاب مثل هذه الجريـة مرة أخرى » . في حين أن المسؤولين في السجن وصفوه فيما بعد بأنـــه « يذعن للنظام والإنضباط ، ذكي متعاون وأهل للثقة » . وفوق هذا بأنه « ذو قدرة عقليـة فائقة » . ومن هذا يتضح أن مثل هذه المعاملة هي التي تخلق رجالاً مثل كورتن في المجتمع .

وهناك مثال آخر دفع السخط الخلقي الشديد إلى اصدر حكم قاسٍ على مجرم جنسي ، وهو رجل في الثانية والأربعين من عمره ، عليه أن يقضي عشرين عاماً في السجن لإعتدائه على ابنته ذات الخمسة عشر عاماً . وقد وصف رئيس بوليس البلدة الذي اعتقله الرجل المذكور ، هذه القضية بأنها « أسوأ ما في السجلات » . إلاّ أن طبيب السجن النفساني وصف المعتدي واسمه لوك بأنـــه « يحمل بعض الصفات العدوانية البسيطة ، وهو فيما عدا ذلك يخلو من أية « مزايا انحرافية » .

ويقول راينهارت في ملاحظة له ، بأن لوك يعتبر القضية تدخـــلاً لا مبرر له في شؤونه الخاصة . ويُستدل من التفاصيل التي يوردها راينهارت أن لوك كان عنده بعض المبررات لعمله ، فقد كان على علاقة سيئة مع زوجته التي تمنعت عن منحه أية متعة جنسية لمدة طويلة . وكان عندهما ستة أطفال ، وكانوا فقيرين جداً .

ويقول لوك : « لم نكن نستطيع الذهاب الى أي مكان تقريباً . كنا فقيرين جداً ، وعندنا الكثير من الأطفال . »

وقد علم لوك بأن فتاتيه الكبيرتين كانتا تمارسان « علاقات جنسية كثيرة ». وكانت الفتاة ذات الخمسة عشر عاماً تعمل في مطعم رخيص ، وتمارس البغـــاء السري مع الزبائن لقـــاء أجر . أما ابنته الكبرى فكانت تعمل في معمل كبير وكان لها عشاق كثيرون . وذات يوم قرر لوك أن يحاول ممارسة الجنس مـــع ابنتيه ، فأبدت الفتاتان موافقتهما على ذلك ، وضاجعهما مرات عديدة . وفجأة ارتابت الأم في الأمر ثم أبلغت البوليس الذي انتزع اعترافات من الفتاتين بعـــد تهديدهما بادخالهما الاصلاحية (لعلاقاتهما الجنسية الخارجيـــة) . وكانت النتيجة أن حكم على لوك بالسجن مدة عشرين عاماً .

ويمكن القول جدلاً هنا بأن التهمة الحقيقية الوحيدة في هـــذه القضية هي ممارسة النكاح مع فتاتين قاصرتين ، إذ لا يمكن اتهام لوك بأنه قد أفسد أخلاق الفتاتين ، التي كانت فاسدة أصلاً . (في كورنويل بانكلترا حيث يكثر هـــذا النوع من الجنايات ، فإن الحكم يتراوح بين ثلاثة أشهر وخمس سنوات ، وربمـــا لا يتعدى وضع الجاني تحت المراقبة فقط) .

وفي مثل هـــذه الظروف فإن « عدائية » لوك الطفيفة لها ما يبررهـــا ، والملاحظات التالية التي أدلى بها لا يصح الحكم عليها بأنها دليل على تفسخه الخلقي غير القابل للتقويم . يقول لوك :

« لا يمكنني أن أرى لماذا يحق لأي إنسان التدخل في الأمر ، فنحن لم نضر أو نؤذ أحداً ... وأنا لم أفعل شيئاً أسوأ مما فعل غيري ، ولا أعرف لماذا يهوّل الناس الأمر الى هذا الحد . »

وعبر عن اعتقاده بأن النكاح بين الآباء وبناتهم أمر شائع « لكن الآخرين من الذكاء بحيث لا يمكن ضبطهم » .

ويلاحظ راينهارت بأن السجناء الآخرين « يحتملون وجوده بينهم باحتقار وازدراء » (ويبدو أن هذا هو موقف السجناء عامة من المعتدين الجنسيين) ، وقد كان سلوكه في السجن حسناً (لم تكن له سوابق أخرى من أي نوع) ، ولاحظ كاهن السجن بأن لوك لا يبالي بالدين ، وقد علـّق لوك على ذلك قائلاً : « أنا على استعداد لأن أقوم بكل ما يطلب مني هنا ، لكنني لا أريد أحداً يقدم لي المحاضرات عن ما الذي ينبغي عليّ أن أفعل أو أن لا أفعل . »

ويورد راينهارت حالتين تبيّن بعض الفسق العائلي ، وتبدو فيها الأحكام قاسية جداً (في واحدة من الحالتين كان الحكم هو عشرون عاماً ، وفي الأخرى ثلاثون) . مع أنه في الحالتين كانت الإبنة المعتدى عليها تبلغ الثامنة من العمر فقط . وفي إحدى القضيتين ، التي حكم على الأب فيها بالسجن مدة ثلاثين عاماً ، كان الأب قد مارس الجماع مع ابنته حين كانت في سن الثامنة الى أن بلغت سن الخامسة عشرة (حين اكتشفت فجأة أنها حبلى) . وفي الحالة الثانية قام الأب باغواء ابنتيه الاثنتين بعد ان رفضت زوجته أن تضاجعه . إلا أنه بعد القاء القبض عليه (بشكوى من زوجته) ، عادت الزوجة فتوسلت الى السلطات بإطلاق سراحه ، بينما راحت ابنتاه تبعثان برسائل تناشد السلطات فيها باطلاق سراح « بابا العزيز ». ومن الواضح ان الزوجة لم تكن تتصور أن الحكم سيكون قاسياً بهذه الصورة . وهذا يؤدي الى الافتراض بأن الزوجة لو أدركت عواقب شكواها لما ذهبت الى البوليس للتبليغ عن زوجها . وهكذا تكون النتيجة أن مثل هذه الأحكام القاسية تدحر الهدف الذي صدرت من أجله أحياناً .

المشكلة إذن معقدة (في أميركا أكثر منها في أوروبا) ، وما يعقدها هو موقف السلطات القضائية من الجريمة الجنسية ، وإلى حدّ ما الضجة الأخلاقية المفتعلة ، وقد ألف فردريك ويرثام كتيباً قوياً ومقنعاً عنوانه « استعراض العنف » The Show of Violence كرّسه للتأكيد على أن دراسة الجريمة أهم

من معاقبتها ، والمشكلة طبعاً ليست بمثل هذه السهولة . فليس هناك العدد الكافي من العيادات النفسانية أو من الأطباء النفسانيين للقيام بتنفيذ برنامج مفيد ومنسق لدراسة الجرائم والمجرمين . ومع ذلك فإن مثل هذا النقص يمكن تلافيه حالما يتم ادراك ضرورته .

ولتلخيص الأمر نقول : الارتفاع في نسبة الجريمة الجنسية هو من أكبر مشاكل عصرنا ، وهي نتيجة للضغوط التي لا مفر من نشوئها في مجتمع صناعي ، وهي دليل على حالة من العدمية الفكرية والاخلاقية ، وعلى الصعيدين الفكري والإجتماعي ، فإن « المجتمع » لا يمكن أن يفعل شيئاً بالنسبة لهذا الموضوع ، لأن رفاهية المجتمع الفكرية والأخلاقية كانت دائماً في أيدي عدد قليل نسبياً من الأفراد الموهوبين والمسؤولين الذين خلقوا وأبدعوا الفكر الجديد والاتجاهات الجديدة .

أما على الصعيد الاجتماعي فيمكن عمل الشيء الكثير بمجرد اعتبار المشكلة فورية وعاجلة وإدراك الحاجة إلى تعميق أكثر في دراسة الموضوع .

ملحق بالفصل السابع

لفت روبرت اردري اهتمامي إلى اختبار يلقي ضوءاً مثيراً على هذا الموضوع. وهذا الاختبار يدور حول تأثير ازدياد النسل بين الجرذان . وقد أجري في المعهد الوطني للصحة العقلية ، والذي أجراه يدعى كالهون .

وضعت مجموعة من الجرذان في غرفة تحتوي على أربعة أقفاص كبيرة ، وبعد زمن قصير برز « زعيمان » من الجرذان وراحا يتصرفان بدكتاتورية ظاهرة ، واختار كل منهما قفصاً وأقام حريماً له فيه . وتحت هذه التجربة اضطرت بقية الجرذان إلى إيجاد مكان لها في القفصين الباقيين . وكانت تملك متسعاً من الفسحة في المكان، وتوفرت لها كمية كبيرة من الطعام، لذا لم تنشأ مباشرة أية مضاعفات سيئة بين أفراد المجموعة هذه . الا أنه ، بعد زمن قصير بات يلاحظ أن القفصين

الذين يحتويان على « الزعيمين » وحريمها اخـــذا يتحولان إلى مجتمعين صحيين وطبيعيين . في حين أن القفصين « المنبوذين » كانا يتحولان إلى مجتمعين فيهما كل صفات الأحياء الفقـــيرة المتفسخة . فقد كانت نسبة الولادة فيهما عالية بشكل غريب : (٨٠) بالمئة في واحد منهما و (٩٦) بالمئة في الآخر .

لكن المدهش حقـاً – وهو شيء يرتبط بهـــذا البحث – هو نشوء طبقة اجرامية بين الجرذان المنبوذة . وقد انقسم الجرذان إلى ثلاث فئات :

الزعمـاء الذين كانوا يقودون حياة شبه طبيعية . الذكور المحكومون الذين انعزلوا عن البقية وعاشوا منزوين دون أن يظهروا أية ميول جنسية قوية . و « طبقة المجرمين » .

يقول اردري : « ولم يكن هؤلاء « المجرمون » متسلطين ، كما ولم يكونوا على استعداد للإنصياع أو الولاء . وكانوا يتجمعون جماعات جماعـــات لمطاردة الاناث، كما كانوا يأكلون صغار الجرذان الذين هجرتهم أمهاتهم (مع أن الطعام كان متوفراً بكثرة كما قلت). ومن الطريف أن هناك في حياة الجرذان الجنسية فترة من العزل والتودد قبل عملية الجماع . وقـــد حافظ الجرذان المتنفذون على هذه العادة حتى في الأقفاص المزدحمة ، لكن المجرمين لم يقوموا بذلك . فمع أنهم لم يقاوموا أبـداً سلطة الجرذان المتنفذين إلا أنهم لم يستكينوا أبداً كالجرذان المستسلمين. وقد قال كالهون عنهم «بأنهم ذوو نشاط مفرط وذوو قابلية جنسية مفرطة وكذلك لواطيون . ولقـــد تحولوا إلى مغتصبين جنسيين وانتهكوا كل عادة جنسية » .

وهذا المثال يشبه إلى حد مدهش الاختبار الذي أجراه كاربنتر على نوع من القردة . لقد اكتشف علماء الحيوان منذ زمن أن « غريزة امتلاك الأرض » هي من أقوى الغرائز الحيوانية ، بل قد تكون أعمق حتى من غريزة الجنس . وقـــد لاحظ عالم الحيوان كاربنتر ذلك، حين قام بانزال عدد كبير من القردة في احدى الجزر الواقعة قرب بورتوريكو وفي السفينة التي نقلتهم الى الجزيرة داهم القردة شعور يشبه « الافلاس الاخلاقي » لحرمانهم من بيئتهم الطبيعية على ما يبـدو ،

فراحت الامهات تتشاجر مع أطفالها من أجل نتف من الطعام، وامتنع الأزواج عن حماية زوجاتهم والدفاع عنهن . لكنهم ما أن نزلوا الى الجزيرة حتى قسموا الجزيرة إلى مناطق فيما بينهم ، وانقسموا هم إلى قبائل وجماعات ، وعـــادت غرائزهم إلى طبيعتها .

وكلا المثالين يمكن اعتباره مرادفـاً معقولاً للمجتمع في يومنا هذا . والشيء المهم الذي ينبغي علينا أن نلاحظه ، هو أن الجرذان المجرمة كانت تمتلك طعاماً ومساحة وافرين . أي أن تلك لم تكن حالة من تمرد المحروم . فكل ما حرمت منه هو قدرة التسلط واحترام الذات ، حيث أحست بعدم أهميتها . والواضح أنها كطبقة كانت أقل من طبقة الجرذان المتنفذة ، ولكن أعلى درجة من الطبقة المحكومية والمستسلمة .

والمغزى المقلق لكل هذا يرد في خطاب القـــاه ألدوس هكسلي في مؤتمر للعلماء والمفكرين ، في الثـاني من كانون الأول عام ١٩٦٢ بمدينة سانت باربرا . وقد أشار هكسلي إلى أنه بينما ضاعف العالم عدد سكانه المئتين وخمسين مليوناً في السابق خلال « ١٦٠٠ » سنة ، فإن عدد سكان العـــالم يبلغ حالياً ثلاثة آلاف مليون نسمة ، ومـــا أن ينتهي هذا القرن حتى يكون هذا العدد قد تضاعف . وما أن يحل عام (٢٠٠٠) حتى تكون الولايات المتحدة قد أصبحت « مدينة هائلة واحدة » ، أما الأقطار الأكثر فقراً فـــازدياد النسل فيها يجري بنسبة أعظم من البلدان المتطورة ، وهكذا يصبح خطر الحرب أمراً قائماً . وفي مثـل هذه الظروف فإنه يبدو من المستحيل أن نأمل في حدوث أي انخفاض في نسبة الجرائم الجنسية .

ومن الطريف أن نلاحظ ما اكتشفه كالهون من أن نسبة من الجرذان المجرمة تحولت إلى اللواطية . وهـــذا يفسر سبب ازدياد اللواطية في « الحضارات المتفسخة » .



« ليس هناك أسهل من أن تحكم بما له جوهر وقيمة ، لكن أن تفهمه هو أكثر صعوبة » .

هيجل

الفصل الثامن

السيكولوجية الوجودية

موجز تاريخ علم النفس . فرويد ، يونج ورانك ، السيكولوجية الوجودية : تاريخها وتطورها . قضية فتاة غير شرعية . قضية ميدارد بوس عن المريض الذي كان يعاني من العادات الرغمية . الحالة التي يوردها جبساتل عن الرغمية . « الحياة الحلوة » لفلليني ، وألم شتاينر . دوستويفسكي و بريوسوف . الخلاصة .



حان الوقت الآن للحديث عن أساليب وأفكار السيكولوجية الوجودية . فهي ذات أهمية رئيسية بالنسبة للبحث الذي يبسطه هـذا الكتاب . ويمكن القول بأن السيكولوجية الوجودية هي في الواقـع موضوع البحث الرئيسي ، والجنس لم يكن الا المدخل الذي اختير للولوج اليها . والأسلوب الذي بحث فيه موضوع الجنس في هذا الكتاب لا بد وأن يكون قد أهـل القارىء للمفهوم الجديد لعلم النفس الذي طوره كل من منكوفسكي وشتراوس وفون جبساتـل وبنزوانجر وستورش وبوس ، وكُهن وغـيرهم في المانيا وسويسرا وفرنسا وأميركا .

وعلم النفس بمفهومه الحاضر نشأ وتبلور على مدى المئة عـام الماضية . ومن الجدير أن نلاحظ بأن نموّه رافق تطوّر ونمو المجتمع الصناعي .

والإستجابة الناقصة وغير الكافية لبيئة تزداد تعقـيداً تسمى نيوروسية . وهـذا لا يعني أن « النيوروسية » لم تظهر أول مرة الا في القرن التاسع عشر . فالنيوروسية هي علاقةحيوية الكائن بتعقيد البيئة التي يعيش فيها . وهي درجة نجاح أو فشل الإدراك والإستيعاب . ومن الناحية النظرية، فـإن أي كائن حي يستطيع أن يتعرض للنيوروسية في أي وقت ، ابتداءً من جرثومـة الأميبا فما فوق .

وفي انكلترا تمكن العالم النفساني جيمس وورد من انقاذ الموضوع ، من آلية المدارس القديمة وابتكر اسلوباً أكثر فردية ، ينسجم مع اسلوب برنتانو أستاذ هوسرل . وقد تابع رجـال مثل جورج فردريك ستاوت ووليم مكدوجال العمل الذي بدأه وورد . وفي دراسة قصيرة بعنوان « الفوضى الحاضرة في علم النفس » «The Present Chaos In Psychology» طرح مكدوجال فارقـاً

مفيداً يمكن اتخاذه أساساً للسيكولوجية الوجودية . وقد أشار مكدوجال إلى أنه كانت هنــاك مدرستان رئيسيتان للفكر السيكولوجي (والتسميات منقولة عن نيتشه) ، أي المدرسة الميكانيكية أو الآ لية ، والمدرسة الحيويــــة . وفي عصرنا الحديث فإن الاتجاه الآلي يبتدىء بديكارت ويستمر عن طريق سبينوزا ولوك وهيوم وهارتلي وميلز وسبنسر وبين ، حتى يصل إلى نظرية برتراندرسل السلوكية . وبالمناسبة فإن راسل يتعرض لهجوم عنيف ، فهو يتهم بأنـــه هبط بالسلوكية (ذلك القزم الحقير المسخ) إلى « أقصى حضيض العادية والتفاهة » . أما الإتجاه الحيوي أو العضوي فهو روماني في أصله ، وهو يبدأ بباسكال وبوهيم مروراً بغوته وشوبنهاور ونيتشه وبيرغسون ووليام جيمس وفرويد وهوسرل.

ومع أن فرويد ويونج وأدلر ورانك يمكن وضعهم اوتوماتيكياً ضمن المجموعة الثانية ، الا" أنهم يكونون أقلية في الواقع ، لأنه يمكن اضافة المزيد من الأسماء الهامة ليس بينها واحد ينتمي إلى حركة التحليل النفسي (وعلى سبيل المثال كوفكا وويرثايمر وكوهلر ، مؤسسو نظرية جيشتالت) .

إن المثقف العصري يميل إلى أن ينسب علم النفس إلى فرويــد وتابعيه . وفي الواقع إن فرويد مدين بشهرته إلى الطبيعة المثيرة لنظرياته وما جلبته من دعاية . كما عزي اليه فضل « ابتكار » أشياء كثيرة هي في حقيـقة الأمر من الممتلكات المعروفة لعلم النفس الحديث .

(بل إنني قرأت بأن فرويد كان اول من ابتكر مفهوم « الوعي الباطني»). وهذا لا يعني أنني أقلل من شأن ما أنجزه فرويد،وهو هائل، أو أنكر عبقريته. لقد كان فرويد مدهشاً في ابداعاته كأرسطوطاليس لكن ابداعاته هذه ينبغي مع الأسف أن تمحص وتغربل بدقــة وعناية كما محصت وغربلت ابداعـــات أرسطوطاليس لتقرير الخطأ والصواب . لقد كان فرويد على كل حـــال مجرد « طبيب » مهتم « بوباء » النيوروسين الذي تولد عن التغييرات الإجـــتماعية الفجائية السريعة في بداية القرن العشرين . وحقيقة أن افتراضاته ومقدماتـــه المنطقية كانت خاطئة لا يغير من قيمة كثير من استنتاجاته أو يقلل من الأهمية

الاجمالية لانجازاته . ولقد اكتشف وليام رووان هاملتون أنه يمكن اقامة معادلات رياضية متماسكة ومنسجمة على أساس فرضيات خاطئة أو معكوسة . ومن الغريب بمكان أنه بالنسبة للعلم فإن الأساس لا يهم ، بل الذي يهم هو البناء المركب عليه . فالعلم يختلف عن البناية بأنه يمكن تغيير أسسه فيما بعد دون أن يسبب ذلك أي ضرر بالبناء المركب فوقه . ويمكن للرياضيين أن يفسروا استعمال الأرقام الخيالية (مثل الجذر التربيعي لناقص واحد) التي يمكن استعمالها في البناء الرياضي ، كأحجار خفية ، لدعم البناء إلى أن يحين وقت ازالتها والإستغناء عنها . وحين تزال هذه (الأحجار) الخيالية فإن البناء لن يصيبه أذى ، وهو على وجه التأكيد لن ينهار .

وما لم يستطع فرويد أن يدركه هو أنه إذا كان مريض ما يعاني من النيوروسية فإن أي تحليل ذكي تقريباً ، حسب أية نظرية ، سيكون كفيلاً بحل مشاكل المريض ، وغالباً ما يكون المريض في حاجة إلى (دفعة نفسانية إلى الأمام) فقط ، تمكنه من أن يبذل مجهوداً جديداً للاستيعاب ومن أن يحل مشاكله . ويمكن تشبيه النيوروسية بالديون التي سمح لها أن تتراكم حتى إذا عظم تراكمها نتج عن ذلك افلاس هو الجنون ، بحيث أن المريض يهوي بعدها إلى موقف سلبي من هذه (الديون) فتنشل الطاقة الحياتية وتحل محلها (الانهزامية) وعندها فقد يحدث أي شيء .

وكمعظم علماء النفس القدامى ، لم يفلح فرويد في ادراك أهمية (العمدية) ومدى الدور الكبير الذي تلعبه إرادة المريض . بل راح فرويد يبحث عن أسباب ميكانيكية للحالات مقللاً من شأن حرية وقوة العمدية الإنسانية ومسيئاً تقديرها . ولقد استغرق سيكولوجية وفنمنولوجية جيشتالت خمسون عاماً حتى أمكنهما أن يكشفا بعض الحقائق عن قدرة العقل على تحويل تصوراته المسبقة إلى وقائع .

ولقد أدرك فرويد من البداية الجانب السلبي فقط من قدرة العقل هذه ، مثل قدرة المريض على أن يفتعل المريض للتهرب من مسؤولية ثقيلة ما . لكنه

ينظر إلى نيوروسية انسان ما على أساس خلفية من (نسق اجتماعي) ما أو من إيمان (بالتلاؤم) الكامل مع الحياة أو المجتمع . ولم يخطر له أبداً فيما يبدو أنه ما دام لا يوجد هناك حدّ صعودي للتطور فلا يمكن أن يكون هناك اذن أي (تلاؤم) نهائي ... مع أن شخصاً خلاقاً قد يكتشف درجة غير عادية من الصحة والتوازن في سياق طاقته الإبداعية. وهذا التعامي الغريب من قبل فرويد أدّى به إلى القيام بدراسات تحليلية نفسانية سخيفة لعدد من العباقرة ، مثل ليوناردو ودوستويفسكي . وكان في كل هذه الدراسات مدفوعاً بفكرة تحدي عظمة هؤلاء الرجال وتحطيم أمجادهم ومعاملتهم كمجرد أناس عاديين (أصبحت عادة فرويد في تحطيم الأمجاد، مثل عادة برناردشو مفتعلة ومتعبة بعض الشيء) . وقد كان هذا انتصاراً للتجريد على المنطق السلم .

وأحد الإنتقادات القديمة التي كانت توجه إلى التحليل النفسي تبين هذا الاسلوب التجريدي . فقد كان بعض الذين يكتبون عن موضوع التحليل النفسي يتساءلون كيف يمكن التأكد من أن المحلل نفسه (طبيعي) تماماً ويبدو أنه لم يكن يخطر لهؤلاء المنتقدين أبداً :

أ) ان طبيب عيون بعين واحدة أو طبيباً عمومياً برجل واحدة قد يكون أكثر (كفاءة) من رجل (طبيعي) .

ب) إن علاقة المريض بالنيوروسية مع المحلل هي علاقة أكثر فاعلية بكثير، من العلاقة بين طبيب ما وأحد المصابين بالسلّ .

والإفتراض المبطن في هذا المنطق هو أن على المحلل النفسي أن يكون معصوماً من الخطأ تقريباً مثلما يفترض في الكاهن أن يكون على وجه العموم خالياً من أية خطيئة مميتة . والواقع أن فرويد كان قد أخذ يعتبر نفسه « بابا » وتلاميذه هم الكهنة الذين يحملون كلماته المعصومة عن الخطأ. كل هذا كان بادياً في الإنتقادات المذكورة .

وقد كان أدلر ويونج هما أول من طوّر هذه الإنتقادات . لقد شعرا بأن نظرة فرويد كانت « ثقافية وفكرية » جداً في قوة حجتها واسلوبها الاختباري

بالنسبة للإعتقاد الساذج الشائع في القرن التاسع عشر . وقد أعلن أدلر بأن اصرار فرويد على استرجاع تاريخ المريض الجنسي يوفر للمريض فرصة أخرى للتهرب من واقع مشاكله الحاضرة ، وأصر على أن عمل العالم النفسي هو اعطاء المريض نوعاً من « الشحنة العقلية » بحيث يتمكن المريض من أن يقوم بمحاولة جديدة للتغلب على مشاكله وعلى هروبيته . ونظرة أدلر هذه تكن احتراماً أكثر لحرية الفرد من نظرة فرويد، وفي نفس الوقت تكن احتراماً كذلك لقوى العمدية الخفية التي قد تسمح للمريض بعلاج نفسه .

ثم خطا أدلر بعد ذلك خطوة كبيرة في اتجاه سيكولوجيةوجودية. فأعلن أن الإنسان مسيّر إلى الأمام بإحساس النقص الذي يتملكه (وهو نفس شعور النقص الذي دفع الإنسان الأول إلى صنع الأسلحة وتكوين المجتمع) نحو حالة من شبه الكمال ، « كأنه مسيّر بتليولوغيا (أي بفلسفة البحث عن غايات الطبيعة) عمياء » . وبالنسبة لأدلر فإن صحة الإنسان ذات علاقة « بقانون التغلب » ، كما أسماه نيتشه ، والنيوروسية لا تصدر من أصول جنسية ، بل هي مرتبطة بإرادة القوة للتغلب على النقص . ولقد أصبح مبدأ أدلر فيما يتعلق بعقدة النقص شهيراً مثل الليبيدو عند فرويد ، بل إنه كثيراً ما ينسب إلى فرويد .

أما إنشقاق يونج عن فرويد فقد بدأ حين أصدر يونج كتابه « تحولات ورموز الليبيدو» Transformations and Symbols of Libido عام ١٩١٢ . وفي هذا الكتاب برهن يونج على أن عقله من غير نوعية عقل فرويد ، فهو لا يكتفي بعيادة الاستشارة وتاريخ الحالة ، بل هو يهتم كثيراً بالأدب والتاريخ والميثولوجيا . إذن فان نظرية فرويد عن التعلق بالأم يجب أن تعطى بعداً جديداً وذلك بربطها بالأرض الأم ، كالي ، وما الى ذلك ، وفي أعماله التالية بدا للمتتبعين أن يونج كان عالماً انثروبولوجياً ذا حسّ ديني عميق أكثر منه عالماً نفسانياً .

وبالنسبة لفرويد والفرويديين ، فان هذه الإهتمامات الأخرى كانت انحرافاً

عن التدقيق العلمي واعترافاً بعدم المقدرة[1] .

وعلى كل حال فان موقفهم كان حكيماً اجمالاً . إن البديهـة مهمة ، لكنه لا قيمة لها بالنسبة للعالم « التحليلي » إلا اذا كان بالإمكان دعمها تحليلياً ولقـد تبلور هـذا النوع من الدعم تبلوراً وئيـداً وأليماً بواسطة كوفكا وورثايمر وهوسرل .

أما الإنشقاق الهام الثالث عن الاسلوب الفرويدي فقد كان بطله أوتو رانك، الذي طوّر فكرة أدلر القائلة إن العلاج يجب أن يكون عملية « واعية » وليس تخبطاً في عالم من رموز الأحلام المشكوك فيها ، ومن تأثيرات الطفولة . كما أنـه توقع الاكتشافات الحديثة في الانثروبولوجيا وفي علم الحيوان بتقريره أن الجنس ليس هو الدافع الأساسي في الحيوان ، كما أنه لم يكن الدافع الأساسي في أسلافنا الأوائل . ثم خلق رانك بعد ذلك نظرية عن الإرادة غير الواعيـة شبيهة بآراء هوسرل الأخيرة . وقد لخصت ايرا بروغوف الحصيلة النهائيـة لهذه « الثورة » بقولها إنها كانت : « ... نشوء نوع جديد من علم النفس لم يعد يسعى الى تشخيص الإنسان العصري ورده الى « الطبيعة » . إنها تحاول بدلاً من ذلك توفير الوسيلة التي يستطيع الإنسان العصري بواسطتها أن يمارس المعاني الأكبر للحيـاة وأن يساهم فيها بكل قدراته . » كما أن هذه الثورة « تعيد تأكيد تجربة الإنسان مع نفسه ككائن روحي » .

وبينما يستحيل انـكار القيمة الهائلة لأعمال يونـج ورانك الأخيرة إلا أن الاعتراض القديم يظل قائماً الا وهو أن هذه الأعمال غير علمية بصورة خاصة ، وهي تعتمد كثيراً على البداهات والتكهنات الاستيحائية. ومن المهم الا نتغاضى

---

١ – مثال على ذلك أن أرنست جونز الذي كتب سيرة حياة فرويـد استعار مني نسخة من كتاب ايرا بروغوف المسمى « Death anb Rebirth of Psychology » ثم أعـاد إلي الكتاب مع رسالة تقر بأن الكتاب منصف ودقيق على وجه العموم . لكن رسالته دلت على أنـه يرفض الاسلوب الجديد رفضاً تاماً . فهو يستعيض مثلاً عن كلمة « ضعف » بكلمـة « قوة » في احدى الجمل التي تقول إن أبرز ضعف في فرويد يكمن في الجبرية التي تغلف كتاباته . « المؤلف »

عن الثغرة القائمة بين الاسلوب العلمي وبين « الإدراكات الحسيّة الشاعرية » .
وقد يكون لآراء ماري بيكر إدي عن وجود علاقة بين (قوة العقل) وبين الجسد الإنساني أساس في الواقع ، لأن هذه الآراء تتوقع في الحقيقة على ما تمّ تبلوره فيما بعد في نظرية العمدية . لكن هذه الآراء لا يمكن اعتبارها عملية الا اذا طبقت عليها نظرية جيشتالت والفنمنولوجيا الى الحدّ الذي تثبت فيه الاختبارات الخاصة . إن هذه الآراء تقوم على بعض الأسس من جيشتالت والفنمنولوجيا .
وحتى إذا ما حدث ذلك ، فان كتاب مسز إدي المسمى « Science and Health » سيظل أكثر من نتاج مهلهل ومجموعة من الآراء المشتقة ، السيئة التركيب .

لقد أدرك يونج بحق أن تطوير وعي كهذا يحتاج إلى إعادة خلق (موقف ديني) من الحياة . فالكاهن مثلاً ، يشعر أنه هو ، والتائب الذي يلجأ اليه ، منغمسان في المشكلة الكونية للخطيئة الأصلية ، الا أن موقفه مع ذلك ليس متشائماً . لكن يونج التفت الى (الحقائق الدينية) القديمة واهتم بها كثيراً بحيث أعاد تفسيرها في محتوى عصري . وربما أن ذلك كان مفيداً بطريقة ما إلا أنه لم يتقدم بعلم النفس إلى الأمام .

وفي هذا الوقت انبثقت في أنحاء مختلفة من أوروبا المدرسة التي سميت منذ ذلك الحين بمدرسة (السيكولوجية الوجودية) والتي يعتبرها الكثيرون أعظم طفرة ثورية إلى الأمام في العلاج النفساني منذ أيام وليام جيمس . ويقول رولو ماي إن هذه المدرسة ولدت (تلقائياً) وذاتياً بمعنى أن ما من مفكر معين هو المسؤول عن نظرياتها الأساسية ، اللهم الاّ إذا تقبلنا الرأي الذي يعتبر إما نيتشه أو كيريغارد هو المؤسس الحقيقي لهذه المدرسة .

ومن روّاد هذه المدرسة يوجين منكوفسكي في باريس ، وأروين شتراوس في ألمانيا ، ثم في. أي. فون جبساتل في ألمانيا كذلك ، وهؤلاء الثلاثة يمثلون « المرحلة الفنمنولوجية » من الحركة . ثم جاء لودفيج بنزوانجر وإيه. ستورش وميدارد بوى وجي. بالي ورولاند كون وجيه. اتش. فان دن بيرغ

واف. جيه. بويتنديك وغيرهم ممن يمثلون « المرحلة الوجودية » من الحركة .

كنت قد تحدثت سابقاً عن الفنمنولوجيا ، التي يمكن تعريفها ببساطة بأنها « محاولة أن نكون علميين عن المشاعر » . والاسلوب الكلي لهذا الكتاب كان اسلوباً فنمنولوجياً ، بمعنى أنه حاول أن يقتصر على التفكير والتأمل المثابرين في « الحقائق » الخاصة بالجنس ، بدون أية تصورات نظرية مسبقة مثل « الوعي واللاوعي » ورغبة الموت والعقدة العنصرية الخ . يقول هربرت سبيجلبيرغ في كتابه الرائع الجامع (الحركة الفنمنولوجية) « The Phenomenological Movement » معرّفاً الفنمنولوجيا : (الفنمنولوجيا هي الاستقصاء المنسّق الترتيبي عن الظواهر ، ليس فقط بمعنى ماذا هو ظاهر ... بل كذلك بالشكل الذي تظهر فيه الأشياء ...) . ثم هو يضيف تعريفاً آخر أكثر بساطة من سابقه ، فيقول إن الفنمنولوجيا هي (الطرق التي تكون الأشياء معطاة بها) . ويعود فيحدد هدف الفنمنولوجيا بأنه (فصل ظواهر تجربتنا اليومية من سياق حياتنا الساذجة أو العادية ، مع الإحتفاظ بمحتوياتها كاملة بقدر الإمكان) .

ويخصص سبيجلبيرغ جزءاً ممتعاً من كتابه لمحاولة في طرح وصف فنمنولوجي لفكرة (القوة) . وهو يشير إلى ان الهدف من الوصف الفنمنولوجي هو نقل تجربة مثيرة خاصة الى شخص لم يمارسها أو يشعر بها من قبل أبداً . (مثال : حاول ان تصف لأحد الأشخاص ما هو الإحساس الذي يكتنف الإنسان في حالة اصابته بصدمة كهربائية وكيف أن ذلك الإحساس يختلف عن الإحساس الناتج عن القفز في مياه باردة في يوم حار . إذا استطعت أن تفعل ذلك بشكل مقنع فأنت فنمنولوجي ناجح) .

ومن أهم النقاط التي نستنتجها مما كتبه سبيجلبرغ هي أن هذه المحاولة تؤدي الى المزيد من الدقة اللغوية وتساعد على تحطيم الإبهام اللغوي . وبكلمة أخرى « انها تخدم الغرض الذي وصفه اليوت بأنه هدف الشعر وهو (تنقية لهجة العشيرة) .

وسنرى الآن، كيف أن هذا الأسلوب هو اسلوب ثوري في العلاج النفساني،

لأن كل علم النفس حتى الآن ، كان قد بدأ . بمجموعة من الانطباعات أو المفاهيم المسبقة ولأنه ، أي الاسلوب ، جعل الحل الذي يطرحـه معتمداً على جعـل (الحقائق) تتلاءم معه . وبالنتيجة فإن تأثيره على اللغة والدقة كان ساماً . لقد ابتكر كثيراً من الكلمات والتعابير الجديدة ، مما أدى الى الاختلاط والتعقيد ، لكنه فعل القليل لكي يستكشف ويوضّح مفاهيمنا البسيطة .

هذه نقطة ذات أهمية ملحوظة ، ولعل القارىء سيصفح عني للتأكيد عليها. إن الفارق بين الاسلوب القديم والاسلوب الفنمنولوجي قد يتضح أكثر لو أوردنا مقارنة بينهما في حقل الأدب . حـين تقرأ لروائي عظيم من القرن التاسع عشر (ديكنز أو دوستويفسكي) فإن عالمك قد **يتحول** بسبب ما تقرأه ، وسترى الأشياء كما كان ديكنز أو دوستويفسكي يراها. أي أن رؤياهما الخاصة قد فرضت عليك مؤقتاً ، كأن تلبس نظـّارة مثلاً .

ومن جهـة أخرى انظر الى الأثر الذي ستخلفه قراءة بعض صفحات من بروست أو جويس ، فحـين يخصص بروست نصف صفحة لكي يصف الصوت الصادر عن بداية (دشّ) فإنه لا يفرض رؤياه الخاصة على القارىء ، بل انـه يشحذ قدرة القارىء على ملاحظة الشيء ذاته . أي أنه بدلاً من اعطاء القارىء نظارة ، فإنه يعطيه ميكروسكوباً . وهـذا ينطبق كذلك على جويس ، فإن وصفه الدقيق لدبلن يشحذ قـدرة القارىء على ملاحظة التفاصيل الدقيقـة ، الصغيرة في مدينته الخاصة .

وفرويـد يمكن تشبيهه بديكنز ودوستويفسكي في قصة بعنوان (طفولة زعيم) ، يصف سارتر بشكل ممتع الأثر الذي خلفته كتابات فرويـد على شاب ريفي بريء ، فإذا بالشاب يتحطم فكرياً وتتغير نظرته إلى الاشياء ، **ولكن نظرته الى الأشياء لا تصبح أكثر دقة وتميزاً** . وباستطاعة كثير من القراء أن يلاحظوا ذلك من أول قراءة لفرويد وكيف أنها (تغير لون) العالم .

إن الفنمنولوجية لا تعنى بتلوين العالم بلون جديد، بل إنها تريد **قبل كل شيء** ان تجرد العالم من اللون بقدر الامكان . إنها لا تريد أن تستحدث مفاهيم جديدة

بل ان تصقل المفاهيم القديمة . وهي تريد عن طريق التحليل الدقيق أن تكشف عن التناقضات الداخلية والمعاني الخفية .

كل هذا يفسر الثورة التي قامت في علم النفس حين أدخل كل من منكوفسكي وشتراوس وفون جبساتل أساليب هوسرل على علم النفس . وقد كان تأثير هذه الثورة بأنها هذبت وصقلت اللغة وأعطت أبعاداً جديدة للمفاهيم .

ثم تلت ذلك (المرحلة الوجودية) . وبامكاننا القول كذلك ان هذه المرحلة هي الاستجابة الحتمية لنوع المشكلة التي واجهها ويواجهها علماء النفس في القرن العشرين . ولقد نمت سيكولوجية فرويد في عصر من الأمن والتفاؤل ، عصر خاضع (للتقاليد) والمحرمات . وهي في جوهرها هجوم على التقاليد والمحرمات .

كان المناخ الفكري في القرن التاسع عشر ميّالاً الى الانعزال والقناعة . وكان هو العصر الذي فسّر فيه هربرت سبنسر وماكس مولر (الأساطير) بأنها نتيجة لإساءة الإنسان فهم اللغة . وجاء التحليل النفسي لينسف هذا العالم القانع الراضي بإعلانه ان الجنس والعنف واللاعقلية هي أساس كل المجتمع وكل السلوك الإنساني ، سواء أكان سلوكاً محترماً أم لا . أما عالم منتصف القرن العشرين فهو شيء مختلف تماماً ، إذ لا يستطيع أحد أن يتهمنا بالشعور بكثير من الأمن . فالحروب والثورات حطمت أو كادت ، كل سكينة وطمأنينة الإنسان العصري . ونتيجة لذلك فقد تغير نوع النيوروسية ، بحيث أن الأمر لم يعد قضية قوم تدفعهم إلى النيوروسية كثرة المحرمات والتقاليد ، بل قضية قوم يدفعهم إلى النيوروسية (القلق) الذي يغلف القرن العشرين ، وهذا القلق الاجتماعي يخلق المزاج العقلي الذي يجعل الإنسان قادراً على ادراك المشكلة الأساسية للحالة الإنسانية والذي يقربنا كلنا من (عتبة الألم) ... أي الحد الفاصل بين الصحة والمرض . ولقد كان هدف فرويد هو أن يشفي مرضاه عن طريق اخراج كوابتهم الى الضوء ، ربما بالكشف عن أن رجلاً ما كان مصاباً بالرعب من الخصي ، وأنه كان فريسة الشعور بالاثم لتفكيره في قتل أبيه

واغتصاب أمه . وبالنسبة للناس الذين يعيشون في ظل شبح القنبلة الهيدروجينية ، فإن القول بأن مثل هذا التشخيص سيتمكن من أن (يشفيهم) و (يوفق بينهم وبين المجتمع) ، سيبدو قولاً مضحكاً . فنحن نخشى العنف الخارجي خوفاً من العنف الداخلي . وهكذا فإنه من غير المسموح به الافتراض بعد الآن ، كما فعل فرويد ، ان كل النيوروسية لها أساس جنسي وانها تختفي حين يلائم الإنسان نفسه مع المجتمع . إن المجتمع لم يعد مستقراً ، ولذلك فإن التلاؤم معه لم يعد الحل النهائي .

ويمكن تعريف السيكولوجية الوجودية كما يلي : إنها الاعتراف والادراك بأن مشكلة التلاؤم عند الإنسان يجب أن تكون مع الحياة نفسها وليس مع مجرد المجتمع . وبالنسبة لفرويد والقرن التاسع عشر لم تكن هناك علامة استفهام ضخمة وراء الحياة . فقد كانت الأديان استجابة لحاجة الإنسان الى رمز أبوي ، وكانت نتاج تغفيله وبراءته وجهله وليس استجابة حقيقية لسّر غامض حقيقي . فلم يكن هناك أي سر غامض حقيقي .

والسيكولوجية الوجودية هي استجابة للحاجة إلى رؤيا أقلّ مادية ، ويمكن تحديد هدفها ببساطة على الوجه التالي: إذا كان الله موجوداً ، فسيكون إذن العالم النفساني المثالي ، لأنه سيقول لمرضاه : « هذا هو السبب الذي من أجله أنتم أحياء ، وهذا هو هدفكم وقصدكم ، وهذا هو كيف وضعتم أنفسكم في هذه الورطة) ذلك أن أساس نيوروسية القرن العشرين السائدة (إذا جاز اطلاق هذا التعميم للخطة) ، ليس هو رعب الانسان من لاعقليته الخاصة ، بل هو رعب أعمق من أن الحياة هي ضرب من العبث ، نكتة مريعة . قد يقال ان الايمان الديني هو وحده الذي يستطيع أن يواجه مثل هذه الحالة ، ولكن هذا ليس صحيحاً بالضرورة . ولقد قال ادموند ولسون مرة : (إن الرد على اصرار المستر اليوت على أنه من المشكوك فيه إن كانت الحضارة تستطيع أن تستمر في البقاء بدون الدين ، هو أن علينا أن نجعلها قادرة على الاستمرار) . وهذا هو الرد كذلك على التأكيد القائل بأن (ألم) وتمزق

الانسان العصري يجدان علاجها في الدين . فإن عمليــــة إعادة احياء الدين في القرن العشرين كانت في معظمها ردة الى العصور المظلمة . فالدين يفرض اجاباته الخاصة ، وقد فعل ذلك دوماً . وقد يزعم رجل متدين ان العلم لن يستطيع أبداً أن يجيب على (معضلة الوجود الإنساني) . والجواب على ذلك هو أنه قد نستطيع لو حاولنا . ومن أين نبدأ ؟؟ .

قد نبدأ من تشخيص الدافع الجنسي بواسطة الاسلوب الفنمنولوجي ، وعلى كل حال فهي بداية .

يحمل القول بأن السيكولوجية الوجودية هي سيكولوجية ذات اهـتمامات وفرضيات مماثلة لاهتمامات وفرضيات نيتشه وكيريغارد بدلاً من ماديـــة القرن التاسع عشر . وبالضرورة فإن علاقة العالم النفساني بالمريض هي علاقة مختلفة في التحليل النفساني (حسب المدرسة الفرويدية) ويفترض في المحلل أن يكون « خارج » مشاكل مرضاه . أما في السيكولوجية الوجودية فـإن المحلل يعرف تمام المعرفة أنه هو طرف في نفس المعضـلة التي تفرض التوتر والضغط على مرضاه. فهو يستطيع أن يساعد المريض في أن يصفي النيوروسيات « غير الجوهرية » من أزمته الأساسية، بل انه يستطيع كذلك (وهذا يعتمد على قدرته وامكانياتـــه وادراكاته الخاصة) أن يقترح اسلوباً أو وسيلة أكثر جدوى لمعالجـــة مشاكل مريضه الأساسية . ولكن العلاقة مختلفة . فهما مثل جنديين في مسيرة طويلة ، القوي منهما يساعد الضعيف . الا أن كلاهما في أرض العدو ، ورصاصة طائشة قد تقتل أحدهما في أية لحظة .

يورد رولو ماي مثالاً من شأنــه أن يوضح الأسلوب الوجودي ، وهو يخص امرأة ذكية في الثامنة والعشرين كانت تصاب بنوبات لا تستطيع التحكم بهـا، من الغضب الجارف ، والقلق العنيف وأعراض صغيرة أخرى . وكانت هــــذه المريضة طفلة غير شرعية ، جعلتها أمها وغير أمها تحس بأنها غير مرغوب فيها . بل إن أمها صرحت لها يوماً بأنها حاولت أن تجهضها وهي جنين .

وبعد أشهر من المعالجة التي حاول المحلل النفساني أثناءها أن يعمق من إدراك

الفتاة لعلاقتها بالوجود ، خبرت الفتاة تجربة كأنهـــا مقتبسة من كتاب وليام جيمس (ضروب من التجربة الدينية)
« Varieties Of Religious Experience »

« أذكر يوماً كنت أسير فيه في احدى المنــاطق الفقيرة وأنا أشعر بفكرة أنني طفلة غير شرعية . أذكر كيف كنت أتصبب بالعرق وأنا أحاول في ألم أن أتقبل هذه الحقيقة . ثم فهمت كيف يحسّ الإنسان حين يَقبلُ شيئاً ما . قلت لنفسي : انني زنجية وسط البيض ذوي الإمتياز ، أو انني عمياء وسط جماعة من المبصرين . وفي وقت لاحق من ذلك اليوم ، أفقت وخطر لي ما يلي : أنا أتقبل حقيقة أنني طفلة غير شرعية لكنني لم أعد طفلة . اذن فـــأنا غير شرعية فقط . ماذا بقي إذن ؟ الذي بقي هو أنا موجودة . ومـــا أن تمكنت مني عملية (أنا موجودة) هذه، حتى خبرت هذه التجربة (للمرة الأولى في حياتي على ما أظن) : نظراً لأنني موجودة فان لي اذن الحق في البقاء» .

والذي حدث هنا هو نشوء ادراك في حقل ليس له أية اصطلاحــات حتى الآن . ولعله يمكننا أن نفترض أن المريضة كانت قد فقدت احترامها الأساسي لنفسها واحساسها بضرورة وجودها ، وإن النيوروسية التي نشأت عن ذلك هي فقدان الصلة بالواقع . وفقدان الصلة بالواقع من شأنــــه أن يؤدي إلى نوع من الهستيريا. ومن الواضح أن أحاديث ومناقشات المريضة مع الطبيب النفساني أعاد اليها الإحساس بكرامتها كما أعاد اليها قدرتهـــا على أن تنظر إلى نفسها نظرة جدية .

(لم تكن المريضة قد تلقت القدر الكثير من التعليم المـــدرسي التقليدي ، لكنها كانت على قدر كبير من الذكاء ، كما أنهـا ثقفت نفسها بنفسها ، وهو أمر يدل على أحساس أساسي بوجود هدف . وقد أمكن للتحليل النفساني أن يعيد اليها هذا الإحساس بالهدف) .

ومن الواضح أن هذه هي « سيكولوجية اللامنتمي » فكلما كان الإنسان أعظم موهبة ، ازدادت الحـاجة الى « الاحتكاك بالواقع » . فالبقرة تستطيع

أن تقضي حياتهـا وهي ترعى بهدوء في الحقل دون أن تصيبها أية نيوروسية ، لأنها تحتاج إلى احتكاك ضئيل جداً بالواقع . ولقد عبر شو عن كرهه لمجتمع دبلن كما وصفه جويس في « يوليس » وذلك بقوله : « ... إن الحياة التي توفرها دبلن لشبابها هي بلا شك قريبة الشبه بالحياة التي يعيشها الشباب في أي مكان آخر من المناطق المتحضرة في حضارتنا العصريـــة . وهي مزيج من السخرية العابثـــة اللامجدية ومن الاستخفاف اللذين يخلطان بين ما هو نبيل وجدي وبين مـــا هو حقير وتافه .. وحين غادرت هذه المدينة التي هي منشأ رأسي خلفت هذه الحقبة ورائي ، ولم أعد أختلط برجـــال من جيلي حتى .. وجدتني مندمجاً في النهضة الإشتراكية التي بدأت في أوائل الثمانينات ، بين رجال إنكليز جادين يغلون بالسخط على الشرور الحقيقية والأساسية التي أثرت على كل العالم » . (من مقدمة « اللانضوج » « Immaturity ») ولو بقي شو في مجتمع دبلن هذا ، ولم يستطع الدخول الى حلقة « الرجال الجادين » في لندن ، فلربما أصيب بمثـل النيوروسية المذكورة أعلاه . أما في حالة الفتاة ، فإن ذكاءهـا وخبرتها السابقة في تثقيف النفس سهّلا من مهمة الطبيب النفساني. بل إن أية محادثات مطولة مع أي شخص جاد وذكي كانت ستؤدي إلى شفاء الفتاة من نيوروسيتها . ولعله يمكننا الآن أن نرى لماذا قررت هـذه الحركة أن تتعاضد مع الوجودية بالشكل الذي خلقـــه كيريغارد وهيدجر . فالوجوديـة حاولت أن تخلق اصطلاحات يمكنها أن تميز بين « درجات الوجود » ومن الصحيح أن بعض علماء النفس الوجوديين قد تبنوا بعض إبهامات هيدجر وأقواله الميتافيزيقية السوداء بحماس زائد[1] بدون أن

---

١ – ينبغي أن نذكر هنا لمنفعة غير الملمين بالحركة الوجودية أن موقف هيدجر ما زال منذ عدة سنوات ينظر اليه بكثير من الشك .

إن بعض منجزاته لا يرقى اليها الشك أبداً. ومع ذلك فإنه من الصعب أن نظن بأن هيدجر كان فيلسوفاً لا مبال . لقد قال هولم يوماً ان الفلاسفة يلبسون الدروع للتأثـير على البسطاء ذوي النية السليمة ، لكن هذا الوهم يتلاشى حين ترى هـذا الشخص المتشح بالدرع يسرق الكعك من بيت المؤونة . وهذا ينطبق بشكل خاص على هيدجر ، فمع أن منشأه وسلوكه رزينين وغامضين كأي فيلسوف ألماني آخر ،فإن القارىء يشعر أحياناً أن من أحد مشاغل هيدجر الرئيسية هو=

يتبينوا الطابع السطحي الذي تتميز به بعض تعمياته .

إلا أن اللغة على وجه العموم جُعلت أداة في خدمة البصيرة النفسانيـــة ولم يسمح لها بأن تتحكم بهذه البصيرة وتصبح سيدتها .

ومن الصحيح كذلك أن التفسيرات الوجودية تبدو أحياناً بعيدة عن التصور كأي تفسيرات واردة في كتابات فرويد أو يونج . يذكر ميدارد بوس مثلاً أن أحد المرضى كان يعاني من عادة متحكمة تدفعه إلى غسل يديه باستمرار . وقد راودته أحلام عن أبراج الكنائس ، فسّرها المحللون الفرويديون بأنهـــا رموز لعضو الرجل التناسلي بينما فسّرها المحللون من مدرسة يونج بأنهـا رموز دينية . وفي أحد الأيام حلم هذا المريض بأنه دخل إلى مرحاض مقفل وغاص حتى وسطه في الغائط ، ثم حاول أن يسحب نفسه من الغائط عن طريق التعلق بحبل جرس يمتد إلى « الجرسيّة » أي برج الكنيسة . وقد فسّر بوس كل ذلك بأن المريض قد أغلق قدرات حيوية معينة داخل نفسه ، وانه كان يرفض بصورة لاواعيــة أن يرتقي بنفسه مما خلق فيه احساساً بالذنب . لقد فشل في مواجهة واستيعاب الناحيتين المتعارضتين في نفسه : الناحية الروحية والناحيـــة الجسدية السفلى . وقد انتهى هذا التحليل إلى نتيجة ناجحة بعد أن أصيب المريض بنكسة نفسانية على أثر هذا الحلم .

وقد كان بوس محقاً في تحليله ، إذ يستحيل معرفة مـا إذا كان محقاً أم لا ، بدون معرفة شخصية بالمريض . لكنه يبدو ممـا أورده بوس أن الحديث عن

= أن « يظهر » نفسه كمفكر عميق .

إن هجوم البروفسور كاوفمان البارع ضد هيدجر مجحف قليلاً ، لأنه ليس من صلب الموضوع، أن هيدجر أصبح من مؤيدي النازية ، وانه تبرأ من معلمه القديم هوسرل (الذي كان يهودياً) . ثم انه بعد الحرب حاول جهده أن ينفي عن نفسه أي حماس للنازية . لكن ملاحظات كوفمان عن الطبيعـــة « المسرحية » للكثير من تفكير هيدجر هي ملاحظات صائبـــة إلى درجة تحطيم هيدجر .

إن طبيعة هيدجر المسرحية خداعة ، لأنها على العكس من سارتر ، مستورة بعناية .

« المؤلف »

« انغلاق طاقات روحية وجسدية » داخل نفس المريض ، هو أمر غير محتمل كالتفسيرين الفرويدي واليونجي .

ومع ذلك ينبغي الإقرار بأن السيكولوجية الوجودية تأتي بإسلوب جديد في معالجة بعض المشاكل كمشكلة العادات الرغمية القاهرة .

يذكر فون جبساتل حالة تتعلق بفتى في السابعة عشرة من عمره ، كانت تتحكم فيه باستمرار تصرفات رغمية قاهرة ، وكاد بسبب ذلك أن ينهار عصبياً، فقد كان يجلس ساعات على مقعد المرحاض ينتظر أن يتوقف عضوه عن السيلان لأنه كان يعتقد أن أقل نقطة من البول ستسبب رائحة كريهة جداً . وبعد ذلك كان يلف عضوه بورق التواليت ، لكن حتى ذلك كان يبدو له عقيماً ، وكان لا يستطيع أن يتابع القراءة متى قرر أن يقرأ لأن ذهنه كان يتشتت. فقد كانت كل حركاته من نهوضه الصباحي تتم بالرغم منه ، ووجد نفسه يهتم بأتفه التصرفات . ولقد تملكه هوس من القذارة إلى حد أنه لم يكن يعبر من أي باب دون أن يحذر من ملامسة ثيابه للباب خوفاً من أن تتلوث ، وكان يقرأ أحياناً ، متى وجد مادة للقراءة عن طريق الصدفة وليس عن قصد .

وقد تبدو الحالة شاذة وغير مألوفة بالنسبة للرجل العادي . لكنها لا تختلف كثيراً عن « الحالة » التي يصفها سارتر في « الغثيان » وروكانتان كان كذلك يحلل تجاربه إلى أدق تفاصيلها مما يفقدها أي معنى . إن الكلمة الأساسية في تلك الحالة هي معنى . فالقدرة على التحليل أفلتت بطريقة ما من الزمام، وهذا شيء ليس غير مألوف في طور المراهقة ، خاصة إذا كان المراهق ذكياً ومقطوع الصلة بأي اختلاط اجتماعي . وجورديف كان سيقول بكل بساطة إن المركز العقلي في المريض كان سيقوم بدور المركز المحرّك .

إن رجلاً يريد أن يتعلم الطباعة على الآلة الكاتبة يجب أن يُبقي حسه الإنتقادي يقظاً لكي يلاحظ وضع الحروف ويتأكد من أنه يضرب على الحرف الصحيح . فمتى أصبح ماهراً في الطباعة ، فإن المركز المحرك يستلم مهمة العمل بحيث أن يصبح بإمكان الرجل أن يطبع أوتوماتيكياً ، فإذا سمح للعقل بأن

يتدخل في عملية الطباعة ، فإن النتيجة ستكون التشوش التام ومن الملاحظ أن المريض المذكور أعلاه كان يقرأ متى وقعت في يده مادة للقراءة عفواً ، إذ أن العقل ساعتئذ ، كان لا يتدخل في عمل المراكز الأخرى .

والحالة التي أوردها جبساتز تعود في أصلها إلى الحبوط والفشل وإلى فقدان التوازن في فتى مراهق ليس هناك متنفس جنسي أو اجتماعي لدوافعه . وهناك اشكال أخف من هذه المشكلة تحدث لكثير من المراهقين وهي نتيجة السكون وعدم الحركة ونتيجة الإغراق في تحليل النفس . فكل الطاقـــات الجنسية والعاطفية تنصب في العقل فتكون النتيجة كقيادة سيارة بسرعة خمسين ميلاً في الساعة ،في تعشيق السرعة الأولى . فسوف يسخن الموتور ، ويتحول التوتر الناجم عن ذلك إلى نيوروسية القلق . وإيجاد علاج فعال لذلك يعتمد فقط على تحويل العمل والنشاط بطريقة ما إلى المركز المحرك واقناع العقل بشكل ما أن يستريح وأن يتوقف عن القيام بدور الدكتاتور . وهذا يحتاج إلى تنسيق داخلي قد يكون فوق طاقة معظم المراهقين . لكنه يمكن التوصل إلى هـذا العلاج عـن طريق حلول بسيطة كأن يسكر المريض أو يقع في الحب (شرط مضاجعة حبيبته) ، أو ينخرط في سلك الجندية . وجيمس جونس ، الذي يبدو أنه خـبر شيئاً شبيهاً بهذه المشكلة ، وجد حلاً مرضياً لها بأنه أخذ ينفق كل نقوده على المومسات وشرب الجعة . وإنه لمن الصعب القول ما إذا كان ذلك قد ترك أي أثر سيء دائم عليه ، الا أن ذلك مشكوك فيه . في فيلم فيديريكو فلليني الشهير المسمى « الحياة الحلوة » La Dolce Vita هناك حادثة تحمل كل الصفات التي يتميز بها تاريخ حالة حقيقية . بطل الفيلم ، مارشيلو ، صحفي شاب شريف لكنه غـير واثق من نفسه ، يجد نفسه وسط فساد مجتمع روما ، فيميل إلى الانسياق معه . أما صديقه شتاينر فيبدو لأول وهلة أحد الرموز القليلة في الفيلم للحياة التي لهـا معنى . وهـو علاّمة طيب وجاد ، يـكاد يشبه في وداعته وانسانيته بعض شخصيات الدوس هكسلي في رواياته الأخيرة .

إنه زوج سعيد لزوجة جميلة وهـو أب لطفلين ، كما أنـه يتمتع بأصدقاء

لامعين ، وبحياة زوجية مثالية على ما يبدو . وفي احدى الليالي يحضر مارشيلو حفلة أقامها شتاينر في بيته ، وحين يخلو الصديقان مع بعضهما البعض في غرفة نوم الطفلين ، يسرّ شتاينر إلى مارشيلو بالخوف العميق الذي يجتاحه ، بذلك الألم الكيركيغاردي ، فيقول : « أية حياة ، حتى أشدها بؤساً ، تساوي أكثر من وجود ذي مأوى في عالم كل شيء فيه منظم وعملي وله مكانه ... أحياناً تشتد عليّ وطأة هذا الليل ، هذه الظلمة ، هذا الهدوء . إن الأمان هو الذي يخيفني . ربما لأنني لا أثق فيه أكثر من أي شيء آخر . أشعر أنه مجرد مظهر ، وانه يخفي خطراً متربصاً وراءه . وأحياناً ، أفكر في العالم الذي سيعرفه أطفالي . يقولون بأن عالم الغد سيكون رائعاً . لكن ماذا يعني ذلك ؟ إن حركة واحدة من مجنون تكفي لأن تحطم كل شيء » .

ثم نعلم في مكان لاحق من الفيلم أن شتاينر يغتال طفليه ، وبعدها يطلق النار على نفسه ، فينهار آخر رمز للقوة واللياقة عند مارشيلو .

إن محللاً نفسياً من مدرسة فرويد أو حتى من مدرسة يونج سيجد هذه الحالة محيرة جداً ، وسيقضي وقتاً طويلاً في الغوص في ماضي شتاينر باحثاً عن عقد الذنب وغيرها وقد تكون مثل هذه العقد موجودة على كل حال ، كما أنها قد تكون ساهمت في انهيار شتاينر . لولا أنه لا يمكن إدراك الأسباب الأساسية للإنهيار الا عن طريق السيكولوجية الوجودية . وميزة « الألم » عند كيركيغارد هي أنه ليس قلقاً ناتجاً عن خطر أو تهديد معين . كما أنه ليس بالضرورة قلقاً عاماً ناتجاً عن قسوة الحياة ، كقلق ايفان كارامازوف ، بل هو المعرفة بأن الإنسان هو كائن يمشي وهو نائم ، كائن تستغرقه مشاكله الصغيرة ويسير بالفعل وهو فاقد الادراك تماماً على سور طوله ألف متر ، وحين يشير سارتر الى « الرعب الأساسي للوجود » فإنه يكون بذلك دراماتيكياً أكثر من اللازم . هناك بالتأكيد خطر عظيم ، لكن هذا شيء آخر . فالإنسان وحيد في عالم لا يعرف عنه شيئاً سوى ركنه الخاص . وهو الطفل الذي تقبل إحسان عالم الكبار ، فحين بلغ سن الرشد ، وجد نفسه ميالاً الى ان يتقبل احسان الكون

كله لكن هناك لحظات ، عند مواجهة الموت أو الألم ، يبدو فيهـا كل ذلك وهماً مريحاً . كل صباح تطلع علينا الجرائد بأمثلة وشواهد جديـدة على قسوة الإنسان ولامبالاته بعذاب الآخرين ، وعن قتل الأطفال وتعذيب الحيوانات . وهناك أوقات تبدو فيها الطبيعة وكأنها هي كذلك قوة حاقدة تتلذذ في انزال الكوارث الطبيعية بنا . والإنسان الذي تتكون عنده حساسية خاصة تجاه كل هذه الأشياء سيكون عندها في وضع يمكنه من أن يقدّر « الشر الميتافيزيقي » في الكون : أي نوائب الزمن ، وموت الإنسان في النهاية ، والأوهام التي تمنعه من أن يدرك كنه ذلك ، والإحتمال القائم في أن تكون الحياة شركاً وأن يكون الإنسان ضحية يقوم جزّار بتسمينه قبل الذبح .

هل هذه هي أهوال مطلقة ونهائية ؟ أليس ثمة من مهرب ؟

الواقع أنه لا يمكن الإجابة على هذين السؤالين لأننا لم نبدأ بعد في التصدي للمشاكل الحقيقية . هناك أوقات تستعر فيها الحياة في داخلنا بيقين يبلغ حداً من القوة بحيث يبدو وكأن أرض المجهول قد تكشفت لنـا تحت وهج وميض من النور . ويكون من نتيجة ذلك أننا نغدو مقتنعين أنـه سواء أكنا قادرين على معرفة الاجابة أم لا ، فإن « الحياة » تعرف تمامـاً الى أين تقودنا . وإذا كنا قادرين على أن نعمّق بجهد عظيم مدى تفهمنا وادراكنا الواعي ، فقد نكون أقدر قليلاً على إدراك الهدف والقصد . لولا أنه نظراً لأن حياتنا اليومية ملأى بالعثرات والعقبات ولأننا نعبرها وعيوننا معصوبة بالغمامات، فإنه من المستحيل أن نعرف أياً من الرؤيين هي « أعمق » ... رؤيا الرعب أم رؤيا المعنى .

الاّ أنه من المهم الاّ نخلط بـين « الألم » (بالمفهوم الكيريغاردي) وبـين الضعف الإنساني ، وأن نفترض أن كل أحمـق يطلق الرصاص على رأسه كان يخوض غمـار معركة مصيرية بـين « نعم المطلقة » و « لا المطلقة » . ومعظم حالات النيوروسية هي نتاج العمدية الإنسانية . إننا كأطفال نفكر في كيفية « معاقبة » والدينا إذا ما أساءوا معاملتنا ، فنلجأ عـادة الى تصنع المرض أو الضعف . وتتغلغل العادة فينا ، بحيث أننا قد نجد أنفسنا منساقين حين نكبر

الى أن « نعاقب » الحياة لعدم معاملتها إيانا بالعناية والتقدير الذي نستحق . إن قرارنا هذا هو قرار واعٍ ، أو شبه واعٍ ، وهو من هـــذا القبيل : « لا ، لن أستمر تحت هذه الظروف ، إذا كان القدر يريدني أن أستمر فإن عليــه أن يتقدم لي بعرض أفضل ، والا ّ سأستلقي في مكاني وأرحل عن الوجود » .

هذا العنصر الصبياني قد يكون موجوداً في أصلب الناس ، وقد تثيره فيهم ظروف قاسية جداً .

ومع أن السيكولوجية الوجودية لا تستطيـع أن تفعل شيئاً بالنسبة « للألم » الحقيقي .. الذي لا بـد أن يبقى في الإنسان الا ّ إذا استطاع الإنسان أن يبلغ الألوهية . . فإنها تستطيـع الى حد ما أن تعالج مشكلة الضعف الإنساني هذه . وإنـــه لمن الأهمية أن ندرك بأن هـــذا الضعف يعمل كمكبّر « لـــلألم الميتافيزيقي » .

ليس هناك من سبب أرضي يجعل رجلاً ذكياً ذا وعي كبير نسبياً «بالواقع»، يقرر أن ينتحر بسبب فظاعة أو « رعب الوجود » . فحين يكون الإنسان مالكاً « لتوازنه » ، أي حين تقوم كل مراكزه بعملها بشكل معقول ، فإنــه يستطيـع أن يقيم توازناً بين ادراكه « للخطر » ومعرفته بقوة وقدرة الإنسان . وهذه الاعتبارات من شأنها أن تبين لنا أنه كان من الممكن لعالم نفسي وجودي متمكن جداً أن يساعد شتاينر ، في حين أنه لا أمل يرجى هناك من أيـــة من المدارس الفرويدية .

من المهم أن نلاحظ قول شتاينر :

« أية حياة ، حتى أشدها بؤساً ، تساوي أكثر من وجود ذي مأوى في عالم كل شيء فيه منظم .. » .

وعلينا أن نقرر أولاً ان هذا القول يكشف عن قلة نضوج ، فإن شهوراً قليـــلة في ظروف قاسية تعيسة حقاً كفيلة بأن تجعـــل شتاينر يحس بالحبور والإمتنان لما يملك . ولا بـد من أن نعود إلى هـــذه القضية بعد برهة وجيـزة لنتفحصها بعناية . لكن الشطر الثاني من هذا القول ، أي ذلك الذي يشير إلى

التنظيم ، تعكس تياراً فكرياً له بعض الأهمية في الثقافـة الغربية المعاصرة الا وهو النزوع الى اللاعقلية .

ويظهر ذلك لأول مرة في رواية دوستويفسكي « ملاحظات من تحت ألواح الأرضية « Notes From Under The Floorboards » وفيها يبين لنا «الرجل الصرصار » أنه شخص بلا قوة إرادة ، ولا كرامة واحترام الذات ، أذكي من أن يعجب بنفسه لكنه يمضي فيتحدث عن العصر الألفي العلمي المثـالي حين سيكون كل البشر أصحاء وعقليـين سعداء . (وهو شيء يشبه تلك الحالة غير الجذابة التي يصورها ولز في « رجـال كالالـه » Men Like Gods ، ويقول بأنه حين يهلّ هذا اليوم العظيم فسيظل هناك رجل ضئيل ذو أسنان خربة يثب من مكانه ليرفض « السعادة » باسم نوع غريب ما من الحرية [1]

وقد عالج الدوس هكسلي فيما بعد الجانب الإجـــتماعي من هذا الموضوع في روايته « عالم جديد شجاع » « Brave New World » ولعل أبلغ وأروع تعبير عن هذا الموضوع يرد في رواية فاليري بريوسوف المسماة

« The City Of The Southern Cross »

ومدينة المستقبل هذه تقع في القطب الجنوبي تحت قبة زجاجية هائلة تبقى درجة الحرارة فيها معتدلة على مدار السنة . ويدير المدينة حفنة من الرأسماليين ويقطنها حشود من العمال « السعداء » الذين ألزموا بـأن يعيشوا ويلبسوا ذات الحياة ، وذات الثياب في مدينتهم السعيدة هـذه ، ولم يكن هناك ثمة من استياء أو شكوى ظاهرين ، إلى أن يظهر فجأة مرض غريب اسمه « داء التناقض » . وكان كل من يصيبه هذا الداء يفعل نقيض ما ينوي . فإذا كان يهم بـــأن يقبّل

---

١) الرجل الصرصار هذا هو ، مثل شتانير ، خليط طريف من الضعف والقوة . وينبغي لذلك أن يكون موضوع دراسة يقوم بها أحد علماء النفس الوجوديين ، وميزة هذا الضعف من الرجال هي أنهم ينزعون إلى الخلط بـــين قوتهم وضعفهم وإلى الإصرار على أن هذين الخصلتين تعتمدان على بعضها البعض . ولقد كان دوستويفسكي نفسه من هذا الصنف من الرجال .

« المؤلف »

زوجته كان يمضها بدلاً من ذلك ، وإذا كان يريد أن يتجه إلى اليمين كان يتجه بالرغم منه إلى اليسار وهكذا . وحين ينتشر هذا الداء تعمّ الفوضى المدينة إلى أن يقوم ضحايا هذا الداء أخيراً بتدمير المدينة كلية ويخلفونها أكواماً من الخراب. أما وصف مشهد التدمير فهو رائع وعنيف .

هنا يتضح لنا نفس الإصرار على الحاجة إلى «الحرية» بدلاً من مجرد «النظام». ومثل هذه الإتجاهات نجدها في كثير من أدب القرن العشرين . الا أنه يتوجب علينا أن ندرك بأن عملية رفض «النظام» هذه قد لا تكون أكثر من حالة من حالات عدم النضوج ، مثل انتحار شتاينر . حين يفقد انسان ما ذاتيته ويفقد الإحساس بأنه «يحيا» (مثل الفتاة «غير الشرعية» التي أشار اليها رولو ماي)، يصبح كل معنى للنظام أمراً لا يطاق . وهذا الخطأ قد لا يوجد في النظام الإجتماعي وانما في علاقة المريض «بوجوده» هو .

وهذا من شأنه أن يثير السؤال المتضمن في الجزء الأول من ملاحظة شتاينر : «اية حياة ، حتى أشدها بؤساً ، تساوي أكثر من وجود ذي مأوى ...» . إن نزوع الإنسان إلى عدم تقدير قيمة ما يملك هو موضوع كنا قد بحثناه بالفعل، وهو مرتبط «بميكانيكية التكرار» وبميل الحياة إلى عدم السماح للإنسان بالإحتفاظ بأكثر من واحد بالمئة من مكتسباته . وهدف هذا النظام الميكانيكي هو أن يكون حافزاً على التطور ، أن يمنع الكسل والإسترخاء . وهناك صورة رمزية لهذه الحالة في قصة العجوز القابعة في زجاجة خلّ والتي لم تكن تتوقف عن الشكوى رغم كل ما كانت الجنيّة الطيبة تفعله من أجل تحسين أحوالها واسعادها ، إلى أن اضطرت الجنيّة في النهاية إلى أن تعيد العجوز من القصر الذي أسكنتها فيه إلى زجاجة الخل .

لولا أنه إذا كانت ميكانيكية التكرار هذه قوية جداً ، فإن البشر سيموتون تقريباً من الضجر والخيبة . وبالنتيجة فإنه يبدو أن هناك ميكانيكية نفسانية أخرى ، مرتبطة هذه المرة بالإرادة مباشرة ، مهمتها امتصاص السموم التي ينفثها فينا الضجر والخيبة . حين أعادت الجنيّة العجوز إلى زجاجة الخل فإنها

بذلك كانت تعني ضمناً أن الخطأ كان بصورة جزئية خطأ العجوز لأنها استمرت في الشكوى والشعور بالاستياء . صحيح إن ميكانيكية التكرار تتعهد بأن تبقي حسّ الإنجاز فينا ، في درجة منخفضة ، الا ّ أنه حق مع ذلك ، فإنه يسمح لنا بأن نحتفظ بقدر من حسّ الإنجاز يكفي لأن يبقينا متفائلين . فإذا نجح الضجر في تحطيم كل حسّ بالإنجاز ، فإن ذلك يحدث لأن الإرادة كانت هامدة وغافية . وهذا دليل على عدم النضوج ، أو على الإنحلال .

في حالة شتاينر هو دليل على عدم النضوج ، أما في حـالة العجوز فهو دليل الإنحلال الناتج من تأصل عادة الاشفاق على النفس فيها .

لقد أشرت في مكان آخر إلى أننا نحتاج إلى مفهوم جديد في السيكولوجية الوجودية ... مفهوم اسمه « عتبة اللامبالاة » (راجع كتابي « ما بعد اللامنتمي « Beyond The Outsider)

يبدو أن هناك حالة نفسية أصبح فيهـــا الناس لا يبالون بالمتعة ، وعرضة للإثارة بواسطة الألم . ولا شك أن العجوز التي لم تستطع أن تتعلم العرفان حين نقلتها الجنـّية إلى القصر ، تعلمه فيما بعد حين أعيدت إلى زجاجة الخلّ . وهذا يحدث عندما نضع أنفسنا في حالة من البلادة الشعورية ، وفقدان الإحساس بسبب استيائنا من شدة الحمل الملقى على وعينا ، ونرفض عندهـا أن نبتهج لأية متعة . في مسرحية « ست شخصيات – Six Characters » لبيرانديللو ، وفيها يلاحظ بيرانديللو أن التعاسة تدفعنا إلى التساؤل في حـين أننا نتقبل السعادة كحق من حقوقنا . ولما كان من مصلحة التطور أن نلقى في وضع نبقى مضطرين فيه إلى طرح الأسئلة ، فمن المفهوم اذن أن على ميكانيكية بيولوجية ما ، أن تحـــاول منعنا من أن نغرق في السعادة . وعلى كل حال فإنه من الممكن أحيـــاناً أن نهزم ميكانيكية التكرار وذلك عن طريق عملية تعويض صعبة ، ومن ثم أن نستفيد من تجربة ذات عمق جديد . (إن الوسائل الأسهل لهزيمـة ميكانيكية التكرار مثل المخدرات والكحول الخ ، تهزم نفسها بنفسها لأن الميكانيكية ستزيـــد من قوتها لدحر هذه الوسائل مما سيجعل الأمر أكثر صعوبة لمتعاطي المخدرات حين

يزول أثر الخدر) . فإذا أمكن للإنسان أن يخلق في نفسه ميلاً إلى التساؤل عن سعادته بمثل القوة التي يتساءل بها عن تعاسته، فإن ميكانيكية التكرار ستتلاشى بلا شك باعتبارها غير ذات ضرورة بيولوجية .

لولا أن مشكلة الجريمة الجنسية ، وكذلك مشكلة الإنحراف الجنسي ، أخذتا فعلاً في الظهور كمشكلتين تمثلان هذا العصر . وليس من الاشتطاط القول أننا نعيش في عصر مزدوج الشخصية . إن المشكلة الرئيسية على زمن فرويد .. أي في بداية القرن العشرين ... كانت هي الهستيريا ، التي كانت أول رد فعل عند المريض لتزايد مصاعب وتعقيدات الوجود . وقد جرت محاولات لإعادة التلاؤم بين المريض والمجتمع ، لكنها كانت محاولات ناقصة لم تتعد مجرد السطح . وكانت النتيجة هي الانفصام بين السطح « الناضج » والأعماق الفجّة المراهقة . والشيزوفرينيا (أي الفصام العقلي) قد تعتبر مرضاً أكثر نضوجاً بقليل من الهستيريا ، وان الانتقال من الهستيريا الى الشيزوفرينيا يدل على أن المجتمع قد حقق تقدماً طفيفاً في حقل ملاءمة الإنسان للأوضاع الجديدة .

إن الازدياد في نسبة الجرائم الجنسية والانحراف الجنسي يتطلب فحصاً جديداً لأصول الدافع الجنسي .

يقول جون دولارد في كتابه « السلالة العنصرية والطبقة في مدينة جنوبية » « Caste and Class in a Southern Town » .

« يقال إن الإنحرافات الجنسية أقل حدوثاً بين الزنوج ، وإن ممارسة العادة السرية أندر ، وإن أعمال التشويه والتعريض أقل شيوعاً مما هي عليه بين المرضى البيض . والسبب المزعوم لذلك هو أن التعبير الجنسي الصريح بين الزنوج هو أقل تحريماً مما هو بين البيض وإنه تبعاً لذلك ، فإن الضغوط التي قد تدفع الزنوج الى أشكال بديلة للإستمتاع الجنسي غير موجودة بالمرة »

ويلاحظ دولارد كذلك أن الرجل الأبيض ، يميل الى أن يحسد الزنجي على حريته الجنسية[1] .

---

١ - « وقال الآخر إن الزنجي يحتفظ دائماً بحوالي عشر نساء الى جانب زوجته كخليلات، =

لكن كتاب دولارد نشر لأول مرة عـــام ١٩٣٧ . وسيكون من المفيـد والطريف لو أمكننا أن نطلع على الاحصائيات الحالية ، أي بعـد حوالي ربع قرن من تاريخ نشر الكتاب المذكور . على أن نظرة واحـــدة على المجلات التي تتخصص في نشر الحوادث الجنسية الحقيقية تبين لنا مدى الارتفاع الحـــاد في عدد الزنوج المنغمسين في الجرائم الجنسية ، وخاصة تلك التي ارتكبت ضد نساء بيض . ويبدو من المحتمل ان تكون نسبة الشذوذ الجنسي قد ارتفعت كذلك .

إن دراسة وجودية للدافع الجنسي تكشف عن أن عدم قدرة عـــلم النفس القديم على معالجة قضية الانحراف الجنسي تعود أصلاً إلى افتراض وجود طاقـة أساسية اسمها الليبيدو (الطاقـــة الجنسية الغريزية) وإن دوافع الليبيدو هي أعمق ما يعرفه علم النفس من دوافع . وقد تعزز هذا الاستنتاج بما توصل إليـه البيولوجيون الداروينيون من ان الجنس هـو الطاقة الدافعة في مجتمع الحيوان . الا أن علم الحيوان قد أجرى تعديلات على استنتاجاته منذ ذلك الوقت ، ولذا فإن هنـاك اقراراً وادراكاً متزايدين بأن ارادة بـــلوغ الأسبقية والأولوية ، والحاجة إلى الأرض هي دوافع أكثر عمقاً وتأصلاً حتى من الحافز الجنسي .

= وان امرأة واحدة لا تكفيه » (الصفحة ٣٩٨).يتوضح من تحليل دولارد أن المجتمع الجنسي قريب الشبه في بعض النواحي من فكرة بليك عن الحرية الجنسية الكاملة . وقد صرحت معلمة مدرسة زنجية أن معظم طالباتها مارسن التجربة الجنسية في سن مبكرة . « المؤلف »

الفصل التاسع

نظرية الاستجابة الرمزية

خاتمـــة



هل من الممكن اذن ان ننتقل من تقييم للانحراف الجنسي الى أقوال أكثر تعميماً عن « الانسان » و«الذكاء الانساني» ؟ لقد بحث موريس ميرلو – بونتي ، العـالم الفنمنولوجي الفرنسي واحد اتباع هوسرل ، هـذه المسألة في كتابه « فنمنولوجية الادراك » The Phenomenology of Perception . ولقد صب ميرلو – بونتي أغلب اهتمامه على مهاجمة « السيكولوجيات المادية » وعلى الاخص السيكولوجية السلوكية (التي خصص لهـا معظم كتابه السابق « تركيب السلوك » The Structure of Behaviour الذي نشر عـام ١٩٤٢) . ان ميرلو – بونتي يحـاول على صعيد علمي شديد ان يهدم السلوكية الواطسونية و « انعكاسية » بافلوف ، ويبرهن ان نظرية جيشتالت هي وحدها القادرة على تفسير السلوك والاستجابات الانسانية تفسيراً تاماً .

ولقد تجاهل هـذا الكتاب المادية الكلية كحل محتمل لأصول الدافـع الجنسي ، نظراً لأنها لا تستطيع حتى ان تبدأ في تفسير الانحراف الجنسي . لقد كتب زعيم المدرسة السلوكية جيـه. بي. واطسون مرة يقول : « إنه مـا من سلوكي لاحظ أبداً وجـود أي شيء يستطيع ان يسميه وعياً واثارة وخيالاً وادراكاً » ، أو إرادة » . ونظراً لأن واطسون كان في أغلب الظن واعياً حين كتب ذلك ، فانه من الصعب ان نتفهم مغزى كلامه تماماً . وعلى كل حـال ، فاننا نستطيع ان نفترض انه ما من أحد في هذه الأيام ينظر بجدية الى تأكيـده إلى ان الإنسان هو آلة. ومع ذلك فان النظرة الفرويدية تلمح ضمناً بأن الإنسان هو بالفعل نوع من الآلة وان « وقوده » هي قـوة تسمّى الليبيدو وان إنساناً تكون طاقته الجنسية الغريزية صحية وغـير مشوبة سيكون نوعـاً ما آلة متكيفة .

والنتيجة التي تستخلص من أيـة دراسة دقيقة للانحراف الجنسي هي ان الليبيدو بمفهومها الحالي لا وجود لها .

ولتوضيح مـا اعنيه تماماً فسأسوق هذا التشبيه . ان أي شخص « منحرف جنسياً » هو بالنسبة للفرويدي شخص « ذو توجيه خاطىء » . لنتصور ان « نفس » الانسان دائرة كبيرة . في وسط الدائرة ، أي في وسط وجـود الإنسان ، توجـد نار اسمها الليبيدو ، وعلى مسافات متباينة من وسط الدائرة توجد نقاط اسمهـا « انحرافات » . قرب وسط الدائرة هناك اللعق والمص ، وابعد منها قليلاً يقع اللواط والفتيشيه ، ثم تقع بعدهما السادية وأخيراً وقرب المدار تقبع الجريمـة الجنسية . « فمعالجة » منحرف معناها اذن اقنـاع ميوله الجنسية على ان تتحرك من مكانها وترتد الى الوسط .

إن السيكولوجية الوجودية ترفض هذه الصورة . فاذا عدنا الى رمز الدائرة مرة أخرى ، فان « الميل الجنسي الطبيعي » لا يقع في منتصف الدائرة ، بل في نقطة تقع بين الوسط والمحيط . ووراء « الميـل الطبيعي » الى القرب من المحيط تقع الانحرافات المختلفة .

في الصورة الفرويدية يمكن للانسان ان يحقق نوعاً من الاستقرار متى ارتـد إلى وسط الدائرة (الا اذا تعدى الوسط إلى الجهة الأخرى) . أمـا في الصورة الوجودية فانه يمكن ردّ « المنحرف » الى « الوضع الطبيعي » ، لكنه يستطيع من هناك ان يتقدم الى مـا وراء الجنس ويصبح أكثر قرباً مـن الوسط . وبكلمة موجزة ، انه يستطيع ان يتعدى ويفقد الدافـع الجنسي كلية وان يكون حتى أكثر « طبيعية » من أشد الناس الطبيعيين جنسياً .

وهكذا يتضح على الفور الفرق بين السيكولوجية الفرويدية والسيكولوجية الوجودية . الجنس عنـد فرويد نوع من النيرفانا . ولعل قصة « مطر » Rain لسومرست موم تمثل فكرة فرويد تمثيلاً تاماً . فالمبشر الذي كان يحاول ان يكتسب سادي طومسون الى طائفته كان في الواقع عجوزاً لوّعه الفشل الجنسي كما اتضح أخيراً من محاولته اغتصابها . لقد قام بمحاولة فاشلة « للتسامي » عن

خيبته الجنسية ، لكنه لم يملك القدرة الكافية على ذلك . وكان سيكون اسعد حالاً لو أنه تخلى عن جعل الدين شعاراً يخفي وراءه شهوته الجنسية . فالتسامي عن الجنس هو بديل فقير للشيء الحقيقي ، للتعبير الصحيح عن الليبيدو .

إن العالم النفسي الوجودي يجد هذا الرأي (الفرويدي) متعنتاً أكثر من اللازم . تصور شخصاً قادراً مثل بيتر كورتن يقع بين يدي طبيب نفسي وجودي خبير . إن هذا الطبيب قد يتمكن عن طريق تشخيص كورتن واعادة تكييف وتصحيح رغباته وتنبيه ذكائه وقدرته العقلية وتعزيز الحس الجمالي فيه ، قد يتمكن من ان يزيل عنصر السادية منه وان يجعل منه رجلاً طبيعياً . لكن « الإنسان الطبيعي » كما نعرف اليوم ، ليست به حاجة خاصة الى الفكر أو إلى الحسّ الجمالي . انه يستطيع إذا توفر له عمل مريح وجهاز تلفزيون ان يقضي العمر بدون عناء أو شكوى . إن رجلاً مثل كورتن تعلم ان يتخلى عن عادة الحاق الألم كوسيلة للتعبير الجنسي ، يمكنه كذلك ان يدرك بأن هذه الارادة ذاتها تستطيع ان تجعله مستقلاً عن الجنس تماماً . والتاريخ يزخر بمثل هؤلاء الرجال والنساء ، منهم القديسون والفنانون والمصلحون الاجتماعيون والعلماء رجال ونساء ربما كان فرويد سيعتبرهم اناساً « غير مكتملين » ، اناساً لم يحققوا انفسهم . ولقد قيل مراراً ان فرويد علمنا ان نواجه حقائق غير مفرحة عن انفسنا . قد يكون ذلك صحيحاً ، لكنه في هذه الحالة علمنا ان نواجه كذبة غير مفرحة .

ما هي اذن الاستنتاجات النهائية التي توصلت اليها السيكولوجية الوجودية . في موضوع الطبيعة الانسانية ؟ هذا السؤال يقفز بنا الى ما وراء علم النفس ، إلى حقل الفلسفة . نبدأ فنقول ان دراسة الانحراف الجنسي تظهر لنا انه يمكن تكييف الانسان لجعله يستجيب جنسياً لأي شيء تقريباً . والذي يستجيب له الانسان هو في الواقع « جيشتالت » ، مجموعة من العلاقات ، وليس شيئاً محدداً. بعد الاطلاع على حالات مختلفة من الفتيشية فانه يصبح من السهل ان نتصور رجلاً يبلغ حالة القذف لدى مشاهدته منظر مكعب أو مثلث . الجنس شيء ذاتي .

واعني بذلك انه لا توجد هناك بالضرورة اية علاقة بين الطاقة الجنسية والشيء ان كنت جائعاً فان وجبة من الطعام ستشبعك : واذا امسكت جمرة ملتهبة فانها ستحرقك . أي ان هناك علاقة حقيقية بين معدتك والطعام وبين يدك والجمرة . ونحن نعتبر العلاقة بين الاعضاء التناسلية للذكر والانثى كأنها علاقة من ذات النوع . الا ان دراسة الانحراف تفند ذلك . والذي يحدث هو أن العقل يفرض نوعاً من القبول بالنسبة لبعض الاشياء والرموز و « يسمح » بحدوث قذف يرافق ظهور هذه الاشياء معاً . في كتاب « الجريمة والجنون الجنسي » « Crime And The Sexual Psychopath » ، يسرد دي ريفر حكاية فتيشي كان يفقد التحكم بنفسه حين يرى الصدريات والكلاسين النسائية جنباً الى جنب . وفي احد الايام وبينما كان يقود سيارته برفقة زوجته ، أبصر هذه الاشياء معلقة معاً على حبل الغسيل ، فأوقف السيارة بقرب المكان وقال لزوجته إن عليه أن يمر على احد المنازل في المنطقة . ثم اتجه الى الحديقة المنشورة فيها هذه الاشياء فانزلها من على حبل الغسيل وفرشها على الارض في الوضع الذي تكون فيه على جسد امرأة ، وبعد ذلك راح « يجامعها » الى ان ألقى البوليس القبض عليه . ومن الواضح ان غرائز هذا الرجل اعطت لهذه الرموز النسائية القدر الكبير من « القبول » بحيث انه أصبح يتأثر بها كما يتأثر رجل « طبيعي » بمنظر امرأة عارية في الحديقة ، الى حد انه راح يضاجع هذه الرموز . ومثل هذه الحالات تفند الفكرة القائلة ان الاستجابة الجنسية هي نوع من العلاقة المباشرة بين الشخص (أي الفاعل) والشيء (أي المفعول به أو هدف الفعل) . انها في الواقع استجابة الى **رموز** .

واذ نضع ذلك نصب أعيننا ، لنحاول اذن ان نجري «دراسة فنمنولوجية» للانسان ، محاولين ان نأخذ بعين الاعتبار فقط ماذا « أعطينا » (بضم الألف) (علينا ان نذكر بأن تعريف الفنمنولوجية هو « دراسة الشيء المعطى ») . أننا « ميعطون » اذن ، على شكل حيوان يسير على قائمتين ، وله « تاريخ حالة» عمرها أربعة عشر مليون عام (هذا اذا قبلنا بتقديرات ليكي) هذا المخلوق هو

الى حد كبير آلة ، ونحن نعرف بعض الشيء عن الطريقة التي تعمل بهـــا هذه الآلة . انه يعمل فقط حين يكون عنده دافـــع . فاذا ما سلب منه الدافع والغاية ، فان طاقته وارادته ستذوبان تاركتين اياه كرجل ثلجي يذوب تحت وهج الشمس .

انه لا يستطيع ان يعمل بدون طاقة ، والطاقة تنبع الى حد ما من مصدر جسدي . لكنها تعتمد كذلك على الارادة . ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة حين يستجيب الانسان لحافز جديد ، لنقل مثلاً لازدياد في ظروف حياته القاسية . وهذا الحافز يجعله يركز ارادته ، وبعـد فترة يبدأ جسمه في العمل بطاقة اكبر باذابة الشحم الزائد. العمل يعتمد على الطاقة، والطاقة تعتمد على تركيز الارادة . لكن الارادة تحتاج كذلك الى حافز ، الى غاية .

عند هذه النقطة سيقول الميكانيكيون والماديون : « بالضبط . والغاية يجب ان تأتي على شكل حافز من العالم الخارجي ، كايـلاج قطعة من النقود في آلة ميكانيكية تعمل بالنقود » . هذا طبعاً صحيح الى حد ما . لكن حافزاً بسيطاً سيثير فقط استجابة بسيطة . والشيء الغريب فيما يتعلق بالانسان هو ان عـالمه الداخلي باكمله يكيّف نفسه بالنسبة للحافز ، بحيث انـــه قد يستجيب في اي عدد من الطرق التي جاءت الى الوجود بفعل بعض نشاطات سابقة قامت بهـــا الارادة .

وعند هذه النقطة بالذات تجب مهاجمة السلوكية ، لانــه عند هذه النقطة ، وعندها فقط ، يمكن دحض السلوكية دحضاً علمياً .

يقول السلوكي : الانسان يستمد طاقته من الطعام ، من العالم الخارجي . وهو كذلك يستمد الاحساس بالغاية من العالم الخارجي . فمـــا الذي يفرقه اذن عن نوع من الساعة التي يتعبأ زنبركها ذاتياً؟ فالقول اناستجاباته هي اكثر «تعقيداً» من الحافز معناه بكلمة اخرى انه هو نفسه آلة اكثر تعقيداً .

ومع ذلك فان الدافع الاساسي في الانسان . وراء كل هـــذه الاعتبارات المادية يبدو كأنه سعي ارادي وراء مزيد من التعقيد . كيف يمكننا تفسير ذلك

بواسطة الميكانيكية ؟ ان اية آلة قد تكون معقدة ، كما ان رد فعل آلة مـا لحالات خطرة ما قد يكون السعي نحو مزيد من التعقيد . ولكن لمـاذا تحس آلة ما بالرغبة في مزيد من التعقيد بدون اي نوع من الحافز ؟

لنركز اهتمامنا لحظة على فكرة « الغاية » التي هي فـيما يظهر حلقة الوصل النهائية في هذه السلسلة. ان احساسي بالغاية يمكن ان يخف او يزيد بتأثير حافز خارجي . يقول بليك : « اللعنة تزنق ، والبركة ترخي وتريح » . هذا صحيح ، ولكنـني استطيع الى حد معين ان اقرر مـا اذا كنت سأسمح للبركة بان تريحني. بمعنى آخر ، فان « الحافز » و « الغاية » ليس شيئاً واحداً بأي حال من الاحوال .

هنا قد يقاطعني احد رعاة الميكانيكية ويقول : « لكنك لم تبين لنا بأنـه يوجد هناك اي اختيار داخلي حقيقي . بل انـك لن تستطيع ان تبين شيئاً كهذا ، لانـك متى فعلت شيئاً يصبح الشيء مفعولاً ومنجزاً ، ولن يكون اصرارك على انك فعلته بمحض اختيارك أكثر اقناعـاً ومنطقية من اصراري على انك فعلت هذا الشيء لاسباب مختلفة ترتبط كلها بميكانيكيتك الداخلية » .

ومع ذلك فان هذه هي بالضبط النقطة التي استطيع عندها باقتناع ورضى شخصيين تامين ان افنّد حجة السيكولوجيين الميكانيكيين واخطاءهم . فمثـلاً بينما اقوم الآن بتخطيط هذه الصفحات فانني احسّ وأعي عقلي يحوم فوق رقعة هائلة من « الحقائق » والافكار ، كصقر يحلـّق فوق حقل كبير باحثاً عـن الفئران. وأعي بأنني قادر على ان اختار أي عدد اشاء من هذه الحقائق والافكار لتوضيح مبتغاي واسناد حجتي . كما انني اعي ، الى حد معين ، انني قادر على أن اختار الكلمات التي سأعبّر بها عن آرائي . (مثلاً ، كنت استطيع أن اقول في الجملة الاخيرة (الكلمات التي سألبس بها آرائي) ، لكن عقلي رفض هذا التعبير أوتوماتيكياً) . اذن فانني الى حد معين واع وعيـاً مستمراً بحريتي . كما انني استطيع أن ارغم نفسي على الاستمرار في الكتابة حتى بعد أن يكون عقلي قد تعب من (التحليق) مع أن تدبيج نصف صفحة سيستغرق وقتاً اطول ممـا

استغرقته كتابة الصفحات الثلاث الاخيرة . وهذه ايضاً هي عملية اختيار مهما كانت تعتمد على حافز ما أو حوافز عدة .

لكنني عند هذا الحد احسّ في داخلي استجابـــة ليست جزءاً من السلسلة البسيطة التي تتكون بالترتيب من الفعل – الطاقة – الإرادة – الغاية – الحافز. ومع انني اعي ان ارادتي هي شيء كمي سلبي يعتمد على الغاية، فانني اعي كذلك أن ارادتي تملك هدفاً أو غاية غريبة صغيرة تخصها هي ، ألا وهي البحث عن غاية ، أي في حقيقة الامر التنقيب في وجودي الداخلي بحثاً عن غاية . وهذه الغاية منفصلة تماماً عن الحافز الخارجي . كأن ارادتي تحاول أن تكون ساكنة صامتة ، وأن تصبح شيئاً كآلة الاستقبال لالتقاط اية ذبذبة داخلية لغاية ما . إن الارادة ليست قادرة على الاستجابة الى الغاية فحسب ، بل إن مستوى آخر من الغاية يدفع الارادة الى السعي من أجل إعادة الاتصال مع المستوى الرئيسي للغاية . لكن ما هو هذا المستوى الرئيسي ؟ ومــاذا نستطيع أن نفقه منه أو نعرف عنه عن طريق استخدام الاسلوب الفنمنولوجي ؟

عند هذه النقطة يمكننا أن نعود مرة اخرى الى مشكلة الانحراف الجنسي والدافع الجنسي . لان دراسة الغاية الداخلية الذاتية تطرح امامنا اسئلة حول طبيعة المخيلة . ومرة اخرى ، لا بدّ من أن نورد افتراضات قد تبدو للبعض غير ذات موضوع . ان رجلاً جائعاً سيسيل لعابه لدى رؤية طعام شهي . لكن لعابه سيسيل كذلك لو انه بذل جهداً شعورياً كافياً في تخيل طعام شهي . سنقول إن الطعام المتخيل يثير استجابة أخف قوة لانه ليس حقيقياً. فالمخيلة هنا (تزّيف) المظهر (الخــارجي) . ان النظرية الساذجــة للانحراف الجنسي تقوم على مثل هذه الاسس . الشيء (الحقيقي) فيها هو عضو جـــذاب من الجنس الآخر . والرجل الذي يمارس العادة السرية مستوحياً صورة امرأة عارية أو دكورة أي فتيشة تخصّ امرأة، عليه أن يتوقع استجابة أخف قوة لأن ما يستوحيه ليس هو الشيء الحقيقي . لكننا رأينا مما تقدم أن ذلك ليس صحيحاً . اذا كان الجاويش برتراند يفضل امرأة ميتة على اخرى حية فان سبب ذلك ان المرأة الحية كانت

(حقيقية) جـــداً بالنسبة له بحيث أن ذلك كان يعرقل ويقيد الدافع الجنسي عنده . لذلك فانه يفضل جسداً هامداً والاعـتماد على مخيلته . وبالطريقة نفسها نذكر أن الضابط (م) صرح بان العادة السرية يمكنها أن تكون اكثر اشباعاً وارضاءً من الجماع الفعلي لانه يمكن التحكم بها وتوجيهها حسب الطلب بدقة اكثر.

يتضح من ذلك ان « الغاية الداخلية » تمنح الموحيات والأهـــداف الجنسية طابعاً حقيقياً واقعياً وتسمح بالاستجابة لها . لا توجد هناك واقعية خارجيـة مستقلة عـن قوة المخيلة . إن رجلاً فقدت مخيلته حيويتها قـــد يفقد أي اهتمام بامرأة ما حتى وهو يقوم بمجامعتها . في الجنس ليس هناك من « كائن جنسي » ، بل هناك فقط رمز تلبسه الغاية الداخلية الذاتية فينا ثوباً من الواقعية والحقيقة . وحين يكون هذا الرمز امرأة حية فاننا نسمي رغبتنا الجنسية وقتهـــا رغبة « طبيعية » .

الا ّ ان « الغاية الداخلية » كانت قـــد بنت ميكانيكية جنسية على فكرة « الغرابة » . فالجنس الممتع والمرضي هو ذلك الذي يغزو وينتهك « غرابـة » الطرف الآخر . ولهذا السبب نسمي الأعضاء التناسلية « بالاعضاء الخصوصية». كل شيء يعتمد على فكرة انتهاك الخصوصية . وهذه الميكانيكية تعمل بصورة جيدة معظم الوقت ، الا ّ ان « الغاية الداخلية » مع الأسف فاتها ان تضع قيوداً وحراسة على الميكانيكية . وحـــين تكون قوة الاستجابة الجنسية معتمدة على الغرابة التي تم انتهاكها ، فان الرجال سيحاولون بالتبعية ان يزيدوا من قـــوة الاستجابة بالتوغل أكثر فأكثر في الغرابة . ونظراً لأن تمتعهم بالجنس«الطبيعي» يعتمد على الاحساس بانتهاك أحد المحرمات أو الممنوعات ، فانهم سيحاولون بالتالي ان يزيدوا من تمتعهم باضافـة أكبر عـــدد ممكن من صفات التحريم الى المقصود الجنسي . ويمكن ايجاد ذلك بشكل بسيط في الرومانسية الألمانية – في فاجنر ومان مثلاً – وذلك في التركيز على العلاقات الجنسية المحرمة بين الأهل . فاذا كنا على العكس من ذلك نعيش في عصر حضاري يتوقع من الإنسان فيه ان يجامع الأهل ، فإن فكرة مضاجعة الإنسان لأمه أو لأخته ستكون مملـــة الى

أقصى حد (لأننـا نشاهدهن كل الوقت) في حين ان فكرة « انتهاك » فتـاة غريبة ستكون مثيرة حقاً . وعلى هـذا يمكن اعتبار كل الانحرافات الجنسية ، من الخيانات الزوجية الى النكروفيلية ، محاولات لزيادة عنصر الغرابة في العملية الجنسية باضفاء المزيد من الحرمات عليها . والجنس لا يمكن ان يكون «صحياً» و « طبيعياً » على أي مستوى من المستويات ، فهـو يعتمد دوماً على انتهـاك المهمات والممنوعات ، أو هو يعتمد ، كما كان بودلير سيقول ، على حسّ الخطيئة . وإذا ما قامت لجنة من البيولوجيين وعلماء النفس بدراسة « قوة التطور » يوماً ، فسيكونون محقين اذا ما تساءلوا لماذا جعـل اكثار الجنس البشري معتمداً على حسّ الخطيئة ، او إذا اشاروا الى ان هـذا العجز البشري بالذات كان هو السبب في سقوط كثير من الحضارات عن طريق الانحلال الجنسي .

وهكذا يمكننا من خلال اجراء دراسة فنمنولوجية لأنفسنا ولاستجاباتنـا الجنسية ان نتوصل الى نظرية خاصة « بالاستجابة الرمزية » ، يمنح الرمز فيهـا معنى ما عـن طريق الغاية الداخلية . والمرحلة الثانية هي ان نلاحظ ان « الاستجابة الرمزيـة » لا تقتصر على نشاطنا الجنسي فقط . إن كل « الحس الجمالي » هو كذلك استجابة رمزية . هناك قصيدة مؤثرة للشاعر ييتس اسمهـا « نحو مطلع النهار » يتحدث فيهـا عن شلاّل « كل طفولتي تعدّه عزيزاً » ثم يمضي قائلاً :

كنت سألمسه كطفل
لكنني ادركت ان اصبعي لم يكن سيلمس
إلاّ حجراً بارداً وماء . وثرت
بل رحت اتهم السماء لأنها
سنّت من بين قوانينها ما يقول :
ليس هناك شيء نحبه أكثر من كثير
له قيمة بالنسبة للمستنا .

هذه الأبيات الأخيرة ليست إلا تقريراً لنظرية الاستجابة الرمزية . كيف

يكون شلالٌ ما جميلاً وهو مكون من صخور باردة ومياه ليس إلا ؟ وكيف يبصر ووردزوورث « اشكالاً غير معروفة من الوجود » في تلة قائمة فوق وندرمير ، بينما التلة هذه ليست أكثر من تراب وعشب ؟ ولماذا تبدو لنا سلاسل الجبال رموزاً للعظمة والتسامق بينما هي مكونة فقط من نفس المواد التي سنجدها في حدائق منازلنا مع فارق انها متراكمة تراكماً عظيماً ؟ ولقد ظل الشعراء والفلاسفة يقولون منذ مئات الأعوام ان الجمال ليس معادلة تقوم على علاقة ميكانيكية بين الشخص والمادة ، بل الجمال هو « في عين المشاهد » . إلاّ أنه لا بدّ ان يكون هناك « شيء ما » لكي يثير استجابة جمالية . لكن الغاية الداخلية الذاتية متسامحة كما هي في الجنس ، بمعنى انها لا تصر على الواقع ، بل انها ستسمح بنشوء استجابة تمتمية لرسم ما أو حتى لوصف في كتاب .

وقد تشتط بنا الحيرة لحظة هنا فنتساءل هل توجد هناك بالمرة استجابة صادرة عن العلاقة المباشرة بين الشخص والمادة ، بين الحس والمحسوس ، ام ان الاستجابة كلها رمزية . حين تشعر بالمرض فانك بامكان عملية تكييف نفسانية ان تهزم المرض . ومن الصعب ان نحدد بالضبط طبيعة عملية التكييف هذه ، فهي ليست فقط عملية ارادة بل انها كذلك نوع من اقناع الذات . وهذا قريب من تأكيد بعض الصوفيين انه لا يوجد هناك « واقع خارجي » . كتب وايتهد مرة : « الناس يقعون في خطأ الحديث عن قوانين طبيعية . لا توجد هناك قوانين طبيعية ، بل هناك فقط عادات مؤقتة للطبيعة » . وقد عبّرت السيدة بيكر إدي عن رأيها بأن كل الأمراض هي « استجابة رمزية » ، أو انها بالاحرى ناتجة عن قصور الاستجابة الرمزية ، وانه يمكن التغلب عليها بتجديد الصلة بالغاية الداخلية . والقديسون وكذلك النساك الهنود يدعون انه حتى الاتصال بين الحس وبين العالم المادي المحسوس هو وهم ، ويمسكون جمرات ملتهبة لاثبات ذلك . والدراسة العلمية « للادراك الحسّي للامحسوسات » يشير فيما يبدو الى ان المستقبل « حاضر » فعلاً بمعنى ما ، وانه يمكن التنبؤ به أحياناً بدقة ملحوظة .

كل هذا من شأنه ان يدلـل على ان نظرية الاستجابة الرمزية قد تكون قائمة خارج نطاق الجنس والجمالية . لكن كيف يتأتى لنا ان نحقق في العلاقة بـين « العقل » و « الواقع الخارجي » حين يكون العقل هو المحقق وحـين تتدخل هذه العلاقة المجهولة في التحقيق كذلك ؟ يمكن بالطبع عمل ذلك بنفس الطريقة التي يمكن بها ايجاد قيمة الرقم المجهول (س) في أية معادلة ومسألة رياضية . إن الكائنات البشرية كانت تجد دائماً انه من الأسهل ان ننفي « العقـل » ونبحث عن قوانين موضوعية محسوسة في الطبيعة . اما العلم فيحب المعادلات الصحيحة حيث يمكن اثبات كل شيء . وعلى وجه العموم فان العلم قد نجح في صياغـة وتركيب معادلاته وفي اهمال الحقائق التي تستعصي على قوالبه. وفكرة «الحياة» أو « الغاية » هي احدى الأشياء التي فضّل العلم في المئتي سنة الأخيرة ان يبقيها خارج معادلاته . وهكذا فان الدارونية تخرج بنظريـة تطور « ميكانيكي » ، ويطلع علينا واطسون بسيكولوجية ميكانيكية تماماً كما رسم لنا نيوتن وديكارت عالماً ميكانيكياً . وواطسون لم يعنِ طبعاً ان يقول ضمناً ان الوعي لا وجود له ، والا يصبح ذلك أمراً مضحكاً . لكنه ألمح الى ان الوعي هـو مراقب سلبي الكون ، بمجرد « شاهد » على ما يجري .

وعلى العكس من ذلـك فان نظرية جيشتالت والفنمنولوجية تؤكد ان الوعي يتدخّل باستمرار ، في حـين ان النظريات الميكانيكية ، من نيوتن إلى فرويد ، تؤكد ان شيئاً مـا يحدث « هناك في الخارج » وان كل الاستجابات وردود الفعل تعتمد على هذا الذي هو « هناك في الخارج » . وفي نظرها ان الاستجابات تحدث ، وانها ذات صفة « مادية » كالقاء عـود ثقاب في برميل بارود .

على ان نظرية الاستجابة الرمزية تنكر ذلك وتؤكد انه لولا الوعي فان الاستجابة لن تحدث ابداً . ويستمر العلم في التحقيق في العالم « هناك في الخارج» معتقداً انه حين تتجمع لديه حقائق ومعادلات كافية فانه يمكن عندئذ «تفسير» العالم . اما نظرية الاستجابة الرمزية فتعلن انه حتى لو فحص كل شبر من العـالم

« هناك في الخارج » وحوّل هـذا العالم الى معادلات وصيغ ، فان المفتاح (لتفسير العالم) سيبقى ضائعاً ، لأن هذا المفتاح موجود « هنا في الداخل » ، لأنه عبارة عن غاية ذاتية داخلية تفرض الاستجابات وردود الفعل على العالم الخارجي .

تلخيص ومراجعة :

إن هذه الاستنتاجات وملابساتها هي من الأهمية والعظم بحيث انـه يجدر بنا ان نتوقف قبل ان نستمر في البحث الى مراحله الأخيرة ونراجعها بطريقة لا تدع أي مجال لسوء الفهم . لأن الذي يتبدّل الآن هو نمط جديـد كليـة من التفكير الذي قد يحدد بلوغ مرحلة أكيدة من مراحل تطور هـذا المخلوق الذي يسمى بالإنسان .

لنتمعن أولاً في معطيات البحث الأساسية . هناك من الجهة الواحدة مخلوق اسمه الانسان طاقته التعميرية أقل من مئة عام . والإنسان محاط « بالطبيعـة » التي تعمّر أكثر منه والتي هي أعظم منه وأقوى لكنها ليست « حيّة » بنفس القدر كالإنسان .

السؤال متشعب وهو : ما هو مكان الإنسان في الطبيعة ؟ مـا هو مـدى أهميته ؟ ما معنى كل شيء ؟

إن الإنسان موجود على الأرض منذ ملايين السنين ، ولكنه أصبح مخلوقـاً « متسائلاً » في العدة آلاف سنة الاخيرة .

إلاّ اننا حين نتفحص الثقافة الإنسانية – أي استجابات الانسان الى السؤال القائل : من أنا ؟ – نلاحظ شيئاً طريفاً . لقد سلم الانسان بنفسه جدلاً طوال الوقت . حاول ان يحلّل الله والطبيعة ، لكنه افترض دائماً ان عليه ان يـترك موضوع نفسه هو الى ما بعد . انه « موجود » ، وهذا يكفي كقاعدة يعمل بموجبها .

وحين نستعرض الفكر الإنساني من مصادره الأولى في الأساطير القديمـة الى

القرن التاسع عشر ، فاننا سنلحظ ان الانسان كان دائماً ينظر الى نفسه « كمخلوق » في وضع أدنى ، كتلميذ مدرسة تحت مراقبة المعلم أو كابن يخضع لهيمنة والد طاغية . لقد كانت هناك « ثورات » كثيرة في الفكر ، لكنها كانت كلها ثورات ضد رجال آخرين ، أي ضد تلاميذ آخرين في الصف ، لكن ليس ضد المعلم أبداً .

نحن مثلاً ننظر إلى الثائرين الدينيين مثل لوثر وكالفين كرجال ثاروا من أجل مزيد من الحرية وتحدوا سلطة الكنيسة . ومن المذهل اننا حين نتفحص هذين الرجلين عن كثب أكثر فسنكتشف أنهما كانا في الجوهر « أكثر محافظة من المحافظين » ، ان كالفين مثلاً أمر بحرق سيرفينوس لأنه أنكر الثالوث المقدس وان ابرز معتقدات لوثر هو ان كل كلمة في الكتاب المقدس صحيحة وصادقة بالحرف الواحد . كان كلاهما في نواح عديدة أكثر رجعية من الكنيسة التي كانا يهاجمانها ، بل ان لوثر أعاد المسيحية ألف سنة الى الوراء .

وقد يبدو من المذهل لنا ان كل المفكرين العظام في الماضي كانوا على مثل هذا العمى والجهل فيما يتعلق بالدين ، إلا ان علينا ان نتذكر بأن مثل هذا لم يكن شيئاً مدهشاً أو غريباً بالنسبة لاسلافنا في القرن التاسع عشر ، وان الذي كان يبدو لهم أمراً مذهلاً ، بل وصدمة فظيعة كذلك ، هو تلك الموجة الفكرية الجديدة المسماة «بالرومانسية» والتي هزت قبضتها في وجه الله وصاحت ان الإنسان يجب ان يكون « حراً » وان يكون هو حكم نفسه فيما يختص بالخطأ والصواب .

وقد القى الكثيرون اللوم على « العلم » . لكنهم كانوا مخطئين . فالمؤسسون العظام للعلم الحديث – غاليليو وكبلر ونيوتن وديكارت – كانوا كلهم رجالاً متدينين جداً ، كما انهم ادخلوا آراءهم الدينية في أسس نظرياتهم العلمية . وقد تثير هذه الجملة الأخيرة الاستغراب لأول وهلة ، ذلك ان أياً من هؤلاء الرجال لم يذكر كلمة « الله » أو المسيح في أعماله العلمية . لكن الله كان موجوداً ضمنياً في نظرتهم الى العلم . فالكون في نظرتهم هذه موجود « هناك في الخارج »

ينتظر من الانسان ان يتحراه . والله لا يتدخل بالفعل في أعمال الكون ، وانما يسير الكون حسب « قوانين الطبيعة » . لكن الله هو الذي صنع هذه القوانين في مفهومهم وهو الذي قام بتشغيل هذا الجهاز الكوني كله في الأصل . وها هو الإنسان ، على الأرض ، مخلوق ضئيل كالنملة ، يحملق في الكون من خلال مرصاد ، ويجهد نفسه من أجل ان يفهم لماذا صنع الله الكون مثلما هو عليه الآن . ولقد قال نيوتن : « الله هو عالم رياضي » . والشيء المهم فيما يتعلق بهذه الصورة هي انها تصور لنا ان الانسان نملة . انه يستطيع ان « يدرك » كنه الطبيعة باستعمال ذكائه ، لكنه على كل حال مخلوق حقير جداً وتافه جداً .

اعظم هذه الثورات ، بل وربما أعظم ثورة واحدة في تاريخ الفكر الانساني ، كانت تلك التي رافقت ظهور تبدّل في الموقف الإنساني في مطلع القرن التاسع عشر ، وهو التبدل الذي عبر عنه دوستويفسكي ونيتشه في القول : « الأشياء مشروعة » ، أي أنه لا يوجد هناك إله في السماء وان الانسان هو حكم نفسه فيما يتعلق بالخطأ والصواب .

ماذا يعني هذا بالضبط ؟ لنتذكر أن الانسان ، حسب « العلم الجديد » ،كان ما يزال يسلّم بنفسه جدلاً تماماً كما فعل حين كانت الكنيسة في اوج نفوذها وسلطانها . وعلى سبيل التشبيه، سأقول إن « الانسان » يلعب لعبة«الكشتبان» التي يفرض فيها أن يبحث أحد الحاضرين عن كشتبان خبأه الآخرون في مكان من الغرفة . إن « الانسان » سيبحث في كل ركن وصوب وهو يسلّم جدلاً بان الكشتبان ليس في جيبه . و « الكشتبان » هنا هو هذا السؤال : « ما هي قوانين الكون ؟ » ولقد استمر الانسان ينقب ويبحث في الكون ، فشال الجبال وحملق في الكواكب والنجوم ووضع معادلات لا حصر لها ولا عدّ ، بدون أن يجد كشتبانه . ولقد اعلنت الكنيسة الكاثوليكية قائلة : « الكشتبان مخبأ في جيب القديس بطرس، وعليكم أن تصدقوا ما يقوله لكم » . واعلن لوثر : «لا ، الكشتبان مخبأ في الكتاب المقدس » . ثم جاء نيوتن واعلن باكبر قدر ممكن من الرصانة : « يمكنكم أن تنسوا القديس بطرس والكتاب المقدس » . (في الواقع

إن نيوتن كتب بحثاً طويلاً عن الكتاب المقدس ، أي التوراة ، لكنه لم يبحث هناك عن « سر الكون » ، بـل عن تفاصيل ثانوية قليلة في تاريخ الله) . وبالنسبة لنيوتن كان « السر » هناك في الخارج ، في الكون ، وانه بالمزيد من العلم والرياضيات ، يمكن اكتشاف هذا السر .

وهكذا تتبدى لنا الآن المعاني الكاملة والمثيرة للقول إن « كل الاشياء مشروعة » . وهذا القول يمكن تقسيمه في الواقع الى ثلاثة معاني مختلفة ، اثنان منها مصيبان والثالث خاطىء : ١) لا يمكننا أن نكتشف معنى الصواب والخطأ بالتحديق من خلال مرصاد وان أي قدر من التقصي لن يمكنه أن يكشف عن غاية الله المتجسدة في الطبيعة . ٢) السبب هو لانه لا يوجد إله « هناك في الخارج » يملك ناصية الصواب والخطأ . ٣) لكن الانسان هو مخلوق صغير بائس ليست عنده كذلك آراء نهائية فيما يتعلق بالصواب والخطأ . اذن فكل الاشياء مشروعة .

هذا القول يلخص الموقف الفكري للرومانسية طوال ١٥٠ عاماً . انه ينطبق على « فاوست غوته » و « لصوص » شيلر مثلما ينطبق على كتابات سارتر وكامو . الا ان سارتر اضاف حاشيته الى الفقرة بان قال انه مع أن الانسان هو مخلوق بائس ، الا انه يستطيع على الاقل ان يحفظ كرامته بان يدرك ان عليه ان يختار بين الصواب والخطأ وانه يستطيع أن يضيف قليلاً الى مكانته « بالالتزام » .

وسنرى الآن اية ثورة غير عادية فجرتها هاتان النظريتان اللتان تبدوان اكاديميتين وتكنيكيتين جداً ، واعني بهما الفنمنولوجية وسيكولوجية جيشتالت .

إن ما فعلته هاتان النظريتان هو انهما استبدلتا الفقرة (٣) باخرى مختلفة تماماً . لقد قالتا ما معناه إن على الانسان أن يبحث عن الكشتبان في جيبه الخاص . لقد مهّد فرويد الطريق لهما طبعاً باصراره على (الوعي الباطني) . ومع أن فرويد لم يكن هو مبتكر فكرة العقل أو الوعي الباطني ، الا انه

شدد وأكد هذه الفكرة بشكل اضفى عليها اهمية جديدة . ولقد بـــدأت الفقره (٣) تتغير حين قال فرويد : « إن الانسان ليس هو المخـــلوق البسيط والسهل الذي يبدو عليه . ان هذا هو فقط عقله الواعي . تحت هذا العقل يوجد بحر شاسع من الوعي الباطني ، من (العـــقل) الغريزي لا يعرف عنه الا الشيء القليل جداً » . وبذلك اصبح الانسان شيئاً اكبر واكثر عمقاً .

لكن فرويد يعتقد أن اللاوعي هو بطريقة مـــا «أقل منزلة » من العقل الواعي . كأن الانسان يحتفظ بقطيع ضخم من الفيلة في حديقة منزله الخلفية . وهذه مرعبـــة وجبارة ، وقد تدوس حتى منزله هو ، لكنهـا تظل فيلة ، مجرد حيوانات .

لقد وضعت الفنمنولوجية وسيكولوجية جيشتالت مفهوماً جديداً للاوعي.

أما أن اللاوعي غير معروف ، فهما تتفقان في ذلك مـــع فرويد . لكنه يشتمل على مبدأ غريب له القدرة على تحديد القيمة والمعنى ، مبدأ متفوق بكثير على أي شيء في العقل الواعي .

وهكذا يرى أن قول دوستويفسكي « كل الاشياء مشروعة » يتلاشى فوراً . فهو قد بني على سوء فهم ، على الفكرة القائلة انـــه اذا ما كان هناك أي معنى وقيمة فهما موجودتان « هناك في الخارج » وانه اذا لم تكونا موجودتين هناك ، فانهما اذن لا وجود لهما .

والفكرة التي تتحدث عن وجود مصدر القيم في داخل الانسان هي فكرة جديدة وقديمة معاً . فمفهوم « النور الداخلي » كان معروفـاً منذ بيتر والدو ، مؤسس المذهب الوالدوني في القرن الثاني عشر ، كما انه كان شائعاً منذ ايام جورج فوكس . الا انه مع أن طائفة الكويكرز كانت قد ادركت « النور الداخلي » ، فقد ظلّ الله بالنسبة لهذه الطائفة حقيقة خارجية تتصل ببني الانسان عن طريق نوع من الخط التليفوني . الداخلي . وهذا هو الله الذي اعلن زرادشتت موتـــه (في كتاب نيتشه « هكذا تكلم زرادشت ») .

وانا اشك إن كان هوسرل أو علماء النفس الجيشتالتيين قد عنوا أن يقولوا

شيئاً عاماً وميتافيزيقياً كالذي قلته هنا . وقوانينهم كانت فقط طريقة جديدة وممتعة في دراسة العلاقــة بين الحس والمحسوس وفي التصدي لمشاكل الادراك الحسي . ولا يمكن أن ندرك قيمة هوسرل وعلماء النفس الجيشتالتيين ادراكاً كاملاً الا في ضوء الوجودية . انهم بتقريرهم الهادىء أن شيئاً مــا « هناك في الداخل » هو الذي يفرض الشكل على ادراكاتنا ، قـد قلبوا خطى كل الفكر الانساني في الالفي سنة الاخــيرة . والمفكر العصري العظيم الوحيـد الذي استطاع ان يتوصل الى استنتاجات مماثلة باتباع اسلوب فكري مستقل هــو الفريد نورث وايتهد ، الذي لم يرق الشك حتى الآن الى اهميته في الفكر المعاصر للقرن العشرين .

نظرية الاستجابة الرمزية هي مجرد خطوة منطقية واحدة من استنتاجات سيكولوجية جيشتالت والفنمنولوجية . إذا كانت هناك « عمديــة » خفيـة تفرض أشكالاً وانماطاً على ادراكاتنا الحسية ، فربمـا انها تقوم كذلك بتصوير القيم التي « نراها » في الطبيعة . وهذه القيم تعكس « هدف » العمدية .

ويتضح هذا أكثر ما يتضح في نطاقي الجنس والجمالية . إن سيكولوجية غير فنمنولوجية تحب ان تفسر الانحراف الجنسي على صعيد انه انحراف عــن « واقع » جنسي خارجي أساسي . إذا ما أمكن لعالم نفسي مــا ان يكتشف على سبيل المثال ان الرجال والنساء يحملون مغناطيسات في اعضائهم واعضائهن التناسلية وان مغناطيس الذكر هو عبارة عـن قطب شمالي يــدل الى الخارج ومغناطيس الأنثى قطب جنوبي يــدلّ إلى الخارج ، فإن هــذا الوضع سيمثل الأساس « العلمي » والموضوعي المثالي بالنسبة لكل الانحرافات. وعلى ضوء ذلك فان اللواطيين هم رجال انقلب مغناطيسهم صدفة وراح يدل الى الوجهة الأخرى. ولن يحتاج الأمر إلى جهد كبير في التفكير لتفسير الانحرافات الأخرى على هذا الأساس .

لكنه لا توجد هناك مع الأسف « حقائق موضوعية » من هذا القبيل لتفسير السبب الذي من أجله يحس ذكر الحيوان بالرغبة في ايــلاج عضوه التناسلي في

عضو الانثى التناسلي . صحيح ان الرائحة الخاصة التي تطلقها انثى بعض الحيوانات السفلى ، تلعب دوراً في جذب الذكر . لكن المشكلة تبقى قائمة : لماذا تثير هذه الرائحة الذكر ؟

اننا نستطيع ان نفسر كثيراً من « العادات » الإنسانية بردّها الى عملية التكييف الاجتماعي – أي التكييف من « الخارج » ، وقد بين لنا روبرت اردري مدى أهمية الدور الذي يلعبه التكييف . لكن الرغبة الجنسية أعمق من أية رغبة اجتماعية ، وهي لا يمكن تفسيرها على أساس عوامل خارجية . وان على أية محاولة « لتفسيرها » ان تبدأ على صعيد تركيبي وليس على صعيد تحليلي ، أي انها لا يمكن ان تبدأ « بحقائق » بسيطة ثم تنمو وتتطور من هذه الحقائق ، بل يجب ان تبدأ بفكرة مـا تحتوي على معنى القيمة أو « الكمال » ومن ثم تتقدم الى الداخل. ولذلك فان اسطورة جنة عدن وكذلك اسطورة افلاطون عن « الرجال الكرويين » تبدآن بفكرة قيمة سابقة – أو كمال سابق – هي القوة الدافعة وراء الجنس . انهما تبدآن بفكرة وجود غاية داخلية وليس وجود استجابة أو رد فعل لشيء ما « هناك في الخارج » . وما هو « هناك في الخارج » لا يفسر الاستجابة ، ويبقى التفسير المعقول الوحيد هو وجود دافع داخلي – دافع تطوري – هـو الذي يأمر الاستجابة . إن علينا ان نفترض الطبيعة التطورية لهذا الدافع لأنه يستحيل بدون ذلك ان نجد تعليلاً « لاتجاه » الدافع ، الذي يبدو وكأنه يسعى الى مزيد من التعقيد . إن استجاباتنا الجمالية ، مثلاً ، تبدو وكأنه لا يوجد هناك مسبب مادي أو اجتماعي لها . ذلك انـه إذا كانت « الغاية الداخلية » لا تهدف الى شيء أبعد من « الحضارة والمدنية » ، فلا يوجد هنالك تعليل لأن نتأثر بجمال منظر طبيعي ما . بـل على العكس فإن « الغاية » قـد تجد من الأفضل ان تكيفنا بحيث نكره الطبيعة ، كالأطفال في رواية الدوس هكسلي « عالم جديد شجاع » . لكن جمـال الطبيعة مرتبط في اذهاننا بفكرة الخلوة وفكرة الحرية ، وكلا الفكرتين هامتين بالنسبة للتطور . الإنسان في مدينة ذات مليون إنسان آخر هو نملة ، اما الانسان وحـده مع

الجبال والبحيرات فهو يدرك التحدي في السعي وراء الألوهية .

ومرة أخرى فان مسألة اللون مرتبطة بمشكلة التطور هذه . إن اللون هو من « رواسب » الحس التي ليس بالمقدور تفسيرها للعلم . فنحن نستطيع ان نتفهم لماذا تستجيب العين لموجة من الضوء الأحمر ، لكن أي قدر من التفسير لا يمكنه ان يتعدى معرفتنا للفرق بين الأخضر والأحمر . وهذا يصدق كذلك بالنسبة لمعرفتنا للفرق بين رائحة الكولونيا ورائحة البيره أو للفرق بين طعم البندورة وطعم البيض أو بين صوت الكمان وصوت عصفور. وحين يحلل العالم ، العالم المادي ، فانه يحاول ان يتحرى ويتفحص « الطوب » المصنوع من البناء ، كما انه يتوصل الى ايجاد موجات وكثافات متناسبة ودرجة التبخر الخ . لكننا حين ننظر الى الكون لا نحس بوجود هذه « الطوبات » ، وذلك ليس لأن عالمنا نحن ليس مصنوعاً من الطوب كذلك؛ لكن طوبنا نحن يتمثل في ألوان وروائح وأصوات ومذاقات وأحاسيس . وهذا هو طوب العمدية ، الطوب الذي تبنى به « الغاية الداخلية » مبانيها . إن أهمية اللون على وجه الخصوص تقع في كون حاسة اللون غير ذات فائدة من وجهة نظر البقاء . وفي حين ان حاستي السمع والشم أقوى في معظم الحيوانات منها في الكائنات البشرية ، إلا ان حاسة اللون غير نامية في معظم الحيوانات . كما ان الاختبارات تدل على ان الأطفال حديثي السن جداً لا يملكون حاسة اللون . وقد يجوز ان أسلافنا قبل ألف عام أو أكثر كانوا يملكون حاسة لون أقل بكثير مما نملك اليوم ، فهناك اشارات قليلة جداً إلى اللون في الشعراء القدامى . فهوميروس لم يلحظ حتى ان السماء زرقاء ، وكانت حاسة اللون عنده من الضآلة بحيث انه كان يشبه البحر بالخمرة لمجرد ان كلاهما داكن اللون.فاذا صدقت الاسطورة القائلة ان مؤلفي الالياذه والأوديسه كانوا عمياناً منذ الولادة ، يمكننا ان نتفهم ضحالة حاسة اللون عندهم ، لكن ذلك لا يفسّر لماذا يبدو كل الشعراء القدامى مصابين كذلك بنوع من عمى الألوان . والذي يبدو أكثر احتمالاً هو ان حاسة اللون هي ترف نما وتطور مع المدنيّة بدون أي سبب عملي سوى ان حاسة الجمال هي حافز هام الى التطور .

إلاّ انه بالقدر الذي نحتاج فيه إلى تنبهنا لتفاصيل وجزئيات البقاء ، فانـه ليس بمقدورنا ان نمتلك حاسة اللون . ولقد وصف الدوس هكسلي ازدياد حاسة اللون فيه تحت تأثير المسكالين (وهو نبات يحتوي على مادة مخـدرة) . واردف ان هذه الحالة رافقها خمول لذيذ واحجام أكيد عن التفكير والعمل . ولعله ليس من غير المحتمل ان الكائنات البشرية ستستطيع في غضون الألف عام القادمة ان ترى الاشياء بمثل هذه القوة في حاسة اللون .

من المهم ان نفهم هذه النقطة. فالجمال هو معنى ، مع انه ليس النوع الوحيد من المعنى . فقد اتمتع بصوت المطر لأنني بستاني ولأن حديقتي تحتاج إلى المطر . وهكذا فان تمتعي ، أي ادراكي الحسي للمعنى هو نتيجة علاقة بين الشخص والمادة ، والمادة في هذه الحالة هي حديقتي . إلا انني قد اتمتع بصوت المطر لغير ما سبب على الاطلاق ، أو لنفس السبب الذي يجعلني أتمتع بمنظر طبيعي . وفي هذه الحالة فانه سيكون من العبث ان ابحث خارجاً عـن سبب متعتي ، لانني بهذا سأكون مثل يبتس لا أحس بشيء سوى « حجر بارد وماء » . فالمتعة هي نوع من العلاوة التي تمنحني اياها العمدية الموجودة فيّ ، وهي لا يفترض فيها ان تقودني إلى عمل أي شيء . انها تعبير عن التأثير الوجداني ، كالتمليس على قطة، هدفها تنمية حيويتي وحاسة الهدف عندي .

هناك اذن نوعان من المعنى : الأول هو علاقة مباشره بين الشخص والمادة ، ودعوة الى العمل ، أي إلى استجابة اكيدة معينة . والثاني هـو « علاوة » ولا يتطلب أي نوع من الاستجابة سوى المتعة . ومن الغريب ان قوة الحيـاة قررت ان تستثني علاقاتنا الجنسية من هذه القاعدة .

وهنا ينبغي ان نلاحظ بأن هكسلي اعلن ان العـالم اكتسب معنى أكثر بالنسبة له وهو تحت تأثير المسكالين ، مع انه لم يستطع ان يصف لنا هذا المعنى سوى بالتحدث عن « كينونة » أحد الكراسي . ومرة أخرى نواجـه بالسؤال الديني الأصلي . لقد حـاول بنو الإنسان ان يحللـوا ويتحرروا الطبيعة للتوصل إلى المعنى الناتج عن العلاقة المباشرة بين الشخص والمادة ، المعنى الذي وضع في

لطبيعة « من قبل الله » ، وكانت محاولتهم شبيهة بمحاولة التحديـــد في رسالة مكتوبة بالشيفرة على أمل التوصل الى حل رموزها والنفاذ اليها . ارادوا معنى لا يمكنهم ان يفعلوا شيئاً تجاهه . والزيادة في المعنى التي احسّ بهـــا هكسلي تحت تأثـــير المسكالين لم توح له بأن يفعل شيئاً ، كانت مجرد « عـلاوة » صرفــة .

وقد يبدو هنا ان قوة الحياة لا تقدم لنا هذه العلاوة عـــن طيب خاطر . فمن الاهمية بمكان ان يحتفظ البشر بافكارهم لكي يبنوا المدنية ، ولذا فان اهتمامهم يجب ان يقتصر على الضروريات . الجمال يؤدي إلى السكون ، وعلى أساس هذا المنطق فان فقدان الجمال والمعنى يؤدي إلى توليد الحركة . إذن فـان حاسة الجمال والمعنى في الإنسان يجب ان تزداد بعـــد ان ينال الإنسان حق القعـود والاستكانة. وبالتبعية فان القرن التاسع عشر كان مكتظاً بالفنانين والشعراء الذين احسوا انهم قد استحقوا ايجـاد معنى في الطبيعة ، لكن « عمديتهم » امتنعت عن دفع مكافآت لهم . كان القرن التاسع عشر قرن السأم ، قرناً رمزه هـــو فاوست المدرك انـه لا يستطيع ان يكتشف المعنى في الكتب ، ورمزه الآخر اوبلوموف المستلقي بخمول في سريره لعدم وجود ما يفعله غير ذلك . وفاوست واوبلوموف يشطحان بافكارهما الى ذكريات الطفولة ، حـــين كان « المعنى » والجمال موجودين بوفرة .

و « المعنى » الذي ليس هو نتيجة لعلاقة مباشرة بـين الشخص والمادة هو بلا شك مفهوم ثوري . « فالمعنى » يعني علاقة ، وليس شيئاً قائماً في حد ذاتـه ولقد كانت الفنمنولوجية وسيكولوجية جيشتالت هما اللتين اشارتا الى انـه لا يمكن أن تبني علماً على هذا التعريف «للمعنى»، وانه يجب ان نعتبر ان هناك نوعاً آخر من المعنى ينبثق من الداخل ويعمل باتجاه الخارج .

وهذا المعنى الداخلي يمكن تعريفه كذلك بأنـه « قبضة على الحياة » ، أو قبضة على العالم الخارجي ، لأنه تعبير عن اندماج قوة الحياة في العالم الخارجي . والعالم بالنسبة للانسان الواقف على شفا الموت مجرد من أي معنى .

إذن فان هذا التحليل للانحراف الجنسي قد سلـّط الضوء على مفهوم جديد في علم النفس ، هو مفهوم المعنى غير الخارجي بـل الذي ينبثق من عمدية لا واعية . هنا اذن يوجد أمامنا حقل جديـد للاستقصاء . وفي القديم كان كتـّاب الجنس يخلطون بين هذين النوعـين من المعنى . والجنس هـو الموضوع المثالي لدراسة هـذا « المعنى العمدي » ، لأن الجنس ما هو الا معنى عمدياً . وهنا نجد أنفسنا ميّالين الى طرح السؤال التالي : وماذا عن الفعاليات الإنسانية الأخرى ؟ ماذا عن الفن ، مثلاً ؟ ففن القرن العشرين يمكن تقريباً نعته بأنه فن انهزامي . أدبنـا يزخر بالأبطال المهزومين ، برجـال يسحقهم المجتمع والناس يحسّون بالنقص دوماً وأبداً ، في حين ان الموسيقى والرسم اتخذا طابعاً جمالياً مرادفاً لفكرة « كل الأشياء مشروعة » لكي يغطيا عدم وجود أي شيء يقولانه أو يعبران عنـه . وهذا يتأتى نتيجة لاعتبار المعنى أمراً خارجياً ، وللقبول بدون تمييز ولا تفريق بعلم النفس القديم . ولقد تعامى الفنان عن « المعنى النابع من العمدية » لأنه لا يعرف بوجودها . وهكذا فان الادراك بوجود مثـل ذلك المعنى كفيل بأن يعيد الحيوية الى الفن والادب في وقتنا هذا .

وهذا ، كما يبدو لي ، هو الجواب على السؤال المطروح في أول الكتاب . إن « مصدر الدافع الجنسي » ليس الليبيدو ، بـل هو عمدية لا تقتصر على الجنس وحده وانما تبرز كذلك «المعنى » الكامن في نشاطات الانسان الجمالية والدينية. ويمكننا ان نبين أسلوب عمل هذه العمدية عـن طريق تشبيه . لنتصوّر ضابطاً جالساً داخل دبّابة وجندياً قابعاً في برج المدفع بالدبابة يراقب ما حوله. الضابط لا يستطيع ان يرى ما يجري خارج الدبابة ، وعليه اذن ان يعتمد على ما يقوله له جندي المراقبة القابع في البرج . وقد يقول له الجندي : « هناك منزل مريب ويوجد شيء كالمدفع الرشاش خلف المدخنة » . فيصدر الضابط الأوامر بعدها باطلاق النار على المنزل . الضابط هنا معتمد كلية على مزاح الجنـدي المراقب ، فاذا كان الجنـدي من النوع العصبي الذي يرى الاعداء في كل مكان ، فان الضابط يكون عندها في وضع مركز « العمدية » في الجندي حـين تكون

الحواس « عصبية » .

وهذا المثال يجب الا يؤخذ حرفياً جداً ، لكنه يعطينا ، إذا نظر اليه نظرة سطحية ، صورة صحيحة أساسياً عن عمل « الاستجابة الرمزية » .

إلا ان اهم شيء في « نظرية الاستجابة الرمزية » هي فكرة كون العمدية « اداة خلق المعنى » .

وكما كنت قد أشرت ، فان هذا الرأي يثير أسئلة ظلت مهملة حتى الآن على اعتبار انها تقع خارج نطاق العلم . وفي القرن التاسع عشر ، فان العلم كان يعتبر « المعنى » شيئاً ملازماً للوجود ينبغي اكتشافه بالبحث والتحري . وقد تساءل المثاليون ، من لوك إلى هيجل ، عن صحة هذا الرأي بطريقة تجديدية نوعاً ما ، وأشاروا إلى ان بعض هـذا المعنى هو من نتاج الحواس . وقد ذهب بيركلي إلى أبعد مما ذهب الجميع حين أعرب عن اعتقاده بأن العالم هو من تدبير وايعاز العقل كلية ، وانه سيكفّ عن ان يكون حين لا يوجد هناك من يراقبه ، أو على الأقل انه كان سيكفّ عن ان يكون لو لم يكن الله موجوداً ليراقبه إلى الأبد . وبشكل ما ، كان بيركلي أقرب الباقين الى مفاهيم الفنمنولوجية بأن اسند إلى عقل الإنسان قوة من نوع قوة الله . والفنمنولوجية تتخذ هنا موقفاً شبيهاً . انها تقول انه يوجد هناك بالفعل شيء اسمه « المعنى الموضوعي » ، لكنه ليس النوع الوحيد من المعنى الذي يلوّن العالم .

إلاّ ان هذه الثنائية ليست مرضية تماماً ، فهي تكاد تذكرنا بثنائية الله والشيطان التي يوحيها لنا الجانب الساذج من المسيحية . وقد عبر هـ. ج. ولز عن نوع من الرعب بسبب هذه الثنائية في كتابه Mind at The End of Its Tether وهو كتابه الأخير المتشائم ، حين قال ما مؤداه ان « العقل » و « الطبيعة » هما كخطي سكة حديد يسيران متوازيين بفعل الصدفة منذ ملايين السنين ، لكنهما الآن يفترقان .

ملخص القول انه لا يريد أحد ان يعتقد بأنه يوجد هناك معنى في العالم مستقل تماماً عن الانسان وعن العقل . وكان هذا هو الرأي الذي أدّى إلى

يأس وعدمية أواخر القرن التاسع عشر . ونظراً لأن الفنمنولوجية قـد نجحت في حلّ هذه المشكلة القليلة والتغلب على « تشعّب الطبيعة الى قسمين » ، فانـه يبدو من السخف اذن ان تخلق الفنمنولوجية نوعـاً آخر من اثنائية . والسؤال الذي نحب ان نوجهه الآن هو : إلى أي حـدّ ترتبط العمدية بالطبيعة والزمن ؟ إن حواسنا « عمدية » تتجسد في عالم الأشياء عـن طريق الارادة الداخلية . وهذا يعني ان حواسنا هي « رابطة » بـين « الارادة الداخلية » والطبيعة . أليس من المحتمل ان تكون هناك روابط أخرى ؟ وتدل الدراسات التي أجراها راين طوال ربع القرن الماضي حول الادراك اللاحسي على ان « الحواس الخمس» قد لا تكون هي التجسيدات الوحيدة للعمدية المستترة في الإنسان . وهناك احتمال بعيد في ن تكون هناك « حواس أخرى » هي في الوقت الحاضر غـير ضرورية بالنسبة للانسان كما كانت حاسة اللون غير ضرورية بالنسبة للانسان في عصر هوميروس . وفي الواقع ان الإنسان كان يمتلك دومـاً « حاسة » أخرى تميزه عن الحيوان ، وهي الخيال، القدرة على تصور وتوقع الأحداث. كل الحواس تملك عنصراً « ترقمياً » . الراعي مثلاً يستطيع ان يتنبأ بحالة الجو لليوم التـالي من منظر الشمس. وليس هناك من الحيوانات من يمتلك مثل هذه المقدرة التوقعية. لكن الخيال لا يزيد من قوة هذه المقدرة التوقعية فحسب، بل انه يصلح كذلك لأن يكون اداة « للنضوج » ، بأن يجعل تجارب معينة غـير ضرورية للانسان لأن الإنسان يتوقعها باكتمال تام ، وبذلك يضعف من طغيان الغريزة التي تدفعنا إلى « اكتمال التجربة » ولقد زاد الخيـال من استقلال الإنسان أكثر من أي من الحواس الأخرى .

لكننا اذا كنا نمتلك هـذه القوى التوقعية ، فإلى أي حـد إذن تسيّرنا « العمدية » حسب توقعات لا نعيها ؟

هذه اسئلة أطرحها في الوقت الحاضر واتركها بلا جواب . ومما يتضح انهـا موجودة ضمناً في نظرية الاستجابة الرمزية ، لكن « التكهن » فيها ضرب من العبث . فالمطلوب هو اسلوب علمي في التحري ، ربما يماثل اسلوب سيكولوجية

جيشتالت أو اسلوب دراسة الادراك اللاحسي . والشيء الذي يبدو واضحاً أشد الوضوح هنا هو ان المتحري أو الباحث لن يجد أفضل من نفسه هو مادة للتجربة .

لكن ماذا عن التجربة ؟ إن بامكان الفنمنولوجية ان تقترح بعض الأساليب في رصد الأشياء ، لكنها لا تذهب الى أبعد من ذلك . وهنا يبدو ممكناً ان حقل الجمالية ، وعلى الأخص تصرف العقل الخلاق ، قد يكون مثالياً لهذا الغرض . فالفنان العظيم يقوم بعملية الخلق « في خدمة » عمديته ، والفن العظيم كان دوماً حصيلة تعاون بين الارادة الواعية والعمدية المستترة . وحين يفقد الفنان ايمانه بالغاية والمعنى ، فانه ينزع الى ان يلقي بعبء الخلق كله على كاهل العمدية . وكل الخلق يمكن وصفه بأنه عملية إيمان بالعمدية ، لكن الاشكال المختلفة من الفن « التجريدي » لا تحتاج الا الى حد ادنى من هذا الايمان . هذا « الايمان بالعمدية » هو اسم آخر للتوجيه أو التسيير الداخلي . وفشل هذا التوجيه الداخلي هو ، كما اشرت في مكان آخر[1] ، الميزة الرئيسية لفن وأدب القرن العشرين . كثيرون من الكتّاب المهتمين بالجمالية عزوا فقدان الثقة والغاية هذا إلى انهيار الدين ، وأشاروا إلى ان الفن العظيم كان عادة فناً دينياً . إلا ان نظرية العمدية ليست أقل من اعادة تثبيت الفكرة المحورية في الدين ، فكرة الغاية التي هي بطريقة ما شخصية وغير شخصية معاً ، والتي هي ما وراء الإنسان (ككائن واع) وفي ذات الوقت موجودة في « داخله » . ويبقى ان نرى إلى أي حدّ تستطيع دراسة العمدية في الفن دراسة علمية ان تجعل الفنان يعي هذه الدوافع التي هي شخصية وغير شخصية معاً والتي هي ، حين تتحول الى وعي ، الاساس الرئيسي للفن العظيم . ولعل أفضل شخص يمكن ان تجري عليه عملية التحري والبحث هذه هو إنسان خلاق يكون كذلك فنمنولوجياً ذكياً .

---

١ في كتابي « عصر الهزيمة » The Age of Defeat .

خاتمــــة :

كان من بين أهداف هذا الكتاب ان يقترح أسلوباً في البحث النفساني ظل مهملاً حتى الآن ، هو الاسلوب الوجودي . لكن هدف الكتاب الرئيسي كان ان يقول ويجادل ان كل الكتّاب عن الجنس كانوا حتى الآن يبحثون عن « النسق » أو « النموذج » في غير المكان الصحيح . إن كلمتي « طبيعي » و « عادي » تستعملان كمترادفين ، وهذا يعني ان النسق أو النموذج هو شيء موضوعي ، هو جزء من الطبيعة ، واحد من قوانين « أمنا الطبيعة » . كان هدفي هو ان أحاول بأن أبين ان الطبيعة ليس عندها افضليات . الجنس هو تجسيد للعمدية التطورية . ومع ان هذه العمدية لها بكل تأكيد افضليات فيما يتعلق « بالطبيعية » ، فانها لا تتخذ اجراءات فعّالة ونافذة جداً لتطبيق هذه الافضليات . وفيما يتعلق بوجود الليبيدو ، فانه ليس أصل الدافع الجنسي ، بل هو تجسيد للعمدية ، كالدافع الجمالي والدافع الديني والدافع الاجتماعي . ومن المحتمل ان يكون الإنسان « طبيعياً في الجنس » ، اما ان يكون طبيعياً فوق العادة فمعنى ذلك ان يفقد الاهتمام بالجنس كلية إلاّ لتلك الغاية الواعية التي هي ، كما يقول تولستوي ، انجاب الأطفال . ولا اشك ان برنارد شو محق كذلك في قوله ان الكائنات البشرية خلال عملية التطور ستفقد اهتمامها بالجنس بمعنى كونه مجموعة دوافع جنسية غريزية . إن رد فعلنا الأول لمثل هذه الفكرة هو الوجل والقنوط ، وهو الشعور بأن العالم سيكون كئيباً راكداً بلا حراك . ولكننا ننسى ان الركود مرادف لفقدان المعنى ، وان العمدية التي تلفّع الرموز الجنسية حالياً بالواقعية أو الحقيقة الظاهرة في حد ذاتها اداة ولسان حال المعنى .

من الصحيح ان هذه النظرية عن العمدية التطويرية تتعارض مع معظم مدارس علم النفس القائمة حالياً ، لكن الاعتراض الرئيسي هو على وجود « قوة تطويرية » هي في ذات الوقت واعية (بمعنى انها تمتلك غايات ودوافع) وغير واعية . لكن التناقض الظاهري ناشيء من العادة الفرويدية في اعتبار كلمة

لا واعي Unconscious (أي غير الواعي واللاشعوري) مرادفة لكلمة الوعي الباطني Subconscious (أي ما تحت الوعي) . فاذا كانت هناك للعقل طبقـة سفلية ، فلماذا لا تكون له كذلك طبقة علوية ، تكون هي أيضاً وراء معرفة وادراك الوعي ؟ ونظراً لأنه لا يوجد هناك ادنى شك حول وجود عمدية فوق الوعي ، أفلا يكون أكثر معقولية ان نصفها بوعي فائق بدلاً من وعي باطن ؟

إلا ان هذا على كل حال ليس ذا أهمية ، فقـــد يقال حتى ان كلمة « الوعي الفائق » هي كلمة غير مرغوب فيها نظراً لأنها تعني بطريقة ما انهـا مفضلة على الوعي . وفي الواقع ان الهـــدف هو ، ويجب ان يكون دائمـاً **زيادة الوعي** . والمشكلة المباشرة هي وضع وتطوير الوسائـــل والأساليب الكفيلة بنشر الوعي ومدّه إلى ميادين العمدية .

ملحق

العقلية الاجرامية

لقد تطرقنا الى مشكلة العقلية الاجرامية عدة مرات في سياق هذا الكتاب. وقد بحثت هذه المشكلة باسهاب في مقال « دراسة جريمة القتل » . وبالنسبة للسيكولوجي الوجودي، فان المشكلة الممتعة الهامة هي التفريق بين العوامل « الخلاقة » في العقلية الاجرامية وبين العناصر المتفسخة .

شو والجريمة :

إلا ان سؤالاً يبرز أمامنا هنا وهو : هل هناك بالمرة عنصر « ايجابي » في العقلية الاجرامية ؟ يقول اندرو اندرشافت ، أحد أبطال شو : « بشرت بالاخلاق القويمة فحلّ بي الجوع حتى اقسمت يوماً ان اكون رجلاً حراً ممتلىء المعدة بأي ثمن وان لا شيء سيوقفني إلا رصاصة ، لا عقل ولا اخلاق ولا حيوات الناس الآخرين ... كنت رجلاً خطراً إلى ان تحققت لي إرادتي . والآن فانني شخص مفيد ومحسن وعطوف » . كلام شو هنا هو تأييد للقول انه ينبغي توفر قدر معين من « الاجرام » من أجل التوصل إلى التعبير عن الذات ، وهو يبرر ذلك بأن يشير إلى ان اندرشافت هو الآن محسن مرموق ومن أصحاب الأعمال المثاليين الذين يحتذى بهم . وسيكون من الممتع والمفيد ان نبحث عن معنى كلمة « اجرامي » في قاموس شو . وهناك الاعلان الهام : « إننا نحكم على فنان حسب أعلى لحظاته وعلى مجرم حسب ادناها » وبغض النظر عن اشارة موجزة إلى المجرم المدعو Jack The Ripper جاءت في احدى المقدمات التي كتبها (والتي يتحدث فيها عن « نيوروسية جاك المسكين المريعة ») فان موقف شو من المجرمين هو على وجه العموم موقف عطف . (راجع الحديث الطويل عنهم في الفصل الثالث من مسرحية « الإنسان والإنسان المتفوق » Man and Superman ، « رذال الناس وحثالات المجتمع » اولئك الذين هم

فوق مستوى الوظائف الاجتماعية العادية ، واولئك الذين هم دون المستوى) .
ومن الواضح ان شو كان يؤمن بأن قسطاً كبيراً من الجريمة هو احتجاج له ما يبرره ضد المجتمع . وكان شو يحب ان يقول الاشياء بصراحة ويسمي الأمور باسمائها ، كما كانت تروق له فكرة ان لصاً ما قد يكون رجلاً أفضل من بقال شريف مثلاً . لكنه كان مقتنعاً كذلك انه من الحكمة ان يقتل بعض المجرمين « بطريقة ودية وصريحة وبدون حقد » لأنهم من الخطورة بحيث يجب الا يبقوا طليقين ولأنه لا ينبغي ان يضيعوا حياة رجال آخرين في مراقبتهم . وهو يطور هذه الفكرة بشكل ممتع في مقدمة « الحبس » Imprisonment ويقترح بأن نقوم بتدمير كل السجون باعتبارها منبتاً خصباً للجريمة وباعتبار انها تشجع نمو كل أنواع الشرور . في السجانين والمسجونين على السواء . وهو يعتقد ان المجرمين المتأصلين الذين تملكتهم عادة الاجرام ان يقتلوا « بدون ضغينة » على أساس انهم مضيعون لوقت المجتمع لا يمكن تقويمهم . لكن معظم المجرمين هم من مرتكبي الجريمة لأول مرة ويمكن بالتالي تقويمهم بسهولة بالعزل والنبذ الاجتماعيين .

والنظرية مغرية جداً ، لكن ما تحتويه من صدق ليس مع الأسف الا « صدقاً شاعرياً » . وتشرح لنا جوزفين بل في كتابها « الجريمة في زمننا » Crime in our Time . تبدأ الآنسة بل كتابها بفصل يستعرض يوماً واحداً معيناً من أيام الجريمة في لندن ، فتختار يوم السادس من شباط ١٩٦٠ وهو اليوم الذي وقعت فيه جريمة القتل في نادي التعارف بالمراسلة ، ثم تسرد مجموع وقائع ذلك اليوم بالذات التي بلّغ عنها بوليس لندن . ومجموعة الوقائع هذه كانت ستصدم شو فهي تتكون من عدد كبير جداً من الاعتداءات والسرقات وأعمال السطو وعدة محاولات قتل وخطف طفل (وان يكن الطفل قد استعيد بعد حوالي ساعة من خطفه ، وكان مصاباً ببعض الخدوش) . إذن ففكرة شو اننا نستطيع ان نستغني عن البوليس تفتقر إلى دليل أو اسناد في ذلك الفصل بالذات من كتاب الآنسة بل .

وماذا عن فكرة شو القائلة بأن المجرم قد يكون رجلا « فوق مستوى » أية وظيفة بسيطة في المجتمع ؟ مرة أخرى ، فان دراسة الجريمة تعطي سنداً ضئيلا جـــداً لهذه الفكرة . في مقدمـــة كتاب « موسوعة جرائم القتـــل »[1] Eneyclopaedia of Murder نقلت عدداً من جرائم القتل النموذجية . وهي نموذجية بمعنى انها كلها تكشف عن تلك العبودية لما هو تافه . وكان محور تلك المقدمة هو الفقرة التالية : « إن الايمان بأن القاتل شخص شاذ وغـــير طبيعي هو جزء من وهم الطبيعة الذي بني عليه المجتمع . فالقاتل يختلف عن باقي الناس في الدرجـــة (أي كمياً) وليس في النوع (أي كيفياً) . ان كل قيمنا مؤقت ، والذي يفعله القاتل هو انه يستعيض عن القيم المطلقة بما يناسبه ويروق له هـــو شخصياً» . وسردت قضية ونفورد سميث الذي اغتصب ثم قتل فتاة في ساجينو عام ١٩٤١ . فالقاضي الذي حكم على سميث قال ان تلك الجريمة كانت من افظع الجرائم التي مرت عليه . وفي الحقيقة ان سميث حاول ان يقبل الفتاة فصفعته . فما كان منـــه إلا ان لكمها بحيث غابت عن الصواب أو كادت . يقول سميث في اعترافه : « وهنا كان لا بدّ لي من ان امتلكها » . ثم قتلها بعد ان اغتصبها وذلك على اثر تهديدها له بأنها ستخبر البوليس عنه . وصفة « الفظاعـــة » التي اطلقها القاضي تكاد لا تنطبق على هذه الجريمة ، لكنها تخدم القصد من اقامـــة سدّ أو حاجز بين المجتمع والمجرم ، فيصبح حيواناً حبيساً في قفص بدلاً من ان يكون مجرد إنسان مذعور عادي خائب .

ميتافيزيقة القتل :

يبـــدو ان معظم القتلة يمتلكون صفة غريبة فيهم وهي صفة سوء التقدير والحساب . يحدثنا جيمس جويس عن رجـل غريب الصفات كان يصر على ان ينقر بعصاه كل عمود كهرباء كان يمرّ به . وكثير من الناس الذين نعتبرهم عاقلين تماماً يمتلكون مثل هـــذه النقائص ونقاط الضعف ، كتجنب السير على الشقوق

---

١ الذي ألفه كولن ولسون بالاشتراك مع باتريشيا بيتمان .

بين بلاط الأرصفة مثلا . ولكن لماذا ؟ فان ذلك لا يخـدم أي قصد عملي . في الواقع انه حصيلة غريبة للضجر . يشير كيريغارد إلى اننا ضجرون نوعاً مـــا معظم الوقت ، ويقولون ان الحضارة بنيت بسبب الضجر وليس بسبب دافـع التقدم وهـــو كذلك إلى ان الناس يمتلكون القدرة على تطويـع أنفسهم بسبب حالة عدم تحقيق الذات المعتادة . إن طالباً مـــا يحس بالضجر من درس ملول يستطيع مثلا ان يسلي نفسه الى أبعـــد الحـدود إذا استطاع ان يلقط خنفسة ويضعها تحت قشرة جوز مجوفة . والرد على الضجر هو نوع من الضغط الداخـلي ضمن الإنسان . لا يمكن تسميته « غاية » بالضبط ، فهل هي « غاية » تلك التي تبقي الطالب متسلياً بخنفسته؟ انها بالاحرى نوع من التركيز، من توجيه الانتباه. فالانتباه يتوق إلى ان يوجّه كما تتوق امرأة مازوكية إلى ان يسيطر عليها رجل. والإنسـان يحس احساساً غريباً بعدم الراحة إذا كان اهتمامـــه موزعاً ومشتتاً . وهذا هو اذن سبب النقر على أعمدة الكهرباء أو تجنب السير على الشقوق من قبل أناس ليس لديهم شيء أهمّ من ذلك « ليتغلبوا » عليه، أو عقبة أخرى يركزون عليها ارادتهم .

وهذا هو بوضوح موضوع « قيم » . فلنحاول اذن أن نعرف كلمة « قيم » تعريفاً عملياً . القيم هي ما يحدد ويقرر عملية اختيار . وليس من الضروري أن تكون هذه القيم « ميتافيزيقية » أو دينية ، بـــل يمكن أن تكون قيماً بسيطة للغاية كالقيمة التي تدفـع الحمار الى أن يختار رزمـــة تبن معينة دون أخرى . والرجل الذي « يختار » ان ينقر كل عمود كهرباء بعصاه يشعر بانه لا توجد في تلك الفترة قضايا أكبر تستأهل أن يختارها .

هذه الاعتبارات هي أساس النفسية الإجرامية ، كأن نقول ان رجلاً يقطن على مسافة نصف ميل من مقر عمله ويمكنه أن يتوجه الى عمله بطريق مبـاشر ، لكنه يشعر بأنه مضطر الى أن يسلك الى عمله طريقاً أطول يبلغ عشرة أميال. وسيظن زملاؤه في العمل أحد شيئين : إما أن الرجل يعاني من عقدة الرغميـــة النفسانية أو انه لم يكتشف بعد وجود طريق مباشر قصير الى مقر عمله . وان

دراسة تجري على معظم الجرائم ستؤدي الى تبين حقائق من هذا القبيل ، ذلك ان هذه الجرائم ستدلل على ان « القيم » التي دفعت بالقاتل الى أن يقوم بالعمل الذي اختاره كانت مبنية على سوء تقدير سخيف. والقاتل مشوش الفكر بشكل سخيف عادة فيما يتعلق بضغوط الحياة في المجتمع وفيما يتعلق بمعنى حياته هو ومعنى الحياة بصفة عامة . وهو ربما يكون أكثر تشوشاً وارتباكاً من معظمنا ، لكنه ينبغي لنا أن ندرك انه يعاني فقط من شكل أكثر حدة من تلك الحيرة والارتباك التي نحسها كلنا في وجه الوجود .

وفي دراستنا لمشكلة العقلية الاجرامية فاننا نقع في مغالطة تماثل المغالطة الفرويدية عن « الطبيعية » والشذوذ ، وذلك بان نفترض بانه يوجد هناك خط فاصل حقيقي بين سلامة العقل وبين الجنون. في عام ١٨١٢ اغتيل رئيس الوزراء البريطاني سبنسر بيرسفال من قبل مجنون كان يعتقد بانه ضحية مؤامرة لاضطهاده . واعدم المجنون بتهمة القتل. وفي عام ١٨٤٣ اطلق مجنون آخر اسمه مكناجتن النار على سكرتير رئيس الوزراء آنذاك فأرداه قتيلاً. وكان مكناجتن هذا يعتقد كذلك ان الناس كانوا يتآمرون على قتله . وأدت محاكمته الى تثبيت أحكام مكناجتن فيما يتعلق بتحديد الجنون الاجرامي . وتنص هذه الأحكام على أن على المجرم أن يكون مدركاً ادراكاً واعياً لطبيعة عمله أو مدركاً انه ارتكب عملاً خاطئاً قبل ان يجرّم شرعياً . لكننا نستطيع أن نقول فقط ان « القيم » التي دفعت مكناجتن الى ارتكاب جريمة القتل كانت مبنية كلها على أوهام، في حين أن القيم التي دفعت سيدون الى تسميم المستأجرة القاطنة في منزله للحصول على نقودها كانت مبنية على وهم أكثر تعقيداً وعلى دناءة نابتة من نفس الجذور النفسانية التي هي كذلك أصل النقر بالعصا على الأعمدة الكهربائية .

حين نسمي أحد الناس « مجنوناً » ، فاننا نعني انه يقوم باعماله التي يختارها بناء على نظام قيم باطل ومغلوط بشكل واضح ، كأن يتصرف بناء على الاعتقاد بانه نابليون مثلاً . الرسام بنجامين هايدون ، صديق الشاعر كيتس ، كان يرسم طوال حياته بناء على اعتقاده الشخصي بأنه عبقري . لكنه لم يكن كذلك ،

فهو اذن الى هذا الحد يعتبر « مجنوناً » . كي. إي. لورنس عاش حياته مقتنعاً بانه ليس عبقرياً ، واختبأ وراء وظيفة ما في سلاح الجو الملكي البريطاني ليتهرب من مسؤولية ان يعيش حياة بمستوى شهرته . لكنه كان عبقرياً ، وتصرفه الأخير كان اذن قائماً على وهم . وعلى هذا فانه كان حسب التعريف مصاباً بجنون طفيف . لكننا كلنا نعيش على افتراضات معينة تتعلق بما نعتقد اننا نملك أو لا نملك وبما نعتقد اننا نستطيع أن نسهم به في الحضارة وما لا نستطيع .

وقد يبدو لنا أن هناك فارقاً واضحاً جداً بين « افتراضاتنا المعقولة » عن قدراتنا وبين افتراضات واعتقادات مجنون يظن انه يسوع المسيح . وكلما حددنا من ادراكاتنا وضيقناها لتساير حاضراً « معقولاً » وحاجاته ، اتضح هذا الفارق أكثر فأكثر . فاذا ما وسّعت الادراكات بحيث تشمل كذلك جهل الانسان المطبق بنفسه وبطبيعته ، فان الخط الفاصل سيصبح غير واضح . إن هذا الجهل لا يشكل جنوناً ، لكن الجنون ليس أكثر من شكل متطرف ومشوه من هذا الجهل . ولا يمكن فهم الجريمة تماماً الا اذا أدركنا ذلك . كيف يمكن لأحد مثلاً أن يتوصل الى أي استنتاج فيما يتعلق بقضية ليوبولد ولوويب او قضية برنارد ميلز ؟ كان ميلز شاباً في التاسعة عشرة من عمره يعمل كاتباً باحد المكاتب في فوتنجهام . وفي أحد الأيام قرر ميلز أن يرتكب « جريمة كاملة » . فتعرف الى امرأة بريئة مسالمة في احدى دور السينما ، وكانت أم عائلة في الثامنة والأربعين من عمرها ، وأخذها الى بقعة نائية ثم خنقها حتى الموت . بعد ذلك اتصل بالصحف وعرض عليها أن يبيعها القصة ، مدعياً انه هو الذي اكتشف الجثة حين كان يبحث عن بقعة نائية خاوية يختلي فيها بنفسه لكي ينظم قصيدة . لكن بعض انسجة معطف وجدت عالقة تحت أظافر القتيلة أثبتت للبوليس ان ميلز هو القاتل ، وبعدها بعدة أشهر أعدم ميلز . لكن لماذا ارتكب ميلز جريمة القتل ؟ لأنه كان يريد أن يكون « مختلفاً » ، فقد كان يحاول دائماً أن يحظى باعجاب زملائه في العمل بكتابة الشعر ومشاريع اخرى . كانت جريمة القتل اذن تعبيراً عن الضجر ، كنقر أعمدة الكهرباء .

والشيء نفسه ، مع بعض التعقيد ، ينطبق على « جريمـة القرن » ، وهي قضية ليوبولد – لوويب . انها من ذلك النوع من القضايا التي كان يمكن لها أن تكون مصدر وحي لدوستويفسكي . كان ناثان ليوبولد وريتشارد لوويب طالبين لواطيين بجامعة شيكاغو ، وكان كلاهما ابن مليونير . كان ليوبولد، أذكى الاثنين، يعاني من بعض اختلالات غددية كانت تجعله يحس بسهولة بالضجر والتعب . كان ضغط دمه منخفضاً كما كان أيضاً التحول الكيمي والتجدد في خلاياه واطئاً كذلك . وكان بالإضافة الى هـذا وذاك مصاباً بفقر الدم وعرضه للكآبـة والاغتمام .. حين كان في الرابعة عشرة من عمره قامت مربية منحرفة جنسياً في منزل العائلة بارتكاب عدة أعمال جنسية شاذة معه كما علمته أن يلعق مهبلها . وكان هذا هو سبب نشوء المازوكية عنده . أمـا ريتشارد لوويب فكان أكبر بسنة واحدة من ليوبولد . وكان متين البنية ووسيماً كما كان معتـاداً على الكذب وعلى ارتكاب جرائم تافهة . ولذا فقد تحول ليوبولد الى عبـده ومطيته . كانت فكرة قتل صبي في الرابعة عشرةمن عمره اسمه بوبي فرانكس هي فكرة لوويب، وربما انه رأى فيها خطوة أولى في الطريق الى أن يصبح الاثنـان « أساتذة في الاجرام » . كان رأساهما ممتلئين بالفكرة النيتشوية عن الانسان المتفوق. إلا أن ممثل النيابة أعلن بصراحة ان الجريمة كانت جريمةجنسية محضة لا أكثر ولا أقل. ولم يبد الشابان أي ندم أثناء المحاكمة ، وكان يبدو من الواضح أن كل ذلك لم يكن حقيقياً بالنسبة لهما . وقد حكم على الاثنين بالسجن المؤبد .

والمفتاح الى القتل هنا هو النقود ، أي ثروة والديهما الطائلة . (كان يسمح لكليهما باعطاء شيكات بأي مبلغ يريدان بدون استشارة والديهما) . وهذا المال الوفير كان معناه انه لم تكن هناك أية « ضغوط » عليهما . لم يكن هناك « تحد ورد التحدي » في حياتهما . كانت الحرية غير محدودة ومن ثم مملة. ولأنه لم يكن هناك أبداً أي ضغط اجتماعي عليهما فلم يكونا بحاجة الى أن ينميا في أنفسهما أي نوع من قوة الخلق والشخصية . وفي الحقيقة ان اظهار كل الملابسات المحيطةبجريمة القتل التي اقترفاهـا يحتاج الى عـالم نفسي من وزن نيتشه أو باسكال . فالمجرم

الحقيقي في هذه القضية كان الحرية .. حرية ميتافيزيقية . ان أهمية هذا الدرس بالنسبة للمجتمع الحديث لا يمكن التهويل منها ، والجريمة كانت بحق « جريمة القرن » في أكثر من ناحية .

لقد أشرت في « دراسة جريمة القتل » الى أن «جريمة السأم» غريبة بالنسبة للقرن العشرين ، واوردت قضايا ادجار ادواردز ونورمان سميث للتدليل . إن قضية ادواردز تبدو وكأنها جريمة قتل ارتكبت احتجاجاً ضد اللامعنى في الحياة . وفي نواح معينة فانها على نسق رواية « الغريب » لكامو . أما نورمان سميث فقد أمسك بمسدس وأطلق الرصاص على امرأة من خلال النافذة . وكان سميث وقتئذ يتفرج على تمثيلية تلفزيونية اسمها « القناصة » ، فقرر أن يحاول القنص هو شخصياً . ولم يكن على أية معرفة بالقتيلة .

النقطة التي أحاول أن ابرهنها هي أن نظامنا الاجتماعي المعقد رفس «القيم» من تحت أقدام معظم الناس . ففي وقت من الأوقات ، كان هناك تأثير كبير للتعاليم والتحذيرات الدينية ضد الجريمة كما كان هناك نفور غريزي من الجريمة عند الناس. أما اليوم فمعظم الناس ما زالوا ينفرون من جرائم القتل أو جرائم العنف، لكنهم لا يستطيعون أن يجادلوا باسهاب دفاعاً عن « خطأ » الجريمة كما كان يفعل أجدادنا في القرن الثامن عشر . وحين تخفق الغريزة المعادية للجريمة فاننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً سوى اعدام القاتل . ان الناس الذين يعيشون في مجتمع هائل ومعقد قد يحسون بان هذا المجتمع « يلغي » وجودهم . هناك مقطع في رواية « من هنا الى الأبد » From Here to Eternity يصور لنا كيف كان البطل جالساً بين رفاقه الجنود يشرب الجعة ثم كيف يداهمه فجأة شعور بالفرح العظيم ، بالتضامن مع « الجيش » على الرغم من قسوة وفظاظة ومتاعب الحياة العسكرية. لكن معظم سكان المدن لا يحسون أبداً بمثل هذا الشعور نحو المدينة والمدنيّة . ومع ان الفلاح أو العامل في القرن الثامن عشر كان يمكنه أن يدرك أن الحياة «غير عادلة »وان بعض الناس يولدون أغنياء ومحظوظين والبعض الآخر يولدون فقراء ، الا أنه كان يتقبل ذلك ويحس « بالتضامن » مع المجتمع. النظام

الاجتماعي في يومنا هذا أقل ارضاءً بشكل عام ، اذ يبدو ان « الحياة » تسبغ الشهرة والثراء باكثر الصور غرابة واستهجانا . وعلى ذلك فان « المواطن المتوسط » يجد من الصعوبة أكثر فأكثر ان يقبل بذلك . فالأحداث الجانحون يتساءلون « لماذا ليس أنا ؟ » حين يشاهدون فيلماً سينمائياً لجيمس دين أو الفيس بريسلي ، والعامل يتساءل « لماذا ليس أنا ؟ » حين يقرأ ان أحد الناس كسب عشرة آلاف جنيه في الرهانات الجماعية التي تجري حول مباريات كرة القدم . والجريمة قد تكون مجرد استجابة لهذا الإدراك الذكي لظلم الحياة في المجتمع الحديث . فمثلاً ان لا أخلاقية البوهيميين البيتنكس كما يصورها جاك كورواك أقل من الاجرام بمرحلة واحدة فقط. والذي يبعث على الدهشة ليس الارتفاع في نسبة الجرائم ، بل هو ان كثيراً من الناس لا يقترفون جرائم في حضارة يحسون فيها بانتفاء انسانيتهم تماماً .

ويبقى التناقض قائماً . لقد خلقت المدنية حين قرر بنو البشر ان يتشكلوا في جماعات من أجل حماية النفس . وإن الدرجة العالية من الراحة ومن الثقافة في المدنيـة المعاصرة هي نتيجة لتعاون ضخم وواسع النطاق لم يكن بمقدور إنسان ما قبل خمسمئة عـام ان يتصوره . لكن ضخامة حجم العملية تنفي اعضاءها الافراد . وفي أقل من قرن ، تحولت المدن الصغيرة الى مدن كبيرة وتحولت مجموعات المدن الصغيرة إلى مدن عملاقة مثـل لندن ولوس انجلس . المدنيّة ووسائل الراحـة تعني زيادة انتفاء الفرد ومن ثم زيادة في معـدل النيوروسية والجريمة . وإذا ما استمر هذا الاتجاه وازدادت مشكلة نمو السكان تفاقماً ، فيجب ان نتوقع زيادة مماثلة نسبياً في معدل الجرائم .

وقد تبدو المشكلة في هذا الشكل مستعصية على الحـل. وبين الوقت والحين يظهر مصلح ديني ليعلن ان شرورنا ستزداد إلى ان نتعلم كيف نعبد الله معـاً كمسيحيين . إن الادراك الأساسي صحيح، لكن الحلّ خاطىء . فهم يفكرون عن المسيحية على أساس أنهـا « فكرة » أو قوة خارجة على حدود الزمـان والمكان . لكن دراسة تاريخ الكنيسة سيبين بطلان ذلك ، فالكنيسة لم تحتفظ

بكيانها بفعل فكرة بل بفعل ظروف تاريخية وقوى اجتماعية . الفكرة نفسها هي فكرة عظيمة ، لكن المجتمع لا يحافظ على وحدة كيانه بفكرة مستقلة عن قوى أخرى . والتطلع الى اعادة احياء الكنيسة ليس الا تفكيراً مشوشاً وليس الا رغبة في اعادة عقارب الزمن الى الوراء .

أليس بالامكان فعل أي شيء اذن؟ ليس هناك من إنسان على قيد الحياة يستطيع ان يجيب على هذا السؤال . فالاجابة عليه تحتاج الى عقل الكتروني جبار نغذيه بكل الاحصائيات حول الزيادة في حجم المدن والسكان كما نغذيه بكل الحقائق الخاصة بالارتفاع في نسبة النيوروسية والأمراض العقلية بشكل عام . فقد يكون المجتمع على وشك ان ينفجر كرجل يزداد الضغط فيه بشدة ، وقد يكون الضغط سيستمر في الازدياد باضطراد لمئة سنة أخرى بدون أي خطر .

لكن افتقارنا إلى عقل ما فوق الكتروني متفوق وكذلك إلى الاحصائيات والمعلومات اللازمة ينبغي الا يكون مدعاة للقلق . ذلك انه توجد هناك اجراءات ابسط يمكن اتخاذها . فاننا نستطيع على الأقل الإعتراف بأن الاتجاه إلى نفي الفرد يتفاقم أكثر فأكثر بسبب افتراضاتنا ومعتقداتنا الثقافية ، وبسبب مختلف التراثات التي تلقيناها من القرن التاسع عشر، من جون ستيوارت ميل ، من ماركس وفرويد وتي. اتش. هكسلي وكثير غيرهم وبالمناسبة فان بعضاً من احذق هذه المفاهيم المغلوطة كان قد روّج لها مفكرون معاصرون من برتراند راسل إلى هيدجر . وقد يقوم أحد علماء الاجتماع في المستقبل بعمل قيم لو انه درس حالات مجموعة عريضة من المجرمين وحدد الى أي مدى اسهمت التأثيرات الاجتماعية البحتة (كظروف المعيشة في الاحياء الفقيرة الخ) وإلى أي مدى اسهمت التأثيرات الثقافية الأكثر حذاقة في عقلية المجرم . إن ذلك سيكون استطراداً منطقياً للأساليب الوجودية في معالجة علم الاجتماع .

فهرست